في
بلاد السمن والعسل

الجزء الأول

رواية

الكاتب والروائي:

عبد المجيد الدبّاس

في
بلاد السمن والعسل

روايـــــة

عبد المجيد عبدالله الدبّاس

الجزء الأول

لقد وقعت أحداث هذه الرواية سنة 1593 ميلادية؛ أيام المد القومي والتألق العربي؛ يوم كان الرجال رجالاً والنساء خيول مطهمات؛ ويوم كان يشعر الواحد منا بأن قامته قد لامست السحاب ووصلت عنان السماء ، زهوّاً وافتخاراً بقوميته وعروبته !

المؤلف

شكر و إمتنان

إلى روح المرأة الطاهرة القديسة، والتي كانت لي في بلاد المهجر، أمّاً وصديقة؛ السيدة أومناي جولييت؛ وكذلك إلى أرواح السيدات ماري هييز ومرجريت بمروي وإيمي شارب، النسوة اللواتي ساعدنني على صقيع الغربة وزمهرير الوحدة، واللواتي كان لهن الفضل الأكبر في تخطي مهاوي الانزلاق والضياع!

كما وأهديها إلى روح المرحوم إبراهيم رشيد الزاغة، لغيرته الشديدة على الدين الحنيف؛ ولمساعداته الجبّارة للطلبة الجدد، القادمين إلى جنوب ولاية كاليفورنيا، من جميع أرجاء الوطن العربي الكبير!

عبد المجيد عبدالل الدبّاس

الفصل الأول

- من فضلكم انتبهوا! على مسافري منتصف الليل إلى مدينة شيكاغو أن يتوجهوا في الحال إلى البوابة رقم 8 استعدادا للمغادرة وشكرا.

جلجل صوت نسائي حنون ورخيم فوق مكبر الصوت الذي تردد صداه في القاعة الرئيسية الضخمة مترامية الأطراف لمحطة الحافلات في مدينة نيويورك.

قفز راكان من مقعده وكأنما لسعته أفعى وحمل حقائبه الضخمة وهرول نحو البوابة المذكورة، وبنيته أن يكون الأول الذي يصل إلى هناك، ولكن لشدة دهشته وجد أن خمسة أشخاص قد سبقوه إليه وشكلوا صفا!

بعد دقائق قليلة، فُتح باب كبير وخرجت منه حافلة ضخمة يقودها رجل يرتدي بزة صفراء، وفوق رأسه قبعة تتدلى من أطرافها خيوط سوداء، مكتوب عليها اسم شركة الحافلات "جري هاوند".

فتح الرجل باب الحافلة وصار يأخذ كل بطاقة تقدم إليه فيخرقها بآلة صغيرة، ثم يعيدها إلى صاحبها بعد أن يتأكد من صحتها أولا، ثم يشير إلى الراكب أن يضع ما يحمله من أمتعة أمامه، وبعد أن يضع حول مقبضها القسم الأول من بطاقة باسم الشركة ويناول المسافر القسم الثاني يحملها هو ويضعها داخل الفتحة الكبيرة في بطن الحافلة، ثم يشير إلى المسافر أن يتفضل بدخول الحافلة.

بدأ المسافرون يحتلون ويختارون أماكن جلوسهم ثم يضعون ما يحملون من الأمتعة على الرفوف التي فوق رؤوسهم أو تحت المقاعد التي يجلسون عليها.

اختار راكان مقعدا في منتصف الحافلة إلى جانب الشباك، ووضع حقيبة يده على الرف فوق مقعده، ووضع كتابه بين يديه واخذ يراقب الداخلين.

لقد شرح موظف شركة الحافلات"جري هاوند" لراكان وبالتفصيل، برنامج رحلته من مدينة نيويورك إلى مدينه لوس انجلوس في ولاية كاليفورنيا! لقد أعلمه الشاب بأنه قد وصل لتوه من الشرق الأوسط، وأنه لا يعرف شيئا عن نظام المواصلات هنا في أميركا،

وأن أطول رحلة له في الحافلة في حياته كلها كانت تقل عن الأربع ساعات، عندما كان يذهب من عمّان إلى بيروت!

- رحلتك هذه تستغرق مائة ساعة بالضبط، لا تنقص ولا تزيد دقيقة واحدة. تتوقف الحافلة لتناول وجبة الإفطار لمدة نصف ساعة ومثلها للغداء، أما العشاء فالمدة خمس وأربعين دقيقة. يركب أغلبية المسافرين الحافلة لمسافات قصيرة، لمدة يوم أو نصف يوم، ولكن الذين يركبونها من هنا إلى لوس انجلوس فهم قليلون ! إنك قلما تجد مقعدا خاليا، ففي كل محطة تقف بها الحافلة ترى أناسا يغادرونها وآخرين يركبونها! كما أن الحافلات وسائقيها سيتبد1لون في كل مدينة كبيرة ستمرون بها ! واختتم الرجل حديثه قائلا بلهجة الواثق المطمئن:

- إن الحافلة التي تركبها ستدخل محطة الحافلات في مدينة لوس أنجلوس في تمام الساعة الثامنة من صباح يوم الأربعاء حسب التوقيت المحلي، لا تنقص ولا تزيد دقيقة واحدة!

- إن شاء الله ! وجد راكان نفسه يقولها بالعربية وبغير إرادة منه!

- ماذا قلت؟! سأل الرجل بنبرة سلطوية استعلائية!

- قلت ممتاز! إن هذا الوقت مناسب لي جدا ! إن الشخص الذي سيقابلني في محطة الحافلات يعمل ليلاً ، ويعود إلى بيته في حدود الساعة الثامنة والنصف صباحاً.

تصافح الرجلان وشد كل واحد منهما على يد الآخر بحرارة، وتمنى الثاني للأول رحلة سعيدة.

إن الذي أزعج راكان وجرح شعوره الديني، هو أن هذا الموظف تحدث عن وصول الحافلة بالدقيقة، دون أن يقول إن شاء الله؛ أو يقول إن الحافلة ستصل في هذا الموعد، إذا سارت الأمور حسب ما هو مخطط لها، أو حسب الموعد الزمني !

لقد تساءل الشاب في سره ؛ هل هذا هو تفكير بعض العقلية الغربية التي لا تؤمن أصلا بوجود الخالق، وإن آمنت بوجوده فهي تعتقد بأن الخالق لا شأن له بما يفعل الإنسان، وأن الإنسان هو سيد كل شيء؛ أم هي العقلية الأميركية الصلفة المتغطرسة المتعجرفة!؟!

- هل هذا المقعد محجوز يا سيدي؟!

سمع راكان صوتاً نسائياً رقيقاً كأنما هو موسيقى ناعمة يأتي من على يساره. خفق قلبه وشعر برعشة خفيفة تسري في جسده

وتداعب أعطافه، وبطرف عينه اليسرى لاحظ فستانا نسائيا تثنى فوق حافة المقعد، وعطراً لذيذاً فاغماً يصل إلى أنفه فيدغدغ أحاسيسه، فأحس كأنما هو بعالم روحي ساحر !

-أعذرني يا سيدي! هل هذا المقعد محجوز؟!

أعادت صاحبة الصوت سؤالها، فأيقظت الفتى من عالمه السحري، وأسرعت خفقات قلبه، وازداد ارتباكه، فامتدت الرعشة إلى كل ذرة في جسمه ؛ ودون أن ينظر إلى أعلى هز رأسه بعلامة النفي، وبطرف عينه لاحظ أن صاحبة الصوت وضعت شيئا على الرف، ثم جلست إلى جانبه ! وبدون شعور، وبحركة لا إرادية، مد يده اليسرى وبسرعة خاطفة، ضم إليه طرف جاكيته، حتى لا تلامس ملابسها ملابسه، وكأنه هومتوضئ ولا يريدها أن تفسد وضوءه ... ثم أبعد جسمه عنها حتى التصق بالنافذة ، وكأنما يريد أن يصبح جزءاً منها ... وصار يتظاهر بالنظر خلال النافذة فكأنما هو مستغرقٌ في تأمل شيء مهم ينظر إليه ... وإن كان في الحقيقة لم ير شيئا خارج الشباك إذ كان كل تفكيره وحواسه ووجوده مركزاً على الأنثى التي جلست إلى جانبه !

احتل الركاب أماكنهم، وأعلن السائق الرحيل وغادرت الحافلة المحطة. مرت فترة صمت قصيرة خالها المسكين المرعوب المتشنج والمتوتر دهراً، قبل أن يبدأ جسمه المرتجف وأعصابه المشدودة بالاسترخاء !

تظاهر الشاب بالنظر إلى قمم العمارات الشاهقة والمزروعة على جانبي الطريق، وكذلك المصابيح الكهربائية التي تضيء وتطفئ. وقد صار ينظر بحرص كأنما يخشى أن يفوته شيءٌ منها، بطريقة أثارت استغرابه هو نفسه، رغم انشداد تفكيره إلى جارته ! كان يتظاهر بأنه مهتم بما يرى، وإن كان في الحقيقة لم يشعر بوجودها ولم يحس بشيء!

لقد كان كل همه هو أن يخفي خوفه وارتباكه، وأن يعود الهدوء إلى قلبه الذي كان يرقص في جوفه كطير ذبيح !

بعد قليل سمع جارته تتحدث مع سيدة أخرى إلى يسارها، والتي كانت تجلس على المقعد الذي يفصل بينهما الممر.

تحركت الجارة في مقعدها ، فهبت نسمة من الهواء محملة برائحة عطر لذيذ منعش ، فأحس راكان بنشوة عارمة تسربت في كل ذرة من خلايا جسمه، فدغدغت أعصابه وحواسه!

شعر الفتى بأن ما كان به مشدودا قد بدأ يسترخي، وأن وجيب قلبه العنيف المتلاحق قد بدأ يبطئ، ثم أحس بعدها بهدوء يلامس نفسه وراحة تسري في كل جسمه !

لم يطل هدوء الفتى المأزوم، إذ كفت المرأتان عن الحديث ، فأدرك بأن جارته صارت تنظر إليه، لأنه أحس بنسيم دافئ معطر يصل إلى صدغه الأيسر ورقبته وأذنه، فعرف أن أنفاسها المعطرة هي التي ترسل ذلك ... وبسرعة فتح كتابه وتظاهر بالاستغراق العميق بالقراء . .. فتبين له أن الكتاب كان مقلوبا، وبحركة لا إرادية قفز من مقعده مخافة أن تكون جارته قد لاحظت فعلته، ولكنه سرعان ما تذكر أن الكتاب كان عربيا وأن جارته لا شك لا تعرف تلك اللغة؛ فارتاح قليلا وتنفس الصعداء وكأنما هم ثقيل قد انزاح عن كاهله !

لم يدر راكان كم من الوقت مضى عندما أحس ثانية وكأن نارا تحرق صدغه المقابل لجارته ؛ وبحذر سحب وجهه من الكتاب، وبطرف عينه اليسرى لاحظ أن جارته تنظر إليه وتتفحصه، كأنما هي جزار يتحسس ذبيحته ليتأكد من سمنها قبل شرائها، أو كأنما هي ذئب يتفحص صيده ليرى من أين يأكله !

غطت جسم الشاب موجة من العرق البارد ، وعاوده الخوف والنرفزة من جديد، وعلا وجيب قلبه وبدأ يرقص بين ضلوعه، وبدأت أعصابه بالتوتر ! التصق بجسمه من جديد إلى النافذة كأنما يريد أن يكسرها ليخرج منها !

وقفت جارته، وتناولت حقيبتها التي كانت قد وضعتها على الرف فوق مقعدها وفتحتها، ثم مرت بيدها على ما فيها حتى سمع لها صوتا، ثم أغلقتها وأعادتها إلى مكانها، ومن ثم فتحت حقيبة يدها، وألقت بعينيها في داخلها ثم دست يدها بها، وبعدها جلست!

لاحظ راكان أنها لم تخرج شيئا في كلا الحالتين؛ فأدرك أن ما فعلته جارته هو مجرد التظاهر بالبحث عن شيء ! ومرة أخرى وقفت وخبطت على مقعدها الجلدي بيدها بشدة، وسمع له صوتاً عالياً، وكأنما لتنفض عنه الغبار ! ثم ضغطت على زمبركه فرجع إلى الوراء، ثم استلقت عليه ، لكنها عادت وأغلقته قليلا، ثم حاولته، ثم أغلقته هذه

المرة بنرفزة وعصبية، حتى عاد كما كان سابقا، ثم ألقت برأسها فوقه !

كانت في كل مرة تقوم بعمل، تنظر إلى جارها، وكأنما لتسأله رأيه، فيما تظاهر هو بأنه غير واع لحركتها، وأنه مستغرق بالقراءة العميقة ... وإن كان في الحقيقة ، لم يقرأ كلمة واحدة من الكتاب ! لقد كان طيلة ذلك الوقت يتابع بعقله وحواسه كل نأمة تقوم بها!

مرّت فترة صمت قصيرة سمع الشاب بعدها صوت جسم ضخم يسقط من حجرها ويلامس حذاء قدمه اليسرى، فتبين له وهو يركله بشدة ولا شعوريا بعيدا عنه بأنه كتاب ! لقد شعر وكأنما كهرباء قد لامست جسمه ... انحنت جارته لالتقاط الكتاب ، فانسدل شعرها الذهبي على جانبي وجهها، فنظر إلى شعرها مليا فوجد أنه يتموج فوق رأسها كأنما هو أمواج دافئة حنونة تغري المستحم أن يلقي بنفسه في أحضانه، وأن كل خصلة منه كنز بكامله ! لقد كان شعرها ذهبي اللون بشبه عناقيد الذهب التي رآها في إحدى المجلات !

بعد أن استوت الحسناء في جلستها، حركت رأسها بسرعة عدة مرات يمنة ويسرة، فتطاير شعرها حتى لامس بعضه وجه الفتى وأنفه، فشعر بفيض غامر من العطر الرباني، ثم سمع بعدها صوتها الناعم يصل إلى أذنيه وكأنما يأتي إليه من أعماق الليل البعيد... البعيد!

ـ آسفة! لقد أزعجتك! أرجوك اعذرني!

كان صوتها حنوناً وشجياً كصوت ربابة يأتي من بعيد... من أعماق الليل!

لم يقل الشاب شيئا، وظل سارحاً مع أحلامه وتخيلاته!

إن المسكين لم يرفض التحدث مع جارته كرها بها أو احتقارا لها، ولا حتى تجنبا لها، بل إنه على العكس من ذلك، فقد كان يحلم بمثل هذا اللقاء ومثل هذه الجلسة، منذ سنوات وسنوات، بل ومنذ أن وعى على نفسه!

كان يذوب شوقا ويحن حنينا طاغيا إلى أن يتحدث إلى امرأة، وخصوصا الجميلات منهن، وإلى أن يستمع إليها! إنه ولطالما تمنى أن يأتي يوم مثل هذا اليوم، يجلس فيه إلى أنثى صغيرة وجميلة، ناعمة ورقيقة، يحدثها وتحدثه، وتناقشه ويناقشها!

كان يتمنّى ذلك من أعماق قلبه، بل وكانت من أعز أمانيه في الحياة أن يفعل ذلك ! إنه على الرغم من أنه كان يحن حنينا طاغيا إلى

أن يتحدث إلى أنثى ، مثل هذه التي تجلس الآن ملاصقة له، وعلى الرغم من أنه أمضى عمره يحلم بلقاء مثل هذا اللقاء، إلا أن مجرد التفكير بأن يتحدث مع جارته الحسناء هذه ، يجعله يرتبك ويتلعثم !

كان كلما فكر أن يفتح فمه ليقول لجارته شيئا، أي شيء، حتى يعتريه رعب شديد، إذ يبدأ قلبه يتراقص بين ضلوعه، كقرد دربه صاحبه على النط والقفز، أو كطير ذبيح يتخبط في دمه !

لقد كان يحزنه أشد الحزن، ويؤلم قلبه أشد الألم، أن يرى جارته الحسناء ، وهي تكلمه فلا يرد عليها، وأن تأتي بكل هذه التصرفات والحركات ، وتخلق كل هذه الأعذار لتجلب انتباهه ولكنه يتجاهلها!

لقد كره نفسه واحتقرها، وزاد سخطه على مجتمعه المتشدد وعلى تربيته الصارمة ، وهو جالس إلى جانب تلك الفتاة الحسناء ولا يستطيع مكالمتها؛ إذ أنه كلما كان يهم بفتح فمه ليقول لها شيئا، يجد أن موجة من الهلع الشديد قد استبدت بقلبه، وأن جفافا شديدا يصيب لسانه وكأنما أخذ إبرة مخدر، فيشعر وكأنما قد تجمد في فمه وتحول إلى حجر لا يستطيع حراكه !

لقد تربى تربية دينية صارمة ! إنه ومنذ أن وعى على نفسه، وكل من حوله ؛ البيت والمدرسة والمجتمع والمسجد، يؤكدون له بأن النظر إلى امرأة من غير محارمه تقود إلى الاشتهاء الذي هو حرام، والذي هو بدوره يقود إلى نار جهنم !

"لقد أمضيت طيلة عمرك تحلم بالجلوس إلى فتاةجميلة، تحدثك وتحدثها وتتبادلان الأفكار، لتروي ظمأك القاتل وشوقك المجنون وحنينك المدمر، وها أنت الآن جالس إلى جانبها، بلحمها ودمها، وليس بينك وبينها سوى الحاجز الوهمي الذي رسمه خيالك المريض...! انظر إليها... إنها جالسة كالملاك بريئة كالزهرة، نقية كالندى، هادئة كهدوء الليل، صافية كالجدول الرقراق! تأمل وجهها... تأمل عنقها تأمل صدرها...! آه ما أجملها! انظر إلى شفتيها القرمزيتين، كم هما أخاذتان جذابتان... مغريتان...! إنهما تنتظران قبلاتك المحمومة! ألا تشعر أنفاسها اللاهبة المتأججة تصل إليك فتحرق وجهك ورقبتك وأذنيك؟! ألا تستنشق أريج عطرها الإلهي، الذي يسكر الروح ويخدر الجسم؟! انظر إلى شعرها الأشقر المتدلي كأنه كنوز الذهب... انظر إلى رقبتها كأنها مصنوعة من عاج ! مد يدك والمس بأصابعك بشرتها

الشفافة كعذوبة الصباح. ألا ترى كم هي طرية وناعمة؟! تلذذ بنعومتها وبملمسها ثم أنزل يديك ببطء ولطف ورقة والمس عنقها الأتلع الطويل ، ومر فوقه واسكر بنعومته ونصاعته، ثم أنزل يديك ثانية قليلا قليلا إلى صدرها؛ إجلالاً لما أبدع الخالق! آه يا صدرها! كم فيك من أسرار وخبايا وكنوز! إنك ومنذ أن كنت في العاشرة من عمرك وأنت تحلم بأن تضع رأسك فوق صدر أنثى جميلة ! أنزل يدك ببطء، ثم توقف قليلا، وبكل احترام وتقديس وإجلال، اسجد أولاً تهجداً و تعبداً، ثم مر بيديك ولامس النهدين المكورين الناضجين، وبشفتيك الظامئتين المحمومتين، مرّ فوقهما، واسترح قليلا عند المنعطف، ثم انقض على النهدين وداعبهما حتى يشتعلا ناراً، ثم انزل قليلا قليلا ومر بشفتيك ويديك فوق الجسم المرمري... ثم تأمل ما صنع وأبدع الخالق الأعظم... ثم انزل قليلا... قليلا... قليلا... إلى حيث...!"

آه ! يا إله السماء ! رحمتك !! لقد اختلطت الأمور في رأس راكان ولم يعد له سلطان على تفكيره... إذ في تلك اللحظة، تحولت كل ذرة في جسمه إلى شهوة محمومة... مجنونة... مدمرة... وبدأت الذئاب الجائعة المسعورة، في داخله، تعوي وتصرخ وتستغيث؛ واستيقظ المارد الجبار النائم، وسمع طبولاً تدق بعنف يصك الآذان ، فيغلي الدم في عروقه، وتزوغ عيناه، وتتشنج أطرافه، وتعتريه موجة من العرق البارد فتغطى وجهه ورقبته وكل جسمه، فيصير يرتجف كالدرويش الذي عنّت عليه طبوله !استولت عليه موجة من الحمى الشديدة، وبدأ يتنفس بصعوبة حتى شعر كأنما روحه على وشك أن تغادر جسمه لشدة تلاحق أنفاسه!

- هل أنت مريض يا سيدي؟!

سألت جارته همساً وبصوت يقطر عذوبة ورقة، يأمرك أن تسجد إجلالاً لما أبدع الخالق الأعظم؛ ولما لم يقل شيئا، استرسلت:

– إنك تتصبب عرقاً ، فهل أصابتك حمى؟! أنا ممرضة أستطيع مساعدتك ! قالت بتوسل واستعطاف؛ ثم مدت يدها اليسرى تتحسس جبينه وكأنما هي أم تطمئن على صحة صغيرها.

- اتركيني وشأني ! صاح بها راكان بعصبية مجنونة وهو يبعد يدها عن جبينه بشدة وغلظة !

لقد لاحظ أن صوته جلب انتباه بعض الركاب ؛ حيث صاروا ينظرون إلى مصدر الصوت، ثم أحس بأن تصبب عرقه قد تضاعف، وكأنما هو مصاب بالحمى حقاً!

- أنا آسفة جداً جداً إن أزعجتك! قالتها بحزن بالغ ومذلة تثير الشفقة، ثم أعادت عينيها إلى كتابها الذي كانت تقرأ به.

قفز الشاب من مقعده واقفاً، وأزاح عن طريقه، بكوعه اليسرى، جسم جارته بفجاجة وغلظة، وسار في الممر متأرجحا حتى وصل دورة المياه، وهناك، وضع رأسه تحت حنفية الماء التي انهمرت بغزارة، وظلت تنهمر لعدة دقائق، ولما لم تهدأ الذئاب المسعورة في داخله، أسقط بنطاله وما تحته وأدار الصابون بين يديه بعد أن صب عليه بعضا من الماء الساخن... وبعد قليل صار جسمه كله يرتجف... واستمر يرتجف لبعض الوقت، حتى شعر بأن الذئاب الجائعة في داخله قد كفت عن العواء، وأن كان الجوع ما زال يمزق أحشاءه... ثم شعر بعدها بأنه استراح قليلا فسقط على مقعد الحمام، محطم الأعصاب، منهوك القوى، خائر العزيمة !

لقد اكتشف الفتى القادم من بلاد التزمت والتخلف ، بلاد " التابوهات "، بلاد الحلال والحرام ، بأنه أجبن من دجاجة، ويهرب مرعوباً كالأرنب المذعور أمام التحدي الأنثوي ! أنه صوال جوال في الخيال وعلى الورق فقط ! إنه ”دونكيشوت عربي“ !

”أيها الجبان المهزوم في داخلك! ما الذنب الذي اقترفته هذه الحسناء حتى تستحق غلظتك ووقاحتك؟! ماذا فعلت حتى تصب عليها جام غضبك وثورتك؟! لقد جرحت شعورها وآذيت إحساسها! لقد كانت تظن أنك بحاجة للمساعدة فعرضتها عليها، ولكنك بدلا من أن تشكرها، صحت بها ونهرتها! يا لك من وضيع وقح! هل رأيت ما أرقها وأنعمها وألطفها؟! هل رأيت كم هي مؤدبة ومهذبة؟! لقد تقدمت منك تعرض خدماتها بمنتهى الأدب والرقة والاحترام، وبمنتهى اللطف والعطف والحنان... وبكل أنوثة وجاذبية وسحر... اعتذر لها واطلب منها الصفح والمسامحة ! قل لها أنك آسف لتصرفك الشائن... افتح فمك... تكلم... لا تخف... إنها لن ترفض عذرك، ستقبله... قل لها أي شيء... تخلص من هذا المرض المزمن... هذه فرصتك... قل... تكلم..."

- آسف يا آنسة !

خرجت من بين شفتي راكان برعشة وعسر، ولم يستطع أن يقول أكثر من ذلك، إذ شعر بجفاف في حلقه، وأحس وكأنما لسانه عظمة في فمه! وبدأ قلبه يتراقص في داخله، وكذلك صار جسمه يرتعش وكأنما به قشعريرة!

- إن الذي يجب أن نعتذر له هو الله سبحانه وتعالى! قالت الجارة بعد أن انتظرت بعض الوقت ليكمل جملته، ولما لم يقل شيئا أضافت وكأنما تستحثه على الكلام.

- لقد ولدنا بالخطيئة، ولهذا صلب السيد المسيح من أجل غفران خطايانا !

لم يقل الفتى شيئا، وظل يحرك لسانه في فمه الذي كان كأنما هو قطعة من الحديد الصدئ ، وضع عليها بعض الزيت ليلين قليلا، ولم يدر كم من الوقت قد مضى وهو ما زال يحاول تحريك لسانه، ويتدرب على الحديث ، عندما اختلس نظرة خاطفة بطرف عينه اليسرى إلى جارته فوجدها مستغرقة في القراءة...!

ما أجملها ! لقد كانت قطعة من الفن الخالد، رسمها الخالق الأعظم فأبدع في خلقها !

ظل ينظر إليها متأملاً أذنها الصغيرة، واسترسال شعرها المتموج وعنقها الطويل الأتلع... وفجأة رفعت عينيها عن الكتاب فالتقت بعينيه فابتسمت له ابتسامة ، شعر بعدها وكأنما صعقه تيار كهربائي وصل إلى كل ذرة في جسمه، فأحرقها! وفي مثل لمح البرق أعاد عينيه إلى كتابه متظاهرا بالقراءة، وإن كان لم يقرأ به حرفا واحدا منذ جلست الأنثى إلى جانبه، وما زال فاتحا على نفس الصفحة.

مرت فترة ليست بالقصيرة عندما عاود النظر إلى جارته، وفي هذه المرة أطال النظر، ولكنها هذه المرة لم تكن تنظر إليه، وإنما كانت مستغرقة بعمق تنظر في كتابها، فحول عينيه، ونظر أمامه وخلفه وحوله، ولأول مرة منذ أن ركب الحافلة، شعر بدبيبها فوق الإسفلت؛ كما لاحظ أنها كانت معتمة، وأن هناك بعض المصابيح الصغيرة والمضيئة إلى جانب المقاعد ليستعملها الركاب عند الحاجة.

لقد لاحظ أيضا أن المقاعد كلها مملوءة، وأن معظم الركاب يغطون في نومهم، بعد أن تدثروا في معاطفهم أو ببعض الأغطية، وقد أرجعوا مقاعدهم إلى الخلف، كما وجد أن حوالي أربعة أشخاص منهم كانوا يقرؤون!

- هل لك يا سيدي أن تساعدني على إرجاع ظهر مقعدي إلى الخلف قليلا ؟! لقد صار لي فترة أحاول إرجاعه فلم أستطع !

فجأة سألت الجارة راكان همساً وبلهجة حنونة رقيقة مؤدبة، خيل له وكأنها امرأة ضعيفة تريد أن تكسب قلب رجلها بالاعتراف بضعفها وقوته ! ازداد ارتباكه، إذ معنى ذلك بأن يمد يده من أمامها حتى تصل الطرف الآخر للمقعد، مما قد يعنى أنه ربما يلامس صدرها!

بدأ جسمه يرتجف ، فسقط كتابه على أرض الحافلة، ثم بدأ قلبه بالخفقان من جديد ، ولكن هذه المرة لم يكن عنيفا كسابقتها !

تطلع إلى حيث أشارت، وبدون أن ينظر إلى وجهها، وبيد مرتجفة، ضغط على الزمبرك فتراجع المقعد، ثم طامن برأسه فالتقط كتابه من على أرض الحافلة.

عندما عاد إلى الشاب شيء من تفكيره وبعض من هدوئه، وصلت إلى أنفه رائحة عطر لم يعهد مثلها طيلة حياته! لقد كانت مزيجا من النشوى والسعادة!

- شكرا جزيلا، آسفة لإزعاجك.

قالتها بعد أن استوى الشاب في مقعده ,... ولما التقت عيونهما ابتسمت له، فشعر وكأنما هي تحتضنه بعينيها!

غضّ طرفه، فشعر بسعادة غامرة ونشوة عارمة.

- هل فارقتك الحمى؟ !

هز راكان رأسه علامة الموافقة ، ورافقها بكلمة شكر.

- إذا عاودتك الحمى، فلا تتردد بإعلامي! سأكون جد سعيدة لمساعدتك!

وتمهلت قليلا ثم أضافت:

- أنا ممرضة ، وفي حقيبتي بعض الأدوية لحالات مختلفة.

- سأفعل ذلك.

شعر الفتى أنه قالها بدون مشقة ولا تلعثم. ولما رأى ذلك تشجع وأضاف:

- إنك لطيفة جدا. أعتبر نفسي محظوظا أن قابلتك ! وجد راكان نفسه يقول ذلك.

- كانت رقبتك وجبينك يطفحان بالعرق ، مما أزعجني جدا!

قالتها همسا، ولعلها فعلت ذلك حتى لا تزعج الجيران النيام !

تمنى الفتى ، لو أنها تظل تهمس دون توقف ودون أن يقول هو شيئا، فقد أحس كأنما و بخلوة رومانسية تناجيه حبيبته المدله بحبها ! لقد شعر وهي تتكلم كأنما هو يستمع إلى موسيقى ناعمة حالمة في ظلام ليلة صيف عليلة النسيم صافية السماء !

مرت فترة صمت تنبه الفتى على أثرها ، أن مقعده يعلو مقعدها قليلا ، وأن بين المقعدين هوة، فضغط على مقعده حتى نزل وتساوى مع مقعدها ! إنه ، وعلى الرغم من أنه كان ما زال ينظر إلى حضنه، فقد انحرف قليلا باتجاه جارته احتراما لها واستمتاعا بالنظر إليها!

- هل أنت ذاهب إلى لوس انجلوس؟! سألت ذلك وأرفقتها بنظرة فاحصة من عينيها.

- نعم ! أجابها ورافقها بهزة من رأسه.

- وهل تسكن فيها؟! سألت وهي ما زالت لم تحول عينيها إلى النظر في وجهه.

- لا؛ بل قريبا منها. ثم مصمص شفتيه، وأدار لسانه في فمه وكأنما يرجوه أن لا يخيب ظنه هذه المرة.

- في أركيديا! أعني مدينة أركيديا.

- آه ! هذا رائع ! قالتها بفرحة تشبه فرحة طفل حصل على لعبة. ثم أضافت:

- إنها بلدة جميلة جدا. لقد كنت هناك مرات عديدة !

- وهل تسكنين فيها؟! سأل بسرعة وكأنما أحدهم يطارده ، أو كأنما حمل ثقيل فوق كاهله قد أتعبه طول حمله، ويريد أن يتخلص منه !

- لا، أنا أسكن غير بعيدة منك ؛ في شمال مدينة هوليود.

شعر الشاب بأن الحديث معها لم يكن بالصعوبة التي تصورها، بل على العكس من ذلك ، فقد وجده من السهولة بحيث شعر بسعادة ونشوة ولذة هائلة ... وكما أشبع رجولته وهو يتحدث إلى أنثى ويستمع إلى كلماتها الرقيقة الدافئة... وكذلك إلى صوتها الموسيقي الحالم الناعم !

- بعيدة كم؟! سأل هو، وقد عاودته ثقته بنفسه واعتداده برجولته.

- بعيدة كم ماذا؟! سألت الأنثى بلهجة فجة، فشعر الفتى وكأنما قد فارقها بعض من نعومتها ورقتها.

- أعني كم المسافة بين شمال مدينة هوليود ومدينة أركيديا؟!

- ألا تعرف؟! وأتبعتها بضحكة فكأنما سمعت شيئا غريبا، مما جعل وجه المسكين ينقبض قليلا !

لا شك أنها لاحظت ذلك فكفت عن الضحك وأجابت بلهجة جادة.

- آسفة جدا! لقد كنت أظن أنك تسكن هناك.

- لا. هذه هي المرة الأولى التي أذهب بها إلى هناك ! قالها وقد شعر بزهو وكأنما انتصر عليها.

- أحقا؟! سألت بحماس وقد وسعت ما بين حاجبيها.

- إذن، من أين أنت؟! قالت ذلك ثم نهضت من مقعدها وابتسامة جذلى تغطى وجهها، فتصورها راكان ، وكأنما اقتربت منه لتعانقه!

- أنا عربي من الأردن. وهذه أول مرة آتي بها إلى أمريكا!

- أحقا ما تقول؟! يا له من شيء عظيم ! ما أجمل ذلك ! من بلد الرب السيد المسيح ! ما أسعدك! أنا لا أصدق عيني!

شعر راكان وكأنما جارته قد فقدت اتزانها، بل وفقدت السيطرة على عقلها، وصارت تتكلم كلاماً كأنما تهذر.

"أستغفر الله العظيم ! لقد كفرت ... إنك تشركين بالله! إن قشعريرة تعتريني وحزن شديد يتملكني، كلما أسمع إنساناً يشرك بالله!" قالها الفتى في سره.

- إذن لقد مشيت فوق الأرض التي مشى عليها الرب، خالقنا ومنقذنا... السيد المسيح ! ما أسعدك ! ودون أن تعطى له مجالا للإجابة استرسلت كمن تحلم !

- إن أعز أمنية عندي ، هي أن أذهب إلى هناك ، وأرى أين ولد الرب ، وأين حمل الصليب، والمكان الذي صلب به! ثم مصمصت شفتيها ونظرت إلى عينيه وكأنما تريد أن تخرقهما لتدخل إلى عقله.

- إذن ، لقد كنت في كنيسة المهد والقيامة وبيت لحم وجبل الزيتون ونهر الأردن وكل هذه الأماكن المقدسة !

- نعم، ومرات كثيرة ! قالها الشاب وهو يهز رأسه مرات عديدة وقد شعر ببعض الخيلاء.

- حدثني عنهم ، فإن بي شوقاً عظيماً لسماع أخبار الأراضي المقدسة يا...!

- اسمي راكان... راكان عبد الله دهشان؟!

- راكان ! اسم ظريف جدا، وهل يعني شيئا بلغتك؟!

إن الطريقة التي نطقت بها اسمه، جعلته حزمة محمومة من الشهوة المتوقدة، وأحس وهي تنظر في عينيه وتسبل عينيها بدلال وإغراء، وكأنما تدعوه إلى غرفة نومها ... وبدأ الوحش المسعور في داخله يستيقظ، ولكن سرعان ما عاوده خوفه فنام الوحش في داخله.

- معظم الأسماء في لغتنا لها معان... ومعنى اسمي خادم الخالق.

- ما أروع ذلك وأجمله ! قالت ذلك وقد بدأ جسمها يهتز طربا وقد شدت قبضة يدها بالهواء وفتحتها !

- إني أكاد أطير من السعادة ! وهدأت من ثورتها قليلا، ثم أضافت:

- اسمي جوليانا لورنس.

استقام راكان من ضجعته فوق الكرسي ، ومد يده نحوها، وفعلت هي المثل! ولأول مرة نظر في عينيها على ضوء الشمعة الخافت، فشعر كأنهما واحة من الحب والسلام والأمان، فتمنى لو يقضي كل عمره في ربوعهما!

- سعيد بمعرفتك يا آنسة لورنس. قال ذلك ومد يده وصافح يدها، فشعر بنعومة يديها، ولكنه أحس وكأنما تيار كهربائي رقيق يمسك به، وينشر الحبور والسعادة في نفسه!

ظلت الحسناء قابضة على يده بطريقة عفوية، وهي تنظر في وجهه ثم قالت:

- سعيدة جدا بمعرفتك يا راكان.

شعر راكان بصدق قولها وحرارة مشاعرها، وبعد أن ضحكت أضافت:

- أرجوك ! نادني جوليانا؛ وإذا لم يكن عندك مانع ،أناديك أنا "راكو".

- إنني أفضل ذلك كثيرا. لقد كانت كل خلجة في جسمه تتراقص!

إن راكان لم يسمع في حياته كلها موسيقى كموسيقى صوتها، له كل هذا الوقع في الوجدان ، وهي تنطق اسمه! لقد أحس أن كلمة "راكان" تخرج من فمها أعمق سحرا وعذوبة وأكثر حنانا ورقة من أية سيمفونية موسيقية سمعها طيلة عمره!!

عندما عادت الصبية إلى مقعدها، وبعد أن أطلقت سراح يده، تمنى لو أنها أبقت يده في يدها دهرا، لأنه شعر بسعادة لا توصف، وحالما عاد إلى مقعده، مد يده في جيب جاكيته وأخرج منديله وبدأ يمسح حبات عرق الحياء والارتباك الراقدة فوق جبينه !

لأول مرة شعر راكان ، أن الكلمات لم تعد تخرج من فمه بصعوبة كما كانت عند بداية اللقاء، وإن كان ما زال يعتريه بعض التلعثم والنرفزة!

- أرجوك ! حدثني عن الأراضي المقدسة! قالت بتبتل ووله ؛ ثم أضافت:

- إنني كلما أتصور نفسي أدخل مكانا من هذه الأماكن المقدسة، أشعر بخشوع ورهبة شديدين، وكأنما أنا في حضرة السيد المسيح.

- وأنا كذلك ! لقد كنت أشعر أنني في حضرة الخالق عندما كنت أدخل معبدا من معابده؛ حتى كانت عيناي تخضلان بالدموع، وتبدأ عواطفي بالغليان ! قال راكان صادقا؛ ثم أضاف:

- ولكنني الآن أشعر أنه مجرد مكان ككل الأمكنة على هذه الأرض!

- وما الذي غيرك؟! سألت بلهفة.

-إن الإنسان عندما يتلقى صدمة عاطفية أو عقائدية، فإن كثيرا من معتقداته الدينية والعاطفية قد تتحول إلى الضد تماما!

- وما نوع هذه الصدمة؟ سألت باهتمام زائد.

تجاهل راكان سؤالها وأضاف:

- ما زال هذا الشعور يعتريني الآن وأنا أقف أمام لوحة زيتية جميلة، أو أمام منظر طبيعي ساحر، فإن دموعي تنزل بغزارة من شدة الانفعال. ثم أضاف بحماس!

- إنني وأنا أحدق بالغيوم في قمم الجبال، أو وأنا أسمع خرير الماء في جدول ، أو وأنا أتأمل الشمس ساعة الغروب، فإنني لا أستطيع أن أتحكم بدموعي، إذ إنها تنزل غزيرة كالمطر !

وهنا اعترت راكان موجة من الذكريات ، تزاحمت في عقله وغصّ بها حلقه، فشعر كأنما يتحشرج، ثم صار يغالب دموعه، وقال:

- لقد بكيت ، والله ، مرات ومرات ، وأنا أستيقظ في ساعات الصباح الباكر، لأؤدي واجباً من واجبات الخالق ، فأجلس على شرفة بيتنا ونسيم الصباح البارد يداعب شعري ويدغدغ وجهي.

نسي راكان أنه في حضرة أنثى، إذ أحس وكأنما كان يناجي نفسه؛ إذ بعد أن بلل شفتيه الجافتين بلسانه، مسح بظهر يده دمعتين كبيرتين سقطتا من عينيه، وأضاف:

- لقد بكيت ساعات وساعات، وأنا أترنم بقصيدة غزلية رقيقة، ثم وأنا أستمع إلى صوت حنون يغني كلمات عاطفية شجية.

- أليس هذا شعوراً جميلاً؟! سألت، وقد أرجعت بيدها اليسرى خصلة من شعرها سقطت فغطت جزءا من وجهها وأردفت:

- إن موجة من العواطف الزاخرة تعتريني وأنا أتصور نفسي في حضرة السيد المسيح، وهو يتحدث إلي؛ فإنني أشعر بعاطفة جياشة أبكي على إثرها طويلا.

"هل رأيت يا راكان ما أسهل الحديث إلى أنثى؟ إنه تماما كما تتحدث إلى أصدقائك من الشباب... لا فرق !"

- لقد كنت أشعر مثل شعورِكِ هذا يوم كنت متدينا... كنت أقف للصلاة ، فأتصور نفسي وكأنما أنا في حضرة الخالق، فأرتل بعض الصور من القرآن الكريم ، وأظل أترنم حتى أنخرط في البكاء، فأسجد على الأرض ، وأظل أبكي وأبكي وأضرع إليه تعالى، أن يسمعني ويغفر خطاياي ! إنني أظل أترنم وأبكي وأتضرع إليه، جل شأنه، حتى يصيبني نوع من الهستيريا أحس بعدها أنني على وشك الجنون ! قلت .

- وهل توقفت عن فعل ذلك؟! سألت بحيرة، وقد تبدل لون وجهها.

- نعم، ومنذ سنوات ! وبعد أن بلل راكان شفتيه الجافتين بلسانه، مسح بظهر يده دمعتين كبيرتين أخريين سقطتا من عينيه، أضاف:

- يتعرض الإنسان منا أحيانا في حياته لصدمات قاسية وموجعة ، فتجعله يفقد إيمانه ! قالها راكان بحسرة.
- هذا إذا كان إيمانه ضعيفا! إن الإيمان القوي لا تزعزعه كل قوى الأرض! قالت بحماس زائد وهي تحرك يديها بعصبية!
- قد تكونين على حق. قالها الشاب بتراخ.
- أنا واثقة من ذلك! لو اجتمع علي جميع سكان الأرض ، لما جعلوني أشك ولو للحظة واحدة، بإيماني بالرب المسيح! قالتها بإصرار وتحد.
مرت فترة صمت ليست بالقصيرة، استرجع راكان خلالها ذكرياته الماضية، والسببين اللذين جعلاه يفقد إيمانه فينقطع عن الصلاة والصيام! فتذكر هجر سميحة له، يوم تزوجت وتركته يجوب شوارع ، مدينة السلط، على غير هدى ! وكما تذكر جند السلطان الذين داسوا على جسمه، وهم ينتعلون بساطيرهم العسكرية، في بيت الله وهو ساجد يصلي!
وفجأة قطع عليه حبل تفكيره صوت جارته تسأل:
- هل تعني أنك لم تعد مؤمنا؟! سألت بقلق وقد علت وجهها موجة من الحزن الشديد.
- إنني لم أكن مؤمنا منذ البداية، كما تؤمنين أنت! قال ذلك وقد تجنب النظر إلى وجهها.
- إنني لا أفهمك. قالتها بخيبة أمل وانكسار شديدين!
- أنا مسلم !
- ماذا ؟! سألت بفجاجة وكأنما لا تصدق أذنيها؛ ولعلها أدركت أن سؤالها كان فظاً وغير حضاري، فاستدركت:
- هل تعني أنك لم تكن مسيحيا أبدا ؟!
هز راكان رأسه يمنة ويسرة.
مرت فترة صمت خالها الفتى أياما، إذ لا شك أنها كانت تفكر بما سمعت.
- إذن، وماذا تعتقد بالمسيح؟ !
- نبي عظيم كمحمد وموسى وعيسى ، عليهم السلام.
- ألا تؤمن بأنه هو الله؟! سألت بعصبية وتحد؛ إذ لا شك أنها كانت تستغرب من بلاهته.

- أستغفر الله العظيم! قالها كمن هوت على رأسه عصا غليظة، ثم أضاف:
- إن الله هو خالق السموات والأرض ، وليس له شريك. لا زوجة ولا أب ولا أم ولا ابن ولا بنت. أما المسيح فهو نفخة من روح الله ، ولا يمكن أن يكون الله نفسه ! وتوقف لحظة ثم أردف:
- لقد تربيت على أن مثل هذا الاعتقاد الذي ذكرته، هو شرك وكفر وعقابه أعماق جهنم!
- وهل تعتقد أن كل الذين يؤمنون بألوهية المسيح مشركون؟! سألت وهي تحرك يديها بعصبية مفرطة.
- حاشى لله! أنا لا أعتقد في هذا أو ذلك! ثم استدرك:
- إنني أعتقد أن لكل إنسان الحق المطلق أن يؤمن بما يشاء وكما يشاء؛ ما زال هذا الاعتقاد لا يتعارض مع حرية الآخرين!
وكأنما أعجبته آراؤه فاسترسل:
- إنني لا أعتبر أحدا مشركاً ًوضالا ، حتى الإنسان الذي يعبد حجراً أو شجرة أو عجلاً، إذا كانت هذه العبادة تجلب له السعادة والقناعة والرضا ! إنني قد لا أشاركهم معتقدهم هذا، ولن أحاول أن أقنعهم بالعدول عنه؛ ولكنني قطعاً لن أسخر مما يعتقدون! وفي رأيي أنه من الخير للإنسان أن يعبد شيئا، أي شيء، من أن لا يعبد شيئا إطلاقاً. قلت .
- ألا تعتقد أن المسيح هو الله، وأن الديانة المسيحية هي الخلاص الوحيد للإنسانية؟!
لقد تمنى راكان، بكل صدق وإخلاص، ومن أعماق قلبه، لو أن طلبها كان معقولا، وأن باستطاعته أن يلبيه لها، لأنه لاحظ أن في عينيها رجاء وتوسلاً، وكأنما تتضرع إليه أن لا يخيب ظنها به! وفي الحقيقة فقد أحزنه جدا وآلمه كثيرا وهو يهز رأسه علامة النفي.
- ولكن المسيح قال أنه لا خلاص لروح أحد إلا لمن آمن به، والمسيحيون المؤمنون بالمسيح، هم الوحيدون الذين خلصت أرواحهم ؟! قالت هذا وفتحت الكتاب الذي بحضنها، وأشارت بإبهام يدها اليمنى إلى صفحة محددة، وقرأ راكان اسمه فعرف أنه التوراة!
- إن المسيح صلوات الله عليه وسلم، لم يقل بأنه هو الله، وإنما قال بأنه هو عبد الله ، آتاه الكتاب والحكمة وجعله نبيا؛ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنني أعتقد أن جميع الديانات السماوية وحتى

الأرضية، جاءت لسعادة الإنسان، فإذا حققت الغرض الذي جاءت من أجله، فقد أدّت رسالتها ! وليس، في رأيي، هناك ديانة خير من الأخرى، ولا بشر خير من بشر! ثم توقف قليلاً وأردف:

– إن الأعمال الصالحة هي التي تخلص الإنسان من عذاب الله.

- ولكن التوراة تقول غير ما تعتقد. خذ واقرأ بنفسك. ألا تؤمن بالتوراة ؟! قالت هذا وأشارت بإصبعها إلى صفحة مفتوحة حددت له المكان وقربتها من عينيه.

ابتسم الشاب وقال ببرودة أعصاب استغرب لها هو نفسه:

- إنني أؤمن بالله الواحد الأحد، خالق هذا الكون، وأعتقد أن جميع الأديان ممتازة لأنها كلها تدعو إلى عبادة الله وعمل الخير والتمسك بأهداب الحق والفضيلة؛ فالإنسان الذي يطبق هذه التعاليم هو الإنسان الصالح!

- إن المسيح هو ابن الله، والأب والابن سواء! ثم بسرعة فتحت توراتها وقالت:

- إن التوراة تقول: من أتى إلى الابن فقد أتى إلى الأب، خذ واقرأ؛ وأشارت بإصبعها إلى صفحة أخرى بالتوراة؛ فعرف راكان أن محدثته تعرف توراتها معرفتها بمكان عطرها وأدوات زينتها!

لم يقل شيئاً وإنما كان يراقب حركاتها ويتأمل هذا الجمال الأخاذ الساحر، ويفكر بهذا الجسم الغض الطري والبشرة البضة الناعمة، ويحلم أحلامه الجائعة المحرومة!

- إن الذي يجب أن تفعله هو أن تقرأ التوراة بقلب مفتوح، وأن تصلي بحرارة قبل وبعد أن تقرأها، وأن تطلب من الله بصدق وإخلاص أن ترى النور. عندها سترى عالماً واسعاً جديداً يفتح أمامك؛ عالماً كله نور! قالت هذا وأغلقت توراتها وأعادتها إلى مكانها ثم أضافت:

- لقد كنت مثلك ضالة... أعيش في ظلمة وتعاسة... لا أؤمن بالتوراة ولا بالمسيح، فبقيت أياماً وليالي، أقرأ التوراة بشغف ولهفة، وأصلي بحرارة وصدق، حتى أراني الله النور فهداني فاهتديت.

- إنني سعيد بمعتقدي كسعادتك بمعتقدك، ويوم أتبين خطئي فسأفتش عن معتقد جديد يسعدني!

- إن الناس يسعدون بجهلهم أحياناً.

- إنه لخير لهم أن نتركهم يسعدون بجهلهم، من أن نجلب لهم الشقاء مع الجهل! وابتلع ريقه وأردف:

- ثم بأي حق يجوز لنا أن نتهمهم بأنهم جهلاء، وأنهم على باطل وأننا على حق؟! إن مثل هذا الحكم يجب أن لا يصدر إلاّ عن الخالق نفسه!

- ولكن الله طلب إلينا أن نوصل كلماته إلى الآخرين! قالت وكأنما تستغرب بلاهته!

- هذا صحيح؛ إذا كان الآخرون يقبلون بما نقدمه لهم، أما إذا كانوا سعداء باعتقادهم وما نقدمه لهم يجلب لهم الشقاء، فلم لا نتركهم وشأنهم؟! قال هذا وسحب عينيه من أمام عينيها.

- هل تعني أنني يجب أن أتركك وشأنك؟! قالت ذلك ونظرت إلى شفتيه، ولما لم يقل شيئاً أضافت:

- إنني آسفة جداً إن كنت قد أزعجتك!

شعر الفتى بنغمة حزن في صوتها وسحابة من الكآبة تخيم على وجهها!

- صدقيني إنك لم تزعجيني أبداً، وأن لا حاجة للاعتذار! إنه على العكس من ذلك فإنني جد سعيد لأن نتناقش معاً، ولكنه لا يسرني أن أرى بعض الناس يعتقدون بأن ما يؤمنون به هو الحق المطلق وأن ما يعتقده الآخرون هو خطأ مطلق، إذ في رأيي أن الحق المطلق والخطأ المطلق هي معتقدات نسبية في هذه الحياة.

- سأصلي من أجلك! قالت ذلك وضغطت على زمبرك المقعد حتى استقام، ثم نهضت من مكانها وركعت على أرض الحافلة إلى جانب مقعدها وصارت تصلي!

لم يعرف راكان كم مضى من الوقت وهي في سجدتها، وإن كانت مدة ليست بالقصيرة، وعندما نهضت، وعادت إلى مقعدها، لاحظ أن عينيها كانتا حمراوين كقطعة من الدم المجمد، ولكن وجهها

كان مشرقاً وكأنما نور يضيئه! لا شك أنه نور رباني؛ نور الإيمان القوي! هكذا اعتقد الفتى.

بينما كانت الجارة ساجدة تصلي بصدق وحرارة، كان هو يكتب لها عبر موجات الأثير، رسائل شوق ووله... رسائل اعتراف ومصارحة! رسائل رجاء واستعطاف، علها تشفق عليه فتخلصه من عذاباته ومعاناته، ومن عقده وترسباته! نعم علها يرقّ قلبها!

"بالله عليك يا جوليانا أن تتركينا من أحاديث الدين وأحاديث التوراة والإنجيل، وكذلك أحاديث سيدنا عيسى والخلاص والجنة والنار؛ ودعينا من هذا التعصب والتزمت، واسمحي لنا أن نتحدث أحاديث الحب والعناق والقبلات!

نعم، إنني أعيش في ظلام وتعاسة وضياع، ولكن السبب هو ليس ما تعتقدين! إنها تعاسة القحط الفكري والجوع الجنسي والحرمان العاطفي؛ في بلاد "التابوهات" بلاد الحلال والحرام!"

"بالله عليك يا جارتي أن تتركينا من أحاديث الجنة والنار، ودعينا من هذا التزمت والتعصب، واسمحي لنا أن نتحدث أحاديث الحب والقبلات والأشواق! نعم إنني أعيش في ظلام وتعاسة وضياع، ولكن السبب هو ليس ما تعتقدين، إنها تعاسة القحط والجوع والحرمان. نعم، إنك صادقة، إنني بحاجة ماسة إلى أن أرى الضوء، ولكن الضوء الذي أنا بحاجة إليه هو بين أحضانك الدافئة وعلى صدرك وبين ساقيك العاجيين. إنني بشوق حارق أيتها الحسناء إلى أن أنهل من رحيق شفتيك القرمزيتين! إنني جائع، بل إنني أموت جوعا إلى الحب وإلى العواطف وإلى الجسد... إلى اللحم الآدمي أغرق به نفسي المحرومة والصائمة منذ ولادتي! أريد أن آكل وآكل وأظل آكل حتى أشبع مسغبتي وحرماني الطويل...! إن لي سنوات طويلة والجوع يأكل جسمي، والحرمان يحرق روحي، وكل كياني! إن بي شوقاً كالسعار لأن أنام في حضنك... فوق صدرك، وبين نهديك... إنني أحمل على كاهلي ظمأ الصحراء القاحلة الجرداء الملتهبة، وأعاني من جوع القرون الغابرة في صميم وجداني. لقد هربت من عالم الحلال والحرام... عالم القحط والجوع والحرمان، إلى عالم مملوء بالخير والعطاء والوفرة... إنه عالم جسدك... عالم شفتيك... عالم عينيك! آه لعينيك ما أجملهما! إنهما تسحران عقلي وروحي وكل كياني وأنت

تنظرين إلي، وتتحدثين بصوتك الموسيقي الحالم الناعم. فبالله عليك اتركينا من حديث الأديان والسماوات وحديث الجنة والنار، ودعينا نتحدث حديث الحب والعواطف والرومانسية. دعيني أغرق نفسي المنسحقة جوعا بين أحضانك، أظل آكل وآكل وآكل حتى أشبع هذا الجوع الماحق المدمر في داخلي...!"

"عندما بلغت السابعة من عمري بدأت أصلي. لقد كنت أصلي في اليوم خمس مرات كما فرضها الله علينا، ولكنني كنت أمضي ساعات وساعات وأنا أصلي تهجدا. كنت أنهض بعد منتصف الليل وأقضي شطراً منه أصلي بحرارة، وأرتل القرآن بخشوع ورهبة، وأبكي، والله والله ، لساعات وساعات ! كنت أصوم شهر رمضان وأياماً أخرى من كل شهر، علها تشفيني من مرضي العضال هذا، لكن الجوع والظمأ ما زالا يسحقانني سحقا! أنا ما زلت أموت من عنف الجوع وما زلت أنسحق من دفق الظمأ. ولن يشبع جوعي ويروي ظمأي، إلا أن أنام على صدرك وأعب من نهر شفتيك ! لقد صليت سنوات وسنوات... لقد صليت بحرارة وورع وتقوي... لقد صليت حتى انبرت ركبتاي وحتى ذابت جبهتي، ولكن الجوع ما زال يسحق عظامي والظمأ ما زال يحرق كبدي... إنني أحمل صليبي على كتفي! إن بي جوع القرون وظمأ البيداء الملتهبة. إنني ما زلت جائعاً وظامئاً، والجوع والظمأ يلهبان كياني... ولن يشبع جوعي ويروي ظمأي، يا جارتي الحسناء، سوى أن أنام فوق صدرك وبين أحضانك... إنني أريد أن أرى الضوء الذي يرسله نهداك، وأريد أن أروي ظمأي من الرحيق الذي تجود به شفتاك! دعيني أفعل ذلك أولا، ثم حدثيني بعد ذلك حديث الإيمان وحديث الخلاص."

"إن خلاصي الأول هو بين أحضانك، وشفاء عذابي الأبدي أن أغرق نفسي في جنة حبك. لقد صار لي خمسة وعشرون عاما صائما... خمسة وعشرون عاما أحلم في جنة مثل جنة حبك... وأريد الآن أن أنهي صيامي، وأنت عندك فطوري، فلا تبخلي به علي! أستحلفك بقدسية الخلاص الذي تؤمنين به، وتحاولين أن تجعليني أؤمن به، أن تحققي لي رغبتي! إنني أصرخ من أعماق قلبي، فهل تسمعينني يا جوليانا؟!

نظر راكان حوله فوجد أن داخل الحافلة كان غارقا بالظلمة، وأن كل مسافر قد غطى نفسه بمعطف أو بشرشف أو ببطانية، وأن

الأنوار الوحيدة المضيئة كانت ضوء الفتى والفتاة ، ورجل في منتصف العمر يجلس في مؤخرة الحافلة يقرأ في كتاب. ثم سمع هو صوب دبيب الحافلة ينهب الطريق في ظلمة الليل!

وفجأة خطرت على باله والدته، وكيف كانت تسجد على الأرض وتصلي وتتضرع من أجل أن يحفظ الله ابنها وأن يهديه لما يحبه ويرضاه؛ فصار يقارن بينها وبين جاريه الراكعة الآن ، والتي تصلي من أجل أن يرى جارها النور... نور الديانة المسيحية !!

نهضت الصبية من سجودها فتبين للشاب، على ضوء المصباح الخافت، أن عينيها كانتا حمراوتين من طول السجود ومن كثرة البكاء. وبعد أن نهضت من سجدتها، وقفت، وأنزلت من على الرف الذي فوقها، مخدة وبطانية، وضعت المخدة تحت رأسها وفردت البطانية فوق جسمها! ثم أطفأت النور وهي تقول:

- إن الوقت متأخر ويجب أن ننام! ودون أن تنتظر جوابا من جارها، أضافت:

- تصبح على خير. ثم ألقت بنفسها إلى الوراء وأغمضت عينيها، ولكن وجهها كان باتجاهه فرأى على نور الضوء الخافت، أنها كانت تتمتم، ولعلها كانت تتمتم ببعض الأدعية أو لعلها كانت تقرأ بعضا من فصول الكتاب المقدس؛ التوراة.

قبل أن يطفئ راكان نور مقعده، نظر إلى ساعته فإذا هي قد تجاوزت الثانية صباحاً بقليل ، حسب التوقيت المحلي لولاية نيويورك!

*****

- صباح الخير.

قالت الصبية لجارها حالما فتحت عينيها، ثم أتبعتها بابتسامة رقيقة. ولما رد تحيتها سألته وهي تتثاءب وتمر بظهر يدها اليمنى فوق عينيها كأنما لتزيل عنهما بقايا النوم:

- هل نمت جيدا؟! وقبل أن تسمع جوابه فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها فرشاة بيضاء ثم بدأت تسرح شعرها وتربطه ببعض الدبابيس فوق رأسها.

- لا بأس. أجاب الفتى، ورافقها بهزة من رأسه بعد أن زرع ابتسامة فوق شفتيه.

- ليس من السهل على بعض الناس أن يناموا في حافلة تتحرك ، ولكنني أستطيع أن أنام ودون إزعاج؛ ثم ألقت نظرة على مرآتها وأضافت:

- إنني آخذ نفس الرحلة كل عام ذهابا وإيابا من مدينة هوليود إلى مدينة نيويورك.

" آه يا جارتاه! إنك تسألينني إن كنت قد نمت جيدا! كيف أستطيع أن يغمض لي جفن وليس بيني وبينك حاجز، بل وكأننا ننام في فراش واحد، ما عدا أننا لا نلتحف نفس الغطاء! إنك لا تعلمين أن الذئاب الجائعة المسعورة بقيت تعوي في داخلي طوال الليل، وأنه لم يكن بيني وبين أن أنقض عليك وألتحم بك سوى خيط رفيع... رفيع جدًا جداً... خيط هو مزيج من الرهبة والحياء والتردد. إنك لم تعلمي أن الشهوة العارمة بقيت مستبدة بي طوال الليل، وأنني كثيراً ما فقدت السيطرة على عقلي وهممت أن أفترسك لولا أن القدر جنبني فضيحة مؤكدة !"

"إن الرجل الذي كان جالسا أمامنا قد أمضى طيلة الليل تاركا مصباح كرسيه مضاء، وكان بين الفينة والفينة يقف في مقعده ويمدد يديه، ثم يحرك رقبته يمنة ويسرة، بعدها يجول بعينيه في جميع أرجاء الحافلة، حتى صار عندي اعتقاد بأنه ربما كان حارسا معينا من قبل الشركة، يرقب تصرفات المسافرين حتى لا يعتدي أحدهم على الآخر وحتى لا يسرق أمتعة الآخرين! كما أنك لا تعلمين أنني أمضيت معظم الليل في حل وترحال بين مقعدي والحمام، أصب على رأسي جالونات من الماء البارد لأسكت الذئاب المنفلتة في داخلي! إنك لا تعلمين أن هذا الذي جالس إلى جانبك، ليس له تفكير في هذه الحياة، منذ سنوات طويلة، إلا ما يرقد بين فخذي فتاة جميلة مثلك !"

- ولم تفعلين ذلك؟! أعني لم تأخذين نفس الرحلة كل عام؟!! سأل راكان وهو كالمنوم من شدة الإعياء. لقد كان محطما فعلا من القهر والانفعالات الفسيولوجية.

- لقد ولدت في مدينة نيويورك، ثم عندما طلب إليّ المسيح أن أرحل إلى هوليود لأنشر تعاليمه وأن أساعد الناس على رؤية نوره، رحلت إلى هناك تنفيذا لإرادته !

هم راكان إن يفتح فمه ليسألها تفسيرا لما تقول، ولكن صوت سائق الحافلة الذي جلجل فوق المايكرفون حال بينه وبين ذلك.

- صباح الخير سيداتي وسادتي ! سنتوقف بعد قليل للفطور لمدة ثلاثين دقيقة، فأرجو من الذين سيواصلون الرحلة معنا أن يعودوا إلى مقاعدهم في الوقت المحدد، وحتى لا تذهب الحافلة وتتركهم وشكراً.

توقفت الحافلة، وفتح الباب وبدأ الناس ينزلون. كان الشابان يراقبان من مقعديهما الذين يمرون من أمامهما، وعندما مرّ آخر مسافر من على شمال البنية، وقف راكان وانحنى قليلا إلى الأمام وفتح يديه أمامه احتراماً، وكأنما يفرش لها سجادة لتمشي فوقها؛ فرأى النهدين من فتحة فستانها كأنهما كنزان محاطان بحارسين مدججين بالسلاح، وقد تدلى من عنقها صليب يرقد بين النهدين بخشوع وتهجد، وكأنما هو راهب يتعبد في صومعته، وقد ظهر العنق وكأنه قطعة من الأبنوس أو المرمر، والشعر يتدلى كأنه قلائد من الزبرجد !

- ألا تريد أن تساعدني على النهوض؟ !

وصل صوتها إلى أذني راكان كأنه صوت كمان حنون يأتي من أعماق الليل، فاستيقظ من غفوته وعاد من سرحانه، واعتراه ارتباك شديد، فقد لاحظ أن عينيها قد أمسكتا به وهو يحملق بصدرها! ابتسمت، وسبّلت عينيها دلالاً ثم حولتهما عنه، ولكن خداه احمرّا خجلا وشعر كأنما ضُبط يسرق من بيت صديق!

قرب يده الممدودة أمامها فأمسكت بها وقفزت واقفة من مقعدها بخفة ورشاقة حتى تلامس الجسدان، وقد همّ أن يعانقها لولا بقية من حياء!

تأكد للفتى المقموع بأن جارته قد ألقت بنفسها عامدة بين يديه، وأنها تريد منه أن يحتضنها أو ربما يقبلها، فقد قربت وجهها من وجهه حتى كاد الوجهان أن يلتقيا، وحتى كادت الشفتان أن تتلامسا، فقد شعر أنفاسها اللاهبة تحرق خديه وصدغيه كما وصلت إلى أنفه رائحة عطرها الفاغم فأسكرته واستولت على البقية الباقية من عقله !

بمهارة الثعلب المراوغ وسرعة الجبان الهارب، أبعد الفتى نفسه إلى الوراء ! لقد انتصر على حرمانه ومعاناته، ولا شعوريا وبعفوية وخفة مذهلة، أبعد نفسه إلى الوراء حتى كاد أن يسقط على قفاه ! لقد كبح جماح عواطفه المتعطشة والمتوثبة وأسكت الذئاب المسعورة المنفلتة في داخله !

لا شك أن الفتاة قد شعرت بإهانة بالغة وأصيبت بخيبة أمل كبيرة، فلقد لاحظ راكان أن البسمة التي كانت فوق شفتيها وأن الفرحة التي كانت تضيء وجهها ، قد تلاشتا وحل مكانهما عبوس وغضب شديدان !

إن راكان لم يستجب لرغبة الفتاة تعززا وترفعا، ولكنها الرواسب المزروعة في داخله، والعقد المتأصلة في أعماقه، ومنذ أن وعى نفسه، تجعله دائما في رهبة وهلع شديدين عند لقائه بفتاة ليست من محارمه !

سارت الصبية باتجاه باب الحافلة وسار ابن العقد والرواسب خلفها، وفجأة شعر برغبة محمومة لجسدها، فتمنى لو يستطيع أن ينقض عليها ويعانقها من الخلف، حيث كان القسم الأعلى من ظهرها عاريا والفستان الذي ترتديه من النوع الحريري الشفاف، والذي يستطيع المرء أن يرى ما خلفه من محاسن جسدية تثير الشهوات وتلهب المشاعر!

ومرة أخرى كبح جماح عواطفه وسار خلفها في طريقهما إلى حيث يتناولان فطورهما.

عند مدخل المطعم استأذن الشاب جارته، فتقدم أمامها وفتح لها الباب الزجاجي، وظل ممسكا به حتى دخلت. لاحظ أن مسحة العبوس التي كانت تغطي وجهها قد فارقتها، وحلت مكانها بسمة خفيفة؛ وخصوصا بعد أن شكرته ومنحته ابتسامة لامست شغاف قلبه ! لقد أحس بصدقها وحميميتها.

شعر الفتى القادم من أرض "التابوهات" والمحرّمات؛ أرض الحلال والحرام؛ أرض المسموح والممنوع؛ بالزهو والخيلاء وهو يدخل المطعم إلى جانب رفيقته ... فقد لاحظ أن عيون الجالسين اتجهت إليهما، إذ إنه لطالما تمنى أن يحصل له شيء مثل هذا، بل إنه لطالما حلم طويلاً !

لقد رأى شاباً يهمس في أذن الفتاة التي تجلس معه ، وهو ينقل بصره بين جوليانا وراكان، ورأى تلك الفتاة، تهز رأسها علامة الموافقة وهي تنظر إليهما هي الأخرى، مما زاد زهو الفتى وخيلائه !

توجها نحو طاولة فارغة غير بعيدة من الباب، وهناك انحنى راكان باحترام وأزاح لها الكرسي لتجلس عليه، وعندما جلست منحته

ابتسامة كبيرة وشكرته وجلس هو قبالها، بعدها رجاها أن تطلب فطوراً للاثنين، إذ إنه يأكل كل شيء على شرط أن لا يكون به لحم خنزير!

كان الذي يزعج راكان ويثير غضبه المتأجج على نفسه، هو هذا الشعور بالقلق والتهيب والنرفزة التي تعتريه عندما يتحدث مع أنثى، فقد كان يتمنى أن يتحدث بحرية وطلاقة كما تتحدث هي معه وكما كان يتحدث مع أصدقائه من الرجال بالوطن !

كانت البُنية تتحدث بطلاقة ودون خجل أو تلعثم، وكانت تبتسم تارة وتضحك تارات، تسأل مرة وتجيب مرات وكأنما تقرأ في كتاب ! لقد تمنى لو أنه يستطيع أن يتكلم ويتصرف معها كما كانت تفعل هي معه ! كان لا يتكلم معها إلاّ إذا سئل، وإذا أجاب فإن إجاباته عادة ما تكون مقتضبة !

كان العرق يتصبب من جبينه بغزارة ، فيخرج منديله بين الفينة والأخرى ويمسح به عرقه المتصبب، وأحياناً يمسحه بظهر يده أو بمنديل الورق الموضوع على الطاولة.

لقد ثار راكان على نفسه مرات ومرات، وكان يهم في كل مرة أن يضرب بقبضته الطاولة التي أمامه، فيحطم الصحون و الكاسات، أو يضرب مقعده في الحافلة، إذ كلما حاول أن يتكلم مع الحسناء يشعر برهبة هائلة، ويبدأ قلبه يتراقص في داخله، ويجمد لسانه في فمه، ويديره فلا يتحرك ! كان يعتبر أن ما به هو لعنة ورثها مع الأيام، وكان يريد أن يتحرر من هذه القيود ويطرد هذه اللعنة التي تلاحقه !

- إنك دائم العرق وتعرق بسرعة، فهل لهذا من سبب؟! سألت الصبية برقة وحنان.

- إنني أعرق حتى في فصل الشتاء والثلوج تغطي الأرض! قال الفتى الذي يتصبب جسمه عرقاً وهو يحاول أن يبدو طبيعياً ...ثم استرسل بعد أن مصمص شفتيه وبلغ ريقه:

- لقد أعلمني الطبيب بأن لا أقلق، عندما سألته ! لقد قال بأن دمي حار؛ وخجل الفتى من أن يقول لها بأن الطبيب أعلمه أيضاً، بأن هذا هو نتيجة اللبيد المحتبس في داخله، وأنه سيتلاشى بعد أن يتزوج !

ابتسمت الصبية ولم تعلق بشيء، وإن شعر راكان أن لابتسامتها مغزى!

على الرغم من ارتباكه ونرفزته فقد لاحظ الشاب أنه منذ أن وقعت عينا إحدى النادلات عليه ، وهي قلما تحول نظراتها عنه حتى وهي ترد على طلبات الزبائن !

لقد كان المطعم عندما دخله ركاب الحافلة شبه خالٍ، وكان عدد الموجودين به لا يتجاوز عدد أصابع اليدين، ولكن بعد أن دخل ركاب الحافلة أصبح كخلية نحل يغص بالزبائن.

- إن لك لكنة، فهل أنت أرمني؟ سألت النادلة وهي تضع طبقي البيض المقلي والمربى وفناجين القهوة أمام الشابين !

- ولم تسألين؟! سألت جوليانا بعصبية وفجاجة !

- لقد كان لي خطيب أرمني يشبهك فكأنما تكون هو! قالت النادلة وهي تملأ فناجين قهوة الاثنين وعيناها لم تتحولا عن وجه الفتى.

- إن له نفس شعرك الأسود المجعد، وعينيك الزرقاوين الثاقبتين، ونظراتك الحالمة، وابتسامتك الجميلة! قالت النادلة بهمس وكأنما تحلم!

- ألا تعتقدين أنك تجاوزت حدودك؟ ! قالت رفيقته بغضب !

- إنه في نفس طولك، وله نفس بشرتك ! استمرت النادلة في كلامها، وكأنها لم تسمع سؤال جليسته !

- لقد كان دمث الأخلاق مؤدباً ، يتكلم بصوت كله رقة وعذوبة! قالت النادلة وكأنما تحلم.

- لقد سقط قلبي وارتعدت فرائصي عندما رأيتك تدخل وكاد يغمى علي ! وشهقت ومسحت بخلف يدها بعض الدموع المتساقطة.

- لقد تخيلتك وأنت تدخل من باب المطعم ، أنه هو عاد إليّ ! ولم تستطع متابعة حديثها إذ اعترتها موجة من البكاء والنشيج.

- وماذا حدث له؟ ! سأل راكان باهتمام واحترام.

- قتل في اليابان ! كان أحد جنود البحرية المعسكرين هناك. قتله أحد المتطرفين الذين يكرهوننا، ويريدوننا أن نرحل عن بلادهم ! قالتها بحزن يفتت الكبد ويفطر القلب !

أحسّ الشاب بأنه يكاد يتلاشى من الألم والحزن معا؛ فقال:

- أنا آسف جداً ! أنا حزين لأجلك كثيراً !

- إننا لم نحصل حتى على جثته لندفنه !

وهنا نظرت إلى الغريب نظرة طويلة وعميقة؛ كأنما لتشكو له ظلم الإنسان لأخيه الإنسان !

- لقد مات في بلد غريب، وفي سبيل هدف لم يعرفه، وفي بلاد لا تعني شيئاً بالنسبة له! عليهم اللعنة! السياسيون وتجار السلاح يرسلون شبابنا إلى الموت ليزيدوا ملياراتهم ! ثم التفتت إلى جوليانا وقالت لها وهي تشير إلى راكان:

- حافظي عليه ! وهرولت مبتعدة.

أحس الفتى بالقرف والاشمئزاز من وحشية العالم وقذاراته؛ كما أدرك بأن النادلة تحذر رفيقته من أن يكون هو الآخر ضحية أخرى لتجار الموت !

لم يذق الفتى من الأكل شيئاً؛ فقط شرب فنجان القهوة؛ ولم يعرف كيف شربه ولا ماذا كان طعمه؛ فقد كان يتمزق من شدة الألم، وكان القرف والاشمئزاز يجعلانه يكاد يستفرغ ! أما صاحبته فقد كانت تزدرد طعامها من دون أن تقول شيئاً، وإن كانت بين الفينة والأخرى تنقل طرفها بين الأكل وبينه. لا شك أنها كانت تحترم حزنه وصمته!

كم تمنى لو أنه يستطيع أن يعمل شيئاً لهذه الثكلى المحزونة... ولكنها الحياة، إذ ما نكاد نحل بأرض ونحب أن نمكث بها، حتى نجبر على الرحيل إلى مكان آخر!

في طريقه إلى صندوق الدفع توقف إلى إحدى الطاولات حيث كانت النادلة إياها تتلقى الطلبات من الزبائن، حيث لاحظ أنها كانت تكتب الطلبات وعيناها لا تنظران إلى وجه أحد. ورفعت عيناها إلى المسافر الغريب الذي سمعته يقول:

- لقد أتيت لأنبش أحزانك ، فيا ليتني لم أحضر! قالها الفتى صادقاً !

- أنا ما نسيت ولن أنسى! وعادت إلى عملها.

*****

- شكراً للإفطار. لقد كان لذيذاً جداً. قالت الصبية لرفيقها وهو يفتح لها باب المطعم الزجاجي لتخرج قبله، ولما لم يقل شيئاً، أضافت:

- إنك ضيف في بلادنا وكان من المفروض أن أدفع أنا، فليباركك المسيح ! لقد أصررت على الدفع ! قالت وقد علت شفتيها ابتسامة كبيرة.

- لقد ذكرت لك بأن العادات العربية الأصيلة ، تتطلب من الرجل أن يدفع هو ثمن طعام رفيقته !

- إنها عادات جميلة ! ورفعت عينيها حتى قابلت عينيه، وأضافت:

- ربما أذهب وأعيش في بلادكم ليدفع الرجال فاتورة طعامي ! قالت وأتبعتها بضحكة خفيفة!

لم يعلق الفتى على مقولتها، فقد كان يفكر بنادلة المطعم وحبيبها الذي قتل في اليابان !

- إن الرجال هنا قلما يدفعون فاتورة فتاة لم يتوقعوا منها شيئاً مقابل ما دفعوا ! قالت.

- لقد كانت والدتي، وقد تجاوزت الستين من عمرها، عندما تركب الحافلة من بيتنا إلى وسط المدينة أو العكس، وعندما يمر عليها محصل الإيجار وهي تجلس في المعقد الخلفي المخصص عادة للنساء، تمد له يدها بالإيجار، فيناولها التذكرة ويعلمها بأن الإيجار مدفوع من أحد الركاب في مقدمة الحافلة ! وتصنّع راكان ابتسامة وأردف:

- لا شك أن واحداً من الجيران أو المعارف هو الذي فعل ذلك، ويكون في أغلب الأحيان، هو يعرفها وهي لا تعرفه ، بسبب تقدمها بالعمر!

- إن هذه عادة جميلة تجعل المرأة تشعر بأهميتها وتعتز بأنوثتها.

وهنا ابتعدت قليلاً من جانبه إذ عبر من بينهما مسافر كان في عجلة من أمره، ربما مخافة أن تفوته الحافلة. وعندما عادت إلى جانبه استطردت:

- بلا شك ! أن هذا سيتغير مع مرور الزمن، بعد أن تتساوى المرأة بالرجل. لقد كانت هذه العادة ممارسة في بلادنا، ولكن كل شيء

قد تغير في هذه الأيام ، حتى عادة وقوف الرجل للمرأة في الحافلة أو القطار قد ماتت !

- لا تنسي أن المرأة هي التي طالبت بالمساواة، وأن هذه المساواة هي التزام ومسؤولية. قال راكان متلعثماً !

- صدقني إن هناك كثيراً من النساء لا يحببن هذه المساواة، لأنها أفقدت المرأة متعة أنوثتها وأفقدتها عناية الرجل ورعايته لها! قالت بحسرة.

وهنا وصلا باب الحافلة مع مجموعة أخرى، فناولت الفتاة تذكرتها للسائق الذي كان يحمل آلة صغيرة يثقب بها البطاقات؛ ودخلت الحافلة وتبعها هو.

بعد دقائق أغلق السائق باب الحافلة، ثم غادر المحطة !

لاحظ راكان أن عدداً غير قليل من المسافرين الذين ركبوا معه الحافلة من محطة نيويورك، لم يعودوا إلى مقاعدهم، وأن عدداً كبيراً من المسافرين الجدد قد حلّ مكانهم؛ كما لاحظ أيضاً أن أماً وابنتها قد ركبتا الحافلة، وقد جلستا في أحد المقاعد بالمؤخرة!

كانت المرأة بحدود الخامسة والثلاثين من عمرها، وكانت الابنة بحدود السادسة عشرة. كانتا تتطلعان بشوق ونهم وعيون متقدة في وجوه المسافرين وكأنما تبحثان عن إنسان أضاعتاه، وكانت عيونهما تتفحص كل راكب يدخل الحافلة!

لقد غمزت البنت لراكان بعينها اليسرى ، أكثر من مرة، حتى خيل إليه أنها اختارته من بين الركاب جميعاً ليمارس الجنس معها، فهيجت عواطفه وتمنى لو يستطيع أن يخلو بها، ولكنه شعر بخيبة أمل عظيمة ، عندما لاحظ أنها تغمز بعينيها كل من تقع عينيها عليه ، من الرجال !

كانت المرأتان تتفحصان كل داخل إلى الحافلة ، وكأنهما جزّاران يتحسسان شاةٍ قبل شرائها! لم تكن الابنة هي الوحيدة التي توزع الابتسامات وترسل الغمزات، وإنما كانت الأم كذلك !

ما أعظم الشبة بين الأم وابنتها! لقد كانتا صورتين طبق الأصل، ولولا فارق السن بينهما ، لظنهما الناظر إنسانة واحدة ! كانتا ذاتي ملامح متشابهة، وتقاسيم وجهيهما كأنما الخالق قبل أن يخلقهما

وضعهما في قالب واحد. كانتا ذاتي شعر ذهبي طويل مرسل فوق ظهريهما يتطاير كلما تحركتا، وكانتا ترتديان نفس الملابس!

*****

لقد تحدث راكان وجوليانا حوالي أربع ساعات متواصلة، بعد أن عادا من تناول وجبة الإفطار! لقد تحدثا في شتى المواضيع، المهمة منها والتافهة على حد سواء! حدثها عن أمه وأخواته وإخوانه، وكيف أن أمه حاولت أن تمنعه بشتى الوسائل من السفر، وكيف أنها ذهبت إلى السفارة الأمريكية وقابلت القنصل وطلبت منه أن لا يمنحه تأشيرة سفر بحجة أن والده متوفي وأنه أحد أخوين يعيلانها، ثم كيف أن القنصل أعلمها بأن الابن غير مسؤول عن أمه حسب القانون الأمريكي، وأنه لا يستطيع أن يمنعه من السفر! وكيف أنها وسّطت له أقاربه وأصدقائه، ولكن دون جدوى!

وحدثها أيضاً عن طفولته ودراسته! حدثها عن بلده وكيف يعيش الناس بها وماذا يأكلون... حدثها عن طموحاتهم البسيطة وأحلامهم المتواضعة... عن عاداتهم وتقاليدهم!

كان يتحدث بسهولة وطلاقة، وكأنما يتحدث مع إحدى أخواته؛ إذ لم يعد يشعر بالخوف والوجل والرهبة والتردد التي كانت تعتريه أول الأمر ! كان يتحدث بيسر وطلاقة، حتى أنه هو نفسه استغرب هذا الاسترسال بالحديث، وهذا الفيض من الأفكار، وكانت هي مستمعة مطيعة، لا تقاطعه إلاّ لتستفسر عن شيء لم يوضحه أو لم تفهمه!

عندما أعلن سائق الحافلة ساعة الغداء، وقف راكان بحماس وهمة وانحنى بأدب واحترام زائدين، وسأل جارته:

- هل تمنحينني الشرف، بأن تقبلي دعوتي إلى الغداء؟ قال ذلك ومدّ يديه مفتوحتين وكأنما يفتحهما أمام ضريح ولي يطلب منه الدعوات والتبريكات، وقد رافقها بابتسامة كبيرة وهو ينظر في عينيها كأنما يستجديهما القبول!

- إنني أحب ذلك كثيراً، ولكن هذه المرة سأدفع أنا فاتورة الحساب!

أحس الفحل العربي وكأنما تحتضنه بعينيها، وتضمه إلى صدرها، وتبقيه بين نهديها؛ وابتسامة خلاّبة تضجّ بالإغراء وتثير الشهوة، فوق شفتيها! تغري العابد في صومعته، والفنان في مرسمه!

أمسكت بيديها الاثنتين يديه، ثم قفزت من مكانها بخفة ورشاقة مذهلتين. شعر الفتى في هذه المرة بيديها الطريتين الناعمتين، ثم اعتراه شعور لذيذ خدّر جسمه وروحه معاً، وأحسّ كأن جسمه يعانق جسمها؛ وتمنى لو يقضي عمره ممسكاً بها!

تركت له يديها يتلمسهما ويتحسسهما كما يشاء بحبور ونشوة، ولم تحاول سحبهما منه، بل على العكس من ذلك بدأت تتطلع في وجهه وعينيه بعمق وتمهل وكأنما هي عرافة تريد أن تقرأ مستقبله من خلال خطوط وجهه، ثم حوّلت بعدها عينيها عن وجهه ونظرت هذه المرة في عينيه وكأنما هي معشوقة تيمها الحب وأضناها البعاد، تتضرع إلى حبيبها أن لا يتركها وأن لا يبتعد عنها!

امتدت فترة التأمل والإعجاب هذه، فأحسّ صاحبنا وكأنما فقد السيطرة على إحساسه، وشعر أنه يتلاشى في العدم ويتحول إلى كومة من الأثير تسبح في الفضاء الواسع! لا شك أن حواء الماكرة شعرت بوقع جمالها وتأثير سحرها على جارها، وأنه قد فقد السيطرة على أحاسيسه فخافت أن يقوم بعمل يحرجه أمامها، فسحبت يديها من بين يديه، فبقي واقفاً في مكانه متجمداً كالصنم، ولم يستيقظ من تنويمته إلاّ بعد أن سحبته جارته من يده وجرته خلفها.

- إنك تبدو كابنة الرابعة عشرة، تغزّل أحدهم بجمالها فجرح حياءها! كم تبدو رقيقا ومتألقا عندما تحمّر وجنتاك خجلاً ويتصبب جبينك عرقاً! قالت الحسناء.

ولما كان راكان مازال منوّماً تحت تأثير سحر تلك النظرات القاتلة، ولم يفتح فمه بكلمة أضافت:

- أنا لم أرَ في حياتي شاباً له دماثة خلقك وأدبك! لا شك أنك تربيت تربية دينية عظيمة!

- وأنا لم أرَ في حياتي من هي أجمل منك ولا أدمث خلقاً ! وجد راكان لسانه ينطق بهذا دون أن يكون له إرادة به!

ضحكت الأفعى بخبث وقالت:

- شكراً للمسيح الذي جعلك أخيراً تعترف بأنني جميلة!

تشجع راكان عند سماعه مقولتها فقال بحماس زائد:

- أنتِ لست جميلة فقط ؛ أنتِ أجمل امرأة رأيتها في حياتي ! صدقيني؛ أنتِ أكثر عذوبة ورقة ونعومة من جميع النساء اللواتي رأيتهن!

لم يكن الذي يتحدث هو راكان، وإنما لسانه الذي أفلت زمامه منه!

- أنتَ تمتدحني كثيراً، فشكراً لك! قالتها وقد أضاء وجهها!

تمنى الفتى لو يستطيع في تلك اللحظة أن يهجم عليها ويعانقها ويلتحم بها، فقد شعر أن ذئاب الشهوة المسعورة في داخله قد انفلتت من عقالها وتستعد للانطلاق !

- أنتِ يا آنسةجوليانا قطعة فنية من الجمال المجسم، أبدع الخالق في صنعها! ما أسعد الإنسان الذي تحبينه ! قال راكان وهو يحملق بها شبقاً، ودقات قلبه المتلاحقة تضرب طبلتي أذنيه فتكاد تفجّرهما! لقد كان يعريها بخياله فيعانقها ويضاجعها!

- أنا أحب المسيح! إنه هو حبي الأكبر! قالت باطمئنان.

أثارت جملتها غضب الفحل، إذ أفسدت عليه نشوته وسعادته وحبوره، وهمّ أن يصيح بها ويطلب إليها أن لا تعود إلى موضوع الدين والمسيح، لأن هذه اللحظات بالنسبة له هي لحظات خالدة ولن تعوض ؛ ولكنها تابعت كلامها بهدوء وتأنٍ:

- إن في حياتك وتصرفاتك لمسة ربانية. كم يسعد الرب المسيح أن تكون واحداً من أتباعه ومحبيه!

- ألا تستطيعين أن تنسي المسيح ولو لفترة قصيرة؟! قالها راكان بغضب شديد وبنرفزة وتأفف.

- كلا، لا أستطيع ذلك ولا للحظة واحدة ! ومصمصت شفتيها بحزن وخيبة أمل وأردفت:

- إن المسيح هو كياني ووجودي. إنه الهواء الذي أتنفسه ونور عيني اللتين أرى بهما. إنه كل شيء بالنسبة لي. إنه كل ذرة في كياني. أنا أعيش من أجله فقط وإلاّ لولاه لكنت من عداد الأموات منذ سنوات.

إنني أعتبر يوم ولادتي هو يوم رأيت الضوء؛ يوم رأيت نور الله؛ ويوم آمنت به! إنه أنا وأنا هو! قالت باطمئنان وثقة!

- هنيئاً له بكِ وهنيئاً لك به !قالها راكان بحدة وغضب !

أقبلت النادلة تحمل غداءيهما، فانهمك كل منهما يتناول غداءه ويشرب عصيره.

ناولت جوليانا أمينة الصندوق عشرين دولارا مع الفاتورةً، ولكن راكان استرجعها منها وأعطاها إلى رفيقته التي أخذتها دون نقاش؛ وعندما وقف ممسكاً لها الباب الزجاجي لتخرج قبلاً منه، قالت:

- لن أدعك تدفع عني ثمن أكلي بعد الآن. إنك في كل مرة تصرّ على الدفع وترفض أن تعطيني حتى الفرصة لدفع البقشيش!

- كم أتمنى لو أدفع عمري من أجل عينيك ! وجد الفتى لسانه يقول دون إرادة منه !

احمّرت وجنتاها ونكست رأسها إلى الأرض ، وقد علت جبهتها موجة من العرق الساخن ! لقد كان خجله هو أكثر من خجلها، إذ استغرب هو نفسه ، كيف خرجت الكلمات، وكيف تجرأ على أن يقول مثل هذا الكلام ! وتساءل بينه وبين نفسه؛ هل هو نادم على ما تفوه به؟! ولم يستطع أن يجيب على هذا السؤال.

- هل لكِ أن تخبريني كيف رأيت الضوء؟! سأل راكان بعد أن أخذ كل منهما مقعده في الحافلة.

- وهل حقاً تريد أن تعرف ذلك؟! قالت بفرح وجذل اهتزّ لهما جسمها.

- هذا إذا لم يكن عندك مانع!

- مانع! إنني سعيدة جداً جداً أن تطلب مني، أنت بالذات، مثل هذا الطلب! قالتها وقد ازدادت فرحتها!

"سأكون أسعد لو تدعيني أغفو على صدرك وأرضع حليب العذرية من نهديك... ثم أشرب من رحيق نهر حبك الخالد! إنك يا رفيقتي مهووسة بالحديث عن الدين والمسيح والضوء والخلاص، وأنا مجنون بل ومتيم بهاتين الشفتين اللتين لم يخلق رب الأكوان أكثر منهما جمالاً ولا أشد منهما إغراء! أنت تتحدثين عن خلاص الروح

وعن الجنة والنار ويوم القيامة، وأنا أريد أولاً وقبل ذلك، أن أخلّص جسدي الذي يعيش بالحرمان وبأغلال الجوع منذ أن ولد ! إنك تسعدين وتطربين وأنت تتحدثين في الدين، وأنا أسعد وأطرب عندما أتحدث عن الجسد والعناق والارتواء !"

"صدقيني يا هذه، وأقسم لك بقهري وعبوديتي وحرماني، إنك وأنت تتحدثين في أمور الدنيا والحياة، لساحرة فاتنة، وتبدين وكأنك آلهة من آلهة الإغريق أو الرومان!، لقد رأيت كثيراً من الجميلات، في الأماكن العامة وفي المجلات ... في السينما وفي الجامعات ... ولكن بمثل رقتك وسحرك ونعومتك لم أقابل ! أنت قطعة من السحر والإغراء والفتنة ! إنك والله تشعلين الحرائق في دمي كلما أتطلع في وجهك وأرى بريق عينيك ولهيب شفتيك ! إنك وأنتِ تنظرين إليَّ أو وأنتِ تتحدثين معي، تسحرين عقلي وتستولين على عواطفي وتستبدين بمشاعري؛ ولكنك عندما تجادلين في الدين تتحولين إلى جلفة... فظة... خشنة... تفقدين كل عذوبتك وسحرك، وتتجردين من كل رقتك وأنوثتك وحتى آدميتك! إنك تتصرفين وكأنك رجل من رجال الدين الجهلاء والمتزمتين، في الوطن الحبيب !"

- كان والداي ضعيفي الإيمان، لم يذهبا إلى الكنيسة إلاّ في المناسبات، ولكنهما لم يكونا يشربان الخمر ولا حتى يدخنان، وكانا يحبان بعضهما بعضاً كثيراً. لم يرزقهما الله بمولود سواي. لقد رزقهما الله بي بعد انتظار طويل، أكثر من عشر سنوات. سرّحت الشركة التي كان يعمل بها والدي بعض موظفيها وكان والدي هو أحدهم. وأمضى فترة يبحث عن عمل ليعتاش هو ووالدتي ولكن لم يجد ! قالت .

- إنها مأساة عندما لا يجد الإنسان ما يأكل! علّق راكان مواسياً!

- كانت أمريكا تمرّ في تلك الفترة بكساد اقتصادي قاتل، وكانت البطالة كبيرة، فاعتراه حزن وانقباض شديدين؛ وبسبب عدم معرفته الخالق، وعدم رؤيته نور الله، صار يدفن همومه بشرب الخمر. لم تهتم والدتي أول الأمر فظنت أنها غمّة ستزول حالما يجد والدي عملاً، ولكنها كانت مخطئة، فقد وجدت له والدتي عملاً، بواسطة أحد أقاربها ولكنه رفض العمل؛ لا لأن الوظيفة الجديدة أقل أجراً وأدنى مكانة من وظيفته الأولى، بل لأنه لا يريد أن يعمل! لقد تعود على الكسل!

- إن الذين يداوون أحزانهم بالخمر هم كالمستجير من الرمضاء بالنار! قال الشاب.

- السبب هو لأنهم لا إيمان عندهم، والإنسان بدون إيمان مخلوق ضائع في هذه الحياة، يتخبط بها على غير هدى! قالت الشابة بحماس !

لم يعلق الفتى وإنما هزّ رأسه علامة الموافقة. استرسلت البنية تقول:

- كان يمضي معظم وقته بالبار، وكنت أذهب ووالدتي لإحضاره. كان قلب والدتي يتمزق حزناً عليه، إلى أن أدركته رحمة الله فمات؛ ولحقت به والدتي بعد أقل من ثلاثة شهور! لقد ماتت حزناً عليه !

مسحت الشابة دموعها بمنديلها واسترسلت!

- إنني حزينة أبكي كلما أتذكر بأنهما ماتا دون أن يريا النور، ويؤمنا بالمسيح، ودون أن تنقذ روحاهما! وبدأت تنهنه وأضافت:

- إنني أصلي كل ليلة من أجل خلاص روحيهما، وأطلب إلى الله أن ينقذ روحيهما من عذاب جهنم!

- لا شك أن الخالق سيستجيب لدعائك ! قال راكان مواسياً وقد هزته قصتها، ثم أضاف:

- لا شك أنهما الآن في جنة الخلد ينعمان بخيراتها بسبب أدعيتك الصالحة لهما! قالها معزياً!

مرّت فترة صمت قصيرة قطعها الشاب بقوله:

- لقد مات والدي ولم أبلغ السادسة من عمري. كنا ستة أطفال أربعة بنات وولدين، لم يبلغ أكبرنا الحادية عشرة من عمره بعد، وكانت الصغرى ما زالت في رحم أمها. لم يكن لنا معيل سوى والدتنا، ولم يكن لنا مصدر رزق سوى قطعة أرض صغيرة كانت والدتي تزرعها بيديها، عاماً قمحاً وعاماً بندورة، وكان المحصول قليلاً جداً لا يكاد يسد رمقنا!

وهنا اهتاجت عواطف راكان وهو يعود إلى الوراء سنوات عديدة، ونزلت دمعتان كبيرتان شعر أنهما أحرقتا خديه! ثم تابع حديثه:

- لقد تعذبت والدتنا وتعذبنا معها، ولكني أشعر الآن بالسعادة، فلقد خلق الألم مني إنساناً مرهف العواطف والأحاسيس يملأ نفسي الطموح والأمل.

لا شك أن كلمة "ألم" قد أثارت ذكرياته؛ فأضاف بحماس ونبرة قوية:

- إن الألم يا آنسة جوليانا يهذب العواطف ويرقق المشاعر ويصقل العقل وينير القلب أيضاً. إنه في رأيي أحسن معلم في هذه الدنيا! لقد قرأت مرة لمفكر عظيم غاب عني اسمه يقول ما معناه؛ لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم!

- إن المسيح هو أعظم معلم لنا؛ إنه المعلم الأول. لقد تعذب كثيراً وعانى طويلاً ومات على الصليب من أجل خطايانا. إن حب المسيح هو الذي يهذب العواطف ويرقق المشاعر ويصقل العقل وينير القلب. إنه هو الحب الحقيقي والسعادة السرمدية ! وتوقفت قليلاً، ولما لم يقل هو شيئاً استطردت.

- بعد موت والدتي أرعبتني فكرة الحياة لوحدي، حتى كادت تفقدني عقلي. أين أذهب وكيف سأعيش؟! وكلما أمعنت التفكير كلما تعمقت مخاوفي واستولى على قلبي هلع مزلزل؛ لم ينقذني منه سوى طلب عمتي أن أعيش معها وأن تتكفل برعايتي حتى أنهي دراستي الثانوية العامة، ثم بعدها أستطيع أن أعتمد على نفسي.

انحرفت الصبية قليلاً في مقعدها ونظرت إلى الفتى، إذ لعلها تريد أن ترى إن كان مصغياً إليها، ولما وجدت أنه يفعل تابعت كلامها.

- كانت عمتي عانساً ومتقدمة في السن وتسكن لوحدها. لقد قالت لي بأنني سأؤنس وحدتها وأبدد وحشتها، ولكن لسوء حظي ماتت بعد أقل من ستة شهور لسكني معها! كانت آخر معقل وأمل لي!

وكأنما خوف الصبية في الماضي قد انعكس عليها الآن وهي تقص قصتها، فشعر الشاب وكأنما قلق الماضي وخوفها قد انتقلا إليها الآن، حيث بدت منقبضة النفس حزينة القلب وقد انعكس ذلك على إشراقة وجهها!

فكّر أن يقول كلمة يواسيها بها، ولكنه شعر بأنه من الأفضل أن لا يفعل! لقد كانت الفتاة مندمجة في سرد قصتها وكأنما هي تعيشها الآن، فآثر الصمت !

- لقد استولى علي رعب لا أستطيع وصفه، واستولت عليّ فكرة أن أهيم على وجهي في الشوارع، فخفت أن أفقد عقلي! لقد شعرت أن القدر يطاردني لينتقم مني بسبب خطيئة أبينا آدم التي اقترفها ، يوم عصى أوامر الله وأكل من شجرة التفاح المحرمة !

وهنا نظرت إلى وجه الفتى إذ لعلها تريد أن ترى وقع كلامها في نفسه، فوجدته صامتاً كالحمل الوديع يتأمل صدغها المقابل له، بعدها تابعت كلامها:

- لقد أخذتني جارة عمتي إلى ملجأ الأيتام، وهناك شعرت بغربة ووحشة شديدتين! كانت الراهبات يدرسننا جميع الدروس قبل الظهر، أما بعد الظهر وفي المساء أيضاً فكنّ يشرحن لنا دروساً من التوراة ويحدثننا عن معاناة السيد المسيح والاضطهاد الذي لاقاه! وبعد انتهاء كل درس، كنا نركع ونصلي لله أن يرزقنا خبزنا قوت يومنا، وأن يمنحنا السلام والاطمئنان.

وفجأة توقفت البنية عن الكلام، ولاحظ راكان أنها تحدق بالمقعد الذي أمامها وقد اتسعت حدقتا عينيها، وكأنما نسيت نفسها وتلاشت من الوجود...!

وطالت فترة صمتها، فخيل له أنها ارتحلت في غيبوبة عميقة، ثم فجأة بدأت تتكلم وكأنما هي تتكلم من وراء الطبيعة! كانت تتكلم بصوت خافت وببطء شديد!

- في نومي، جاءني أبونا المسيح... كانت لحيته البيضاء الطويلة، كأنما هي أعمدة من نور، تصل بين الأرض والسماء، وكان وجهه مشرقاً بنور إلهي... كان جميلاً جداً... كان الجمال مجسماً وكان لطيفاً ورقيقاً كرقة النسيم، وكان صوته حنوناً ساحراً كأنه عزف كمان... وضع يده على كتفي وقال: "أصغي إليّ جيداً يا ابنتي يا جوليانا! أنا المسيح ابن الله؛ لقد اخترتك لتكوني من المقربين إليّ وأريدك أن تهدي الضالين وأن تخلّصي أرواح المعذبين. أريدك أن تدرسي التمريض

حتى تخففي من معاناة البؤساء والمساكين...!" ثم اختفى فجأة كما ظهر فجأة!!

توقفت الفتاة عن الكلام، وظلت محدقة في ظهر المقعد أمامها.

خيل لراكان أنها توقفت وقتاً ليس بالقصير قبل أن تفتح فمها.

- نفذت كل ما طلبه مني! درست التمريض باهتمام شديد، فنجحت نجاحاً متميزاً، وها أنا أذهب من بلد إلى آخر لأخدم المساكين وأخفف من معاناتهم، وكذلك لأنقذ أرواح التائهين الذين يبحثون عن الخلاص والنجاة ! قالتها كأنما تلقي عن ظهرها حملاً ثقيلاً.

- لا شك أنك محظوظة ليختارك المسيح لتنشري كلمة الله! قالها الشاب مخلصاً.

- إنني أعرف ذلك. الشكر لله. لو أنني أعرف أن شخصاً بأقصى المعمورة يحتاج إلى الهداية والمساعدة، مهما كان نوع هذه الهداية والمساعدة، لما تباطأت لحظة واحدة في الذهاب إليه وإغاثته! قالتها بخشوع وتبتل، مس شغاف قلب جارها!

"صدقيني يا جارتي، وأقسم لك برب السموات والأرض الذي أنحني له إجلالاً وتعبداً وطاعة؛ وأقسم لك أيضاً بأنبيائه ورسله وكتبه، أنني أقدّس كل الأديان، وأحترم جميع المعتقدات، ولكنني أنا الآن بحاجة إلى هداية ولكن من نوع آخر، أيتها الفاتنة! إن كل ذرة في جسمي تغلي كالبركان وكل خلجة في نفسي بحاجة إلى عناقك وقبلاتك؛ ولست بحاجة إلى أن تذهبي إلى أقصى المعمورة، تبحثين عن إنسان تساعدينه، وعن محروم تشبعي حرمانه ! فأنا ملاصق لك يكاد كتفي يلامس كتفك؛ وأموت جوعاً ، الى عناقك ... الى جسدك !"

- لو أنك تفتح قلبك فقط، وتقرأ التوراة، ثم تصلي بصدق وحرارة، وتطلب من الرب أن يريك الضوء، ويُدخِل الإيمان إلى قلبك، لاستجاب إليك في الحال! لقد ولد الإنسان بالخطيئة وهو يحتاج إلى الإيمان ليتخلص من خطيئته !قالت الفاتنة.

- وهل تعتقدين أن هذا يحدث بهذه السهولة والبساطة؟! سأل راكان صادقاً وبحزن.

- طبعاً بكل تأكيد ! فقط افتح قلبك وسيدخله المسيح ! قالتها بحماس!

"يا لسذاجتك يا جوليانا! لقد نسيت أنه لكي يصبح الإنسان متديناً يجب أن يكون عنده الإيمان أولاً. أما أنا فقد فقدت إيماني منذ سنوات خلت. لقد خفف الإيمان من آلامك وأعاد الهدوء والطمأنينة إلى قلبك، فخففت من آلام المعذبين، وأعطيت الضائعين أملاً يعيشون من أجله! لقد كنت سعيداً مثلك يوم كان لي معتقد وعندي إيمان. كنت أجد السلام والسكينة وراحة البال يوم كنت مثلك، ولكنني الآن أعيش عذاباً لا يرحم وقلقاً مستمراً. ليتني أحمل مثل معتقدك، وعندي نفس هدوئك واطمئنان بالك؛ ولكنني ويا للمأساة ، عندما بلغت العشرين من عمري، فقدت إيماني ففقدت بفقده الهدوء والسكينة والأمان أيضاً!"

- وهل أعتبر متطفلة إذا سألتك لم تركت بلادك؟!

ضحك راكان طويلاً، فلاحظ أن وجه الفتاة قد احمر وغطّته موجة من حبّات العرق!

- أنا آسف! لقد جعلتك تخجلين! قال ذلك وهو يحاول جاهداً أن يكفّ عن الضحك!

- لقد ضحكت لأن السبب لا شك مضحك جداً بالنسبة لك؛ بل وأتجرأ وأقول، وربما يكون مستغرباً ومستهجناً!

- أليس هو نفس السبب الذي يأتي من أجله كل الذين يأتون إلى أمريكا؟!

- تعنين المال وإيجاد فرصة أحسن للمعيشة؟!

هزّت البنية رأسها بالإيجاب.

- صدقيني.. لا!

بقيت الفتاة تنظر إلى وجهه وكأنما كانت تريد أن تشق بعينيها الثاقبتين رأسه وتدخله لتقرأ أفكاره!

- سميها لعنة إذا شئت!

- لعنة؟! إنني لا أفهمك؟! قالتها باستغراب وحيرة وقطّبت ما بين حاجبيها!

وفجأة تقلص وجه راكان وأحس أن عواطفه الدفينة وذكرياته المسحوقة قد ارتطمتا ببعض وبدأتا تغليان وتتلاطمان. عاودته ذكريات

طفولته وآلامها، وأحسّ برغبة قوية إلى أن يظل يتحدث حتى آخر الزمان، أو حتى يسقط على الأرض فاقد الوعي!

- نعم، إنها لعنة! لعنة أن يكون الإنسان أحياناً من عائلة معينة وفي زمن وبلد محدد! إنها لعنة تلاحقني منذ أن ولدت؛ صدقيني !

- ولم تقول ذلك؟! يجب علينا دائماً أن نكون متفائلين! إن التشاؤم هو ضد المعتقد الديني! قالت الصبية وعلامات الحزن والتأثر باديتين على وجهها!

- بعد وفاة والدي كانت والدتي تعمل بقسوة وصبر شديدين لتعيلنا نحن صغارها الستة ! كانت أحياناً تغلق باب البيت وتحتضننا، نحن أطفالها الستة، فتبكي هي ونبكي نحن معها ! كان شبه واجب يومي لا بد من تأديته. كانت تشرح ذلك شعراً بكلمات ساذجة كيف أن أبا أولادها ومعيلها قد خطفه الموت وتركها وحدها تصارع الزمن وتتعذب للحصول على طعام "لقطاطيم" اللحم الستة؛ وكيف ذهب وتركها تنام وحيدة في فراش بارد؛ وهي مازالت في عزّ صباها وأوج جمالها!

- إن الله لا يرضى أن يعذب الإنسان نفسه ! إن هذا ضد تعاليم السيد المسيح ! قالت البنية ، بثقة وإيمان !

- كانت تظل تبكي، ونبكي نحن معها، حتى ينفطر قلب كل واحدٍ فينا، وحتى يعتقد الواحد منا أن عينيه كانتا جمرتين حمراوين متقدتين ثم تحولتا إلى رسائل تتلاشى من خلال الدموع. إنني وحتى عندما كبرت، لم أستطع التخلص من عادة البكاء هذه ، تماماً كما لم تستطيعي أنت التخلص من الركوع أمام فراشك في كل ليلة ، وقبل أن تنامي، لتصلي.

- إنني قبل أن آوي إلى فراشي في كل ليلة أسجد أمام سريري وأصلي بحماس وحرارة لخلاص أرواح والدي وعمتي ولجميع الذين يرجون الخلاص من سكان الأرض . لم أذكر مرة واحدة أنني سجدت وصليت ونهضت دون أن أبكي طويلاً حتى تحمّر عيناي! قالت الفتاة.

- لقد رأيت ذلك البارحة! كانت عيناك، عندما نهضت من سجدتك، حمراوين كالجمر! قال الفتى وهو ما زال تحت تأثير الانفعال.

- لقد صليت البارحة، فقط، من أجل خلاص روحك ! لقد رجوت الرب أن يريك الضوء وأن تصبح مسيحياً مؤمناً ! قالت بحماس ولكن ببطء وهي تشد على مقاطع الكلمات !

- ليتك تصلين من أجل أن تُرفع اللعنات عني أولاً ! ولما لم تعلق على مقولته استرسل:

- وعندما بلغت الرابعة عشرة من عمري أحببت جارة لنا؛ أحببتها لدرجة العبادة والتقديس، ولدرجة أن صورتها لم تكن لتفارق مخيلتي. كنت أراها في كتاب الدرس وفي الطريق عندما أسير وفي الطعام الذي آكل. لقد كنت أقضي الليل متصوراً إياها واقفة أمامي شامخة كالعملاق كأنما أنا وثني يقف أمام صنمه يسجد له يرجو رضاه ! كنت أحدّق بالظلمة اللامحدودة من حولي، فقد كنا نسكن في كرمنا بالصيف في الجبال، بعيدين عن المدينة، وكان نسيم الليل يتكسّر على وجهي وجبيني، وأنا أناجيها وأشكو إليها حبي وهيامي بها، ودموعي تنزل غزيرة ساخنة فوق خدي !

- يجب أن لا نسجد لأحد، ولا نبكي من أجل أحد، إلاّ للرب المسيح !

- استغفر الله العظيم! إن هذا شرك بالله! تمتم راكان بالعربي!

حملقت الصبية به، وكأنما تريد أن تسأله عما قال، ولكنه تجاهل نظراتها وأضاف:

- كانت تكبرني بعامين، وكانت جميلة كالورود ورقيقة كالنسيم. انتهت أشهر الصيف وعدنا إلى المدينة واستأنفت دراستي. لقد أمضيت العام الدراسي كله، أحلم بلقائها في فصل الصيف المقبل، حيث أنهم يملكون كرماً من العنب إلى جانب كرمنا يمضون به أشهر الصيف الثلاثة كما نفعل نحن. لقد كنت أرى صورتها مرسومة أمامي على صفحات كتب الدروس، وكنت أمضي الليالي الطوال أناجي طيفها وأشكو إليها هيامي بها وغرامي.

- إن مثل هذا الحب، لا يمنحه إنسان إلى آخر! إنه يمنح إلى السيد المسيح فقط! قالت بحزم وتحدٍ!

- "المسيح! المسيح! المسيح! كل شيء المسيح! استغفر الله العظيم! بالله عليك إنسي المسيح، ولو لفترة قصيرة، حتى نتحدث عن غيره!" قال راكان بالعربي وبغضب!

- ماذا قلت؟!

- تذكرت الآن تلك الفتاة، فحزنت! قال راكان هذا وتابع حديثه:

- والتقينا صيف العام التالي، وحاولت أن أشعرها بحبي ولكنني لم أوفق، وأخيراً صممت أن أخبرها! لقد أمضيت أسبوعاً كاملاً أتدرب على ما سأقوله لها؛ إلى أن جاء اليوم الموعود! كان والله قلبي يدق دقات عنيفة لدرجة أنني أحسّ أن طبلتي أذني تكادان تنفجران، كما أن لساني قد تجمد في حلقي، وفكرت أن أهرب من أمامها! لقد كنت خائفاً لدرجة أن الكلمات ترفض الخروج من فمي! ثم جاء اليوم الذي خلوت بها ووقفت أمامها كالعابد ومن بين دموعي، قلت لها تلك الجملة التي صار لي أكثر من أسبوع أتمرن عليها! كنا نقف تحت شجرة تين كبيرة: "إنني أحبك يا زينة، ولا أستطيع أن أعيش بدونك ! ومصمصت شفتي وأردفت: "إنني أريد أن أتزوجك عندما نكبر!"

- انفجرت تضحك وقد انبعج ظهرها إلى الوراء، ثم ضربت يديها ببعض كأنما تسمع نكتة أعجبتها، ومن شدة الخوف شعرت أن رأسي تفجّر، وغامت الدنيا في عيني وكدت أسقط، شعرت بذلك وأنا أنتظر جوابها. كنت أظن أنها تضحك من شدة الفرح، وكنت أظن أنها ستتنحني وتقبلني وتعلمني بأنها تحمل لي نفس الود ونفس الشعور! ولكنها قالت: "إنك ما زلت طفلاً صغيراً تبكي إذا تأخرت عليك أمك بالأكل."

أحسست أن جذع شجرة التين الكبير قد هوى على رأسي فطحنه، فهربت من أمامها، وبقيت أركض وأركض وأركض حتى سقطت من الإعياء !

- لو كنت قد أحببت السيد المسيح ، لما كان رفض حبك وخذلك كما خذلتك تلك المرأة! قالت الصبية بهدوء وعقلانية وكأنما وجدت حلاً للمشكلة !

اغتاظ راكان لسذاجتها بل لغبائها، وفكر أن يثور عليها، ولكنه عذرها إذ لا تفكير عندها ولا حلول لها إلاّ بالسيد المسيح ، سلام الله عليه !

- أمضيت طيلة فصل الصيف أتجنب لقائها، وإن كان حبي ل

ها وإهانتها لي قد نخرا عظامي، فكنت أجلس كل ليلة بعد أن ينام الناس تحت تلك الشجرة، أترنم بقصائد الحب والغزل وصدود الأحبة؛ وأبكي، وأظل أبكي حتى الهزيع الأخير من الليل!

كانت البنية تراقب ملامح وجه جارها وتقلصاته، وكأنما احترمت شعوره أو لعلها كانت مستمتعة بقصته، فلم تحاول مقاطعته هذه المرة ولم تنبس ببنت شفة!

- بعد تلك الصدمة شعرت بالضياع والفراغ، وصرت أبحث عن شيء أملأ به فراغ حياتي ولياليي الباردة. ولم أجد خيراً من الدين ألجأ إليه وأحتمي به من وحدتي وعذابي. لقد رأيت كما تقولين الضوء، ولكن الضوء الإسلامي وليس الضوء المسيحي. كنت أصلي الخمسة فروض، ثم أصلي مع كل فرض أربعة عشر فرضاً وهي عدد سنوات عمري لفترة طويلة! كنت أغلق عليّ باب غرفتي، وبعد أن ينام الأهل كنت أرتل القرآن وأظل أرتله حتى تصير عواطفي تغلي فأنفجر أبكي فوق السطور التي أقرأها.

- لو كنت قابلتك في تلك الأيام، لصليت من أجلك، ولأخذ السيد المسيح بيدك! قالت بثقة وإيمان!

عذرها الفتى لما قالت، إذ إنها لا يمكن، حتى ولا بالخيال، أن تتصور الفارق الحضاري بين المجتمعين؛ عادات وتفكيراً، وتصرفات أحدهما تبعد آلاف السنين عن الآخر! ثم تابع حديثه:

- كنت أبدد أحزاني وآلامي في الدموع التي كنت أذرفها فوق صحائف القرآن! كنت أرتله وأبكي حتى أحسّ أن كل آلامي وأحزاني وهمومي وإحباطاتي، قد نزلت مع دموعي. وعندما أنتهي من ذلك أشعر بصفاء النفس وراحة القلب، وأحسّ أنني قد ألقيت بكل همومي وآلامي بين يدي الخالق... كنت أصلي كل وقت من أوقات الصلاة حاضراً وفي المسجد، وكنت آتي إلى المسجد قبل موعد الصلاة، فأكون أول الحاضرين، وأظل أصلي وأصلي حتى بعد أن ينصرف

الجميع! حتى كنت أسمع بعض المصلين يتهامسون ويقولون "إنه حبيب الله! هنيئاً له!"

- إنها لنتيجة رائعة أن يقودنا حبنا لإنسان مثلنا، إلى حب الخالق وعبادته، سبحانه وتعالى! قالت الصبية!

لأول مرة شعر الشاب بأن جارته تفوهت شيئاً منطقياً في أحاديثها عن الدين!

- ثم فجأة ولدت في نفسي رغبة هائلة للقراءة... كنت أقرأ بنهم وشغف لا يوصفان... كنت أقرأ كل ما تقع عليه يداي، وكنت لا أُُرى إلاّ إما أصلي وإما أقرأ! لقد أزعجت فعلتي هذه والدتي وأخي وأخواتي كثيراً مخافة أن أفقد بصري أو أن أفقد عقلي أو أن أفقد الاثنين معاً؛ حتى إن أمي هددتني بإحراق كل ما تجد عندي من كتب، فاضطررت لتخبئتها في أماكن لا تستطيع الوصول إليها!

- إن أسعد الساعات عندي هي الأوقات التي أقضيها بقراءة الكتاب المقدس. إنني أقضي الساعات الطويلة في قراءته، وأشعر أن عيناي تزدادان قوة في كل يوم، وذلك بفضل السيد المسيح! قالت الصبية بفرح!

- كنت أعيش مع أبطال قصصي، أفرح لفرحهم وأتعذب لعذابهم وأبكي لبكائهم! لقد عشت في حلم مستمر. إن الأحلام في كثير من الأحيان أجمل من الحقيقة. لقد كانت العالم الوحيد الذي أهرب إليه من واقعي المؤلم!

وبلع الفتى ريقه فقد أحس بجفاف في لسانه وبمرارة في فمه، ثم أضاف:

- كنت وصديقاً لي اسمه شاهر، منصرفين عصراً من مدرستنا الثانوية في طريقنا لنقوم بمشوارنا اليومي بعد المدرسة وقبل الغروب عندما رأيتها، وكانت هي الأخرى تحمل كتبها المدرسية ومنصرفة من مدرستها مع صديقة لها. يا إله السماء! شعرت تلك اللحظة أنني حقاً دخلت الجنة التي قرأت وصفها بالقرآن الكريم، والتي كنت أعبد الله وأصلي في اليوم له ساعات وساعات لأدخلها. أحسست عندما رأيتها أنني دخلتها حقاً، إذ استولى عليّ إحساس رباني غمرتني بعده سعادة إلهية أعجز عن وصفها! قال الفتى وكأنما كان يناجي حبيبته!

- إذا قبلت المسيح كمخلص لك، فإنك ستدخل الجنة يوم القيامة! ثق بي! قالت الصبية مؤكدة.

- لقد كانت طويلة القامة، هيفاء القد، نحيفة الجسم، نافرة النهدين، شقراء الشعر مرسلته على ظهرها كأنما هو كنز من اللآلئ تفخر به، وكأنما هو أعمدة من نور الخالق! كانت ترتدي فستاناً من الحرير الناعم، وكانت تسير بأرستقراطية وخيلاء كأنما العالم بأسره رهن إشارتها، تصورتها آلهة من آلهة الإغريق! آلهة تعيش على الأرض بين البشر! نفس الفتاة التي صنعها خيالي الجامح وأحلامي المتوحشة! أجدها الآن مجسمة أمامي!! يا لرحمة السماء ويا لحكمة الخالق! وعندما تقابلنا وجهاً لوجه شعرت أن عينيها نظرت إلى عيني فانفرجت شفتاها عن ابتسامة ربانية، لم يصنع الخالق أرق منها ولا أحلى! وفي نفس اللحظة أحسست كأنما عيناها أطلقتا رصاصتين أصابتا قلبي! وبلا شعور مني ولا إرادة وضعت يدي اليمنى فوق قلبي وكأنما لأوقف نزيف الدم المتدفق!

وفجأة تملك راكان حماس وجرأة زائدتان فأضاف:

- هل أقول لك يا آنسةجوليانا، أنها تشبهك تماماً، وأن الفرق بينكما هو أنها دائماً تسير بخيلاء وكبرياء، وكأنما تريد من كل من يقابلها أن يلاحظ جمالها المتميز ووضع عائلتها الاجتماعي الأرستقراطي، بينما تسيرين أنتِ بتواضع وتقوى!

وهنا لاحظ الفتى ابتسامة رقيقة قد ارتسمت فوق شفتي جارته.

- أنا أتشبه بمخلصنا ومنقذنا! لقد قال في كتابه المقدس: لا تمشوا مشيئة الخيلاء المتكبرين!

- كانت وهي تسير بالشارع يشعر من يراها وكأنما هي ملكة تمر بموكبها، فينحني كل من يقابلها. لقد أعلمني صديقي، بأنها أخت لزميل لنا يسبقنا في صفين في المدرسة، وأن والدها هو قاضي المدينة.

- ولكن الحب لا يعترف بالطبقات، فأنتما الاثنان طالبا مدرسة وتستطيعان أن تكونا أصدقاء! قالت الحسناء منظرة وكأنما وجدت الحل لمشكلة راكان.

- أنت تفكرين بعقلية أمريكية، يستطيع الشاب أن يتقدم من أية فتاة ويكلمها ومن ثم يدعوها على فنجان قهوة أو وجبة طعام أو يأخذها إلى

السينما! أنتِ لا تعرفين أن العادات والتقاليد في مدينتنا الصغيرة، وخصوصاً في ذلك الوقت تحرم على الذكر أن يكلم أية أنثى في الشارع حتى لو كانت ابنة عمه أو خالته، وإن حاول أحدهم أن يكسر قوانين المدينة فإن أبناء المدينة سيكسرون رقبته!

انفعل راكان من جديد، وهو يتذكر أيام القهر والإحباط، وليالي السهر والدموع؛ فقال:

- أنا لم أطمع بصداقتها، ولم أفكر حتى بمكالمتها؛ كنت أريد فقط أن أحبها... أن أعبد الله بها... كان منتهى أملي أن تعرف أنني أحبها وأن تسمح لي بهذا الحب. إنني لم أفكر ولم أطمع حتى بلمس يدها. كنت أريد أن أراها فقط حتى استمد طاقتي للحياة منها. كنت أريد أن تكتحل عيناي برؤيتها؛ أن أشبع هذا الجوع الروحي وهذا القحط العاطفي للحب. كان عندي فراغ عاطفي مدمر، ويوم قابلتها شعرت بأن هذا القحط والجوع العاطفيين قد بدأا يرتويان! إنك لن تتصوري فرحتي عندما كنت أقابلها بالشارع وانظر إلى وجهها للحظات فقط... كان اليوم الذي يمر ولا أراها به أشعر –والله- بسعار يصيبني، وأحس وكأن إنساناً يضع يده على فمي ويمنعني من التنفس، فأحس بأنني سأختنق! أنا لم أرد ولم أطمع منها شيئاً، فقط أريد أن أراها كل يوم ومن بعيد؛ وأريد أن أسير خلفها كحارسها أو ككلبها! إنك لا تتصورين ما أتحدث عنه، لأنك لم تعيشي كما عشت ولا يوجد في بلادكم مثل هذا!

- الحمد لله وشكرا للمسيح أنه لا يوجد! قالت بارتياح!

- كنت أحياناً أقف في الظلمة قبالة بيتها، أحدق به لمدة طويلة، بتصوف وتعبد، وكأنما أنا عابد يقف في معبده، ومن ثم ينخرط في العبادة حتى ينسى ذاته ويحسّ أنه اتحدّ مع معبوده واندمج به، فلا أحس إلاّ ودموعي تنزل بغزارة وحرارة فوق خديّ حتى يبتل قميصي! لطالما مكثت ساعات وساعات أقف في ظلمة الليل أحملق في بيتها، ولطالما وقفت ساعات وساعات انتظر مرورها من ذلك الشارع! كنت أحياناً أذهب في الصباح الباكر أنتظر رؤيتها وهي ذاهبة إلى مدرستها قبل أن أذهب أنا إلى مدرستي؛ وأحياناً أنتظرها حتى تنصرف من المدرسة. كانت قلما تخرج من البيت أو تعود إليه، دون أن تجدني بانتظارها... من بعيد... دائماً من بعيد! كنت أنظم القصائد في حبي

لها، وأكتب الرسائل الطويلة الملتهبة إلى طيفها؛ أوصف هيامي بها وعذابي في حبها ثم أمزقها!

- صدقاً؛ لقد أحزنتني قصتك كثيراً، وصدقني لو أنك أحببت هذا الحب للرب، منقذنا ومخلصنا، لكنت من جلسائه يوم الحشر! قالت الفتاة بثقة واطمئنان! ثم بعد تفكير أضافت:

- إن حباً مثل هذا لا يحدث في بلادنا، وخصوصاً في هذه الأيام! لقد قرأنا عن مثل هذا الحب في قصص وأساطير الأولين، وقصص التاريخ القديم! قد يحدث أن يحب شابٌ فتاة لا تبادله الحب أو فتاة تحب شاباً لا يبادلها الحب، ولكن الحب ذاته لا يحدث إلاّ بعد معرفة وعشرة بين الاثنين طويلة!

- لا شك أنه حب الجوع والحرمان؛ تحريم الاختلاط الذي فرضه المجتمع المتزمت على الذكر والأنثى! وجد راكان نفسه يقول بالعربية!

- ماذا قلت؟! سألت الحسناء.

تجاهل سؤالها، وتابع حديثه:

- سرت خلفها في أحد الأيام كالعادة... وكالعادة دائماً أسير خلفها، ولكن من بعيد... كان بيني وبينها مسافة ليست بالقصيرة ومرت بزقاق وكنت أسير خلفها! فقد كنت أجد سعادة لا توصف بالسير خلفها، إذ كنت أشعر وكأنما كنت أستنشق من نفس الهواء التي تستنشقه هي...! كانت هي قد وصلت منتهى الزقاق، وكنت أنا مازلت في منتصفه... وقفت والتفتت خلفها... باتجاهي... وشعرت أن الدم يخرج من أذنيّ، وفكرت أن أعود أو أن أغير اتجاه سيري، ولكن لم يكن هناك إلاّ مخرج واحد، وهو الذي تقف به، وشعرت لشدة خوفي أنني أصبحت مخدراً لا أشعر بوجودي! لقد كنت أخاف حتى أن أمر قريباً منها، وكأنما أخشى تياراً كهربائياً أن يصعقني!

وهنا استولت رهبة شديدة على كل كيان راكان، وتصورها، حقاً، واقفة تنتظره في نهاية مدخل الحافلة!

- بدأ قلبي يرقص في جوفي كالذبيح، وأحسست بالدوران وأنه يكاد يُغشى علي... كنت وأنا أسير كالمخدر الذي لا يحس بما حوله ولا يشعر حتى بوجوده... وعندما صرت قريباً منها سمعت صوتاً كأنه آتٍ من أعماق الليل. وظننت أنني كنت أحلم! وربما كنت أحلم حقا!

- أروج أن تتوقف عن ملاحقتي، إذن إن ذلك يحرجني! قالت هذا وتابعت سيرها. وتابعت أنا سيري، ولكن كالصنم المتحرك، ودموعي تنزل بغزارة... إنها لا تريدني حتى أن أعبد الله فيها! أنا لم أرد منها شيئاً ولم أطمع بشيء! أريد أن أراها فقط، ومن بعيد؛ فإن رؤيتها هي التي تجعلني أستمر بالعيش... فقط كنت أريد أن أحبها... أن أراها من بعيد...! حتى هذا منعت منه!

- يا لها من قاسية القلب! لو كان المسيح في قلبها لما رفضتك! قالت بعد أن مسحت عينيها بظهر يدها، ثم أضافت:

- إنها قصة مؤثرة! لقد أحزنتني! أنا لم أسمع ولم أقرأ عن عاشق تعذب كما تعذبت! قالت الجارة وحزن بالغ في لهجتها!

- أنتِ عندما تجلسين الساعات الطوال في حديقة زهور، تتأملين الإبداع الإلهي، وتغمرك سعادة ربانية، لا تتوقعين من هذه الزهور أن تبادلك شعوراً بشعور... هذا ما كنت أريده منها. أنا لم أطمع منها أن تشعر أنني موجود أو حتى أنني خُلقت. كنت أريد أن أحبها والسلام، ولكنها سامحها الله، بخلت علي حتى بذلك! كنت قبل أن أجدها، أشعر بالضياع والتعاسة، وبعد أن قابلتها شعرت وكأنما وجدت نفسي الضائعة، وامتلأت حياتي بالسعادة والآمال!

- تماماً كما كنت أشعر أنا قبل أن أرى النور وأحب المسيح! قالت.

وهنا سقطت دمعتان حارتان من عيني راكان أخفاهما عن جارته ومسحهما بظهر يده!

- مرّت عليّ شهور لا يعلم إلاّ الله وحده كم تعذبت وقاسيت فيها! كنت كالمدمن الذي حيل بينه وبين إدمانه، فيحس بالسعار في داخله ونيران تشتعل في جوفه. كنت أشعر كأنما سكاكين تطعن قلبي وتظل تطعنه دون توقف، وأنا أضع يدي فوق قلبي كأنما لأوقف هذا المارد الجبار!

توقف الفتى عن الكلام فقد شعر بالإنهاك العاطفي، ولكنه مازال يحسّ برغبة مجنونة إلى أن يواصل التحدث عن هذا الذي يعتقد أنه لعنة تطارده.

- وعدت إلى الدين أحتمي به من عذابي وتمزقي وأنشد منه الهدوء والسلام، وكذلك عدت إلى الصلوات الطويلة المتكررة، كما عدت إلى ترتيل آيات القرآن الكريم، وتبليل صفحاته بدموعي، ولا أدري كيف نجحت؛ فقد كنت في العام الدراسي الأخير لدراستي الثانوية!

- إن الدين لملاذ آمن للذين يصدمون في هذه الدنيا؛ ولولا أن جاءني المسيح ورأيت النور، لكنت اليوم إما في عداد الأموات أو مع المجانين! قالت الفتاة ببطء شديد وكأنما تفكر بكل كلمة تنطق بها، من قبل أن تخرجها.

- وأنهتْ هي دراستها الثانوية وعلمت أنها تزوجت من قريب لها بعد تخرجها مباشرة؛ وصدقيني إنني فرحت لها، وإن كنت قد بقيت أبكي أسبوعاً كاملاً بكاء متواصلاً.

- يا إلهي! إن حياتك كلها عذاب مستمر! سأصلي من أجلك! قالتها بحماس وصدق.

- وبعد ذلك رحلنا إلى العاصمة، والدتي وأخواتي وأنا، حيث انضممنا إلى أخي هناك، فقد وجدت بها وظيفة متواضعة. توسعت قراءاتي إذ لم يكن عندي ما أفعله شيء يتسلى به الشاب، بعد عمل ست ساعات في اليوم، سوى التسكع مع الأصدقاء في الشوارع أو الجلوس في المقاهي للعب الورق وشرب الشاي! كنت أكره هذه العادات كرهاً شديداً، وأتضايق من الذين يفعلونها! فحتى الساعات الست التي كنت أقضيها في المكتب كنت أقضي جزءا كبيرا منها بالقراءة. لقد كان عملي يتطلب مني أن أكون متواجداً في المكتب فقط، ولذا كان مكتبي وكأنه غرفة للمطالعة وليس مكتباً للعمل! كنت أقرأ بنهم لا يوصف فقد كنت أقرأ كتاباً كل أربع وعشرين ساعة! لقد قرأت عشرات الروايات من روائع الأدب العالمي مترجمة، قبل أن أبلغ العشرين من عمري لكتاب عالميين؛ عرب وأجانب!

- ليتك كنت تقرأ التوراة! لكنت وجدت الراحة الكبرى! قالت.

- كنت أصلي الخمسة فروض حاضراً في المسجد! كنت أصلي كثيراً، وأقرأ لساعات وساعات، وأتأمل طويلا. لقد كنت أذهب كل يوم جمعة إلى المسجد لأصلي صلاة الجمعة. كنت أذهب مبكراً... قبل

ساعتين، أصلي نوافل كثيرة! كنت أصلي تارة وأرتل القرآن تارة أخرى! ثم أدعو الله المسامحة والغفران! كنت في كل صلاة أتضرع إلى الخالق أن يوفقها في زواجها ويسعدها... كان طيفها لا يفارق مخيلتي وإن كنت لم أرها منذ تلك الحادثة، ولم أحاول أن أفعل!

بلل راكان شفتيه بلسانه، فقد شعر بأنهما جافتان كجذع يابس؛ ثم تابع حديثه:

- وذهبت يوم الجمعة إلى المسجد كعادتي مبكراً... ولقد نسيت أن أقول لك، إن كنت لا تعرفين، بأن المسلمين قبل أن يدخلوا المسجد عليهم أن يخلعوا نعالهم ويتركونها في أماكن مخصصة عند الباب... إذ من المفروض أن نكون طاهري الأجسام، كما يجب أن نكون طاهري القلوب والضمائر والأرواح والسرائر، لأننا في تلك الأوقات نكون في حضرة الخالق...! كنت قد صليت كثيراً وتأملت طويلاً ورتلت صحائف وصحائف من القرآن عديدة! ثم نادى المؤذن من على مئذنة المسجد أن حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح، ووضعت القرآن في مكانه وشرعت أصلي صلاة السنة... كان المسجد مكتظاً بالمصلين، كما هي العادة في كل يوم الجمعة وقت صلاة الظهر، إذ إن كثيراً من المسلمين لا يصلون كل يوم ولا يصلون وقتاً واحداً من الأوقات الخمسة، وإنما يصلون فقط صلاة الجمعة... كنت ساجداً أصلي، وشعرت لحظتها أنني قد تلاشيت في صلاتي، وأنني قد نسيت نفسي واندمجت مع الخالق في سجدتي. كانت كل سجدة تأخذ مني وقتاً طويلاً، إذ لم أكن فقط أصلي وأؤدي واجباً دينياً، وإنما كنت أتعبد بحرارة غير شاعر بمن حولي ولا حتى بوجودي. وفجأة قفزت من مكاني وأطلقت صرخة عالية، لا شك أنها جلبت انتباه كثير من المصلين... كنت فاتحاً يديّ واضعاً رأسي بينهما وأنا ساجد إلى الأرض ، ولم أشعر إلاّ وشيء ثقيل من الحديد ينزل فوق أصابع يدي اليمنى فشعرت أنه قصّها من مكانها واستطعت أن أتبين من بين دموعي، ومن خلال ألمي الذي لا يوصف أن قدماً ضخمة تنتعل حذاءً عسكرياً ثقيلاً مرصعاً قاعة بالمسامير الكبيرة المدببة قد داست على أصابع يدي بشراسة.

لا شك أن غريزة حب الاستطلاع قد استُنفرت عند الصبية، إذ فتحت فمها واتسعت عيناها، وصارت تحدق بالفتى، ولعلها كانت تحثه على الإسراع في سرد قصته!

- لقد كان واحداً من حراس السلطان وقد دخلوا معه مرتدين أحذيتهم الثقيلة ويحملون رشاشاتهم المعبأة. لقد رأيت السلطان وحاشيته وحرّاسه يدوسون بأحذيتهم على المصلين دون إعطاء أقل اعتبار لهم أو لحرمة وقدسية بيت الله!

- يا له من عمل شنيع! صاحت الصبية بفزع!

- وبطريقة عفوية ورغم أنني مازلت تحت تأثير الصدمة، فقد توجهت إلى الباب أسابق الريح! كنت أدوس على أيدي وأرجل الراكعين وأمرّ من أمام المصلين وهو حرام بالإسلام؛ وحملت حذائي وصرت أجري وأنا أقطع شوارع المدينة وحذائي بيدي، غير آبه بالذين يحملقون بي بالشارع ولا بالذين أصطدم بهم في طريقي... وبقيت أركض وأركض وأركض، حتى دخلت بيتنا، وتوجهت إلى الغرفة التي كان يشاركني النوم بها أخي، وأغلقت الباب خلفي، وبقيت أبكي أكثر من ساعتين متواصلتين، ووالدتي وأخواتي يناشدونني أن أفتح الباب وأخبرهم ما حدث؛ ولكن دون جدوى.

- إن البكاء عادة من طبيعة النساء، وفي أمريكا لا يبكي الرجال إلاّ في الحالات النادرة! علّقت الحسناء.

- كنت أبكي بحرقة وحرارة... أبكي من أعماق قلبي وبكل وجداني... أبكي الآمال الضائعة، وأتمزق على المقدسات المداسة! من يدري! ربما كنت أبكي غيرة على الاستهانة بالخالق وببيوت عبادته! لقد علقت آمالاً كبيرة على الحب الأول، فأحسست أنه سخر مني واستهزأ بي وألقى بي في دياجير الظلمة؛ وظننت أن الحب الثاني سينزع الصورة القاتمة الداكنة، التي انغرست في ذاتي، وأنه سيحل مكانها نور مشرق يضيء ظلمات حياتي، ولكنه كان أسوأ من الأول...! ثم لجأت إلى الدين فانهارت آمالي...!

- أبهذه البساطة يفقد الواحد إيمانه؟! سألت وقد أغمضت عينيها نصف إغماضة!

- وبعد أكثر من ساعتين فتحت الباب وخرجت... كانت عيناي لا تستطيعان الرؤية من كثرة وحرارة البكاء... ولم أعلم والدتي وأخي وأخواتي السبب. صدقيني إن قلت لك أنك أول إنسان أبوح له بهذا السر!

- إنني أصدقك وشكراً للثقة! ولكنني أحب أن أقول لك بأن الناس عندنا لا يتألمون مثل هذا الألم ولا يحزنون مثل هذا الحزن، لا لأن الناس لا يعرفون الحب وليس لهم قلوب تحب، ولكن إن فشل الواحد في حبه فسرعان ما يجد البديل! ولهذا ليس عندنا مآسي في الحب كما عندكم! علّقت الحسناء.

- لقد فقدت إيماني ولم أعد أؤمن بقيم الحياة ولا بمقدساتها! ولم أعد أقرأ القرآن؛ ومنذ ذلك اليوم لم أدخل مسجداً ولم أصل ركعة واحدة.

وهنا توقف الشاب عن الكلام، فقد أحسّ بأنه منهك عاطفياً وروحياً ومخدر جسدياً.

- أعذرني إن قلت لك بصدق وصراحة، بأن إيمانك كان فجّا، مهزوزاً؛ بل وكان ضعيفاً! قالت الجارة بحماس وشبه غاضبة؛ ثم أضافت!

- ولعلي أجرؤ فأقول، بأنه لم يكن عندك إيمان إطلاقاً! كانت عندك معتقدات فجة... سطحية...، انهارت بل تلاشت من أول تجربة تمرّ بها!

- قد تكونين على حق! قال راكان بذلة وانكسار وكان مازال يشعر وكأنما أعطي إبرة مخدر!

- الإيمان الصادق حقيقة ثابتة لا تتزعزع مهما اعترضها من هزات وصدمات! إن الخالق فوق الشبهات وفوق الشك، والتصرف الفردي الأحمق ضد تعاليم الخالق وضد قدسيته، لا يعني إطلاقاً أن تشك بوجوده؛ فإن كان السلطان الذي ذكرت يتعامل مع معابد الله بهذه الطريقة غير الحضارية وغير الأخلاقية وكذلك غير الدينية؛ فإن ذلك لا يعني أننا يجب أن لا نصلي بها وأن نكفر بالخالق! قالت بحماس وغيرة. وبعد أن بلعت ريقها ورطّبت شفتيها أضافت:

- لقد قابلت وتعاملت مع أناس كثيرين، يستعملون المسيح والديانة المسيحية كغطاء لتحقيق مآربهم الشخصية ومنافعهم المادية؛ فهل ذلك يجعلني أغيّر رأيي بألوهية المسيح وبطلبه مني أن أنشر كلمته وأساعد المحتاجين؟! إنني على العكس من ذلك، فإنني كلما أقابل هذا الصنف السيئ من الناس، فإن اعتقادي يقوى، وحماسي يزداد، وإصراري على نشر كلمة الله يتعملق!

همّ الشاب بفتح فمه ليعلق على ما قالته جارته، غير أن السائق أعلن من فوق المايكروفون، بأنه سيتوقف ليلتقط بعض الركاب.

توقفت الحافلة هذه المرة في منطقة غير مأهولة بالناس، ولم ينزل منها أحد، وإنما دخلها شاب، في حدود الرابعة والعشرين من عمره، مفتول العضلات يفيض نشاطاً وحيوية! ولا يدري لماذا اعتقد راكان بأنه مجند عسكري، فقد كان يرتدي بزة مصنوعة من الكاكي، ويحمل حقيبة منقطة مبرقعة، لعل بها ملابسه العسكرية. وقد لاحظ راكان أن جميع ركاب الحافلة قد اتجهت أنظارهم نحوه، كما لاحظ أن المرأة وابنتها قد تبادلتا نظرة ذات معنى ثم ابتسمتا.

بعد أن تفحص وجوه الركاب جلس في المقعد الوحيد الخالي، وكان إلى جانب امرأة زنجية وخلف مقعد السائق. ثم التفت إلى الخلف وصار يبحث بعينيه بين الركاب كأنما يفتش عن إنسان معين. لاحظ راكان أن نظرته قد طالت وهو ينظر إلى المرأة وابنتها. كان مقعد الشاب بين جوليانا وراكان في منتصف الحافلة بين مقعد المجند ومكان جلوس المرأتين.

ابتسم المجند للمرأتين ثانية وحياهما بأن هزّ لهما رأسه، وردتا الابتسامة بأحسن منها، ثم غمز لهما بطرف عينه وردتا له الغمزة بابتسامة كبيرة. ثم التفت أمامه، وعاد ونظر نحو المرأتين، ثم ابتدأ يتصفح وجوه الركاب من جديد ويلقي عليهم نظرة سريعة. ولا يدري صاحبنا لماذا تسارعت دقات قلبه وعلت ضرباته، ولا لماذا بدأت غرائزه الجنسية بالاستيقاظ!

لعلّ الجارة لاحظت أن جارها قد ركّز اهتمامه على المرأتين والمجند فقالت كأنما لتعيد اهتمامه إليها.

- لقد جعلتني قصتك أكثر اقتناعاً بأنك بحاجة ماسة إلى الإنقاذ، وأنك يجب أن ترى نور الإيمان! إن إيمانك بالمسيح هو الذي سيخرجك من حيرتك وقلقك ويخلصك من عذابك وآلامك. إن الإيمان به هو الذي سينير لك الطريق وسيبدد لك الظلمة. إنه هو الخلاص والحق! قالت بثقة.

- ليتني أستطيع فعل ذلك! قال راكان صادقاً ويأس شديد يسيطر عليه. وقبل أن تفتح فمها للتعليق أستطرد:

- هل تعلمين أنها لعنة أحياناً؛ أن يولد شخص ما في بلد معين وفي زمن بعينه؟! إنها لعنة تطاردني منذ أن ولدت. لعلها لعنة الطموح الكبير. إنني ومنذ أن أتذكر نفسي وأنا أعيش في حلم. لقد كنت دائماً أجري وراء الأحلام وأعيش مع خيالاتي!

- لا عيب في ذلك! قالت الصبية وكأنما لتواسي خيبته.

لقد ولدت في مجتمع له تفكير معين ونوع خاص من الحياة... له فلسفة خاصة، وله قيم ومثل ومبادئ ومعتقدات ونوع محدد من المفاهيم... ومنذ أن وعيت نفسي وأنا في صراع مرير وعنيف مع هذا المجتمع! صراع مع عاداته وتقاليده وقيمه وأخلاقياته ومثله وفلسفته! لقد عشت دائماً في صراع. كنت دائماً أعيش بإحباط شديد وقهر مدمر! إنني لم أقبل يوماً بما قبل به مجتمعي، ولم أرض يوماً بما يؤمن به! إنني وفي كثير من الأحيان أفعل ما يفعله الآخرون إرضاءً لهذا المجتمع؛ ومنذ صغري وأنا ألعن هذه العادات وتلك المعتقدات. إنها عادات وتقاليد جامدة وبالية وتقود إلى القهر والإحباط. وعندما وجدت أنه من المستحيل عليّ أن أغير مجتمعاً عمره آلاف السنين، وأنني لا أستطيع أن أتقبل عاداته، وأتأقلم مع معتقداته؛ فكرت أن أتركه... أن أهجره إلى غير رجعة... ولا أظن أنني سأعود إليه يوماً أبداً!

وهنا أحسّ راكان بأن كل ذرة في جسمه قد بدأت تهتز، وأن الدم بدأ يغلي في عروقه غضباً وقهراً، وفجأة بدأ يرتجف كأنما أصابته حمى وهو يتذكر المصير الذي قاده إليه مجتمعه والنهاية التي أوصله إليها!

- منذ أن تخرجت من الثانوية ووالدتي وأخواتي يردنني أن أتزوج... يردنني أن أتزوج بفتاة يخترنها على طريقتهن وبمواصفاتهن

هنّ... فتاة لن أراها إلاّ بعد أن تصبح خطيبتي وربما لا أراها إلاّ ليلة الزواج. وعندما أعلمتهن أنني لن أتزوج إلاّ عن حب وبعد معرفة طويلة، ظنن أنني مجنون؛ لأن كل الناس يتزوجون على هذه الطريقة، وأن أجدادنا وآباءنا، تزوجوا على هذه الطريقة ولسنا بأحسن منهم. إن الإنسان في مجتمعنا لا يعتبر قد حقق شيئاً مجدياً؛ شيئاً ذا قيمة؛ ولو وصل إلى أعلى المناصب، وامتلك آلاف العقارات وملايين الدولارات؛ إلاّ إذا تزوج وأنجب أولادا ذكورا!. كنت دائماً أريد أن أهرب وآتي إلى أمريكا، ولكن والدتي كانت دائماً تقف في طريقي!

- وهل تعتقد أن تغيير الإنسان لبلده يغير من وضعه النفسي؟ سألت وقد حملقت به.

- ولم لا؟ إذا كان يعيش في مجتمع يعتقد بأن سكانه يعيشون كالقطيع عبيداً للعادات المهترئة والتقاليد العفنة؟ إن الناس هناك يتدخلون فيما لا يعنيهم، وكل منهم ينصب نفسه قاضياً لمراقبة سلوك وتصرفات الآخرين! قال الشاب بغيظ.

- إنني أكره أن أعيش في مثل هذا المجتمع، ولا أظن أنني سأستطيع احتمال ذلك!

وكأنما كلامها قد شجعه على الاسترسال، فقال:

- هل تعتقدين لو أنني وإياك في بلدي، لكنا نستطيع أن نتصرف كما نتصرف الآن من حديث ونقاش وذهاب للمطعم سوية؟ إن كل واحد سيجعل من نفسه جندياً للفضيلة ويتبرع لتأديبنا!

وفجأة أحسّ راكان بالقهر والغضب، وشعر وكأنما عدو لدود يريد أن ينقض عليه بأسنانه ويمزقه! تجاهل الصبية الفاتحة فمها مذهولة لما تسمع وأضاف:

- إن كل تصرف يتصرفه الإنسان ولا يعجبهم، يعتبرونه مخالفاً للعادات والتقاليد ويقولون عنه أنه حرام أو عيب أو لاأخلاقي! إنني أحياناً أفقد السيطرة على عقلي وأشعر برغبة مجنونة أن لا أعمل أي شيء إلاّ ما يسمونه حراماً وعيباً ولاأخلاقياً!

- إن رأي المجتمع في كثير من الأحايين ضروري لسلوكياتنا في الحياة، فهو الضابط الذي يحول بيننا وبين التسيب والضياع؛ ولو أن مجتمعنا وجد من يردعه كما في مجتمعكم اليوم، لما كنا وصلنا إلى ما

وصلنا إليه من الانحلالية والجريمة، ولكان كل الناس يقرؤون الإنجيل ويطبقون تعاليم منقذنا ومخلصنا يسوع المسيح!

كاد راكان أن يصيح بها مقهوراً، غاضباً، مزمجراً؛ أن بحق السماء دعينا من إنجيلك ومسيحك؛ ولولا جذور الدين المتبقية في تربيته، لقال كلاماً مرعباً ومخيفاً!

- ألا تعتقد أن والدتك ما فعلت ما فعلت إلاّ لأنها تحبك؟ كم أتمنى لو أن والدتي حيّة، لما كنت عصيت لها أمراً! قالت بحزن!

- هذا ما تقولينه الآن! المشكلة هي أن الآباء والأمهات يفكرون أن مصلحة أبنائهم فيما يعتقدون هم، وليس فيما يعتقد أولئك الأبناء! قال الشاب بسخرية وكأنما يرثي لجهلها.

- إنهم يريدون من أبنائهم أن لا يرتكبوا نفس الأخطاء التي ارتكبوها هم، أو يعتقدون أنها أخطاء سيقعون فيها! إنهم يريدون أن يوفروا عليهم التعاسة والشقاء، ويجنبوهم العذاب والقهر. قالت.

- ولماذا لا يتركونهم يجربون بأنفسهم، ثم يخطئون لكي يتعلموا من أخطائهم وليس من أخطاء آبائهم!

انتظر راكان قليلاً ولما لم تعلق على قوله أضاف:

- لا شك بأن والدتي كانت تحبني كثيراً، كثيراً جداً؛ أكثر مما كنت أستطيع احتماله أو تفهمه. لقد كنت أشعر أحياناً كأنما أختنق من زخم هذا الحب وقوته. كنت أحسّ كأنما هو حبل ملفوف حول عنقي. كانت دائماً تحول بيني وبين ما أطمع إليه، وما أعتقد أن فيه سعادة لي بسبب حبها الشديد لي. كانت لا تستطيع أن تتصور فكرة تركي للبيت وعيشي في مدينة أخرى، لذلك كانت ترفض الفكرة جملة وتفصيلاً؛ ولهذا كنت أعيش دائما في عذاب وقهر وإحباط. كنت كدلو الرحى بين الخوف من أن أكسب غضبها إذا تصرفت ضد إرادتها، وبين ما أحب أن أفعله!

- إذن كيف سمحت لك أن تأتي إلى أمريكا؟!

- إنها لم تسمح لي! لقد أتيت ضد إرادتها؛ فليسامحني الله. لقد أعلمتها قبل ثلاثة أيام من رحيلي وكانت تأشيرة دخول أمريكا على جواز سفري والتذكرة في جيبي. لقد بكت كثيراً وبحرقة، وتركتها وهي مريضة بالفراش.

لاحظ الفتى أن مسحة من الحزن الصامت قد علت وجه جارته، فقد كانت تصغي إلى حديثه باهتمام وشغف شديدين! ثم أضاف:

- إنني أحياناً أشعر بندم وحزن شديدين، فيجتاحني شوق عارم وحنين جارف إليها، فأتمنى لو أستطيع أن ألقي بنفسي بين ذراعيها الحنونتين! صدقيني إنني مستعد الآن أن أدفع نصف عمري مقابل بسمة من شفتيها الرقيقتين ونظرة من عينيها الحزينتين. كم أتمنى الآن لو أرى وجهها الحبيب الجميل النحيل! وبلع ريقه وبلل بلسانه شفتيه الجافتين، وأضاف:

- نعم، لقد كانت تحبني كثيراً، أكثر من أي إنسان على وجه الأرض! كان حباً جنونياً. كانت تعانقني حتى أثناء النوم؛ فقد كانت تأتي إلى فراشي ليلاً وتقرأ بعضاً من القرآن على رأسي وأنا نائم غير واعٍ بمجيئها؛ وعندما أعود من العمل كانت تعانقني وكأن لي دهرا غائبًا عنها. كنت أحياناً أذهب لزيارة أختي المتزوجة في المدينة المجاورة والتي تبعد عشرين ميلاً لأقضي عطلة نهاية الأسبوع؛ وعندما أعود كانت أختي الصغرى تهمس بأذني بسذاجتها المعهودة، بأن الوالدة كانت تأتي في الليل إلى فراشي وتتلمسه ثم تبكي! لقد كان هذا الحب يزعجني ويضايقني جداً أول الأمر، وكنت أحس بالاختناق فأثور عليه ولكنني اعتدت عليه وكان من الصعب عليّ أن أعيش بدونه وبدون والدتي ودون حبها؛ وإنني لا أستطيع أن أواجه الحياة أعزل من حبها. لقد كان حبها هو "الإكسير" الذي يجعلني أعيش بل حتى أتنفس؛ ولكنني كافأتها بالترك والهجران! لقد خذلتها فليسامحني الرب!

لاحظ الفتى أن دموع جارته تنساب غزيرة فوق خديها باستمرار، وكان حزنها ظاهراً جداً؛ وكأنما دموع جارته الحسناء وحزنها قد فجّرا في نفسه رغبة ملحة إلى أن يواصل التحدث عن أمه، وأحسّ بأنه سينفجر إن لم يفعل... كان يريد أن يظل يتحدث عنها إلى آخر الدهر. إن في نفسه حديثاً عنها يكفيه العمر كله. كان كالدرويش الذي افتقد طبله ومزماره، ولما لم يستطيع الحصول عليهما، بدأ الشوق إليهما ينهش كل وجوده وكيانه!

- إن حب الأمهات نعمة لا تقدر بثمن، مَنّ الله بها علينا. إن حبهن لا يعادله حب إلاّ حب المسيح لنا. إننا قد نصحو يوماً فنجد أننا بدونهن وبدون حبهن فنندم على عصيانهن حيث لا ينفعنا الندم!

وتساءل الشاب إن كانت قد عنته بقولها؟!

وهنا رأى راكان المجند يحمل حقيبته العسكرية ويمر مجتازاً إياهما، ويجلس مكان الأم التي رحلت وجلست في مكانه.

نقل الفتى نظره بين الركاب ليرى وقع تأثير ما حدث عليهم، ولشدة دهشته لم يلاحظ أياً منهم أعطى اهتماماً للقضية؛ فقد كان بعضهم مستغرقاً في القراءة، وكان البعض الأعظم يتزاورون مع جيرانهم، وأمّا القسم الأقل فقد كانوا مغمضي العيون وكأنما كانوا يحلمون!

كان هناك ثلاثة منهم ينظرون من خلال زجاج نوافذ الحافلة، يشاهدون ما يمرون به! فقط، كانت هناك بنت لعلها في الثالثة أو الرابعة عشرة من عمرها، كانت تجلس إلى جانب والدتها، وكانت الوحيدة التي كانت تراقب تحركات المجند!

- إنك لا تستطيع أن تتصور كم أنا سعيدة بلقائك، أنا لم أر في حياتي كلها شاباً أكثر منك لطفاً وتهذيباً؛ حتى بين الشباب المؤمنين! قالت الصبية بلهجة رقيقة وحنونة شعر راكان بصدقها!

- وأنا كذلك! قال الفتى بحماس وهو ينظر إليها بشبق، ويتمنى لو يكونا وحيدين!

- لم يعاملني شاب في حياتي كلها بمثل هذا اللطف والاحترام، كما تفعل أنت؛ ولم أشعر بأهميتي كأنثى طيلة حياتي، كما أشعر بها ومنذ أن عرفتك. ونظرت في عينيه ربما لترى وقع كلامها عليه، فوجدته محملقاً بها كأنما يريد أن يفترسها!

- منذ أن تقابلنا وأنا لا أنقطع عن الصلاة بحرارة إلى المسيح أن يدخل قلبك، وأن ترى نوره؛ وسأظل أصلي من أجلك حتى تصبح من المؤمنين!

"وأنا ومنذ أن قابلتك، وأنا أريد أن أنام على صدرك وبين نهديك! بالله عليك دعي ذكر السيد المسيح، عليه صلوات الله وسلامه، الآن، وأجّلي حديث الخلاص ورؤية الضوء! إنني أريد أن لا أفكر بهما وأنا

نائم فوقك أروي ظمأ القرون وأشبع جوع الأجيال! إن بي جوع أجيال وحرمان قرون أيتها الساحرة؛ وأنت وحدك الآن تستطيعين أن تشبعي جوعي وتروى ظمأي... فقط دعيني أركبك... إنني أريد أن أرى الضوء في سحر عينيك وفي رحيق شفتيك... إن صدرك الدافئ الناعم يثير في جسمي كل أنواع الشهوات، وعنقك الطويل المرمري الذي كأنه معبد من معابد الوثنيين، يسجد به المتبتلون والمحرومون من أمثالي! إنه يثير في نفسي شتى أنواع الانفعالات والرغبات"! خاطب الشاب نفسه.

- من يدري يا هذه! لعلني أرى الضوء يوماً فأشفى من هذا السعار المدّمر في داخلي، ومن هذه النيران التي تشتعل في كل ذرة من ذرات جسمي! قال الفتى وهو يرتعش رغبة.

- أنا واثق بأن المسيح سيفعل! فقط آمن به واتخذه كهاد لك وكمنقذ! قالت بطيبة قلب وصدق مقصد! لا شك أنها لم تفهم ما قصد! ثم أضافت:

- حرام على شاب مثلك، عنده كل هذه الصفات الرائعة أن يضيّع حياته في غير خدمة الرب، يسوع المسيح!قالت وقد تجدد حماسها!

"إنني أريد حقا أن أعبد الرب، يا فاتنتي، بأن أصلي له وأسجد شكراناً وعرفاناً على أن كتب لي أن أقابلك وأن أغرق ذاتي بالاستماع إلى موسيقى صوتك، العذب الرخيم، وسأشكرك أنتِ أيضاً، إن أتحتِ لي أن أطفئ نار جسدي الجائع المحروم بجنة جسدك المتوقد المتوثب الناضج! إنني أحب يا فاتنتي، قبل أن أرى الهداية السماوية، أن أخلّص نفسي من هذا الجوع العاطفي والشبق الجنسي، إذ عندها سيكون خلاصي حقيقياً ورؤيتي للنور طبيعية!"

"إنني أحياناً وثني يا جوليانا؛ أحب عبادة الأجساد الجميلة! إنها تعبير للخالق على شكرنا وامتناننا له، لما خلق فأبدع! لقد كان أجدادي في الصحراء قبل مئات السنين، يعبدون ما يصنعون، أما اليوم فأنا أعبد ما يبدع الخالق في صنعه. إنني أعبد الله فيك يا قاتلتي! عبادة لا تفهمينها أنتِ بتعصبك الأعمى وآفاقك المحدودة."

- إن المسيح عندما يدخل قلبك تشعر بسعادة لا تعادلها سعادة!

"وأنا عندما يعانق جسدي جسدك أشعر بسعادة تفوق كل السعادات الأرضية، صدقيني!"

- أنا أعرف ذلك يا آنستي!

- ولماذا لا تؤمن إذن؟! سألت بفرحة اهتزّ لها مقعدها!

- سأفعل ذلك يومياً! صدقيني!

- هل صحيح يا راكان؟ ما أسعدني أن أسمع ذلك! سألت وقفزت من مكانها كأنما تهم بتقبيله، وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة جذلى كبيرة!

وهنا تشنجت أطراف الفتى وتنبهت كل ذرة في جسمه، وصارت تعوي وتصرخ وتستغيث؛ فقد تحول إلى شهوة عارمة، وصار جسمه، كل جسمه، يرتجف، فقد رأى المجند يلف يده حول عنق جارته، التي استسلمت له؛ وأطبق بشفتيه على شفتيها يقبلهما بنهم وسعار وكأنما يريد أن يأكلهما، وكأنهما وحيدان في مكان ليس به سواهما!

إن راكان لم ير في حياته قط، رجلاً وامرأة متعانقين يقبلان بعضهما بعضاً؛ اللهم إلاّ على الشاشة أو على الورق، وحتى ذلك المنظر فقد كان يثير في نفسه شتى الرغبات والاشتهاءات. أما الآن فهاهما أمامه بدمهما ولحمهما!

نقل نظره بين الركاب ليرى ردة فعلهم، ولصدمته، وجد أن جميع الركاب، باستثناء ابنة الثالثة أو الرابعة عشرة، والتي كانت تراقب ما يحدث بلهفة تشبه لهفته وشوقه، لم يلتفت إليهما أحد!

بدأ قلب الصائم والمحروم يخفق، وارتفعت ضرباته حتى شعر أن طبلتي أذنيه تكادان تنفجران لشدة الضربات وسرعتها؛ وجحظت عيناه، حتى كادتا تفارقان محجريهما؛ ومن ثم نظر إلى جارته التي كانت مازالت تتكلم، فرأى شفتيها تتحركان فقط، وغيمة كثيفة من الضباب تلفها؛ إذ لم يستطع أن يسمع ما كانت تقول! فقد كان حزمة من الأعصاب الثائرة المتشنجة، وخيل إليه أن الفتاة واقفة أمامه عارية تماماً، في وسط هذه الكتلة من الضباب، وهي فاتحة له ذراعيها وابتسامة فوق شفتيها، تشير إليه وتدعوه إلى دخول جنة جسدها؛ بدأت الذئاب الجائعة المسعورة في داخله تعوي عواء ملحّاً متواصلاً! مد يده كالمنوّم وبلا شعور نحو جارته ليجذبها إليه وليفعل معها كما يفعل

المجند مع جارته، إذ لا شك أنها لن تمانع، كما إن الركاب لا يهمهم ما يفعل؛ ولكن صوت السائق من خلف المايكروفون، قطع عليه تفكيره وأعاد إليه وعيه واتزانه!

- سيداتي سادتي! نتوقف الآن للعشاء لمدة خمس وأربعين دقيقة. أرجو من الذين سيتركوننا أن لا ينسوا شيئاً من حاجياتهم، أما أولئك الذين سيعودون، فعشاءاً مريئاً. وأغلق المايكروفون؛ ولكنه فتحه ثانية وأضاف:

- أرجو أن تكونوا في الحافلة في الوقت المحدد!

اللعنة! اللعنة! لماذا يبخل عليه القدر حتى بعناق كاعب حسناء؟!!!

*****

لاحظ راكان أن المجند، بعد أن ساعد الفتاة على النزول من باب الحافلة، قد لف يده حول خصرها، بينما ألقت هي، بحميمية مبالغ بها، برأسها على كتفه كالعاشقة المتيمة، وسارا مع الآخرين متوجهين إلى المطعم، ولم ير صاحبنا أحداً ينظر إليهما أو يعيرهما اهتماماً، سواه وسوى ابنة الثالثة أو الرابعة عشرة، وأم الفتاة التي كانت ترقبهما فرحة، والتي كانت تسير خلفهما وعلى شفتيها ابتسامة كبيرة!

فكر الفتى الجائع أن يقلد المجند، بأن يضع يده هو الآخر حول خصر صاحبته، ولكنه تراجع حياء وخجلاً، بل وخوفاً من أن تنهره وتغضب منه! كما ظن أن جميع الركاب بل وكل من يراه قد يسخر منه ويستهزئ به! أليس هو من بلاد الحرام والحلال والممنوع والمحظور، والذي يقيّم الإنسان طبقا لتصرفاته العاطفية والجنسية؟!!!

كان يشعر بسرور لا يوصف وجارته ذات الجمال المتميّز تسير إلى جانبه وتتحدث إليه؛ ثم يجلسان معاً على طاولة واحدة، وتعطيه كل اهتمامها؛ ثم وهو يدفع فاتورة طعامها! أن هذه هي أول مرة في حياته كلها يستمتع بصحبة أنثى. إنه شعور رائع أن يكون للرجل أنثى تشعره بفحولته؛ تحدثه وتؤنس وحدته وتهتم به؛ وفجأة شعر بالاشمئزاز والقرف من مجتمعه وعاداته وتفكيره، وشكر الله أنه هرب منه ونجا بجلده من تزمّته وعقده؛ وفي ثورة مشاعره وعواطفه صار يفكر بهذه الكلمات التي يسمونها بوطنه؛ الفضيلة والرذيلة، والشرف والأخلاق، والخطأ والصواب؛ والحرام والحلال؛ والتي جميعها مربوطة بقضيب

الرجل وفرج المرأة؛ إلى آخر هذه القائمة من الكلمات الجوفاء والتي لا تساوي، هنا في أمريكا، ثمن الورقة المكتوبة عليها!

لو أن ما حدث بالحافلة هذه الليلة في وطنه، لكان كل الركاب قد ثاروا ولاعتبروا أن هذا العمل مشين ومناف للأخلاق والشرف، ولوقف أكثر من خطيب في مسجد يعلن أننا نعيش في آخر الزمان، وأن القيامة ستقوم قريباً، لأن الله لم يستطع أن يتحمل رؤية خطايا الناس وفساد أخلاقهم؛ ولاعتبرا هذين الشابين؛ المجند وصاحبته؛ متهتكين يجب أن ينالا عقابهما بالضرب والرجم وشد الشعر بالباص! أما هنا في أمريكا فإن الناس لطفاء مؤدبون ومتفهمون لرغبات الجسد ولنزوات الشباب! إنهم يحترمون عواطف ومشاعر الآخرين وتفكيرهم، ولا يتدخلون بشؤون الغير! أما هذه الأم، فما أعظمها وأرق قلبها! إنها تريد أن ترى ابنتها سعيدة وتمضي وقتاً ممتعاً وطيباً في رحلتها. إنها تبتسم جذلاً وفرحاً وهي ترى ابنتها تنال قسطاً من المتعة والسرور. إنها ليست "قوادة" كما يسمونها بالوطن. إنها أم متفهمة وواعية هكذا يسمونها هنا في بلاد الحرية والديمقراطية، وبلاد الإخاء والمساواة! وتساءل راكان؛ أي الناس على حق؟ في وطنه، أم هنا في أمريكا؟ ثم تساءل أيضاً: ما هو الشرف وما هي الفضيلة؟ ثم ما هي القيم والأخلاق والمثل العليا والحق والخطأ والصواب؟ هل هي قوانين إلهية لا تتغير أم هي قوانين أرضية مرنة قابلة للتعديل والتمديد؟ وهل...

وهنا أيقظه من أفكاره صوت الشابة تقول له:

- هذه المرة لن أدعك تدفع فاتورة الحساب! وتنبه إلى أنها تقف خلف باب الزجاج للمطعم وتنتظر منه حتى يفتحه لها.

- إنني كلما أدفع فاتورة حسابنا، أشعر بسعادة لا توصف؛ فلماذا تريدين أن تحرميني هذه السعادة؟! قال وهو يفتح لها الباب الزجاجي لتدخل.

- ولكنك دفعت ثمن وجبات طعامي كلها منذ تعارفنا! قالت محتجة بدلال، وقد رمته بنظرة ساحرة من عينيها وابتسامة خلابة من شفتيها!

- وسأظل أدفع ثمنها حتى نصل إلى لوس أنجلوس! قال ذلك وتمنى لو يستطيع أن يعانقها أمام الناس!

- أتريدني إلى هذا الحد؟ سألت وهي تكاد تلقي بنفسها في أحضانه!

لم يجبها الفتى؛ فقد كان يحدق بعنقها الأتلع، وبالنهدين النافرين، وبالجزء العاري من صدرها، ثم يعريها من ملابسها بخياله، ويضاجعها!

ولا شك أنها قرأت أفكاره، إذ احمرت وجنتاها وحوّلت نظراتها من وجهه إلى الأرض!

"أنا لا أريد روحك يا جوليانا، أنا أريد هذا الجسد الذي يجعل كل ذرة في جسمي تتراقص، ويجعل عواطفي تشتعل ناراً! أنا أريد أن أشبع الوحوش الكاسرة والمفترسة في داخلي، من جسدك الثائر المتوقد المستعر ! أريد أن أشفي من هذا المرض الذي يستبد بحياتي ويعذبني منذ سنين وسنين... فأريحيني بربك من عذابي! نعم؛ إنك صادقة في أنني بحاجة إلى أن أرى النور... ولكنه النور الذي في جنات حبك وفي ضماتك وعناقك! لقد قلت بأنك على استعداد إلى أن تذهبي إلى آخر الأرض لتقدمي المساعدة إلى محتاج ولتخففي آلام معذب من عذابه؛ إنني أتعذب بقسوة وأحتاج لمساعدتك وأنا إلى جانبك !"

"أنا الآن عابد أجساد ولست عابد أرواح. لقد صار لي أعبد الروح خمسة و عشرين عاماً، ولم تعطني عبادتها سوى القهر والحرمان والعذاب! لقد كنت أهيم وأحلق في ملكوت الروح، حتى كنت أشعر أنني ذبت بل وتلاشيت مع الأثير؛ ولكن الجوع ما زال يسحق عظامي، ويمزق أحشائي ويفتت كبدي...! إن الجوع والحرمان يمسحانني من الوجود، فدعيني أسترد وجودي من خلال جسدك... بالله عليك أن تدعيني أغرق كياني بك من خلال رضاب شفتيك وعطر أنفاسك...!"

- مالك تحدق بي وكأنني ظاهرة غير طبيعية، أو كأنك تراني لأول مرة ؟! ألا تريد أن تتناول عشاءك؟ ! لقد تناولت جزءاً كبيراً من طعامي وأنت ما زلت تحدق بي! كنت أظنك تقرأ صلاة الطعام ؟!

تنبّه الشاب على صوت جارته تسأله باستغراب!

- نعم لقد كنت أصلي صلاة الأجساد... أعني صلاة الطعام!

- ابتسمت الحسناء، ولا شك أنها قد فهمت ما يعني، لأن وجنتيها قد احمرتا من جديد، وحولت عينيها من النظر إليه إلى صحنها!

*****

- هل لك أن تساعدني على النهوض؟ قالت الشابة هذا، بدلال وغنج، وقد مدّت يدها للفتى وكأنما لتعلن له ضعفها، ولتشعره بقوته ! كان ذلك بعد أن انتهيا من تناول طعام العشاء.

- ألا تريدين فنجاناً آخر من القهوة؟!

- إنني لا أشرب أكثر من فنجان واحد مع كل وجبة! إن الضعف الوحيد الذي مازلت لم أستطع التخلص منه كمؤمنة، هو شرب القهوة والشاي !

- وهل شربهما كذلك تحرمه الأديان؟! سأل الفتى باستغراب وحيرة!

- إنها لا تحرّمهما، ولكنهما غير مستحبين، لأنهما ينبهان الأعصاب.

- يجب أن نعود إلى الحافلة، فإنني أرى المسافرين قد بدأوا يغادرون المطعم. قال راكان هذا ونهض من على كرسيه بطاقة وحيوية شديدتين، ثم انحنى وقد مدّ لصاحبته يده اليسرى لتتسلق عليها وتنهض، وبيده اليمنى أسند ظهرها !

قفزت من مقعدها كالغزال، ولكنها لم تطلق يده من يدها، بل بقيت ممسكة بها وهي تنظر إلى وجهه نظرات من يتأمل من أمامه بإعجاب وشوق !

لاحظ صاحبنا أن المجند ترك المرأتين تقفان غير بعيدتين عنه وتقدم هو نحو المحاسبة ودفع لها قيمة فاتورة الطعام؛ ثم عاد إلى حيث تقف المرأتان، ووضع يده اليمنى حول خصر الفتاة بعد أن فتح باب المطعم الزجاجي فخرج هو وصاحبته معاً، ثم لحقت بهما الأم.

استغرب راكان أنه لا يريد أن يأخذ يده من حول خصرها حتى وهما يخرجان من الباب الزجاجي!

- قلت لك سأدفع أنا هذه المرة! قالت الحسناء بحماس وهي تحاول أن تحرر يدها من يده لتأخذ الفاتورة، ولكنه أبعدها عنه، وإن كان حتى هذه اللحظة، ما زال ممسكاً بيدها، ضاغطاً عليها حتى لا تفلت منه.

ولما رأت إصراره دون أن ينطق بكلمة قالت:

- كم أنت شهم وكريم! شكراً جزيلاً!

لم يقل شيئاً، فقد دفع الفاتورة بعد أن أطلق يدها، وحالما انتهى من دفع فاتورة الطعام عاد من جديد وأمسك بيدها، فقد كان في هذه المرة أكثر جرأة وأشد إصراراً. لقد أصرّ هذه المرة على أن لا يطلق يدها، خصوصاً وهي لم تمانع، بل ولم تحاول حتى تحرير يدها من يده.

لقد شعر على العكس من ذلك بأنها شدت على يده، وكأنما تعلمه رضاها بل وسعادتها! أما هو فقد شعر بسعادة لم يشعرها بحياته من قبل قط، وأحسّ بدفء لم يحسه حتى وهو مازال صغيراً في حضن أمه ! يا إله السماء ! رحمتك! اللهم عفوك وغفرانك! ما هذا الذي يحدث لراكان؟! إذا كان كل هذا الدفء العاطفي، وكل هذه السعادة ينالها الإنسان وهو ممسك بيد امرأة فقط، فكيف وهو يعصر جسدها كله، بأتونه وسحره ويذيب وجوده في كيانها؟! كانت وكأنما لمسات لذيذة ناعمة، تسري مع كل خلجة من خلجات نفسه!

لقد أحسّ وهو يحتضن يدها بيده، وكأنما يحتضن كل جسدها... كل كيانها... كل وجودها! لقد أحسّ بنشوة سماوية عارمة...! لقد أحسّ وكأنما يضغط على كل جسمها بين ذراعيه، ويعصرها لتنصهر مع أجزاء صدره، ولتتلاشى به وتذوب معه؛ وأحسّ كل عواطفه وأحاسيسه ومشاعره، قد انتقلت من أماكنها واستقرت في قبضة يده!

لم ينتبه الفتى لسائق الحافلة الواقف عند الباب يتفقد التذاكر، فقد كان سارحاً في تأملاته، غارقاً في أحلامه، لولا أن الصبية قد مدّت يدها الطليقة إلى جيب قميصه؛ نعم مدّت يدها إلى جيب قميصه؛ فأخرجتها وأعطتها للسائق الذي خرقها وناولها لها، فأعادتها هي إلى جيب القميص!

كانت يده كأنما هي مسمرة بيد الصبية، ولم يتركها حتى وهي تصعد درجات الحافلة إلى الداخل، ولا وهو يدفعها لأن تدخل أولاً إلى مقعدها الذي بادلته بمقعده!

ضغط الصبي على يد الصبية بشدة، وكان كلما ازداد ضغطاً، كلما تضاعفت لذته وتعاظمت متعته! لقد شعر وكأنما يدخل عالماً سحرياً!

- آخ! لقد آلمتني! قالت ذلك وقفزت من على مقعدها من شدة الألم وهي تحاول أن تحرر يدها من يده! ثم أضافت:

- إن يدك قوية جداً! قالتها بحبور وسعادة لاحظهما في ارتجاف جسدها، وفي الفرحة الكبيرة التي غطت وجهها!

- أنا آسف جداً! قال وقد أرخى يده من يدها، ولكنه شعر بأن تدفق نهر اللذة الخالدة وكأنما قد توقف عن الاندفاع. ومن جديد أعاد مسك يدها وصار يتحسسها برقة وحنان ويقربها رويداً رويداً من حضنة، ولكنها مانعت بدلال!

- أعطني يدك من فضلك، فإنني لن أؤلمك هذه المرة! صدقيني! خرج صوته من داخله كحشرجة الأموات عند خروج أرواحهم وهم يتعذبون، ولكنها نظرت إليه وهزّت كتفها بدلال وإغراء أكثر مما لو أعطته يدها!

لا شك أنّ تمنعها المصطنع ونظرات عينيها المتوهجتين، قد زادتا في إلهاب مشاعره، فقد أحسّ بشوق عارم ورغبة مجنونة إلى أن يمسك بيدها من جديد، ويعصرها بقسوة ووحشية، ويظل يعصرها ويعصرها حتى يقتل هذه الرغبة المجنونة المتأججة في داخله! ورويداً رويداً أحسّ بأن الوحش في داخله قد بدأ يستيقظ ويطالب بالأكل، ثم بدأ يتململ ويعوي، ثم أحسّ بأن كل ذرة من جسمه قد تحولت إلى شهوة عارمة، وأنه بدأ يفقد سيطرته على عقله. وهنا نظر إلى وجه الصبية فتقابلت عيونهما، إذ لا شك أنها لاحظت النيران التي تخرج من عينيه، وقرأت في نظراته ثورة تغلي!

- لا... لا... من الأحسن لا... بعدين! وكأنما ما قالته كانت دعوة له ليستمر!

- لا، الآن أرجوكِ! قال ذلك وأمسك يدها بيديه الاثنتين وأحضرها إلى حضنه وأرقدها بين فخذيه، فخيل إليه وكأنما وضع الصبية عارية في الفراش! لم تمانع هذه المرة، وإنما نظرت إليه

بعينين متقدتين كجمرتين، وابتسمت، وكذلك فعل هو، ولكن الابتسامتين كانتا في هذه المرة جامدتين باهتتين!

- كم أتمنى لو أننا وحيدان! فقط، أنتِ وأنا! قال راكان بصوت مخنوق كالحشرجة، ثم احتوى يدها بيديه الاثنتين، وصار يتحسسها، فقد كانت دافئة طرية وناعمة، وظل يتحسسها ويملّس عليها، وكان كلما أمعن بالضم والتمليس كلما كانت الوحوش في داخله تستيقظ أكثر فأكثر!

لقد تحولت كل أحاسيسه وعواطفه ومشاعره وعقله، وكل الذئاب التي تعوي في داخله والوحوش التي تتأهب للانطلاق؛ كلها تمركزت في يديه.

كان يحس أن اليد التي في حضنه ليست يد الصبية، وإنما جسمها اللدن عارٍ من الملابس تماماً!

لم تمانع ولم تقل شيئاً، بل تركته يسرح ويمرح، وكأنما هو في بستان يغص بالزهور، وهو يصول في جنباته طولاً وعرضاً، يداعب يدها تارة ويعصرها تارة أخرى، ثم يقربها إلى حضنه أكثر وأكثر تارات وتارات.

لقد ظلت هي تحدق، من خلال زجاج الشباك، بالغسق الذي يطارد جحافل الظلام على منحدرات الجبال وفوق سفوح الهضاب؛ أما هو فقد سلّط نظراته الزائغة على طرف وجهها الملاصق له وعنقها وشعرها، وأحسّ وكأنما الركاب قد اختفوا وكأنه سبح وإياها على ذرات الأثير إلى مكان بعيد بعيد، خالٍ إلاّ منهما؛ ثم يعريها من ملابسها قطعة قطعة، ثم يمزقها بيديه وأسنانه، بعنف ووحشية، وكأنما يمزق حرمان السنين وجوع الصحراء، وقد بدأت أمامه عارية تماماً، ثم انقض عليها يدفن جوع السنين في جسدها وينهشه، كالكلب المسعور...! وظل يأكل بشراهة ووحشية، ليعوض ما فاته من قحط الصحراء حتى...

وهنا اهتز جسده هزة قوية فوق المعقد، من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، بعد أن أطلق صرخة مكتومة لا شك أن البنية سمعتها... لقد ظل يرتجف فوق مقعده لفترة ليست بالقصيرة، تراخى بعدها وسقطت يداه إلى جنبيه!

لقد أحسّ الشاب وكأنما بال على نفسه ، وبلل سرواله وبنطاله، مما جعله يستغرب من أين أتى بكل هذا المخزون من اللبيد المحتبس؟!

سحبت الصبية يدها من حضنه، وفتحت حقيبة يدها وأخرجت منها منديلاً، ثم صارت تجفف بحنان ورقة، لاحظهما في نظراتها وحركة يدها، عرقه المتصبب فوق جبينه ورقبته!

- هل أنت الآن أحسن؟! سألت وهي تنظر إلى عيونه وقد علت وجهها ابتسامة باهتة حزينة رقيقة، وكأنما هي أم تبتسم لطفلها الذي كف عن البكاء بعد أن تعذّب طويلاً من شدة الألم، وبعد أن أعطته الدواء الذي نيّمه !

لم يجب الشاب على سؤالها وإنما غضّ من بصره حياء، متجنباً أن لا تتقابل عيونهما!

- أنا آسفة يا حبيبي! إن الشيطان هو الذي يثير فينا الغرائز، عندما يعرف أننا لا نستطيع مقاومتها! قالت الفتاة بحزن بادٍ في صوتها!

لم يعلق الشاب على مقولتها، وإن كان قد شعر بموجة من الحزن الجارف الذي يسحق عظامه، وصارت دموعه تنزل فوق خديه بحرارة وكأنها جمر متقد، وكانتا نصف مغمضتين، وهو مسترخ إلى الوراء على الكرسي ويحدق بالفراغ أمامه!

لقد أحس بمزيج من الإرهاق والحزن معاً، وأنه بحاجة إلى أن ينام وبعمق لفترة طويلة... طويلة جداً!

لاحظ الفتى بطرف عينه اليسرى، بأن جارته كانت مستغرقة تقرأ في توراتها لفترة، ثم تغمض عينيها بعدها، وتتمتم بحرارة لفترة أخرى، إذ لا شك أنها كانت تصلي.

لم تطل مراقبة راكان لها، إذ شعر بنعاس شديد يستولي عليه، وما هي إلاّ فترة قصيرة حتى راح في نوم عميق!

*****

- هل تقبل يا سيد لورنس أن تزوج ابنتك جوليانا، العذراء البالغة الراشدة، إلى راكان عبد الله، البالغ الراشد، بمهر مقداره خمسمائة دينار أردني مقدّم ومثلها مؤخر؟!

- نعم يا سيدي الشيخ أقبل!

- وأنت يا راكان، هل تقبل أن تتخذ جوليانا زوجة لك لتشاركك السراء والضراء؟!

- نعم أقبل! أقبل! ياحضرت المأذون !

- وهل قبضت الخمسمائة دينار يا سيد لورنس، صداق ابنتك المقدم ؟!

- نعم قبضت ، يا حضرة المأذون!

رفع المأذون القرآن الكريم بين يديه وقبله ووضعه على جبينه ثلاث مرات متتالية، بعدها فتحه وصار يقرأ منه بصوت خفيض لمدة تقل عن الثلاث دقائق، وجميع الحضور يستمعون ويصغون، فقد كانت غرفة الضيوف في بيت أهل جوليانا تغص بالحضور من الرجال والنساء.

وعندما انتهى من القراءة أغلق قرآنه، وبكل احترام قبله ووضعه على رأسه، ثم قبله ثانية ووضعه على طاولة الوسط أمامه، وقال:

- والآن، فكا يديكما المتشابكتين، ووقعا هنا. وأشار إلى وثيقة موضوعة أمامه على نفس طاولة الوسط التي وضع عليها القرآن الكريم.

أزاح الرجلان المنديل الكبير الذي كان يغطي يديهما ، وفكا تشابكهما وابتسم كل منهما للآخر!

- أنت يا سيد لورنس وقّع هنا تحت كلمة وكيل العروس، وأنت يا راكان، وقّع هنا إلى جانب كلمة العريس!

أخذ السيد لورنس قلم الحبر من على طاولة الوسط ووقع حيث أشار المأذون، ثم أعطى القلم إلى راكان الذي فعل هو أيضاً ما طلب منه، بعدها أخذ المأذون الوثيقة والمبصمة وناولهما إلى شقيق جوليانا وليام، وقال له بلهجة آمرة ولكن مهيبة:

- دع العروس تبصم هنا في قاع الورقة.

وفتح وليام الباب المؤدي إلى الصالون الكبير، حيث تتواجد النسوة، واختفى الشاب وراء الباب، وعاد بعد دقائق قليلة يحمل الوثيقة

والمبصمة وناولهما إلى الشيخ المأذون وابتسامة كبيرة جذلى تغطي وجهه!

نظر الشيخ إلى الوثيقة فتأكد من وجود البصمة عليها، ثم أشار بعدها بيده إلى عم العروس جورج، وإلى كريم، شقيق راكان، وطلب إليهما أن يوقعا وثيقة الزواج كشاهدين. وبعد أن فعلا، قال للعريس وهو يطوي الوثيقة بلهجة فيها خشونة ورجولة.

- والآن قم يا راكان وقبل رأس عمك!

نهض العريس بنشاط وحماس غير معهودين، وعانق والد عروسه وقبل رأسه ولحيته، ثم أمسك بيد شقيقه ،كريم ، وقبلها أيضاً، ووضعها على جبينه، ثم قبله على رأسه بعدها؛ وهنا قام كريم بتقبيل أخيه راكان على خديه. وقبّل والد جوليانا ابنه الجديد، راكان، على خده اليمين أولاً، ثم على الشمال ثانياً؛ بعدها تقدم راكان وعانق عم عروسه وتبادل الرجلان العناق والقبلات.

لم يتوقف العريس عن العناق والتقبيل عند هذا الحد، وإنما واصل تقبيل الحضور واحداً إثر آخر، واختلط الحابل بالنابل، هذا يقبل ذاك، وذاك يقبل هذا؛ إلى أن انتهى الجميع من العناق والتقبيل، بعدها توجه راكان وجلس في مكانه.

- مبروك! قالها الشيخ بصوت عالٍ مخاطباً والد جوليانا؛ ولاشك أن النسوة بالداخل قد سمعن مباركته! فرحن يزغردن ويهاهين ويغنين! ثم بدأ بعدها يجمع أوراقه، ثم أضاف:

- تأتون بعد ثلاثة أيام إلى المحكمة الشرعية وتأخذون نسختين من عقد الزواج واحدة لكل منكما!

تقدم أصدقاء راكان المقربين منه وهم حكمت وإميل وفهمي ومحمد وكايد وشاهر يهنئونه ويمازحونه ويتبادلون معه النكات وحديث الذكريات، عندما قال هو لهم:

- آمل أن يكون دوركم قريباً!

- عندما أجد فتاة لها كل ما لعروستك من جمال وسحر، سأتقدم لخطبتها في التو واللحظة! قال شاهر وابتسامة كبيرة تغطي نصف وجهه.

- أنا لا يهمني جمالها ولا قبحها وإنما يهمني ما عند والدها من ثروة! قال فهمي وهو يطبطب على ظهر راكان ويبتسم ابتسامة ذات معنى.

- أما أنا فإنني مصمم على أن أعيش عمري عازباً! قال إميل بخجله وأدبه المعتادين.

- لا أظن أن وظيفتي ستمكنني من أن أتزوج وأفتح بيتاً وأن أعيل أمي وأخواتي الأربعة! قال محمد.

- هكذا كنت أقول أنا حتى قسم النصيب ووجدت بنت الحلال، قال حكمت.

ولم يستطع الأصدقاء الاستمرار بالحديث إذ تقدمت من العريس مجموعة جديدة من أقاربه ومعارفه الذين وصلوا إلى بيت العروس متأخرين، والذين غصّ بهم البيت وصاروا يهنئونه ويتبادلون معه العناق والقبلات.

كانت كل غرف البيت والباحتين اللتين أمامه وخلفه مملوءة بالناس من أهل العروسين ومن أقاربهما وأصدقائهما؛ وكان الرجال يجلسون في معزل من النساء، حفاظاً على الشرف والأخلاق، وطبقاً لقوانين العشيرة؛ كما كان يسمع صوت النسوة يغنين ويزغردن، وكانت أصواتهن تسمع من مسافات بعيدة.

ثم تقدم وليام، شقيق العروس، وسحب راكان من يده وما كاد يخرج به من غرفة الضيوف حتى وجد والدته تنتظره خلف الباب.

- تعال يا حبيبي فإن عروسك تنتظرك! قالت والدته ذلك، ثم قادته من يده وقلبه يخفق خفقات الخوف والقلق، وصار يتعثر في مشيته وهو يشق طريقه بين النساء اللواتي ملأن كل ركن من أركان البيت، حتى وصلا إلى حيث كانت عروسه، والتي كانت تجلس على مقعد عالٍ، وترتدي ثوب زفاف أبيض كأنها ملاك!

كانت أخوات راكان الأربع يجلسن إلى جانبها ويحدثنها ويضاحكنها. وظلت والدته تقوده وصعدت به المنصّة، فأخلت له أخته الكبرى، أميرة، الكرسي، ونهضت العروس عندما اقترب منها، وبيده اليمنى أزاح الغطاء الحريري الأبيض الشفاف من على وجهها بينما كانت هي تنظر إلى قدميها خجلاً!

قرّب راكان وجهه من وجهها وقبلها على خدها قبلة خفيفة خجلى؛ وهنا سمعت همهمة ولغط شديدان.

ضجت بعض الحاضرات بالضحك، وأغضى بعضهن حياء وخجلاً، فغطين وجوههن، مما زاد في خجل العروس، واشتد احمرار وجنتيها، وعلت جسمها موجة من العرق البارد، وصار بعض الصغار يضحكون ويتهامسون ! خجل راكان أيضاً وشعر بأنه تصرف تصرفاً لا يليق بعادات المجتمع وتقاليده، فازداد حياؤه واشتد ارتباكه، ولم ينقذه من حيرته إلاّ أخته التي طلبت إليه الجلوس إلى جانب عروسه.

ورمى العريس بنفسه فوق الكرسي ولكن الذي أثار دهشته هو أنه لم يكن يوجد في الحقيقة مقعد، ولكن خيل إليه. ووجد نفسه يسقط على بلاط الصالون وألم شديد يلهب قاعه!

فتح العريس عينيه، وتطلّع حوله، ليرى عروسته وأهله وأصدقاءه، فخاب ظنه، إذ لم ير أحداً منهم؛ أغمض عينيه ثانية علّه يراهم من جديد، ولكن هيهات؛ فهاهي الشمس قد اختفت والظلمة ابتلعت الكون، اللهم من أنوار خفيفة مزروعة في أماكن مختلفة في الحافلة!

التقت عيناه بعيني جارته فابتسمت.

- لقد كنت تبتسم في نومك. لا شك أنك كنت تحلم حلماً جميلاً !

هزّ الشاب رأسه علامة الموافقة، وهو يرد لها ابتسامتها بمثلها.

مسح بظهر يده العرق المتصبب فوق جبينه، ثم استوى في جلسته، وقال:

- إن الأحلام تكون أحياناً أحلى من الحقيقة، ونتمنى لو أن حياتنا كلها تصبح حلماً متواصلاً. قال الشاب بكسل!

- إن حلمي الوحيد في الحياة، هو أن أجلس في السماء مع السيد المسيح، يتحدث إليّ وأتحدث إليه. توقفت قليلاً، ولما لم يقل شيئاً أردفت:

- إنني أحلم أحياناً بأنني ساجدة عند قدميه أصلي بخشوع وحرارة وهو يمرّ بيديه الطاهرتين على رأسي ويباركني!

- لولا الأحلام لربما كنت الآن في عالم آخر، ومتّ منذ زمن طويل، ولما كنت أجلس إلى جانبك! توقف راكان للحظة وألقى عليها نظرة، فوجد أنها محدقة به، وأنها كانت تتأمل ملامح وجهه، إذ لا شك أنها كانت تفكر بما يقول!

وعاد راكان بذاكرته قليلاً إلى الوراء! فشعر فجأة بحماس شديد ورغبة قوية للكلام! فأضاف:

- أنا لا أعني الأحلام التي نراها في نومنا، إذ إن هذه الأحلام تتخللها أحياناً كوابيس يهلع لها القلب. أنا أتحدث عن أحلام اليقظة... إنني أحياناً أقضي الساعات الطوال أحدق في الفراغ أو في الأفق البعيد، أحلم...! إن الأحلام هي عالمي الوحيد الذي أهرب إليه من واقعي المؤلم...!

توقف الشاب للحظة، ثم أضاف:

- إنها نافذة أطلّ منها على عالم سحري. لقد اكتشفت هذا منذ أن كنت طفلاً. إنني ومنذ ذلك اليوم وأنا لا أريد أن أفارق ذلك العالم. إنني دائماً أعيش في عالم سحري جميل لذيذ ورديّ من صُنع خيالي وتصوراتي! لقد ساعدتني كثرة قراءة القصص على خلقه. إنني أعيش دائماً في حلم جميل... إنه العالم الذي أهرب إليه وأحتمي به. إن اليوم الذي أتوقف به عن هذه الأحلام، هو اليوم الذي سأنتهي به كإنسان مفكر له إحساس ومشاعر! إنني أريد أن أظل سادراً في أحلامي، لا أفيق منها!

وسكت راكان وأغمض عينيه وألقى برأسه إلى الوراء على الكرسي، ولم تقل الصبية شيئاً، ولعلها احترمت صمته! وعاد راكان بذاكرته قليلاً إلى الوراء، وصار يسترجع بعض الذكريات:

- أنت لا تحيا يا أخي على هذه الأرض إلاّ بجسمك فقط... أنت تعيش في حلم مستمر! استيقظ من أحلامك يا أخي وإلاّ فإن الحياة ستدوس عليك وستسحقك بأقدامها. أنا لست مخلداً لك، وكذلك الوالدة! ستترك البيت يوماً وستعيش بدوننا، وسيصفعك الواقع بكل قسوته ولؤمه ومرارته! هكذا قال له أخوه كريم يوماً.

- أنا سعيد يا أخي بأحلامي ولا أقبل أن استبدلها بذهب العالم! أجابه راكان.

- إن لم تتركها اليوم بإرادتك، فستتركها غداً مرغماً. إنها لن تقرع بابك وتستأذنك للدخول، وإنما تجتثك وتقتلعك اقتلاعاً. ستقضي عليك أحلامك يوماً. إنك تعيش في حلم لأنك تخاف أن تواجه الواقع، ويوم تتفتح عيناك على الحقيقة ستصعق لهولها بعد أن تكون قد دمرتك. أخرج يا أخي من قوقعتك وواجه الحياة، وليكن لك طموحات غير طموحات الأحلام والخيالات !

- أنا لا أريد من دنياي شيئاً أكثر من الأحلام والخيالات !

- لقد جعلتك أحلامك تؤمن أنك فوق مستوى كثير من الناس في التفكير وفي الثقافة؛ فتنظر إليهم باستعلاء !

- أنا لا أنظر الى الناس باستعلاء بسبب فقرهم أو وضاعة أصلهم، وإنما لأنهم يتهافتون على ماديات الدنيا ! أنا سعيد وقانع بالروحانيات. إن أرقى منصب في العالم لا يساوي في نظري شيئاً، اللهم إلاّ إذا كان منصباً علمياً!

- لا تخف ! ستتغير نظرتك إلى الحياة، هنا في أمريكا! قالت البنية وقد قطعت عليه حبل أفكاره !

- إن في وجداني عقدة أجيال ولعنة قرون، وستظل تلاحقني حتى آخر العمر!

- لا تقلق! سأصلي من أجلك. أنا واثقة من أن المسيح سيستجيب لأدعيتي ولن يخذلني! قالت البنية بإيمان وصدق لاحظهما الفتى على وجهها وفي لهجتها!

- صدقيني يا جوليانا؛ لقد صليت سنوات طويلة، ودعوت الله كثيراً، ولكن الصلوات والدعوات لم تنقذني من اللعنة التي تطاردني ! قال الشاب بألم موجع !

- إنك لم تصلي على الطريقة الصحيحة؛ فإنك لو فعلت، لكانت زالت كل همومك، ولذهبت عنك جميع اللعنات، التي تعتقد بأنها تلاحقك! لقد صليت لغير المسيح وسجدت لغير الخالق! قالت بحماس.

"لقد عبدت نفس الذي تعبدين، وتذللت ورجوت وبكيت لنفس الذي أنتِ تتذللين وترجين وتبكين، ونهضت في أعماق الليل أصيح وأصرخ واستغفر الله الذي أنتِ تصيحين له وتصرخين وتستغفرين... ولكن السعار ما زال مستبداً بي، مستعبداً إياي، واللعنة ما زالت تطاردني

وتحرق دمي. أنا أقدّس محمدي ومسيحك، ولكنهما لا يطفآن السعير الذي يغلي في دمي ولا الشياطين التي تركبني، والتي بسياطها تجلدني، فينسلخ جسدي وينزل الصديد ممزوجاً بدمي! بالله عليك؛ دعينا لا نفكر بالمسيح ولا بمحمد صلوات الله عليهما ! إنني أريد أن أطفئ حرائقي أولاً وبعدها سنتحدث عنهما، ونناقش رسالتيهما! "

- لقد صليت لنفس الذي تصلين أنت له؛ إنه نفس الخالق وإن اختلفت الأسماء؛ إنه الإله الذي خلق السموات والأرضين في سبعة أيام ، ثم استوى على العرش. إنكم تسمونه المسيح واليهود يسمونه جحوفا ونحن نسميه الله، وهو هو نفسه الذي يسيّر دفة هذا الكون، وفي النهاية فهو خالق واحد مهما اختلفت الأسماء !

- إذا كانت جميع الطرق تؤدي إلى روما كما تقول، فلماذا لا تؤمن إذن بالمسيح وتهبه روحك؟! إن المسيح هو الحقيقة الوحيدة الثابتة من بين جميع هذه المعتقدات! قالت وكأنما تتساءل عن سرّ غبائه !

- وهل تظنين أن الإيمان بالمسيح سيخلصني من تعاساتي؟!

- نعم، لقد قال هو ذلك! قالت وهي تكاد تطير فرحاً، وفتحت توراتها تحاول أن تشير إلى صفحة معينة بها برهان على مقولتها، ولكنه أوقفها بإشارة من يده.

- صدقيني إنني دائماً أتمنى لو أنه ما زال عندي ذلك الإيمان العميق والثقة المطلقة بالدين! إنني منذ أن تخليت عن إيماني، أو منذ أن فارقني إيماني، وأنا أتعذب ! لقد قاسيت طويلاً وتعذبت كثيراً. لقد فقدت الهدوء والسلام والاطمئنان، وفقدت السلوى والعزاء والثقة يوم فقدت إيماني. لقد أصبحت حائراً ضائعاً قلقاً، تعذبني وحدتي وتمزقني شكوكي! لقد كنت أشعر بالوحدة تمزقني حتى وأنا بين أفراد عائلتي وأشعر بالغربة وأنا في بلدي وبين أصدقائي. لقد فارقني هدوئي وسلامي يوم تخليت عن إيماني وقرآني وصلاتي!

- لقد كنت تعبد إلهاً مزيفاً، فلم يمنحك إلاّ القلق والشكوك والعذاب، ولكنك لو آمنت بالمسيح فإنه يمنحك السلام والسكينة واليقين! وبرقت عيناها بلهيب عجيب وأردفت:

- فقط اقرأ التوراة بعقل وقلب مفتوحين. سنقرأها سوية، أنت وأنا، وسأشرح لك معانيها، ثم نركع بعدها معاً ونصلي سوية!

لم يجب راكان، وإنما صار يخاطب نفسه ويقول:

"بالله عليك يا فاتنتي، دعينا الآن وأولاً، أنتِ وأنا، نؤدي واجباً جسدياً، فإن جميع حواسي متمترسة فوق جسدك ومتأهبة للانطلاق!" وهنا تصور راكان نفسه يأكل من التفاحة المحرمة ويعبّ من نهر الجسد الخالد !

لعل الصبية ظنت أن عدم جوابه هو أنه قد اقتنع بما تقول ، فأضافت مشجعة:

- إن المسيح هو الطريق الوحيد. إنه الحقيقة الثابتة التي لا تقبل الشك! دعني أريك الضوء ولن تشعر بعد اليوم بالضياع ولا بالغربة، لأن المسيح سيكون دائماً معك يحرسك ويحميك من العذاب، وينير لك الظلمة!

- أنتِ لا تفهمينني ومن الصعب عليّ أن أقنعك! قالها بحزن ويأس شديدين!

وهنا فتحت البنية توراتها وبدأت تقرأ!

لقد تبين لراكان بأنه ليس لها إطلاع على أي نوع من أنواع المعرفة ولا حتى معرفة الأديان. إن كل ما تعرفه عن الدين المسيحي معرفة سطحية ضحلة ليس فيها عمق ولا تبحر، كما إن التعصب قد أعمى قلبها وبصيرتها حتى صارت تعتقد بأن كل إنسان لا يحمل معتقدها ولا يؤمن بما تؤمن هي به، هو إنسان ضائع وضال ويحتاج إلى الهداية والخلاص.

لقد قابل راكان في بلده كثيراً من المبشرين الأمريكيين والأوروبيين، فاستمع إليهم وتحدث معهم. كانوا وللأسف الشديد، جلهم على شاكلة محدثته. كانوا من كنائس مسيحية مختلفة وكان كل واحد منهم يحاول أن يحوّل تابع الكنيسة الأخرى ليتبع كنيسته هو، وكان الفرق بينهم وبين جوليانا هو أنهم كانوا يحاولون تغيير عقيدة أخوانهم المسيحيين، أما هذه الصبية فإنها تريد أن تحوّل راكان مسلم الأبوين إلى مسيحي الديانة!

*****

كان معظم المسافرين يغطّون في نوم عميق، وكانوا قد غطوا أنفسهم بمعاطفهم أو ببطانيات كانوا يحملونها معهم! لقد كانت هناك امرأة تقرأ في كتابها على ضوء خفيف كان مثبتاً فوق رأسها؛ بينما كان جارها قد أعاد مقعده إلى الوراء، وغطى وجهه بمخدة بدلاً من أن يضعها تحت رأسه! كما كان هناك رجل مسند وجهه على زجاج النافذة يحدق بالظلمة!

لقد لاحظ الفتى أن هذا الرجل، ومنذ مدة طويلة، وهو يفعل ذلك، حتى ظنه أول الأمر أنه نائم على وجهه؛ لولا أنه كان يرفع وجهه بين الفينة والأخرى ويفركه بظهر يده. لقد خيل لراكان وكأنما هو عابد يتهجد في محراب الطبيعة؛ لأن هو نفسه، كان يفعل ذلك، أيام كان يملأ الإيمان قلبه!

كان في كثير من الأحايين، ما ينهض من فراشه في ساعة متأخرة من الليل، ويجلس إما على شرفة بيتهم، أو تحت دالية عنب في حديقة البيت، يحدق بالظلمة لساعات وساعات، وهواء الليل البارد يداعب شعره ويتكسّر فوق وجهه، ونسمات الفجر الباكر تدغدغ أذنيه ورقبته؛ فقد كان يحس بسعادة سماوية ويشعر كأنما انتقل إلى ملكوت السماوات العلى، فيخيل إليه وكأنما يتلاشى مع الأثير وينصهر مع الوجود، وقد اتحدت روحه مع الخالق، فلا يرى إلاّ ودموعه تسيل على خديه غزيرة ساخنة!

لقد كان لليل عند راكان قدسية وروعة، وللظلام رهبة وعذوبة؛ فقد كانت كلها تنقله إلى عالم سحري سرمدي، يهتز له وجدانه، فيدخل في أعمق أعماق كيانه فيفقد وجوده ويذوب في اللامحدود!!

- لقد تجاوزت الساعة الآن منتصف الليل بقليل، وأظن أنه يجب أن ننام!! قالت الصبية بعد أن ألقت نظرة خاطفة على معصم يدها، ثم أغلقت التوراة ووضعتها على المقعد إلى جانبها، ونزلت على أرض الحافلة من مقعدها وسجدت، وظلت ساجدة لأكثر من دقيقتين...!

لقد لاحظ راكان أنها كانت تصلي بحرارة، إذ أحسّ ذلك في اهتزاز جسدها الذي كان يتراقص فوق أرض الحافلة، فتراءت له وكأنما هي تعاني من حمى أصابتها! نهضت بعدها وتناولت من على رف الحافلة، من فوق مقعدها، بطانية رمادية اللون فتحتها فوقها، ثم قالت:

- إن البطانية كبيرة وتتسع لاثنين، قالت ذلك وانفرجت شفتاها عن ابتسامة كبيرة ثم أردفت:

- على الرحب والسعة، تستطيع أن تتغطى بها إذا شئت! وقبل أن تسمع جوابه ألقت بقسم منها فوقه، ثم ضغطت على زمبرك مقعدها فرجع إلى الوراء قليلاً وسوّت مخدتها، ثم ألقت برأسها إلى الخلف وألقت عليه تحية المساء وأغمضت عينيها.

يا إله السماء! هو وامرأة جميلة جنباً إلى جنب، وتحت غطاء واحد؟! هل هو في حلم أم أنه في حقيقة ؟! إن عقله لا يستطيع أن يصدق ما يجري أمامه، ولا تستطيع أن تحتمل المفاجأة حتى مخيلته الجامحة الخيال دائماً؛ غريبة التفكير دوماً؛ ولا تستطيع حتى أن تتصور ما يحدث حوله ! إنه لا يستطيع أن يصدق عينيه لأنه إن كان ما يراه ويسمعه حقيقة فإنه سيقف في وسط الحافلة ويصرخ من أعماق قلبه وبأعلى صوته ، يسأل الناس إن كان هو يحلم أم كان هو قدْ جُنّ ! !

حاول أن يفكر ولكن أنى له عقل يفكر به؟! ثم فجأة أحسّ أن حمى شرسة بدأت تزحف في شرايينه، ثم صارت تمتد وتمتد حتى وصلت إلى كل ذرة في جسمه ! ثم بدأ قلبه يقفز في داخله كأنه سعدان آلي معلّق فوق زمبرك كهربائي؛ ثم امتدت حركة القفز حتى طالت كل جسمه، فصار يقفز فوق المقعد كأنه درويش سمع طبولاً تقرع من بعيد، فأصابته حمى الدين حتى ذاب في غيبوبة دينية !

مرّت فترة ليست بالقصيرة، وجسم الفتى يتراقص فوق المقعد، حتى خاف أن تلاحظ جارته ارتعاشه، فشكر الله أن مقاعد الحافلة كانت كبيرة ورحبة، ورويداً رويداً أحسّ أن قفزات قلبه قد بدأت تخف، وأن أعصابه مالت إلى الاسترخاء، وأن الخوف قد بدأ يفارقه قليلاً قليلاً... ثم شعر أن جسمه قد بدأ يتخدر، وأن أنفاسه المتلاحقة قد بدأت تنتظم وتهدأ... ثم أن خوفه قد بدأ يفارقه؛ وبصعوبة أغلق عينيه المحملقتين والمتجمدتين؛ ولا يدري كم مضى من الوقت، عندما بدأ يستعيد وعيه ويتأكد من وجوده؛ وهنا وصلت إلى أنفه رائحة عطر زكية النشوة، ثم تسربت هذه النشوة ببطء إلى كل ذرة في جسمه !

فتح الفتى عينيه، ورويداً رويداً بدأ يزحف بنظراته حتى وقعتا على القسم المواجه له من وجه الأنثى ! كانت نائمة كالملاك الراقد في

محراب الخالق الأعظم، وعلى ضوء المصباح الخافت رأى أنفها الصغير الرقيق وفتحتيها كأنهما زهرتا أقحوان، ورأى شفتيها القرمزيتين المزمومتين واللتين كانتا كزهرتي بنفسج قد تفتحتا لتوهما! أما وجهها فكان كأنه صورة الموناليزا في متحف اللوفر في باريس، وقد تدلى شعرها على جانبي صدغيها فبدا وكأنه كنز من ذهب، ثم ظهر جزء من عنقها فبدا وكأنه صنع من عاج أو مرمر، أبدع الخالق الأعظم في صنعه !

فجأة، أحسّ راكان بأن الوحوش الجائعة في داخله قد بدأت تستيقظ، وأن دمه قد بدأ يغلي في عروقه، ثم شعر برغبة مجنونة... رغبة عنيفة مدمرة لا تقاوم... رغبة سيطرت على كل ذرة في حواسه ومشاعره وتفكيره... رغبة عاصفة مجنونة مسعورة... وبأن كل كيانه ووجوده قد تحوّل إلى شهوة محمومة عارمة. شعر أن عينيه قد تجمدتا فوق وجه العروس!

في تلك اللحظة، شعر العريس برغبة عاصفة، بأن ينقض على عروسه بقوة وعنف، ويطبق بشفتيه على شفتيها وتظلان تمتصانهما حتى آخر قطرة من رحيق الحياة بهما... ثم فكر بأن يمد يديه ويتحسس وجهها وخديها ثم عنقها... ثم ينزل قليلاً إلى صدرها ونهديها وينزع عنها ملابسها فيمزقها... ثم يغرز أظافره وأسنانه بلحمها، ويظل يأكل ويأكل ويأكل حتى يشبع ما يستبد به من جوع جنسي وقحط عاطفي!

بعد هنيهة أحسّ أن فتحتا عينيه قد اتسعتا حتى غطتا كل وجهه، وأن حدقتيهما تحاولان أن تخرجا من محجريهما... ثم بدأ جسمه يرتجف، وأنفاسه تتلاحق، وموجة من العرق الساخن قد غطت كل ذرة في جسمه؛ ثم بعدها ارتفعت دقات قلبه، حتى شعر أن قلبه قد انتقل إلى طبلتي أذنيه... وبقي يحملق بالوجه الذي أمامه، حتى شعر بأن عينيه قد تجمدتا فوق الوجه، وفجأة شعر بأنه يكاد يختنق وأنه لا يستطيع التنفس، وبكل ما عنده من قوة وطاقة، رمى البطانية عن جسمه بعيداً وقفز من مقعده، وأخذ يجري، وهو يترنح نحو الحمام، وظل يصب ماء بارداً تارة في جوفه وأخرى فوق رأسه، وأنفاسه تعلو وتهبط كأنما هو ثور يصارع جزاراً يريد أن يلقيه أرضاً ليذبحه، حتى خفّ هياجه. ولكن الوحوش في داخله لم تهدأ، بل بقيت تزأر وتزمجر، وهنا أنزل سرواله وخطف الصابونة، ثم فتح الماء الساخن وأرغى الصابونة

ثم... وارتعش للحظات، ثم ألقى بجسمه فوق حجر الحمام منهوك القوى محطم الأعصاب خائر العزيمة !

أسند الفتى رأسه على جدار الحمام وسهى، ولم يعرف كم دامت سهوته، عندما سمع قرعاً على الباب، وهمهمة إنسان، فتطلع إلى ساعته فإذا هي تقترب من الرابعة صباحاً. الوقت الذي كان يستيقظ به راكان من نومه، حينا من الدهر، ليتوضأ ويصلي، فيقوم بواجبه نحو خالقه!

- لحظة من فضلك! قالها الشاب والعبرة تخنقه، وشعور بالحزن يسحق عظامه، وحنين طاغٍ مدمر إلى والدته وأخيه وأخواته، يفري كبده !

رفع بنطاله، وربط حزامه، وفتح الباب وخرج... وعلى ضوء مزروع على جدار الباص، لاحظ أن البنية ومعظم المسافرين ما زالوا يغطون في نوم عميق، فألقي بجسمه فوق مقعده بعد أن أزاح البطانية بعيداً عن مكانه وأدار لها ظهره، ثم أغمض عينيه محاولاً أن يحصل على بعض الراحة الجسدية، وإن كانت الراحة النفسية بعيدة عنه كثيراً... وكثيراً جداً !

- أرجوك أن تسمح لي بأن أدفع ثمن عشائنا هذه الليلة! قالت الصبية وهي تنهض من مقعدها وتمسك بيد راكان الممدودة لمساعدتها.

- لا تحاولي! قلتِ لك إن العادات العربية الأصيلة، تعتبر أنه من غير اللائق أن يدع الرجل المرأة تدفع ثمن طعامه، وأقول لك الصدق، إنني فخور لهذه العادة لأنها تجعل الرجل يشعر بالمسؤولية نحو أنثاه، وتمنحه شعوراً ذكورياً لذيذاً !

- ولكننا ومنذ أن ركبنا الحافلة من محطة نيويورك ، وأنت دائماً تدفع ثمن طعامي!

- قلت لك؛ إنه لسرور عظيم لي أن أفعل ذلك! قال الفتى صادقاً.

- امنحني هذا السرور ولو مرة واحدة، إذ أن هذه آخر وجبة سنتناولها في سفرتنا هذه ؛ فغداً صباحاً من المفروض وحسب جدول الرحلة أن نكون في مدينة لوس أنجلوس.

- وما اسم هذه المدينة التي سنتعشى بها الليلة؟!

- إسمها "لاص فيقص" في ولاية نيفادا. ألم تسمع بها من قبل؟!

هزّ الفتى رأسه علامة النفي.

- إن القوانين في هذه الولاية، تسمح للناس بالقيام بأعمال، لا تسمح بها الولايات الأخرى !

- مثل ماذا؟ وما السبب؟

- السبب هو أنها ولاية صحراوية، وليس لها موارد طبيعية كثيرة كبقية الولايات؛ ولكي تحصل على المال فقد أباحوا القمار في جميع أنحاء الولاية، وكذلك أباحوا الطلاق والزواج خلال ساعات ، مع أن الولايات الأخرى لا تسمح بذلك !

- قصدك أن تقولي بأنهم يعلموننا بأن الغاية تبرر الوسيلة!

- نعم ! قالت وهي تضحك.

- لذلك تراها دائماً مزدحمة بالسواح من جميع أنحاء أمريكا، بل ومن جميع أنحاء المعمورة ! إنك تجد بها كل ما يطلبه الزائر من لهو ومتعة، فهي مملوءة بالنوادي الليلية ونوادي القمار، وكذلك بها أفخم الفنادق والمطاعم وأشهرها!

- كان الله في عوننا عندما نموت من نار جهنم ! أنا لم أر في حياتي مكاناً مثل هذا المكان حراً ! إنه يكتم الأنفاس! قال راكان وهما يقطعان الطريق بين الحافلة والمطعم.

حقاً وصدقاً! لقد شعر الشاب عندما خرج من باب الحافلة ليتوجه مع بقية الركاب إلى المطعم، كأنما باب جهنم التي قرأ عنها في القرآن الكريم وفي الكتب الدينية قد فُتح حقاً، مع أن الوقت كان ليلاً والشمس قد اختفت! لقد شعر كأنما هو يختنق!

- ولهذا السبب يجب أن تؤمن بالمسيح حتى لا ترى جهنم في العالم الآخر! لولا أنك قلت لي بأن جو بلادكم معتدل، لقلت لك أن ولاية نيفادا تشبه بلادكم من حيث المناخ !

وكانا قد وصلا المطعم ، فتزاحم الركاب بالدخول إلى المكان المكيف ليتخلصوا من سعير الحر. لقد جلب انتباه صاحبنا أن معظم النساء داخل المطعم كن مكشوفات الظهور والصدور بل وشبه عاريات، مما جعله مرتعاً لشتى الانفعالات الجنسية والعاطفية ! إنه لم

ير في حياته كلها مثل هذا العري واللحم الآدمي، حتى ولا على الورق!

- ماذا تريد أن تأكل؟ سألت الصبية.

- أي شيء تطلبينه لي أنا أقبله ! قال وهو يتردد !

- ما رأيك بشريحة لحم بقر مع بطاطا وسلطة؟!

- أكلت مثله مرة في مدينة نيويورك، فأعجبني جداً!

- إذن، أطلب لك "ستيك" مع بطاطا مشوية وسلطة وفنجان قهوة!

- أنا لا أحب القهوة ولا الشاي، أريد...

- ما أغباني! في كل مرة أنسى أنك تشرب الحليب فقط، وتكره القهوة والشاي! قاطعته الصبية.

- منذ أن وطأت قدماي الأراضي الأمريكية، وأنا لا أشرب إلاّ الحليب. إن الحليب المثلوج أمتع وألذ شراب عندي! إنني أستطيع أن أشرب منه جالونا في كل مرة !

- إنه أفيد من جميع المشروبات الأخرى ! قالت.

- ليس للفائدة فقط؛ وإنما أشعر وأنا أشرب الحليب المثلوج الأمريكي وكأنما أشرب من خمر الإله على الأرض!

- ولم لا تؤمن إذن بالمسيح، وتشرب من خمر الإله الحقيقي؟

"إنني أريد أن أجرّب خمر شفتيك أولاً، فدعيني أعبّ من نهرهما الفياض حتى أسكر. أن أشرب من خمرهما وأنا نائم فوق صدرك وبين نهديك؛ تلك هي الجنة الأرضية التي أريدها وأطمع بها الآن. دعيني أجرّب جنة جسدك أولاً، أنا واثق أنها ستكون أمتع لحظات مررت بها في حياتي!"

- مالك لا تجيب؟ وبماذا تفكر؟ لقد سرحت بعيداً جداً!

- أنا أفكر بهذا المجند وصاحبته التي لا تجلس إلا ورأسها على صدره، ولا يسيران إلاّ ويده ملتفة حول خصرها، لاصقة به، كأنما يخشى عليها أن تهرب !

وكان المجند وصاحبته ووالدتها، يجلسون على طاولة غير بعيدة منهما، والبنت تقضم قطعة "الهامبرغر" والبطاطا وتضعها بالشوكة

في فم المجند بينما كانت الأم تبتسم بسعادة غامرة لاحظها راكان على وجهها!

- هكذا يفعل المحبون! ستفعل أنت ذلك يوماً!

- وهل تسمين هذا حبّاً؟ إنهم يقومون بأفعال غير محتشمة أمام الناس! يجب أن يقوموا بها في خلوة فقط!

- إن الشبان هنا يتعانقون ويقبلون بعضهم بعضاً، في الأماكن العامة والخاصة، لا فرق! إنهم لا يهتمون بمن حولهم، ويجب على الناس، وكما تتطلب اللياقة والإتكيت أن يتجنبوا النظر إليهم.

وهنا أقبلت النادلة تحمل ما طلباه، وعندما انحنت لتضعه أمامهما على الطاولة، ظهر نهداها بوضوح تام، أحسّ الشاب وكأن سهماً طعنه في قلبه، فقد أشعل منظر النهدين الراقدين في سفح الصدر شهوة عنيفة في نفسه؛ ومما زاد في تأجج شهوته، الابتسامة الخلابة التي منحتها له، ثم الغمزة الناعمة التي أتبعتها لها!

لا شك أن جارته لاحظت تورد خديه واحمرار أذنيه، إذ أمسكت به وهو يحملق بفجاجة في صدر النادلة الشابة، فتابعت كلامها:

- من الخير لهم أن يمارسوا هذا علانية من أن يدّعوا الفضيلة والشرف والأخلاق وهم يمارسون ضدها في الخفاء! قالت وهي تبتسم ابتسامة شعر راكان أنها ابتسامة خبث ودهاء، كما شعر وكأنما صفعته على خده أو أمسكت به، وهو يفتح حقيبة يدها ليسرق نقودها!

- إن المجتمع في بلادي لا يسمح بذلك! قال وصدره ككور الحداد، يصعد ويهبط؛ ثم بلل شفتيه بلسانه، وأضاف:

- لو رآهم الناس في بلادي لكانوا اتهموهما بانعدام التربية وسوء التصرف. ولم يرد أن يقول لها؛ بل لكانوا رموهما بالحجارة واتهموهما بالزنا !

- لأنهما يتعانقان ويقبلان بعضاً، أمام الناس؟!! قالتها بلهجة تقطر قرفاً واشمئزازا، وقد زمّت ما بين حاجبيها واكفهر وجهها!

- نعم، لأن هذه التصرفات لا يقبلها مجتمعنا!

- يا له من مجتمع قاسٍ وظالم! يرفض أن يحب الناس بعضاً؟! وما الفرق بين أن يظهر الإنسان عواطفه لمن يحب، في الخفاء أو العلانية؟!

- لا بأس أن يمارسها في غرف النوم، وليس أمام الآخرين! أشياء كثيرة يقبلها مجتمع ويرفضها مجتمع آخر، ونفس المجتمع الذي يرفضها يوماً قد يقبلها يوماً آخر؛ والعكس بالعكس! قال راكان متفلسفاً!

- أظن أنك على حق! لقد كان مجتمعنا يرفض تصرفات كثيرة، أيام جدتي، ولكنه يقبلها اليوم! قالت وأتبعتها بهزة من رأسها وقد انفردت أساريرها!

وكأنما موافقة الصبية على ما قال قد شجعته؛ فاسترسل بأفكاره يفلسفها:

- ولهذا السبب أشك أحياناً أن هناك صحيح مطلق وخطأ مطلق، وأن الحق والفضيلة والقيم والأخلاق والعفة والشرف والمثالية وما شابه ذلك هي جميعها معتقدات نسبية؛ قد تُرفض اليوم وتُقبل غداً!

أخرج راكان الكلمات من فمه، وكأنما هي طلقات نارية كان يسددها ليقتل بها هذه الكلمات التي يعتقد أنها كلمات جوفاء يتشدق بها الناس دون أن يعنوها؛ وهي التي يسميها الناس الأخلاق... الشرف... الفضيلة... العفة... المثالية... إلخ ! ثم استدرك:

- لا شك أن هناك أفعالا تُعتبر، صحاً مطلقاً وخطأً مطلقاً؛ وهذه لم ولن تتغير، لا مع مرور الزمن، ولا مع اختلاف البلاد! قال الشاب مؤكداً.

وهنا رأى راكان المجند وصاحبته، أمام الناس وأمام الأم، يذوبان في قبلة طويلة ومشتعلة دامت أكثر من دقيقة، وكأنما هو يهيئها لأن يأخذها إلى الفراش، ثم سمع صوت البنية يصل إلى أذنيه خافتاً كأنما هو قادم من بعيد!

- إن الحق المطلق والطريق الوحيد والصحيح، هي المسيح والتوراة!

وبعيون تتقد غضباً ونظرات يتطاير منها الشرر همس في داخله!

"فلتذهبي أنت وكل الأديان وكتبك المقدسة إلى حيث يشاء الله ! إن الحق المطلق والحقيقة الثابتة، هو أنني أريد أن أركبك وأن أقضي عمري فوق صدرك وبين أحضانك، حتى أخرج كل ما في داخلي من جوع جنسي وقحط عاطفي ! "

- شكراً للعشاء؛ شرائح اللحم البقري لذيذة جداً ولقد استمتعت بالوجبة كثيراً! قال راكان مجاملاً، إذ لم يشعر بطعم ما أكل؛ فقد كانت كل ذرة في كيانه تصرخ وتستغيث، وهو يرى صاحبته شهوة مجسدة أمامه، وكذلك المجند وصاحبته يقبلان بعضهما بعضاً ومتعانقين باستمرار، بالإضافة إلى النسوة ذوات السيقان الأبنوسية، والأكتاف والصدور العارية، التي تلهب الأحاسيس والمشاعر، منتشرات في كل مكان!

- أنا مسرورة أنك أحببته! وسكتت قليلاً، ثم أردفت:

- سأدعوك إلى العشاء في مطعم "إستيك هاوس" بهوليود؛ إنه مطعم مشهور بتقديم شرائح اللحم البقري! إنه لذيذ جداً، ولن تنسى طعمه لمدة طويلة! إنه أحد الأماكن المشهورة والمتميزة التي يرتادها زوّار مدينة هوليود!

- شكراً لك على هذا العشاء اللذيذ! أنتِ كريمة ولطيفة يا جوليانا.

وشكرها ثانية وهما يدخلان الحافلة بعد أن عادا من العشاء !

*****

الفصل الثاني

- إن المسافة بين آركاديا وهوليود قصيرة جداً، ونستطيع أن نرى بعضنا بعضاً مراراً! قالت الصبية بعد أن غادرت الحافلة مدينة "لاص فيقص" وغرقت في ظلمة الصحراء القاتمة، حيث لم يعكر صفو الصحراء العميق وهدوءها اللامتناهي، سوى دبيب الحافلة فوقها وصوت الماكنة يهدر فوق أرض الإسفلت.

- إنني أحبّ ذلك كثيراً وأنتظره بشوق زائد! قال راكان ذلك صادقاً، ثم انحرف إلى شماله قليلاً ليختلس بعض النظرات، حيث كان يجلس المجند، فوجده قد ضمّ صاحبته إليه وكان يقبل شعرها ويستنشق

عطره وهي مستسلمة له وملقية بنفسها على صدره؛ بعدها نظر باتجاه الأم التي كان وجهها مشرقاً فرحاً، وهي تراقب ما يفعله المجند بابنتها!

- إنني أعيش وصديقة لي في شقة، وعند كل منا سيارة! قالت الصبية ذلك، ونظرت إلى جارها نظرة ذات مغزى، مما زادت في إلهاب غرائزه الجنسية!

- سآتي دائماً لآخذك؛ وسنذهب إلى أماكن كثيرة، وأريك أشياء جميلة!

"إن الشيء الذي أريده منك يا جارتي، وأتمنى لو أن أستطيع الحصول عليه، وفي هذه اللحظة، وبكل ما عندي من رغبات محمومة وأشواق عارمة، هو جسدك العاري ! أريد أن أغرق نفسي بنهر عسلك حتى أموت غرقاً في جنة حبك. إن الجوع الذي أنا به يا هذه، لا يشبعه إلاّ جسدك، والظمأ الذي أعاني منه لا يرويه إلاّ الغرق في بحر جنتك!"

- ما أسعدني بصداقتك يا جوليانا! كم أنا محظوظ أن الله جمعني بك! قال راكان صادقاً، وشهوة عارمة تستبد بجسده، والكلمات تخرج من أعماق قلبه وكأنما هو يشكي عذابه وألمه لحبيبته التي عادت إليه بعد هجر طويل. ثم تابع:

- لقد كنت أسأل نفسي طيلة الرحلة، ماذا يكون عليه حالتي، وكيف يكون باستطاعتي أن أتحمل معاناة ومشقة تلك السفرة الطويلة، المملة والمرهقة، لو لم أقابلك وأسعد برفقتك وأستمتع بأحاديثك!!

- إن المسيح هو الذي يرعى أولاده ويتدبر أمرهم. إنه لن ينسى المؤمنين من أبنائه! قالت بحماس.

"دائماً، دائماً المسيح!! أستغفر الله العظيم! صبر جميل وبالله المستعان! ألا تستطيعين أن تنسيه حتى في لحظات الصفاء والانسجام؟! إنني أكاد أنفجر قهراً وغضباً منك!"

- أتعرف يا "راكو"؟ قالت الصبية بانسجام وتجلٍّ!

- إنني ومنذ أن وقعت عليك عيناي، عرفت أنك تبحث عن الخالق، وأنك بحاجة إلى نوره ! لقد تكلم معي وهو يشير إليك بأن هذا حمل ضال يبحث عن الهداية وطلب إليّ أن أساعدك ليدخل إلى قلبك وترى نور الهداية!

"نعم يا أيتها الفاتنة! لقد صدقت! إنني ضال وتائه! ونبراسايا اللذان ينيران لي الطريق هما نهداك النافران!" همس راكان في سره، ثم قال لها:

- آه ما أرقك وأحنّك يا جوليانا! ليتك تضعين الدين جانباً، فقط لفترة رحلتنا هذه! قال راكان بحزن وأسى، وهو يحدق بوجهها!

- ولكن الدين هو جزء مني! أرجوك حاول أن تفهم! إن المسيح هو كياني ووجودي! إنه الهواء الذي أتنفسه! إنني لا أستطيع أن أعيش بدونه لحظة واحدة! قالت بحزن وألم لاحظهما هو في صوتها وعلى وجهها.

- ما أسعد المسيح بإيمانك يا صديقتي! وهنيئاً للذي تهبينه نفسك! صدقيني، أنا لم أطلب إليك ترك الدين والاستغناء عنه! إنني على العكس، أحترم كثيراً أصحاب المعتقد! أنا لا أنكر أن المعتقد، أيّ معتقد، هو المبدأ الذي يحدد شخصية الإنسان؛ ولكنني أعني، أن الظلمة تلف الكون، والحافلة تنهب الصحراء، وجمال الليل يبعث في النفوس ولهاً وصبابة وسحراً، وفي القلوب نشوة وتشبيباً وطرباً... وتوقف عن مواصلة كلامه مخافة أن يحرجها ويحرج نفسه، حيث أنه كان يريد أن يقول لها، بأنه يتمنى لو أن تسمح له بأن يضمها ويعانقها ويقبلها كما يفعل المجند وصاحبته، ولكنه آثر الصمت...!

لاحظ الشاب أن البنية تنظر إليه خلسة وكأنما لتسمع ما يريد أن يتوصل إليه في كلامه، ولكنها عندما انتظرت ولم يضف شيئاً قالت:

- إنني ما زلت أفكر بما قلته لي قبل العشاء من أن المجتمع عندكم يعاقب شابين إذا قبلا بعضاً أمام الناس!

- إنه يعاقبهما إذا لم يكونا متزوجين، إنه يعتبر ذلك خطيئة، ومخالف للأعراف والتقاليد!

- وما الغلط في أن يقبل إنسان إنساناً آخر إذا كان ذلك برضاء من الاثنين؟! سألت بجرأة أذهلت راكان القادم من رحم "التابوهات"!

احتار الشاب ولم يدر ما يقول! لقد تعلم من مجتمعه أن هذا حرام وعيب وممنوع أيضاً، ولكنه هو في قرارة نفسه يتفق مع رأي الصبية ويخالف ما يعتقده مجتمعه! إذ ما دخل الناس في إنسانين يقبلان بعضهما بعضاً!

- لقد قرأت أن كثيراً من الشبان هنا لا يتزوجون ما لم يكونوا قد... قد... قد... ولم يستطع أن ينهي جملته، فقد احمر خداه خجلاً، وألقى بناظره إلى الأرض حائراً ومرتبكاً!

- أتعني ما لم يناموا مع بعض؟! قالتها بجسارة وعفوية أذهلتاه؛ بل أحرجتاه وأخجلتاه من نفسه! وقليلاً قليلاً رفع عينيه إليها وهزّ رأسه بالإيجاب.

- أنا لا أرى في ذلك خطأ، إذا كان هذا ما يعتقدان وهذا ما يريدان!

نظر إليها مبهوتاً وقد عقلت الدهشة لسانه!

- قطعاً لا! قالتها ببساطة وأتبعتها بضحكة! ثم استطردت:

- إن الإيمان بالمسيح لا علاقة له بجسد الإنسان. إن الذي يؤمن هو القلب، والذي يقتنع هو العقل! إن الروح هي ملك للمسيح، وهي أن تؤمن به، أما الجسد فهو فانٍ وهو ملك الإنسان مازال لا يتعارض وتعاليم المسيح.

- إن الرجل في المجتمع الذي أتيت منه يريد أن يتأكد من أنه أول رجل في حياة زوجته جسمياً وعاطفياً، ولا شك أن الزوجة تحمل هذه الأمنية كذلك. إنه يقلق الزوج كثيراً ويسبب له التعاسة والشقاء طيلة حياته، إذا عرف أن المرأة التي ستحمل اسمه والتي ستكون أماً لأولاده والتي سيكرس حياته لإسعادها، قد سبقه إليها رجل آخر! قال راكان كأنما هو حكيم يوزع الحكمة على الناس.

- وماذا لو تزوج بأرملة أو مطلقة؟ أم أن المطلقة والأرملة لا يتزوجونهن؟!

- نعم يتزوجونهن؛ ولكن يوجد فرق بين الذي يتزوج من امرأة ويعرف مقدماً، أنها سبق وأن تزوجت.

- وما هو الفرق؟

احتار الشاب ماذا يقول؛ ولما لم يجب هو قالت هي:

- الفرق هو أن العادات والتقاليد التي ورثها مجتمعكم عن الأجداد مازالت مسيطرة على عقولكم حتى اليوم! لقد كان أجدادي يؤمنون بما

يؤمن به عالم الرجال عندكم، وسيأتي الوقت الذي تتلاشى به هذه الأسطورة!

- لا أظن ذلك! إن هذا الاعتقاد هو جزء من عقيدتنا ومن عاداتنا وتقاليدنا، ولا يمكن أن نتخلى عنه. إن مجتمعنا مجتمع محافظ؛ والرجل في مجتمعنا لن يقبل بما تقولين! قال الشاب مدافعاً بحماس.

- إن هذا قد يزعج الرجل الشرقي، أما الرجل الغربي فهو يعتقد العكس تماماً! إنه يفضل أن تكون زوجته ذات خبرة جنسية على أن تكون غرة جاهلة! وبعد أن توقفت قليلا، قالت وقد ازداد حماسها:

- وأنا أفضل أن يكون زوجي ذا خبرة جنسية من أن يكون لا تجارب عنده، وكذلك هو يريدني مثله ذات خبرة. ثم ماذا يهمني ماضيه. أريده أن يكون مخلصاً لي منذ أن أحببنا بعضاً وتزوجنا!

أفكارها الغريبة والجريئة، أذهلت راكان، وجعلته يعتقد بأنه قادم ليعيش في مجتمع منفلت... إباحي... لا أخلاق ولا قيم عنده! إذا كانت هذه المرأة المتدينة، والمبشرة بالمسيح وبتعاليمه تقول هذا؛ فكيف بالشخص العادي؟!!

- إنني أعتقد أن المرأة التي اعتادت أن تنام مع رجال قبل أن تتزوج من زوجها، يكون من الصعب عليها أن تقنع بزوجها فقط؛ وكذلك نفس الشيء مع الرجل؛ ولهذا السبب يكثر الطلاق في مجتمعكم!

- إنه اعتقاد ساذج!

- ولكنهم يعتقدون بصوابه.

- ألا تعتقد أنه أسهل على المرأة أن تمنح جسدها من أن تمنح قلبها، وأنها تستطيع أن تعطي جسدها لعشرات الرجال، ولكنها لا تستطيع أن تعطي قلبها إلاّ لرجل واحد، وهو الذي تحب! فهل أنت تحب أن تمنحك المرأة التي ستتزوجها قلبها أم جسدها؟

- أنا لا أقبل من المرأة التي أتزوجها إلاّ الاثنين!

- وإن كان عليك الاختيار، بين قلبها وجسدها؟!

- قلت لك لا أقبل إلاّ الاثنين معاً، وإلاّ لا أريدها!

- من الصعب الحصول على ذلك، وفي هذه الحالة ستظل تنتقل بين النساء!

- هل تعنين أن إيماني بالمسيح يكفي لإدخالي الجنة حتى ولو... ولو... ولو كانت لي علاقات مع فتيات كثيرات؟

- إن الذين يؤمنون بالمسيح يحاولون أن يقلدوه، وهو أن يعملوا ما يعمله المسيح ويتجنبوا ما لم يعمله! وسكتت قليلاً ثم استطردت:

- إذا كان المؤمن بالمسيح يحب الجنس كثيراً فهذا لا يتعارض مع إيمانه، بالضبط كما أن هناك أناسا يحبون أكل كميات كبيرة من اللحم وآخرون يفضلون أكل كميات كبيرة من الفاكهة... لا فرق! وردّت بيدها اليمنى خصلة من شعرها سقطت وغطت وجهها، وبعد أن أعادتها أردفت:

- إنها كالذي يفضل اللحم البقري على لحم الدجاج أو السمك! أيهما أحسن لحم الدجاج أم السمك؟ هذا طبعاً يعتمد على مزاج الشخص وذوقه!

وظل راكان يحدق بها مبهوتاً، فهو لم يصدق أذنيه وظن أنه يحلم ولعلها لاحظت ذهوله وحيرته فاستطردت:

- إن لروحك عليك واجباً، وهو أن تؤمن بالمسيح لأنه هو المخلص. أي حتى تتخلص الروح من الخطيئة الأبدية التي ارتكبها أبونا آدم عندما أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها، والذي مات على الصليب في سبيل التكفير عن خطايانا! واستراحت قليلاً، ثم استطردت:

- وإن لمعدتك عليك واجباً أيضاً وهو أن تطعمها، فإذا أطعمتها بطاطا أو معكرونة أو لحماً أو أي شيء تشاء فهذا يعتمد على مزاجك الشخصي... وكذلك الجنس!

"ما أجمل معتقدك يا جوليانا وما أحسنه! إنه معتقد سهل وغير معقد! إنني لو كنت واثقاً من أن ما تقولينه هو المسيحية الحقيقية والصحيحة لغيّرت ديانتي ولاتبعت ديانتك الآن، وفي هذه اللحظة"! قال الشاب مخاطباً نفسه:

- إنهم عندنا هناك في الوطن، حتى المسيحيون المتجددون المبشرون منهم، والذين هم مثلك، لا يحملون نفس الاعتقاد. إنهم لا

يفصلون بين الروح والجسد. إن الشاب الذي يتزوج من فتاة ولم يجد أنها عذراء يحق له طلاقها في نفس ليلة الزواج، ويلحق العار بها وبأهلها!

- ولهذا السبب فنحن نعتبرهم رجعيين متأخرين، في تفكيرهم ومعتقداتهم؛ وحتى لا يعرفون عن المسيحية إلاّ قشورها ولا يمارسون منها إلاّ طقوسها. ولذلك نحن نرسل لهم المبشرين ليصححوا مفاهيمهم، وليعلموهم المسيحية الحقة!

- مساكين مسيحيو الشرق! لقد كانوا سعداء بمعتقداتهم، بسطاء في ممارسة دينهم، حتى أرسلتم لهم مبشريكم فأربكتموهم وفقدوا هويتهم وجعلتم منهم فرقاً وأتباعاً وجلبتم لهم الشقاء والتعاسة، وحل بينهم الشقاق والمجادلة والشجار والتناحر والكراهية بدل الحب والوفاق والوئام! وبعد أن استراح قليلاً تابع:

- إن بلادكم فتية، وكل ما عندكم يختلف عن كل بلدان العالم الأخرى. اقتصادكم... تفكيركم... حياتكم الاجتماعية... أخلاقكم... سلوككم... قيمكم... لقد فكرتم حتى أن تخترعوا مسيحية جديدة تختلف عن مسيحية كل بلاد العالم... فقد جعلتم من المسيح الله، بينما مسيحيو بلادنا يعتقدون أنه ابن الله من روحه، وليس هو الله نفسه؛ وفكرة أن المسيح هو الله نفسه ابتدعتموها أنتم هنا في أمريكا، فحملها مبشروكم من هنا إلى بلادنا، وظلوا يرددونها ويلقنونها للصغار الذين أغرقتم عليهم نقودكم وهداياكم، وخصوصاً الفقراء منهم، فصدقوها وصاروا هم أنفسهم يبشرون بها، وضاعت الحقيقة في خضم الترهات والمناقشات البيزنطية الفارغة! ولقد قرأت أنكم ذهبتم بعيداً جداً فخصصتم مكاناً في كنائسكم ليرقص به الشباب من الجنسين، بينما يعتقد مسيحيو بلادنا أن ملامسة الرجل لغير زوجته حرام !

- هذه أفكار بدائية أكل الدهر عليها وشرب، كما يقولون! قالت البنية شبه غاضبة ومستاءة!

- قد تكون كذلك ولكنها معتقدات، ويؤمن بها الناس! قال الشاب بأسى!

- ليس كل ما يؤمن به بعض الناس يجب أن نعتبره نحن حقيقة ثابتة! قالتها بحماس وشبه غاضبة!

لاحظ راكان تورد خديها مما زاد في جمالها وتألقها!

ابتسم الشاب وقال:

- هل تعلمين يا صديقتي؟ إنني ومنذ أول مرة بدأنا بها، أنت وأنا، النقاش في الدين وأنا أهمس في داخلي عنك شيئاً! إنني وفي كل مرة أقول لنفسي لابد وأن أصارحك بما يجول في خاطري، ولكنني دائماً أتردد مخافة أن أغضبك !

- ما زلت دائماً تردد في قوله، فلابد وأن يكون شيئاً سيّئاً ! على كل حال أحب أن أسمعها منك، وأعدك بأنني لن أغضب حتى ولو كانت شيئاً لا أحبه ! صدقني!

- ما أجملك وأرقك وأنعمك وألطفك عندما تتحدثين في مواضيع غير مواضيع الدين! صدقيني إنك الأنوثة مجسمة، وإنك كومة من الرقة والنعومة والجاذبية! إنك ساحرة فاتنة ومؤدبة! أما وأنت تناقشين وتجادلين بالدين، فإنك تنقلبين إلى إنسان أقرب منه إلى الرجولة منه إلى الأنوثة؛ إنسان صعب التعامل معه!

- صدقني إنك أسعدتني بهذا الوصف، وأسعدتني أكثر بهذه التهمة! إنه لفخر عظيم لي أن أتهم بالخشونة والرجولة وفقدان الأنوثة لمحاولتي تخليص أرواح الضالين الذين يبحثون عن من يساعدهم حتى رؤية النور وإخراجهم من الضلال! قالت.

- ثم إن هناك شيئاً آخر أحب أن أقوله لكِ، وهو أنكِ وأنت تسيرين فإنني أتصورك وكأنما أنتِ ترقصين ولا تمشين! إنك كتلة متحركة من الإغراء والإثارة !

- وهل أنا ذلك حقاً؟! سألت وهي تتضاحك وقد مزجتها ببعض الغنجات والغمزات، ثم أضافت:

- إن الرقص رياضة ممتازة للجسم، كما إنه ينشط الروح والقلب، ويرقق العواطف ويحفز العقل على التفكير السليم؛ وكذلك يهذب الأحاسيس والمشاعر؛ كما إنه يتيح الفرصة للشباب أن يختلطوا ببعض فيعمق شخصيتهم ويساعدهم على اختيار شريك حياتهم!

- إنني أوافقك من صميم قلبي؛ ولهذا تركت مجتمعي المتزمت... المتسلط... الغليظ... وأتيت إلى مجتمعكم المتسامح... المؤدب... والمهذب !

- أرجو أن لا يخيب ظنك! قالتها بصدق شعر به راكان في كلماتها وعمق صوتها!

- وأنا أرجو ذلك أيضاً!

- دعني أصلي من أجلك! وقبل أن تسمع رأيه أسندت رأسها على ظهر يديها وأسندتهما إلى كرسي الحافلة وأغمضت عينيها وصارت تتمتم وتصلي بحرارة وعمق!

انتهز راكان فرصة انخراط جارته بالصلاة، فأدار ناظريه إلى الخلف، فرأى على انعكاس ضوء مصباح الحمام، المنبعث من الباب المفتوح، ابنة الثالثة أو الرابعة عشرة تحدّق باتجاه مقعد المجند وصاحبته، ويدها بين فخذيها، وتشنجات متتالية تغطي جبينها، وكأنها تعاني من مغصٍ حاد؛ وكانت تبتلع ريقها بصعوبة، ووجهها مرتعٌ لشتى الانفعالات، غير شاعرة بما حولها!

تطلع إلى حيث كانت تنظر، فرأى منظراً حبس له أنفاسه وتجمد دمه في عروقه، ووقف شعر رأسه، واتسعت حدقتا عينيه بأوسع ما تستطيعان، حتى كادتا تفران من محجريهما! لقد رأى ويالهول وعظم وفظاعة وبشاعة ما رأى! لقد رأى المجند راكباً فوق صاحبته على مقعد الحافلة والبطانية تغطيهما وليس ظاهراً منهما شيء ما عدا حركة دفع وشد تحت البطانية، ومعركة طاحنة تدور رحاها تحت الغطاء!

أجال الفتى نظره بسرعة خاطفة في جميع أنحاء الحافلة ليستنجد بهم لينقذوا المسكينة من مخالب الوحش الكاسر، والذي يمارس الجنس معها علانية، ولكن الركاب كانوا كلهم نياما ما عدا رجل ما زال يقرأ على ضوء المصباح الخافت، وجارته مستغرقة في صلاتها تصلي بحرارة وعمق. والتفت بعدها نحو مقعد الأم لينبهها إلى أن ابنتها في خطر عظيم ولتسرع لإنقاذها، ولكن لحيرته ودهشته وجد أن الأم تراقب ما يجري تحت البطانية سعيدة مسرورة، وابتسامة كبيرة تضيء وجهها!

ظل العراك تحت البطانية بطريقة إيقاعية فترة من الزمن، ثم اهتزت من تحت البطانية هزّة قوية كهزة جسم الإنسان عندما تفارقه روحه، ثم خمدت، تماماً كما تخمد النار بعد أن تأكل كل ما حولها!

نظر راكان إلى ابنة الرابعة عشرة وقد فتحت فاها على سعته، محدقة بالبطانية وما يجري تحتها، وإن كانت هذه المرة مسترخية وقد أسندت ظهرها منهكة إلى المقعد، ويدها ملقاة باسترخاء في حضنها!!

أصابت الشاب نوبة من الهستيريا المرعبة، فأوحت له صدمته أن يقف في منتصف الحافلة، وينادي بأعلى صوته، علّ صوته يقطع السهول والجبال والفيافي والقفار، ويجتاز الأنهار والبحار والمحيطات، ويصل إلى حيث مدينته الصامدة الصابرة، ويستنجد بأحمد الموسى ومنصور العايش وحسين المصطفى، جنود الفضيلة، حماة الأخلاق، قلاع العفة، الغيورين على الشرف والفضيلة، والمدافعين عن الدين والقيم والمعتقدات، والذين يفارقهم صوابهم ويفقدون عقولهم، ويقيمون الدنيا ولا يقعدونها، عندما يرون امرأة تسير بالشارع ، في مدينته ، مدينة السلط الباسلة ، مكشوفة الرأس وغير مغطاة الوجه !

لقد استبدت به الهستيريا فصاح بصوته المخنوق الذي لم يغادر تجويف فمه: إنه يعانقها... يقبلها... يلقي بها أرضاً... ينزع عنها ملابسها... إنه يلتهم شفتيها ويلتقم صدرها... يركب فوقها... يضاجعها... يضاجعها... يضاجعها... يلكدها... يلكدها... يلكدها... أيها النشامى هبّوا لنجدتها... أيها النشامى ، يا هابين الريح...!

هزّت راكان صدمة عنيفة أذهلته ! صدمة بسبب امتهان القيم والأخلاق والمثل والكرامة الإنسانية، علناً وأمام الناس ودون مراعاة لشعور الآخرين، ولا احتراماً للخالق وطاعة لقوانينه !

اثنان يرتكبان الزنا في الحافلة وأمام المسافرين ودون خوف ولا خجل لا من الله ولا من الناس! وتساءل ماذا يفعلون بهما في بلده لو أن هذا حدث هناك؟

ثم ما فتئ الشاب أن يسخر من نفسه، لأن فرضيته كانت خاطئة، فهذا من المستحيل أن يحدث في بلاده، إذ إنه من غير المعقول حتى أن يجلس شاب غريب إلى جانب فتاة ليست من ذوي رحمه ، في حافلة أو في مكان عام !

مرّت فترة ليست بالقصيرة استولت بعدها عليه موجة من الحزن الشديد. حزناً هزة من أعماق نفسه ! صحيح أنه لا يقوم بواجباته

الدينية كمسلم ملتزم، وأنه توقف عن أدائها بسبب ذلك الحادث المؤسف من صلاة وصيام، ولكن التدين والخوف من الله وغضبه وعدم ارتكاب معاصي ضد الخالق وما نهى عنه، فإنها تسير في دمه وتجري في عروقه، لأنه بطبعه متدين !

إنه لن ينسى يوم أن رأى أخاه سكران يبكي، فظل راكان أسبوعاً والحزن يسحقه ويبكي ألماً وقهراً وأسفاً. هل لأن أخاه كسر قوانين الخالق، أو لأنه كان له بمثابة الأب وكان مثله الأعلى في الصدق والاستقامة والأخلاق، فتصرف مثل هذا التصرف اعتبره في حينها مشيناً أخلاقياً، وضد تعاليم ديننا؟! لقد اهتزت صورة كريم المثالية في عين راكان، مما جعله يتألم كثيراً ولفترة طويلة! كما أنه بكى خيبة أمله وتزعزع مثله!

فجأة تركت الشاب ذكرياته وشعوره الديني وغيرته على الأخلاق والفضيلة، واستبدت في نفسه رغبة مجنونة محمومة، وشهوة عارمة مسعورة إلى جسد الصبية، وبعينين زائغتين شبقتين تطلع إلى جانبه فرآها وقد أرجعت مقعدها إلى الوراء، ووضعت المخدة تحت رأسها، ووجهها إلى أعلى محدقة بسقف الحافلة كأنما هو كتاب تقرأ به، وقد غطت نفسها ببطانيتها.

تخيل نفسه وإياها في مكانٍ خالٍ إلاّ منهما وهما عاريان، وهي تنظر إليه وفوق شفتيها بسمة كبيرة كلها حب وإغراء وهي فاتحة ذراعيها، تؤشر إليه أن يتقدم ويأكل من الشجرة المحرمة التي أكل منها أبونا آدم! وهل هو أكبر عقلاً وأنضج وعياً وأعمق تديناً ومطيعاً لأوامر الخالق ونواهيه أكثر من أبيه آدم؟ إذا كان أبوه آدم قد عصى أوامر الله بأن أكل من الشجرة المحرمة، فلم لا يفعل هو مثله ويقطف الثمرة بأن يغرق ذاته ويلتحم في ذات جوليانا، ويظل يأكل منه حتى يشبع جوعه ويداوي نهمه!

إن أبانا آدم لم يكن جائعاً لأكل التفاح، فقد كان عنده وتحت تصرفه أشجار وفواكه لا تعدّ ولا تحصى، أما راكان فليس عنده شجرة واحدة، ولم يذق في حياته فاكهة واحدة، وبه جوع قرون وأجيال. فهل سيخرجه الله من الجنة؟! وهل هناك جنة أرضية أكثر استمتاعاً وأسعد حالاً بل وأصدق حقيقة من جسد جوليانا ؟!

"أنا لا أريد يا قاتلتي من دنياي شيئاً؛ إنني أريدك أنتِ فقط. أريد جسدك أن أغرق نفسي به، لأشبع جوعي الذي لن يشبع، ولأروي عطشي الذي لن يرتوي! أريد أن أسبح بين الغيوم وأسير فوق السحاب، و حتى أريد أن أصعد إلى السماء، وأهزّ هذا الكون بقوة فحولتي وشبابي، وبقوة جمالك وسحر عينيك، ثم ألقي بنفسي من عالٍ إلى فوق صخرة كبيرة، فأتمزق أشلاء !"

- راكو! راكو! هل أنت مريض؟! وهل أصابتك الحمى ثانية؟!

"إن الحمى لم تفارقني لحظة منذ أن ولدت، ولن أشفى من الحمى إلاّ بعد أن أشرب الدواء من بين شفتيك، وأن أغرق ذاتي في ذاتك، وأشفي هذا السعار الذي يحرق كل ذرة في جسمي."

ولما لم يجب استندت من مقعدها مذعورة ملتاعة خائفة، إذ لعلها ظنت أنه ربما أغمي عليه.

- راكو! راكو! هل أنت على ما يرام؟ قالتها بصوت عالٍ امتزج مع صوت دبيب ماكنة الحافلة فوق أرض الإسفلت!

كان الشاب فاتحاً فمه على سعته، محدق العينين بالفراغ، وكانت أنفاسه تلهث ككلب ضخم الجسم بعد ساعات طويلة من الجري المتواصل !

- أنا على ما يرام ! قالها بحشرجة الموتى.

- أنا آسفة ! كنت أظنك مريضاً ! قالتها بخيبة أمل ولهجة ذليلة وخاطر مكسور، ثم عادت إلى وضعها الذي كانت عليه، إذ لعلها يئست من أن تقوده إلى الكلام.

"إنك جبان يا راكان... رعديد... إنك أحمق... غبي... أبله... إنها قريبة منك... إلى جانبك.. فقط مدّ يديك وألمس يديها... إنها لن تغضب... لن تمانع... إنها تنتظرك... مدّ يديك وداعب صدرها... إن الظلمة تغمر داخل الحافلة والركاب نيام... المجند وصاحبته وكذلك ابنة الرابعة عشرة نيام بعد جهد شاق... الرجل الذي كان يقرأ أطفأ مصباحه أيها الأبله! يا من يحمل على كتفيه لعنة الأجداد وقهر السنين؛ ويا من يحمل في جوفه كل ظمأ الصحراء وجوع الأجيال! أيها السادر في أوهامك وأحلامك وتعيش على فتات الحب العذري وفضلات المثالية التي لا وجود لها إلاّ في مخيلتك المريضة، وتفكيرك السقيم.

استيقظ من غيبوبتك وأفق من تهويماتك! أنت يا من أضعت عمرك تجري وراء الخيالات والأوهام... استفق فقد فاتك الركب، ونسيتك الجماعة... تقدم وأثبت وجودك، يا من لا وجود له !

"لقد قالت لك بصراحة مرات ومرات إنها تريدك كثيراً، وألمحت لك أكثر من مرة أنها تريدك أن تكون لها أكثر من صديق... لا تخف! إنها لن تغضب، بل على العكس ستسر بجرأتك وستمجد شجاعتك... أيها الغبي الأبله... تذكر أنها أمريكية مستقلة... جريئة... لا تخاف أحداً ولا تخشى إنساناً... تذكر أنها تمارس كل ما تؤمن به، ولا تستحي ولا تخاف أن تعمل ما تؤمن به ! لقد قالت لك، وبكل صراحة، أن ممارسة الجنس بين شاب وفتاة ليست حراماً، إذا كان برضاء الاثنين... إنها هي راضية، وأنت تموت شوقاً لأن تمارس الجنس معها... إنها ليست عربية تقول غير ما تؤمن، وتتمنى غير ما تفعل... إنها تتمنى أن يُمارس الجنس معها، ولكنها تخشى الأب والأخ والأهل والناس، وتخشى العادات والتقاليد والدين... إنها تعيش عبدة لكل هؤلاء... إنها مثلك تماماً جبانة رعديدة...!

"أيها الأبله! أيها الجبان! يا أحد أحفاد قيس بن الملوح وكثير عزة... يا أحد أحفاد أولئك المهابيل المساطيل المغفلين الذين يحبون المرأة لروحها لأنهم عاجزون عن الوصول إلى جسدها... تقدم أيها المغوار الهمام، تقدم يا فارس بني عبس ويا سليل الزير سالم؛ لقد جاوزت هي دور المرأة وقامت بدور الرجل... إنها في كل نظرة من عينيها وكل نأمة من طرفها، وكل كلمة تنطق بها، تقول لك بالسر والعلانية إنها تريدك...!

"إن كل ما عليك هو أن تمد يدك برقة ولطف وتمسك يدها، وتتحسس بحنان وكبرياء صدرها، ولتداعب يداك بشوق ومحبة نهديها الصغيرين اللذين تمهل الباري في خلقهما! أَمِل بجسمك إلى اليسار قليلاً، تصل إلى جسمها... قرب وجهك من وجهها، واغضض من طرفك أولاً، فأنت في حضرة ما أبدع الخالق الأعظم، سبحانه وتعالى... قرّب وجهك من وجهها، وتنسّم بأنفاسك عطر أنفاسها ثم دع أنفك البدوي الخشن يداعب أنفها الصغير الناعم، الذي كأنه زهرة خاتم سليمان، ثم أطبق بشفتيك الغليظتين المحمومتين المسعورتين جوعاً، على شفتيها القرمزيتين الرقيقتين كالزبدة أو القشطة! اشرب من ماء

الحياة! عبّ من نهر الخلود الفياض... اشرب بنهم وشراهة حتى تروي ظمأ خمسة وعشرين عاماً من القحط والجوع والحرمان ! وعطرها؟ آه يا عطرها !إ ن رائحته الزكية تسكر وكأنها خمرة من الجنة !

"إياك يا بنيّ أن تنظر إلى امرأة من غير محارمك، فإن نظرك إليها سيقودك إلى اشتهائها، ومن اشتهى امرأة فكأنه زنا بها، وسيدخله الله نار جهنم المؤبدة الخالدة، وسيتعذب بنارها طويلاً!

"لا، يا أماه! هذا ما تعتقدينه أنتِ وهذا ما يعتقده بنو قومي ، لأن هذا ما تقوله تعاليم ديننا الحنيف ! أما ما تعتقده جوليانا وما يعتقده بنو قومها وكذلك حسب تفسيرهم للدين، فهو يختلف عن اعتقادنا وما يقوله ديننا. إن للمسيحيين هنا اعتقادا يختلف عن اعتقاد مسيحيي بلادنا! إن الله هنا إله مؤدب... رقيق ومتسامح ومتفهم... لا يحاسب أبناءه ولا يؤاخذهم... إنه ليس إلهاً قاسِياً طاغيةً مستبداً !

"أماه! إن الظمأ يقتلني ، والجوع يفتت كبدي ، والرغبة تمزق فؤادي، والحرمان يحطم أعصابي، بل ويسحقني! خمسة وعشرون عاماً، أماه، قضيتها أعبد وأتهجد وأصوم وأصلي على ريق بطني، ومن حقي الآن أن آكل حتى أشبع، والذي يمنعني سأطبق عليه بيدي هاتين ولن أتركه وبه ذرة من حياة ! أماه! إنني على وشك الجنون! أريد أن أوقف الحافلة وأنزل منها، وأقف في منتصف صحراء نيفادا، وأصيح بأعلى صوتي ومن أعمق أعماق قلبي، لأشكو من ظلم القدر لي وقساوته علي! الله! إني أحترق! إني أتمزق! إني أُجنّ!

"تقدم! تقدم أيها الجبان! إن كل قيمك وأخلاقك ومثلك العليا ومثاليتك واعتقادك ودينك وقرآنك، وحتى إلهك، كلها، هنا في أمريكا، لا يؤمنون بها، ويقولون عنا بأننا متوحشون وعابدو أصنام! إن جميع معتقداتنا عندهم لا تساوي شيئاً! إنك هنا في بلد الحرية، بلد الفهم والتفهم... بلد الرأفة والرحمة !!

"تقدم يا حبيبي! تقدم يا عيوني! تقدم يا سليل هبنقّه! لقد أعياها الانتظار أيها الغبي الحمار! ولكنها متدينة جداً، ولا يروقها حديث إلاّ حديث المسيح، ولا تعجبها أي نوع من القراءة إلاّ قراءة التوراة، ولا تحب أن تفكر بأحد إلاّ بالمسيح ! إن المتدينين يعتبرون حتى لمس اليدين خطيئة وأن القبلة حرام، وأن عملية الجنس زنا تخلّد صاحبها في النار!!

"هذا في بلادك يا غبي، وليس هنا يا أحمق! إن الدين والتدين هنا يختلفان عن بلادك.. لا شيء هنا اسمه خطيئة أو زنا.. إنها حاجات يحتاجها الجسد... إن المرأة في بلدك تعتقد بأن القبلة خطيئة وأنه لا يصح لها أن تُقبّل، وإن فعلت فالمجتمع يراقبها والناس يقسون عليها ولا يرحمونها... أما هنا، في أمريكا، فالمفاهيم تختلف... إن الدين هنا يتطور ويتبدل بالنسبة لمفهوم الأشخاص له، وله تفاسير كثيرة وبسيطة ومتعددة، وليس تفسيراً واحداً متصلباً قاسياً... إنهم يعتقدون أن هناك فرقاً كبيراً بين الروح والجسد، وأن لكل واحد منهما متطلباته ووظائفه. إنهم يفصلونهما عن بعض فصلاً كاملاً. إنهم يعتقدون أن للجسد الحق في أن ينال من مِتع الدنيا ولذاتها الجنسية ما يشاء ، مازال لا يؤذي أحداً ولا يتعارض مع الإيمان بالمسيح ! آمن بالمسيح، ثم متع جسدك بما تشاء والجنة مأواك!

"تقدم أيها الجبان! لا تخف. ضع أصابعك في طيّات شعرها الذهبي، والذي تمهل الخالق في صنعه ثم رويداً رويداً، أنزل شفتيك إلى عنقها وقبّل الصليب الذي يرقد بين نهديها والذي كأنه ديدبان موكل بحراستهما، ثم اسجد وصلِّ احتراماً وإجلالاً لما صنع الخالق سبحانه وتعالى وأبدع... ثم بيديك القويتين، انزع ملابسها قطعة قطعة، ثم أغرق حواسك ومشاعرك بعطرهما الإلهي، وعندما تسكر من العطر، شدّ خصرها الأهيف وقوامها الممشوق إلى صدرك وحطم ضلوعها حتى تسمع صوتها تحت جسمك ومقابل صدرك...! أثبت لها أنك فحل ليس له مثيل، قادم من الصحراء وأن جسمك ملتهب كصخور الصوان فيها... برهن لها أنك شجاع وجريء ومقدام... ألست من سلالة علي بابا؟ إن المجند أجرأ منك وأشجع... لقد قبّل فتاته حالما التقى بها، ومارس الجنس معها خلال ساعة، أما أنتَ يا أنتَ، فقد صار لك إلى جانبها ثلاث ليالٍ وثلاثة أيام حسوماً!

"لقد أحببت المرأة... لقد قدستها... بل لقد عبدتها، وكرست كل حياتك لها... لقد جعلت منها معبوداً فوق منزلة البشر... ملاك، نصف إله، بل إله كامل ! لقد خلقت منها شيئاً تستطيع أن تتصوره بخيالك ولكنك لا تستطيع أن تراه ولا أن تلمسه... كالآلهة! لقد خلقها حرمانك الطويل وغذّاها خيالك الخصب. لقد ألهبها جوعك الشديد الطويل! إنها خيال... أحلام... فكرة! إنك لا تريدها أن تكون إنساناً له غرائز

وشهوات، يجوع ويعطش، به ضعف وعنده عيوب... إنك لا تريد أن تمسك بها، ولا تريدها أن تكون حقيقة... إنك تريد أن تظل تحلم بها وتجري بخيالك وراءها، وتسهر الليالي الطوال، وتتعذب من أجلها... من أجل فكرة... من أجل حلم... من أجل خيال... إنك مريض... مريض... مريض... وأقسم برب السموات و الأرض أنك مريض... لقد أضعت زهرة شبابك تتعذب من أجلها، وتجري وراء خيالات وأحلام وأوهام، وكلما فكرت أنك لحقت بها كلما تبين لك أنك بعدت عنها... إن التي تحبها وتهيم بها وتجري وراءها هي أسطورة... إنك ضائع... مريض... جبان... وإلاّ لتقدمت الآن... نعم الآن وفي هذه اللحظة، ولأمسكت بها، وقبلتها، ولأحرقت شفتيها... ثم لأغرقت كيانك بكيانها! تقدم يا عنترة... تقدم يا امرأ القيس... لا تتراجع... تقدم... مدّ يدك..!"

- جوليانا! قالها بصوت مخنوق مبحوح كأنه حشرجة الموتى!

- نعم راكو! أجابت همساً، ثم صارت تحملق بوجهه، ولما لم يجب سألت:

- هل تريد شيئاً؟!

- نعم.. أعني لا ! أريد أن أرى... أعني أريد أن أرى إن كنت... إن كنت ما زلت نائمة... أعني مازلت مستيقظة!

- نعم، إنني مازلت مستيقظة! هل تريد مني شيئاً ! سألت وكأنما تناجيه!

- هذا لطيف... أعني... أعني...

وصاح مقهوراًَ! عليك اللعنة... إنني لا أدري ما أعني... أنا مقهور... قال ذلك واستوى في جلسته، وبكل قوته ضرب أرض المقعد الجلدي بيده فَطَّج !

رأى عيني الفتاة مسلطتين على وجهه، تحدقان به، كأنما تخرقان رأسه وتدخلان عقله، فأحس كأن ناراً كانت مسلطة على وجهه، فارتعدت فرائصه وخفق قلبه، فحول وجهه إلى الجهة الثانية، ورأى أم الفتاة تنهض من معقدها وتتجه حيث كانت تنام ابنتها وصاحبها، فألحقت الغطاء عليهما، ثم حشت أطرافه تحت المقعد.

أعاد الفتى المشتعل شهوة نظره ثانية وحوله نحو جارته من جديد.

- إن في عينيك بريقاً مخيفاً! لم تنظر إليّ هكذا، وكأنما تريد أن تعانقني؟! قالتها برقة وأدب وحنية، ورافقتها بابتسامة مغرية جذابة زادت في إلهاب عواطفه وغرائزه!

- أنا لا أدري! لا أدري! لا أدري! قال ذلك وضرب يديه بشدة في الهواء، كأنما يريد أن يقتل شيطاناً يعذبه، ثم أحسّ فجأة بأن قلبه بدأ يدق دقاً عنيفاً ومتلاحقاً كأنه طبول تقرع حول نيران يرقص أصحابها... ثم صارت أسنانه تصطك بسرعة وبصوت عالٍ، لا شك أن البنية سمعت ورأت اصطكاكها!

- تعال يا طفلي العزيز إلى حضن أمك الدافئ الحنون !

“Come my little baby to the lap of your warm and hearted mother!”

قالت ذلك ورفعت البطانية بيدها اليمنى وهي تنظر إليه وفوق شفتيها ابتسامة قضت على البقية الباقية من عقله!

لم يصدق الشاب المشتعل ما سمعت أذناه، ولا ما رأت عيناه، ولكنه وبسرعة البرق رمى بنفسه وبكل قوته فوق صدر الصبية، أطبق بعدها بشفتيه الملتهبتين المعربدتين يقبل شفتيها المحمومتين، بنهم وشراهة خلفهما حرمانه الشديد وجوعه الطويل؛ فلم يعد يسمع شيئاً ولم يعد يهتم بما حوله... فقط؛ كان يسمع دقات قلبيهما وأنفاسها المتلاحقة، ثم أنينهما وتأوهاتهما في حمأة المعركة وضراوة وطيسها!

لقد كانت أظافره تهرس نهديها وصدرها وعنقها... وكانت شفتاه تلعق الدم الذي كانت تتركه أظافره فوق جسمها... ثم وبسرعة البرق تخلص من سرواله، ثم مزق فستانها وسروالها ورمى بهما بعيداً عن طريقه، ثم وبسرعة عجيبة، لعلها دقيقة أو بعض دقيقة، شعر برعشة لذيذة وشديدة هزّت كيانه، بل هزّت كل ذرة في جسمه... رعشة لم يشعر الفتى بمثلها في حياته كلها... رعشة تمنى لو أنها تدوم العمر كله... ثم همد بعدها فوق صدرها مرهقاً محطماً...!

لا يدري كم من الوقت مضى وهو راقد فوقها وهي تمشط له شعره، وتضمه إلى صدرها بشوق وحنية وكأنما تخشى أن يتركها... لقد شعر وكأنه طفل صغير راقد في حضن أمه تهدهده لينام !

لأول مرة في حياته، نعم لأول مرة في حياته كلها، وبعد مرور خمسة وعشرين عاماً، مارس راكان رجولته مع المرأة، ولأول مرة أدخلته المرأة جنتها!

لا يدري الفتى كم من الوقت مضى وهو راقد فوق صدر الصبية شبه مخدر، إذ كان يستعرض في مخيلته شريط حياته منذ أن وعي على نفسه حتى الآن، ثم أحسّ فجأة بموجة من الحزن الشديد تستبد في قلبه، وبانقباض حتى الاختناق يسيطر على نفسه! كما شعر بأنه يريد أن يبكي بحرقة ومن أعماق وجدانه، ثم صارت دموعه تنزل حامية تحرق مآقيه وبغزارة... ثم شعر بعدها بأنه حزين... حزين... وأنه وحيد... وحيد... وأنه مقبوض الصدر... وأنه... وانخرط في بكاء حار وعميق...!

رفعت الصبية رأسه من على صدرها، بلطف وتمهل ونظرت في عينيه وشهقت!

- حبيبي! أنت تبكي؟ ماذا حدث؟! لقد سألت نفسي ما هذا السائل الساخن الذي ينزل على صدري!

وكأنما اكتشافها سره؛ قد أطلق عنان عواطفه، وشجعه على الاستزادة من البكاء، فصار ينهنه فوق صدرها بحرارة، محاولاً أن يخنق بكاءه المتشنج في صدرها! ولما رأت أن رجاءها إليه بالكف عن البكاء لم يجدِ نفعاً، كفت هي عن الطلب، ثم أغمضت عينيها وصارت تتمتم بصلوات لم يستطع هو فهم كلماتها، وإن سمع دبيب وشوشاتها؛ كما أنها زادت من سرعة حركة تمشيط شعره بيدها!

مرّت فترة ليست بالقصيرة والفتى يسفح دموعه فوق صدر الصبية وقد امتزجت دموعه بدم الجروح التي أحدثتها أظافره في صدرها، ثم شعر بأن جسمه قد تخدر من طول البكاء، وببطء شديد رفع نفسه من على صدرها، وهو بين الوعي واللاعوي، فأحسّ وكأنما هو يحلم وبأنه قد وطيء بقدميه على كتاب !

انحنى ليلتقطه فوجد أنه التوراة تتمرغ في أرض الحافلة مفتوحة، وقد تمزقت بعض صفحاتها، كما رأى ملقى غير بعيد منها، الصليب راقداً وقد انقطع سلساله !

تأثر الفتى كثيراً ، وبسبب ذلك المنظر القدسي الرهيب، بإثم يحرق عظامه، كما وأحسّ كأنما إنسان وضع يده على فمه، ويحاول أن يكتم أنفاسه، وأنه لا يستطيع أن يتنفس، وعلى وشك الاختناق؛ ثم أحسّ بعدها بقبضة جبارة تطبق على قلبه وتسحقه!

إن منظر الكتاب المقدس والصليب ملقيين على الأرض ، وقد داس هو بقدميه عليهما، قد أحزناه وآلماه كثيراً، وقد ذهبت بالبقية الباقية من عقله، فأحسّ بغضب حادٍ يحرق دمه، ونيران مشتعلة تؤجج اللهيب في قلبه!

كان الفتى مرتعاً لشتى العواطف والانفعالات، إذ في كل دقيقة بل في كل لحظة يعتريه شعور مغاير لما سبقه، حتى لكثرة ما مرّ به من الإرهاصات، ضاع في وطيسها، ولم يستطع أن يتأكد من حقيقة شعوره نحو بعضٍ منها!

لقد اعتراه ندم لا يوصف، وأحس بوخز ضمير وتأنيبٍ كادا يفقدانه عقله.... ثم تحول هذا الشعور إلى اشمئزاز وقرف، إذ أحسّ بغثيان مزلزل حتى شعر بأنه يكاد يستفرغ...، ثم اعتراه شعور هائل من الكراهية والاحتقار للصبية، كما وأحس برغبة مجنونة بأن ينقض عليها ويظل يركلها بيديه وقدميه حتى يرى اللحم يبصق الدم؛ أو أن ينقض على عنقها فيضغط عليه ويظل يضغط ويضغط حتى يدقه ويخمد أنفاسها؛ ثم شعر بعدها باشمئزاز وقرف هائلين من نفسه ومما حصل!

كان الشاب مزيجاً من كل شيء؛ فقد كان نهراً من الحزن والألم، كما كان بحراً من الكراهية والاشمئزاز، وكذلك كان محيطاً من الغضب والقرف والندم !!

هل ارتكب راكان الخطيئة العظمى، كما فعل أبونا آدم عليه السلام، عندما أكل من شجرة التفاح التي نهاه الخالق، عز شأنه، عن أكلها؟! إنه الآن يتعذب ويقاسي ويعضّ بنان الندم على فعلته؟ إنه لا يدري! إنه حائر ومحتار! إن كل ما يعرفه هو أن الحزن يسحق

عظامه، والقرف يجعله يريد أن يستفرغ؛ والندم يجعله يتمنى لو أن الله لم يخلقه!

لقد أغرت أمنا حواء أبونا آدم بأن زيّنت له أن يأكل من الشجرة المحرمة، فسقط في الهاوية، وحلت عليه اللعنة وحاق به عذاب الخالق ! ولعل ما حدث لراكان هو ما حدث لأبينا آدم، مع احترام الفارق العظيم بين المخلوقين !

استبدت بالفتى فكرة الشعور بالذنب العظيم، وشعر بأنه يكاد يختنق، وأنه على وشك الجنون؛ وتمنى لو أنه يستطيع أن يخرج من الحافلة ويظل يركض ويركض في الصحراء، حتى تتقطع أنفاسه ويموت! كان يحس بأنه على وشك أن ينفجر وتتطاير أشلاء جسمه! إن بداخله بركاناً يغلي... إنه كالكلب المسعور... إنه يريد أن يدمّر ذاته حتى يتخلص من إحباطه وتمزقه! إنه كاره للفتاة وكاره لمجتمعه! إنه حاقد وناقم بل ومحتقر لكل ما يؤمن به مجتمعه ومجتمعها معاً! إن كلاً من المجتمعين مزيف ودنس، وكلاً منهما انحطاط وحقارة! إنه لعنة أن يعيش الإنسان في كلا المجتمعين... وكلاهما قذر ونتن، وكلاهما داعر وفاجر... واحد يعيش بعقلية القرون الوسطى وأغلاله، يتحكم بها تصرفات قضيب الرجل وفرج المرأة، والآخر إباحي منفلت وبلا أخلاق، وبدون روابط وبلا قيود ولا حدود... ليس هناك من تجانس بين المجتمعين... كلاهما لعنة وكلاهما قذارة...!

لقد قضى راكان عمره، كل عمره، يحلم بالمرأة ويشتهيها... يحلم بها، ويتمنى قربها، لأنّ مجتمعه يحرّم عليه الاختلاط بها، لأن النواميس السماوية تقول هكذا ! لقد كان يعريها بخياله ويعانقها بأحلامه ! كان يتحرق دائماً شوقاً إلى جسدها، وكانت النيران دائماً تشتعل في كيانه وتلهب روحه ... كانت كل خلجة في جسمه تشتعل عند ذكرها، وكان كل كيانه يحترق عند رؤيتها... أما الآن، وقد تحققت أمنيته ونالها، فقد وجدها كومة قذارة... كومة عفن... كومة دنس... تثير الاشمئزاز والقرف !

مدّت الصبية يدها ومرّت فوق يده بلطف ورقة وحنان، وكانت على وجهها ابتسامة عذبة رقيقة حانية، وبطريقة عفوية، فجّة وغاضبة، خطف يده وأبعدها عن يدها، وكأنما هو متوضئ ولا يريد امرأة أن تفسد وضوءه ! همت بلمسه مرة أخرى فابتعد عنها مخافة أن

يفقد وضوءه؛ ثم قفز من معقده واقفاً وصاح بها بحشرجة حتى لا يسمعه من حوله:

- لا تلمسي يدي! ابتعدي عني! إنك دنسة! اتركيني! قالها بوقاحة فظة وغضب لاهب!

قطبت البنية ما بين حاجبيها ونظرت إليه باستغراب ودهشة!

شعر أنه يكاد يختنق وأنه يتنفس بصعوبة بالغة؛ فقفز من مقعده وراح يجري باتجاه دورة المياه، وفزع وهو يرى وجهه بالمرآة! لقد كان بلون البرتقالة الصفراء وكانت في عينيه نظرة متأججة ومخيفة. أسند ظهره إلى الحائط، وصار يشد شعر رأسه كأنما ليقتلعه، ليقتلع خطيئته، ثم أسند بعدها رأسه بين يديه، وراح يستعرض بخياله ما حدث، فبدأ جسمه يهتز كالمحموم، أو كورقة في مهب ريح عاتية، ثم شعر وكأن رأسه خلية نحل، وكلما أمعن التفكير بما حدث كلما ازداد رأسه غلياناً!

فتح حنفية الماء ولكن نزول الماء، على رأسه لم يخفف ما به، فقد كانت ضربات قلبه تتلاحق بسرعة عجيبة والشعور بالاختناق يكتم أنفاسه ... فتح طاقة الحمام الصغيرة وحاول أن يخرج رأسه منها فلم يستطع لوجود منخل عليها، فصار يصل إليه هواء الصحراء الحار اللافح فيزيد شعوره بالاختناق !

وقف بباب المرحاض، وعلى ضوئه الأحمر الخافت، صار يتطلع في وجوه الركاب، فوجدهم جميعاً مستغرقين في نوم عميق. ولاحظ أنه كان هناك ثلاثة مقاعد يجلس على كل واحد منها إنسان واحد، كان أحدهم أم صاحبة المجند! كانت هي الوحيدة التي مازالت مستيقظة، وقد لاحظ أنها كانت تراقبه! كان الراكبان الآخران قد استحل كل واحد منهما المقعد المجاور له بأن تمدد فوقه وراح في سبات عميق!

لم يجد الفتى بدّاً من أن يجلس إلى جانب أم صاحبة المجند، فتوجه نحوها، ولكي يصل إلى مقعدها فكان لا بدّ من أن يمر حيث تجلس جوليانا، وعندما رأته قد تعداها قفزت من مقعدها ولحقت به!

- أرجوك راكو! تعالَ واجلس في مكانك! أريد أن أتكلم معك! قالت ذلك ونهضت من مقعدها ورفعت يديها نحوه!

- أغربي عن وجهي! أنا لا أريد أن أراكِ! إنني أكرهك وأحتقرك! قال ذلك بصوت مخنوق ، والشرر يتطاير من عينيه !

لاشك أن الدهشة عقدت لسان الصبية لهذا التصرف الذي لم تستطع أن تجد له مبرراً، وعندما تأكد لها بأنه غاضب حقاً عادت إلى مقعدها.

- آسف أن أزعجك يا سيدتي، هل لك أن توسعي لي مكاناً إلى جانبك؟! سأل الفتى همساً أم صاحبة المجند!

- طبعاً! طبعاً! قالت المرأة وهي توسع له مكاناً إلى جانبها؛ وأردفت:

- بكل سرور! إني أشعر بالزهو والفخر وأشعر أيضاً أنك تمتدحني!

ثم صارت تنقل طرفها بين راكان الواقف إلى جانبها، وبين جوليانا التي تنظر إليه من مقعدها!

- مرة أخرى أعتذر لإزعاجك. لعلك كنت نائمة فأيقظتك!

- لا إزعاج إطلاقاً! قالت ذلك وهي تبتسم ابتسامة خبيثة تنم عن مكر ودهاء! ثم أضافت:

- أنا امرأة متفهمة جيداً، فلا تقلق! وغمزت بطرف عينها اليمنى!

- مرة أخرى أعتذر للإزعاج! قال الفتى صادقاً.

- قلت لك لا حاجة للاعتذار! ثم بعد أن نظرت إليه من فوق إلى أدنى، ومن تحت إلى فوق أضافت:

- إن لك لكنة ساحرة، فهل لك أن تعلمني من أي البلاد أنت؟ سألت بصوت عالٍ وهي تتضاحك، وكأنما لتغيظ جوليانا؛ ولما أعلمها راكان قالت:

- هذا رائع! وبعد أن سوت شعرها بيدها أضافت:

- أنا لست بسن وجمال صديقتك، وأشارت بذقنها باتجاه الصبية.

- ولكنني لست كبيرة في السن، وجمالي لا بأس به كما ترى! واستدركت:

- إن قلبي ما زال شاباً، وعندي خبرة عظيمة في إسعاد عشاقي، والرجال يفضلونني على الصغيرات الغبيات! قالت ذلك وقلبت شفتيها قرفاً واشمئزازاً!

تجاهل راكان ما قالت وتظاهر بعدم سماعها ولا فهم ما قالت!

- يبدو أنك تفضل النساء المحنكات على الصغيرات الغرات. لا تقلق، كثير من الرجال يفضلون ذلك! اسألني! يقولون بأن الصغيرات يضجر منهن الرجال حتى النخاع! وهزت رأسها وزمت شفتيها!

- ازداد شعور الشاب بالقرف والاشمئزاز، وتمنى لو أنها تكف عن الكلام وتدعه يلملم بقايا نفسه الممزقة!

- لقد ذكرتموني أنت وابنتي وصديقها بأيام شبابي، يوم كان الشبان يتشاجرون من أجل أن يحصلوا على قبول دعوتي للخارج! وفجأة علت وجهها سحابة من الحزن، وأطلقت تنهيدة عميقة.

- هل تعرف يا "موهمت"؟ هل قلت أن هذا اسمك؟ إن أيام الشباب لا ولن تعوض مهما حاول الإنسان أن يعيشها ثانية. ولهذا السبب أردت لابنتي أن تتمتع بكل لحظة من شبابها! وهزّت رأسها بقوة كأنما ليوافقها على ما تقول !

- نعم ! أريدها أن تستمتع بكل لحظة من شبابها، حتى إذا صادف وتزوجها إنسان بليد وممل، وجلب لها التعاسة بدلاً من السعادة، تكون هي قد نالت قسطاً كبيراً من المتعة مسبقاً! قالت ذلك وأتبعتها بهزة من رأسها علامة تأكيد ما قالت!

"مسكينات بنات بلادي! عندما تتزوج الواحدة منهن لم يكن قد لمس أحد يدها بعد، وبعضهن طلقن لأن أزواجهن اكتشفوا أنهن كان لهن علاقة عاطفية مع رجل لم يقابلنه وجهاً لوجه، وإنما نظرات من خلال الشبابيك! إن الأم في وطني لا تسمح لابنتها أن تكلم غريباً، مجرد كلام، لأنها تعتبر ذلك عملاً منافياً للدين والأخلاق، مغايراً للعرف والعادات والتقاليد. أما هذه الأم، في هذه البلاد العتيدة، فهي ترقص طرباً وهي ترى شاباً، حتى لو كان غريباً، ينام مع ابنتها! سبحان خالق الأكوان، واهب العقول، منوّع المفاهيم والتصرفات!

إن الحياة في وطنك تافهة وضائعة ولا قيمة لها. إن الناس هناك يعيشون عبيداً للعادات العقيمة والتقاليد البالية، واستبداد رجال الدين

الجهلاء والمتزمتين! إن الناس هناك يعيشون في جهل مطبق وفي ظلمة حالكة ولعنة أبدية ! أنهم يعيشون مثاليات ورقية جوفاء عفنة، وقيماً مهلهلة وأفكار سطحية!"

- إن بعض البنات لا يعطين الشاب ما يطلب منهن! إنهن يتدللن لأنهن يردن منه أن يتزوجهن أولاً، وخصوصاً إذا كن جميلات ! قالت ذلك وزمت شفتيها علامة الاشمئزاز والقرف وأضافت:

- ولكن الشبان يريدون أن يستمتعوا ودون التزام بالمسؤولية. أنا لا ألومهم ولا أرى في ذلك خطأ. أنا نفسي أريد أن أقضي وقتاً طيباً ممتعاً قبل أن أضع نفسي في قفص الزوجية! وضحكت ثم هزت كتفيها، و بدت لراكان رخيصة... رخيصة... ومبتذلة حتى الاستفراغ !

- صحيح أن الزوجة تستطيع هي الأخرى أن تقضي وقتاً طيباً إذا أرادت، ولكن ليس مثل ما تكون عندما تكون عزباء! وبلعت ريقها ثم أردفت:

- هل تصدق أنني عندما كنت في أول نضوجي، ويدعوني شاب للخروج معه أنني لا أدعه يلمسني قبل مضي الأسبوع الأول لتعارفنا! تصوّر طيلة أسبوع ! أجعله يحترق شوقاً لجسدي! ثم صارت تؤشر بإصبعها وترافقها بإيماءة من رأسها:

- أمّا إذا تجرأ وحاول أن يقبلني أو حتى أن يمسك بيدي أو ما شابه ذلك، ضربته كفاً جعلته تمنى لو أن أمه لم تلده! قالت ذلك وأتبعتها بضحكة سمجة!

كان راكان يحدق بالمرأة كالأبله فاتحاً فمه كالمعتوه، دون أن ينطق بحرف واحد! كان يسأل نفسه؛ ما هذا العالم النتن الذي أتيت لأعيش به! اللعنة! اللعنة! اللعنة!

- وبعد أسبوع كامل، أشفق عليه! وضحكت متصنعة الخجل:

- طبعاً، أشفق على نفسي! وهزّت جسمها هزة غناج وتدلل، ثم تابعت:

- لعلك لاحظت أنني رقيقة القلب. إنه من الصعب عليّ أن أصدّ الرجال الذين يريدونني!

وهنا تململ الرجل النائم أمامها، على الكرسي، ثم تنحنح، ففهم راكان أن ما فعله هو تذمر واحتجاج على كلام المرأة، التي كانت تتكلم بصوت يستطيع أن يسمعه النائمون على الكراسي أمامها وخلفها!

لاحظ راكان أن جوليانا كانت تدير رأسها بين الفينة والأخرى وتنظر إلى حيث يجلس، كما لاحظ أن الرجل الذي كان يجلس في المقعد خلفهما قد تململ في نومه وتنحنح هو الآخر؛ إذ لا شك أنها رسالة للمرأة لتخفض من صوتها! ولكن يبدو أن المرأة كانت مسترسلة مع عواطفها مستغرقة في ذكرياتها، فلم تسمع نحنحة الرجلين ولا تذمرهما، فاستطردت قائلة:

- كان واحد من الشبان الذين تعرفت عليهم يحبني كثيراً، وقضينا ستة شهور ، شهر عسل متواصل لا نفترق أبداً، وطلبت إليه أن نتزوج مازلنا لا نستطيع فراق بعضنا البعض، واختفى من حياتي فجأة، ولأقول لك الحقيقة إنني حزنت جداً حتى فكرت أنني سوف أموت حزناً، وصممت أنني لن أحب في حياتي أبداً. كنت كلما أتعرف على شاب أقول لنفسي، فقط إمضي معه وقتاً طيباً ولا تفكري بالزواج! لماذا أضيع عمري قلقة أن أتزوج؟! إذا كان الشاب يحبني ما فيه الكفاية فهو سيتزوجني وبالفعل حدث ذلك، قابلت "مارك" ووقعنا في الحب وتزوجنا. إنه رجل لطيف ومتفهم مثلي! وعلت وجنتيها حمرة خجل عذراء وقالت:

- هو لا يدقق معي، وأنا لا أدقق معه... آه لقد اشتقت إليه جداً... وحشني كثيراً... سأراه بعد... ونظرت إلى ساعتها:

- بعد أربع ساعتين تقريباً، سيكون في استقبالنا في لوس أنجلوس!

لم يستطع راكان أن يصبر أكثر مما فعل، فقد كان يشعر بغثيان شديد ممزوج بالقرف ، منذ بدأت المرأة تتكلم، ودون أن يستأذنها نهض مسرعاً نحو الحمام حتى لا يستفرغ على ملابسه!

- راكو! أرجوك أريد أن أكلمك! قالت جوليانا وهو يمر من جانب مقعدها؛ ولكنه تعداها في طريقه إلى الحمام دون أن يعيرها أي انتباه!

وضع الشاب إبهام يده والسبابة في حلقه وتقيأ عدة مرات، شعر بعدها بارتياح واسترخاء؛ ثم جلس بملابسه فوق حجر المرحاض،

وأسند رأسه على يديه وصارت دموعه تنساب ساخنة غزيرة فوق خديه! لا يدري كم من الوقت مضى وهو جالس فوق حجر المرحاض ولكنه يدري بأنه عندما نهض كان كالمخدر ويكاد يسقط من الإعياء.

- ها أنت قد عدت. لقد أقلقتني عليك! ماذا حدث لك؟ سألت المرأة همساً وقد مدّت يدها ومرّت بها بلطف فوق يد راكان وهي تبتسم بعد أن جلس إلى جانبها.

- لا تقلق يا حبيبي! أنا هنا بانتظارك! قالت وقد بشّت لقدومه!

- عليكم اللعنة! إنكم لا تفكرون إلاّ بمتعتكم الجنسية! إنكم تثيرون قرفي واشمئزازي! لقد شوّهتم صورة الجنس عندي، حتى أصبح وكأنه كومة قاذورات ! قالها راكان بالعربية؛ وسحب يده من يدها بشدة وغضب، ثم أرجع كرسيه إلى الوراء وأعطاها ظهره وأغلق عينيه متظاهراً بالنوم!

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحاً بقليل ، عندما قذفت الحافلة ركابها في محطة الحافلات في مدينة لوس أنجلوس، وعندما خرج راكان من باب الحافلة تنفس الصعداء وشكر الله أن رحلته قد انتهت. لقد كانت رحلة مضنية وقاسية وطويلة حقاً! مائة ساعة بالتمام والكمال قضاها على الطريق ، متنقلاً من حافلة إلى أخرى ومن ولاية إلى ثانية!

لقد كان باستطاعته أن يركب الطائرة من نيويورك إلى لوس أنجلوس، ولكنه أراد أن يعبر أمريكا من شرقها إلى غربها بالحافلة ... إنه بهذه الوسيلة يستطيع أن يرى البلاد الأمريكية، من شرقها الى غربها ... هكذا اعتقد؛ ولكن لدهشته وجد نفسه مخطئاً! لقد رأى القليل القليل من أمريكا !

- أرجوك يا راكو أريد أن أكلمك، قالت البنية بمذلة وحزن شديدين، وهي تتضرع إليه.

- لا أريد أن أكلمكِ ولا أريد أن أراكِ! قال الفتى بغضب، وقد علت جسمه قشعريرة شديدة عندما اقتربت منه وهو واقف يحاول أن يجد بعض الناس ليسأله أين يستطيع أن يجد هاتفاً !

لقد شعر بأن صوتها الرقيق الناعم كأنما هو صوت ثور يخور ويكاد يخرق طبلة أذنيه؛ وصرّ على أسنانه كأنما ليبعد عنه ذلك الصوت النشاز !

- أرجوك ! قل لي ما حدث؛ وأي خطأ ارتكبت ؟! قالت وهي تحاول أن تقترب منه وهو يبتعد عنها.

- أنا آسفة إن قلت أو عملت ما يغضبك. صدقني إنني غير مدركة له أو واعية به!

- أنتِ لم تقولي ولم تعملي ما يسيء إليّ، أنا لا أريد أن أكلمك، ولا أريد أن أراكِ! فقط دعيني وشأني! قال هذا وسحب جاكيته من يدها بغضب.

وفجأة أحسّ راكان بحزن شديد وشفقة عليها، فهي حقاً لم ترتكب خطيئة بحقه؛ إذ ما ذنبها؟! إن الناس في مجتمعها يتصرفون هكذا، والناس في مجتمعه يفكرون بهذه الطريقة؟! ما ذنبها إذا كان هو قد عاش في مجتمع يحكم على أخلاقيات الإنسان طبقاً لغرائزه الجنسية ؟!

ماذا أقول لك يا جوليانا وكيف أقول؟! إنك لن تفهمي حتى ولو أمضيت شهوراً أشرح لك ! لقد أتيت من مجتمع تتصرف الشهوة الجنسية في كل أعماله وكل أقواله، ويتحكم الجوع الجنسي في تفكيره ومصيره، بل ويدير حياته كلها. مجتمع في أزمة جنسية عنيفة، عقدّته وأخرّته. أزمة استهلكت كل طاقاته ومجهوداته البشرية ! مجتمع يقضي شبابه وشاباته الشطر الأكبر من حياتهم يحلمون بالجنس ويشتهونه !

لقد عقّد الجنس مجتمعي وخلق منه كومة من الأعصاب التالفة، والعيون المتورمة المسهرة، والأجسام الهزيلة المريضة. مجتمع ألجأه الحرمان من اختلاط الجنسين، إلى العادة السرية وشتى أنواع الشذوذ الجنسي حتى، أصبحت جزءاً من حياته اليومية؛ ومن الصعب التخلي عنها. أزمة جعلت الشاب يحلم بالفتاة والفتاة تحلم بالشاب، ويبدّدون كل طاقاتهم ونشاطاتهم وإمكاناتهم لا يفكرون إلاّ بها! إنك لن تفهمي، وإن فهمت فإنك ستكرهيننا وتحتقريننا؛ بل وتزدريننا!

- أخبريني أين أجد هاتفاً. أريد أن أكلم صاحبي ليأتي ويأخذني! قال الشاب إلى الصبية!

- الهواتف هناك بالزاوية، تعال معي! قالت ذلك وقادته إلى إحدى زوايا القاعة.

- نعم سيأتي في الحال! قال بأنه يسكن غير بعيد من هنا! أجاب راكان جوليانا بعد أن انتهى من المكالمة الهاتفية.

لعل كلام راكان غير الثائر شجعها على سؤاله ثانية:

- قل لي ماذا فعلت لك حتى كرهتني؟! مع أنني فكرت أنك أردتني كثيراً، وتريدني أن أكون فتاتك!

- قلت لك إنك لن تفهميني؛ حتى لو أعلمتك السبب! ثم استدرك:

- إنني لا أستطيع قوله لك حتى لو كنت ستفهمين ما سأقول!

وبعد أن فكرت قليلاً، قالت:

- أظن أنني فهمتك جيداً! وبجرأة أكثر من جراءة رجل في مجتمعه قالت:

- هل تعني أنك شعرت بالذنب بعد أن نمت معي؟! سألت ذلك بصوت عالٍ وهي تحدق بوجهه!

ألقى راكان برأسه خجلاً ولم ينطق ببنت شفة، ولكنه هزّ رأسه علامة الموافقة!

- ألم أقل لك مرات كثيرة، بأننا ولدنا بالخطيئة ؟! إنه ولهذا السبب، صلب السيد المسيح ليدفع ثمن خطايانا؟!

- أنا لا أؤمن إنني ولدت مذنباً، ولا أؤمن بأنني يجب أن أدفع ثمن غلطة ارتكبها أبونا آدم ، أبو البشرية!

- ولكن هذا خطأ! هذا ضلال!

- خطأ وضلال بالنسبة لكِ، وليس بالنسبة لي! قال راكان ذلك محاولاً أن لا يرفع صوته، فقد بدأت المحطة تزدحم بالناس!

- إنك تتهمين كل من يختلف معك في المعتقد بأنه ضال وبحاجة إلى الهداية ! وبلع ريقه ومصمص شفتيه الناشفتين، وأضاف:

- إنك متطرفة في اعتقادك، ويجب أن تناقشي كل شيء بموضوعية إذا كنت تريدين أن تقنعي الآخرين ، فيتقبلوا آراءك ومعتقداتك!

- هل جميع الذين يؤمنون بالمسيح متطرفون في رأيك؟! سألت بلهجة لطيفة ومؤدبة!

- أنا لم أقل هذا ولا أؤمن به! قال وقد شعر بأنها أهانته في تفكيره ومبادئه!

- إنني أعتقد أن الشخص المتطرف هو الذي يتهم كل من يخالفه الرأي بالضلال! شعر راكان بحماس مفاجئ فأضاف:

- إنك تؤمنين أنني ضال ، لأنني أخالفك المعتقد ، وتؤمنين بأنني بحاجة إلى الهداية، وتأملين بأن تجعليني أؤمن بما تؤمنين به؛ وأقول لك أن هذا لن يحدث، لأن لي معتقداً، وأنا فخور به، ولن أتحول عنه. لا لأنني أعتقد مثلك أن معتقدي فقط هو المعتقد الصحيح، ولكن لأنني قانع وسعيد به!

- كل الضالين سعداء!

- إن القصد من هذه الحياة هو أن يعيش الإنسان سعيداً، وما زال الناس الذين تعتقدين أنت أنهم ضالون هم سعداء، فأعتقد أنهم حققوا ما ينشدونه في حياتهم!

- إنها سعادة مزيفة! قالت بنفاد صبر!

- ولكنهم قانعون بها، ثم من أنتِ حتى تحكمي عليها بالزيف؟!

- إن من واجبي أنا وأمثالي من المؤمنين، أن نرشدهم إلى السعادة الحقيقة، وأن لا سعادة حقيقية إلاّ بالإيمان بالمسيح!

- ولكن بأي حق تفعلين ذلك؟! سأل راكان بغضب ممزوج بالثورة !

- لقد طلب منا المسيح أن ننشر كلمة الله! إنه مذكور بالتوراة وهمت بفتح توراتها، لولا أن راكان تقدم وأغلقها بين يديها.

- أنا لا أتهمهم، أنا أريد فقط أن أخلص أرواحهم!

- وإذا كانوا يرفضون ذلك؟!

- الناس دائماً يرفضون الخير لهم في أول الأمر، ولكن يدركون ذلك فيما بعد، عندما تزول الغشاوة عن أبصارهم ؛ وواجبنا نحن المؤمنين أن نزيح هذه الغشاوة!

- وإذا رفضوا مساعدتك؟!

- سأظل أحاول وأحاول حتى يروا النور!

- وإذا فشلت؟!

- أكون قد أديت واجبي ونفذت وصية المسيح لي!

- إذن، لقد أديت واجبك بالنسبة لي!

- ولكنك ستندم يوم يكون الوقت قد فات للندم!

- إن الندم شيء نسبي كالحق والخير والظلم والقيم والصحيح والخطأ!

- إنك دائماً تفلسف الأشياء! قالتها شبه مستاءة!

- وما الخطأ في ذلك إذا كنت أريد أن أصل إلى الحقيقة!

- إن الحقيقة الوحيدة في هذا العالم هي المسيح! قالت بحزم وصوت عالٍ!

- إن العالم مملوء بالحقائق، صدقيني!

- ولكنه الحقيقة الوحيدة التي لا تقبل الشك والجدل! قالت بإيمان وثقة.

- ربما!

- ولماذا لا نحاول إذن، فقد تقتنع؟! فقط! افتح قلبك واقرأ التوراة!

- سأفعل ذلك؛ صدقيني سأفعل!

- آه! شكراً! قالت وهي تكاد تطير من الفرح، ثم أضافت:

- إذن، سندرس التوراة معاً! وستقتنع!

- أنا لم أعنِ في الوقت الحاضر. سأدرسها لوحدي!

- ولكنك لن تعرف كيف ! أنت بحاجة إلى إنسان ذو خبرة... إنسان مثلي... مؤمن! قالت وقد لاحظ راكان أن علامات خيبة الأمل تبدو ظاهرة على وجهها.

- لا تقلقي. سأجد من يساعدني! إنه لمن المستحيل عليّ أن أعتقد ما تعتقدينه أنتِ، وأن أفكر بهذه الطريقة المتعصبة العمياء! إن هذا يعني بالنسبة لي التنازل عن أدميتي وعدم الاعتراف بالعقل والفكر.

- فقط، أعطني الفرصة لنتقابل وندرس التوراة؛ فقد تؤمن بعد أن تنتهي فترة الدراسة، فتخلص روحك وترى النور!

- قلت لك إنني لا أريد أن أراكِ ولا أكلمكِ!؟ إلى اللقاء! حظاً سعيداً! تشرفت بمعرفتك. شكراً للوقت الممتع الذي قضيناه سوية! كانت الكلمات تخرج من فم راكان قصيرة، وكانت تخرج وكأنها طلقات نارية!

انحنت الصبية فحملت حقيبة صغيرة لزينتها وأخرى بها ملابسها، ثم تمهلت قليلاً ونظرت إليه بعينين تتقدان جمراً، ويتطاير منهما الشرر، وكأنهما سياط تلهب بها ظهر الفتى!

- إنكم قوم كافرون؛ تعبدون "مهمت" وتنكرون المسيح. سيحرقكم الله بنار جهنم! ثم بصقت في الهواء بغضب لاهب، وأردفت:

- ليت الصليبيين سحقوكم، ولم يبقوا منكم أحداً! قالت ذلك وأعطته ظهرها، وظلت تصل إلى أذنيه وقع خطواتها فوق أرض المحطة وهو يحملق بها مشدوهاً حتى ابتلعها الزحام وغابت عن عينيه.

لقد أذهلت أقوالها راكان، إذ استغرب أن يحمل كل هذا الجمال وكل هذه الأنوثة والنعومة والرقة، هذه البحار من الحقد والكراهية والبغضاء، فقال مخاطباً نفسه!

"لقد استجاب الله لدعائك يا جوليانا، فقد سلّط بني قومك على بني قومي، جماعة من الحاقدين المتوحشين المتعصبين، جماعة لا يخافون الله، متعطشين للدماء، يدعون بأنهم شعب الله المختار، فزودوهم بأشد أنواع السلاح فتكاً وأكثرها تدميراً، ففعلوا بهم أفظع وأقذر وأشرس مما فعل أجدادك الصليبيون بأجدادهم. لقد كانت خيول أجدادك الصليبيين تغوص بدماء الأطفال والنساء والعجزة من المسلمين إلى ما فوق الركب، أما سفاحو اليوم فإنهم يدفنون الناس أحياء في بيوتهم ومدارسهم ومساجدهم وكنائسهم، ثم تتجرئين وبوقاحة وتتحدثين عن المسيح والحب والإخاء والسلام!

"ألا لعنك الله ولعن بني قومِكِ وتغمدكم جميعاً بواسع جهنمه وعظيم غضبه، آمين! آمين! أمين!"

*****

الفصل الثالث

- أرجو الانتباه ! يرجى من السيد دهشان الحضور إلى كشك الاستعلامات.

انطلق صوت مكبر الصوت في قاعة الحافلات، ولكن هذه المرة في محطة مدينة لوس انجلوس.

حمل الفتى حقيبته الصغيرة بيده اليسرى، ووضع يده اليمنى في جيب بنطاله، وسار بقامة مرفوعة وهمة وثابة، ثم وضع ابتسامة كبيرة على شفتيه وسار نحو كشك الاستعلامات.

- راكان دهشان؛ أليس كذلك؟! سأله صاحب الصوت بالعربية.

ولما أجابه بالإيجاب، قال صاحب الصوت وعلى وجهه ابتسامة كبيرة:

– إبراهيم الزاغة! قال السائل وهو يمد يده لمصافحة راكان!

- تشرفنا. قال الشاب بحرارة !

- كيف الحال والصحة إن شاء الله أنك...

قاطع إبراهيم راكان وقد سحب يده من يده، ثم التفت إلى شماله حيث كان يقف إلى جانبه شاب حنطي البشرة يرتدي بنطالا من الكاكي وقميصا مخططا ذا أكمام قصيرة.

- صديقي عصام سلامة من لبنان.

- تشرفنا يا سيد عصام! قال راكان بحماس وحرارة وهو يشد على يد السيد عصام.

- أهلا بك يا سيد راكان. قال عصام وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة. وشبه خجلى، ثم أضاف:

- كيف كانت رحلتك؟! إن شاء الله لم تكن متعبة!

- لقد كانت متعبة وممتعة معا، ولكن...

- أجّلا الحديث الآن ! أين أمتعتك؟ ! قال إبراهيم مقاطعا وبلهجة حاسمة.

ودون أن يفتح الفتى فمه، مد يده اليمنى في جيب جاكيته الداخلية ، وأخرج ثلاث بطاقات ناولها إلى إبراهيم الذي توجه رأسا نحو مستودع الأمتعة، ثم سار عصام وراكان خلفه وقد استأنفا السلامات والسؤال عن الصحة والرحلة والوطن.

جلس ثلاثتهم في سيارة شيفروليه قديمة في المقعد الأمامي، عصام يقود السيارة وراكان في الوسط.

- لم يخبرني ابن أخي حكمت بتاريخ وصولك بالضبط، كنت عازما أن أهاتف كفيلتك في هذين اليومين ، لأسأل عن وقت وصولك.
- أنا نفسي لم أدر بالضبط. قال راكان بحماس، ثم استطرد:
- لقد كنت أفكر أن أمضي أسبوعا كاملا في مدينة نيويورك، ولكنني لم أمكث إلا ثلاثة أيام. إن وحدة قاتلة تصيب الإنسان في المدن الكبيرة إذا لم يكن يعرف أحداً !
- هل تعرف كفيلتك أنك ستصل اليوم؟!
- لا، كنت أفكر أن أفاجئها بأن أهاتفها، من هنا من لوس أنجلوس !
ولما لم يقل إبراهيم شيئا استطرد هو يقول:
- لقد أعلمني حكمت بأن أهاتفك لتأتي وتأخذني، فأنت تسكن قريبا من محطة الحافلات. أرجو أن لا أكون قد أزعجتك، وخصوصا في هذا الصباح الباكر!
- نحن الذين قد أزعجناك! قال إبراهيم وهو يبتسم ابتسامة باهتة!
- إن صندوق الكرتون الذي أرسلته لي والدتي معك ، يظهر لي أنه أثقل من حقيبتيك الاثنتين معا!
"صدقت يا رجل! لقد كنت أحمل حقيبتي كلاًّ بيد، ولكنني كنت دائما أستأجر حمالا لحمل صندوق الكرتون! وما أغلى أجرة الحمالين بأوروبا وأمريكا. إنهم ليسوا كحمالي بلادنا المساكين!" قال راكان لنفسه.
- لا شك أنك دفعت عليه أجرا كبيرا. يجب أن تخبرني كم دفعت من نقود لأعوضها لك!
- عيب أن تقول هذا يا أخ إبراهيم ! قالها الفتى بصدق وبإخلاص.
- إنني لم أدفع عليه شيئا في الباخرة ولا في الحافلة.
- ولكنك لا شك قد دفعت عليه مبلغا كبيرا لنقله من عمان إلى بيروت، ثم لتحميله بالباخرة في مينائي بيروت ونابولي عند تغيير الباخرة... ثم لا شك أنك قد دفعت أيضا بين الباخرة والحافلة في نيويورك !
- لا يوجد حساب بين الأصدقاء، يا أخ إبراهيم! قال راكان صادقا !

- لا، لا بد من أعوض لك ما دفعت! قال هذا ومد يده إلى جيب جاكيته، فأمسك بها راكان محاولا منعه!
- لا، لا بد من أن أفعل ذلك! قال هذا وهو يحاول أن يحرر يده من يد راكان!

- إذن في هذه الحالة يجب أن أدفع لكما أتعابكما أنت والسيد عصام!
- ماذا جرى لكما يا جماعة ؟! قال عصام بغضب وهو ينقل طرفه بين الاثنين! ثم أضاف:
- وهل نسينا عاداتنا وتقاليدنا العربية بين يوم وليلة؟!
شعر راكان بخجل شديد فقال:
- إن ابن أخيك حكمت من أعز أصدقائي، وعندما أعلمني بأن جدته تريد أن ترسل معي صندوقا به بعض الحاجيات لابنها فرحت جدا !
- وهل رأيت والدتي؟ ! وكيف صحتها؟!
" ما أغباك وما أبيخ سؤالك يا إبراهيم! إنك تعرف أن أمك تغطي وجهها ولا تدع غريبا يراها، ولو أنها تجاوزت الستين من عمرها!"
- لم يحصل لي شرف رؤيتها، ولكنني تكلمت معها بواسطة صديقي حكمت عدة مرات هاتفيا! وانتظر راكان قليلا ثم أضاف:
- لقد طلبت منى أن أوصيك بنقودك خيرا، كما أعلمتني أن أشجعك على العودة إلى الوطن، حتى ولو للزيارة!
- سأزور الوطن خلال العامين القادمين ،إن شاء الله ! إن في نيتي أن أكمل ديني بأن أتزوج من هناك!
- ألا ترغب في الزواج من أمريكية؟
- لا أعتقد ذلك، لقد أتيت من بيت دين وتقوى، ولا يمكن أن أتزوج بغير مسلمة محتشمة ! إن الأمريكيات يصلحن لتنام معهن وتستمتع بأجسادهن، ولكنهن لا يصلحن لأن تتزوجهن! وسكت لحظة ثم غشيت صوته مسحة من الحزن وأضاف:
- ألا يكفي متهتك واحد بالعائلة؛ لا يصلي ولا يصوم؛ بل وحتى يشرب الخمر؟!

" أرجوك يا أخ إبراهيم! لقد قضيت طيلة رحلتي بالحافلة وليس لي إلا الاستماع إلى أحاديث الدين والمناقشة به، وأنا لا أريد جوليانا أخرى، أنا أكره المتزمتين، ليس بالدين فقط، ولكن بكل مجالات الحياة!"

- إنك لا تتوقع أن يكون كل أفراد العائلة ملتزمين دينيا مثلك ! إن هذا مخالف لنظام الكون! قال عصام بحماس!

- أنت دائما تدافع عنه! قال إبراهيم ذلك، وغرز إبهام يده في الهواء ثم أضاف:

- لا شك عندي أن مدافعتك عنه هي التي شجعته على تصرفاته الشائنة واللا أخلاقية ، في ذلك الوقت !

انفجر عصام يضحك، ولاحظ راكان أن عيني إبراهيم بدأتا تغلقان وتفتحان بسرعة وقد علت وجهه بعض الصفرة ممزوجة بالحمرة!

- أنا أشجعه؟ ! وهل تعتقد أن حكمت بحاجة إلى تشجيع أحد؟ !

ثم توقف عن الضحك وأضاف:

- إذا كنت تعتقد ذلك فأنت لا تعرف حكمت، ولا تعرف شيئا عن شخصيته!

- طبعا، أنا أعرفه! أنا أعرفه جيدا! أكثر مما يعرف هو نفسه! صحيح أنني أكبره بثلاث سنوات فقط ، ولكنني أعرف كل ما يدور بخاطره وكيف يفكر! قال إبراهيم بغضب وقد كان تأثير الانفعال واضحاً على جسمه الذي بدأ يهتز ويرتجف!

- عندما أتيت إلى أميركا كان عمر ابن أخي حكمت ، اثنين وعشرين عاما فقط، ولم يكن وقتها حتى يدخن. كان يصلي الخمسة أوقات كل يوم ! كنا نصلي معظمها حاضراً ومعاً ...كنا نصلي يوم الجمعة دائمًا معًا وفي المسجد منذ أن أتذكر نفسي...! كان يصوم شهر رمضان ولم يفطر يوما واحداً ! كان يصوم حتى الستة أيام البيض التي تتبع شهر رمضان الفضيل، وأذكر أنه مرة كان مريضاً جداً ، ورفض أن يفطر، مع أن الدين سمح له بذلك !

"أرجوكما غيرا الموضوع! إنني متعب جدا، وأحب أن أسمع كلاما يفرح قلبي وليس جدلا يزيدني قهرا وإحباطا، ثم من يدرينا! لعل حكمت أصابته ردة فعل في الدين كما أصابتني أنا، فبدلا من أن يجد

بالدين متنفسا وسعادة وجد به الخذلان والخيبة والإحباط! قال راكان مخاطباً نفسه!"

- إبراهيم! يا صديقي! قال عصام وهو ينقل طرفه بين الرجلين.

- دعنا نواجه الحقيقة ونكون أمناء، على الأقل مع أنفسنا، إذا كنا لا نريد أن نكون أمناء مع الآخرين.

توقّع راكان أن يغضب إبراهيم من كلام عصام، ولكنه لاحظ أن إبراهيم كان هادئا؛ بل وكان يصغي باهتمام!

- أي ضرر يلحقه كأس من البيرة بشاربها؟ وماذا يفعل الدين إذا كان حكمت يشرب في الأسبوع قارورة بيرة ؟!

نظر راكان إلى وجه إبراهيم ليرى وقع كلماته عليه فوجده يحملق بعصام مشدوها وكأنما لا يصدق ما تسمع أذناه.

- المسيحيون يشكون ويتذمرون من الذهاب إلى الكنيسة مرة واحدة في الأسبوع، فقل لي بربك من عنده وقت ليتوضأ ويصلي خمسة مرات، ليس في الأسبوع وإنما في اليوم؟! ومصمص شفتيه، ولعله كان يعجب من نفسه لهذه البلاغة.

- نعم، في اليوم الواحد؛ وهنا في أمريكا التي قلما يجد الإنسان بها وقتا للاسترخاء!

نظر القادم الجديد إلى وجه إبراهيم فرأى عينيه تحدقان بعصام مذهولاً وهما تكادان تطيران من محجريهما غضبا وحنقا، كما لاحظ أنه ولشدة غضبه لم يستطع أن يقول شيئا ! لقد كان إبراهيم يدير لسانه في فمه فلم يستطع ! استرسل عصام متابعا:

- أي رئيس عمل أمريكي، يسمح لك أن تتوقف عن عملك خمس مرات في اليوم لتذهب وتصلي؟! إنه سوف يقول لك لم لا تذهب يا هذا إلى بيتك وتظل هناك للأبد وتظل تصلي ليل نهار؟! وأطلق عصام ضحكة كأنما أعجبته فكرته أو نكتته وصار يقهقه حتى خيل لراكان أن السيارة سوف تخرج عن مسارها!

- لم أكن أتصور أنك تكره الدين الإسلامي إلى هذه الدرجة ! أنا لا يمكن أن أتصور أن هناك إنساناً ، يقال أنه مسلم يتكلم عن دينه بهذا الحقد وهذه الكراهية ! أنا لا أصدق أذني. لا شك أنني أحلم، إذ لا يمكن أن يكون هذا المتكلم صديقي عصام الذي كنت أظنه غيورا على الإسلام كغيرتي عليه ! منذ متى هذه الأفكار الشريرة؟! إنني أعرف

أنك دائما تصلي وتصوم وتحض على الدين وتدافع عنه. فماذا جري لك وما الذي غيرك؟ !

فتح عصام فمه ليتكلم ولكن إبراهيم لم يعطه الفرصة ليتفوه ولو بكلمة واحدة !

- إذا كنت مسلماً حقيقيا ً فأنت تستطيع أن تصلي الصبح قبل أن تذهب إلى عملك، وتصلي الظهر في ساعة غدائك، وتصلي العصر عندما تأخذ استراحة الشاي أو القهوة! أما المغرب والعشاء فتستطيع أن تصليهما بعد انصرافك من عملك إلى البيت !

ومرّة ثانية فتح عصام فمه ليتكلم ، ولكن إبراهيم في ثورة غضبه استمر يقول:

- إن كل فرض من فروض الصلاة لا يأخذ منك أكثر من ثلاث دقائق بين وضوء وصلاة. ! هل توقفت يا أخي عصام وفكرت قبل أن تؤدي الصلاة، بأنك حين تسمع الآذان يرتفع في أعالي السماء ، بأن خالق السماوات والأرضين ، يدعوك للقائه في صلاتك، وأنك حين تتوضأ وتطهّر نفسك من جميع الذنوب والآثام، أنك تستعد لملاقاة ملك الملوك، خالقك العظيم؛ وأنك حين تتوجه إلى المسجد تلبي دعوة من خالقك العظيم ذي العرش المجيد؛ وأنك حين تكبّر تكبيرة الإحرام، تناجي ربك السميع العليم !

- هذا صحيح؟! قال راكان صادقا ومحاولا أن يكون مؤدبا.

ولكن إبراهيم سامحه الله لم يتوقف، وإنما استمر في خطبته، كما ازداد حماسه وعلت نغمة صوته:

- ألا تعرف يا صديقي عصام، أنك حين تقرأ سورة الفاتحة في صلاتك ، تكون في حوار خالص مع من خلقك وسواك فعدلك، وأنك حين تؤدي حركات الصلاة تؤديها معك أعداد كبيرة من الملائكة؛ منهم الراكعون، ومنهم الساجدون منذ آلاف السنين؛ وهم يتعبدون؛ فامتلأت السماوات بهم وهم قانتون ! وأنك حين تسجد خاشعا لله صرت في أقرب مكان لمن خلقك، إذ إن أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد، وأنك حين تسلم آخر كل صلاة إنما تتحرق شوقا ًللعودة للقاء ربك الرحمن الرحيم؟!

- بارك الله بك يا أخي إبراهيم وحفظك من كل مكروه ومن كل سوء! إنك والله أفرحتني بما قلت! قال راكان صادقا وقد حركت كلمات إبراهيم قلبه وعواطفه!

لم يتوقف إبراهيم، وإنما واصل موعظته:

- إن ديننا الحنيف دين يسر وليس دين عسر! لقد قال الله إنك تستطيع أن تقضي الفرض الذي لم تستطع تأديته في وقته، عندما يسمح لك وقتك!

- وهذا صحيح أيضا! قال راكان صادقا وبحماس.

- إن هذا ما أفعله، وأنت تعرف ذلك! لقد كنت أهزر حتى أسلي السيد راكان! قال عصام وهو يقهقه.

- إن الدين لا هزار به، لأن راكان يراك لأول مرة، وقد يظن أنك تعني ما تقول؛ فتتزعزع إيمانه!

"وهل بقي عندي إيمان حتى يزعزعه؟ رحم الله أيام الإيمان يا إبراهيم، لقد كنت أهدأ بالا وأحسن حالا وأسعد قلبا! صدقني! قال راكان مخاطباً نفسه!"

- لا تخف يا أخ إبراهيم، إن إيماني راسخ كالجبال لا تزعزعه قوة في الأرض! قال راكان وهو يحاول أن يصر على مقاطع الكلمات وكأنما ليؤكد لمحدثه صدق ما يقول:

- قل لي يا راكان! كيف حال حكمت؟ سال إبراهيم.

- لقد ودعني ليلة سفري قبل حوالي شهر، وكان على أحسن ما يرام.

- هل تعرف أن اللئيم لم يكتب لي سوى رسالة واحدة منذ أن ترك أمريكا وعاد إلى الوطن؟ تصور!!! رسالة واحدة في ثمانية شهور! لقد كانت عبارة عن بضع سطور يعلمني بأنك قادم وأن والدتي أرسلت لي معك صندوقاً به حاجيات !

- لعله لم يجد بحياته جديداً ليكتب لك عنه! قال راكان محاولا أن يخفف من غضب إبراهيم!

- لقد أعلمني في رسالته أنه مسرور بعمله الجديد، وأنه أحسن وأقل تعباً من عمله الأول، ثم إنه يكسب نقوداً أكثر! قال إبراهيم، وبعد أن مصمص شفتيه أضاف:

- لو انتظر الغبي قليلا لكان الآن يكسب نقودا مثلما أكسب؟ أضعاف أضعاف ما يكسبه في الوطن!

"وهل منحته الفرصة؟ لقد جعلت حياته جحيما كما أعلمني!"

- لِمَ تلومه وأنت الذي طردته؟! قال عصام وقد أبطا السيارة، وخرج من الطريق السريع!

- لقد فعلت ذلك لأرعبه، ولم أكن أفكر أنه سيأخذ الأمر بجد! قال إبراهيم بلهجة النادم.

- لو كنت مكانه لما فعلت غير ما فعل! قال عصام ذلك وأوقف السيارة وصار يتطلع يمينا وشمالا ليتأكد من خلو الشارع من السيارات العابرة! ثم أضاف:

- تصور شاباً عمره عشرون عاما يصفع ويركل ويجر أمام أصدقائه والغرباء لأنه شرب قدحا من البيرة !

- ولكنها كانت المرة الثانية! لقد حذرته في المرة الأولي! قال إبراهيم متمتما ً !

- بأي حق لك عليه حتى تذله أمام الناس وتتصرف معه كأنه ابن لك وتحت السن القانونية؟

- ولكنني كفيله!

- وحتى لو كنت والده! كيف تعطي نفسك الحق بأن تتدخل في أدق خصوصياته؟ ! إن هذا أمر يعنيه هو نفسه، ما دام لا يؤذي الآخرين فيسبب لك المشاكل!

- لم تكن المشكلة شرب البيرة فقط! كنا نتسحر سوية، ونذهب صباح اليوم التالي إلى العمل، ثم عندما نعود إلى البيت ونجلس للإفطار كان يأكل قليلا ، فأعرف أنه لم يصم ذلك اليوم وإنما يتظاهر أمامي بالصيام. ثم كان يصلي فقط عندما يكون معي!!

- إن هذه حياته يا أخي! قال عصام محتجا.

- إنني لا أريد أن يخرج من عائلة الزاغة فرد غير متدين.

- وهل تعتقد أنك بعملك هذا قد قومته؟ أراهن على أنه يشرب الآن أكثر مما كان يفعل هنا في أمريكا؟ قال عصام وأتبعها بضحكة ؛ ثم أضاف :

- ولماذا أصررت أن يسكن معك ولم تسمح له بالسكن لوحده؟

- لو سكن لوحده لجعل من بيته خمارة ومكاناً لاستقبال الساقطات !

لم يفتح راكان فمه هذه المرة، وإنما كان كالأبله يدير رأسه يمنة، كلما تكلم إبراهيم، ويديره يسرة، كلما تكلم عصام.

- لقد وعدته وهو بالوطن أن يعمل معك بمصنع المرطبات، في الظل داخل العمارة؛ ولكن عندما حضر إلى أمريكا جعلته يعمل صبيا عند نجار في الشمس خارج البناية! قال عصام.

وهنا شعر راكان بأن من واجبه أن يقول شيئا، ولكن شيئا لطيفا يصلّح الأمور ويخفف من حدة هذا النقاش الحاد المتوتر!

- لقد أعلمني حكمت أنه لم يستطع أن يصوم شهر رمضان وهو يعمل كصبي نجار تحت لهيب الشمس المحرقة في شهر أغسطس ودون أن يشرب ماء!

- وهل صدقت كلامي الآن؟ إنه لم يكن يصوم وإنما كان يتظاهر بالصيام! قال إبراهيم مخاطبا عصام ثم صوب عينيه باتجاه راكان وأضاف:

- ألم تقل له بأن أجدادنا كانوا يحاربون وهم صائمون تحت لهيب شمس الصيف المحرق في وسط الصحراء ،أيام الفتح الإسلامي؟!

- إن حرّ لوس أنجلوس لا يقل عن حر صحراء العرب أيام الصيف! لقد كان أجدادنا يجاهدون من أجل نشر كلمة الله، أما حكمت فما هو الجهاد الذي يقوم به؟ سأل عصام وأعقبها بضحكة!

- العمل تحت حرّ الشمس المحرقة ليكسب الإنسان قوته، هو جهاد كذلك ! قال راكان.

خرجت الكلمات من فمه دون أن يعي كيف خرجت. ولشدة عجبه أن جملته لاقت صدى في نفس إبراهيم.

- صدقت يا عزيزي، كله جهاد، وإن اختلفت أشكاله أو أسبابه. قال إبراهيم فرحا!

"وماذا عن الجهاد يا أخ إبراهيم في سبيل الحصول على قلوب العذارى والتمتع بأجسادهن؟! ألا تسمي هذا أيضا جهادا؟! لقد كان أجدادنا المسلمون يذهبون إلى الجهاد في سبيل الله ونشر كلمته، بينما كان جدنا عمر ابن أبي ربيعة يجاهد بين قبائل العرب للحصول على قلوب العذارى وأجسادهن؟! وجوليانا كانت تجاهد لتخلص روحي بأن أصبح مسيحيا، وتخلص جسدي من سعير الشبق الذي يأكله! قال راكان مخاطباً نفسه!"

- هل تعرف ماذا عمل معه مرة؟ قال عصام مخاطبا الضيف:

- لقد أعلمني بأنه سمع كثيرا عن فطور البيض ولحم الخنزير وكم هو لذيذ، وأن الأمريكان يفطرون كل يوم تقريبا بيضا ولحم خنزير، فذهبنا نحن الاثنين، هو وأنا، وطلبنا فطورًا، وبينما كنا في منتصف الأكل، لم نر إلا وإبراهيم يقف فوق رأسينا ويقلب الطاولة

عاليها سافلها، ويهجم علينا ويبدأ بضربنا. طبعا أنا لم أحرك ساكنا احتراما له لأنه أكبر مني ولأنني واثق أن ما يقوم به، وحسب اعتقاده، هو حماية لنا، ثم إنه صديقي. ولكنه أمسك بحكمت وصار يجره ليخرجه خارج المطعم. جاء صاحب المطعم يركض فهدده إبراهيم بأنه سوف يشكوه للبوليس لأنه يساعد على إفساد إنسان عن دينه! وضحك عصام وأضاف:

- تصور يضرب ابن أخيه، وهو أطول منه، لأنه أكل لحم الخنزير، ويهدد صاحب مطعم بالسجن لأنه قدمه لنا!

"وفر عليك يا عصام! لقد أعلمني حكمت هذه القصة وغيرها الكثير الكثير. إنني لا أريد أن يكرهك إبراهيم بانتقادك له."

- أنا واثق أن قصد إبراهيم شريف، إنه لشيء مسر للقلب ومسعد للروح، أن يكون للواحد منا من يهتم به ويسهر على راحته! قال محاولا أن يلطف الجو المشحون بالتوتر!

- وهل أعلمك متى سيعود إلى أمريكا؟؟ سأل إبراهيم.

- لا أظن أن سيعود في الوقت الحاضر. إنه يريد أن ينتظر بضع سنوات. على كل حال، لقد فقد حقه في تأشيرة الهجرة الآن، ولا بد من أن يبدأ معاملة من جديد، وهذا يأخذ عدة سنوات بسبب كثرة عدد الذين يرغبون في الهجرة! قال راكان.

- لعله ينتظر حتى يبلغ الثلاثين من عمره ، حتى تكون عنده الاستقلالية، فيستطيع أن يفطر لحم خنزير ويشرب كأسا من البيرة، دون أن ينال عقابا على الأرض من عمه إبراهيم ! قال عصام ساخراً ، ثم غمز للضيف بعينه !

ولكن إبراهيم تجاهل ما قاله عصام وسأل راكان

- وكيف الأهل بالوطن؟ !

- كلهم مسرورون ويبلغونك تحياتهم. لقد أعلمتني والدتك، على الهاتف، بأن إخوانك وأولادهم وبناتهم وهي طبعا، كلهم يبلغونك تحياتهم، ويتمنون لك السعادة والنجاح!

-أنا لا أعني أهلي ؛ أنا أعني عامة الناس ؛ فهل هم متدينون يصلون ويصومون ويدفعون الزكاة، أم أن ملاذّ الحياة ومتع الدنيا الزائلة قد ألهتهم عن دينهم؟!

نظر عصام إلى راكان وعلى شفتيه شبه ابتسامة. أما راكان فقد اعتراه شعور غريب لا يدري كنهه، هل هو شعور الشفقة على

إبراهيم، أم هو شعور الكراهية والاحتقار للمتعصبين دينيا والمتزمتين ؟! ثم تساءل، هل حقاً إبراهيم يؤمن بهذه التصرفات عن إيمان ، أم هي تدجيل على الناس وتضليل. ولشدة دهشته، وفرحته معا، وجد أن إبراهيم صادق في كل تصرفاته ويفعل ذلك عن إيمان وعقيدة !

- نعم، إنهم متدينون جدا! إنك ترى المساجد دائما *تغص* بالمصلين طيلة أوقات الصلوات الخمسة، أما أيام الجمع فالمساجد لا تتسع للمصلين، فترى الناس يصلون على الأرصفة!

- عظيم جدا! قال إبراهيم بفرح يشبه فرح الأطفال.

- وهل يصومون؟!

- إن معظمهم *يدعي* ذلك، والله أعلم! ثم استدرك:

- طبعا، طبعا! إن ساعة إطلاق مدفع الإفطار تجد الشوارع خالية تماما والناس في بيوتهم يتناولون فطورهم!

- شكرا يا عزيزي! لقد أفرحت قلبي، إن هذه إخبار مفرحة. وبعد أن مصمص شفتيه أضاف:

- لعلهم بدأوا يرون النور ويتحققون من أن يوم الحشر آت لا ريب فيه، وأنهم يجب أن يبدأوا بمزاولة واجباتهم الدينية قبل فوات الأوان! قال عصام.

هز راكان رأسه علامة الموافقة، والتقت عيناه بعيني عصام فتبادلا ابتسامة ذات معنى!

أوقف عصام السيارة وفتح بابها وقفز منها وبقي ممسكا بالب

- دعونا من حديث الدين الآن! ثم نظر إلى ساعته وأضاف:

- إن الساعة الآن الثامنة والنصف وخمس دقائق، وأنا أكاد أموت جوعا.

*****

بعد أن نزل القادم الجديد وأغلق عصام الباب خلفه، توجه إلى مؤخرة السيارة وفتح بابها، وبمساعدة من إبراهيم، أنزل عصام الصندوق الكبير، صندوق إبراهيم، وترك حقائب راكان بالسيارة. دخل ثلاثتهم المطبخ وبدأ إبراهيم وعصام يحضران الفطور ، بعد أن أشار إبراهيم إلى راكان أن يجلس على أحد كراسي طاولة الطعام.

- نسيت أن أسألك! هل صلّيت الصبح؟! سأل إبراهيم ضيفه فجأة.

- أين صليت؟! في محطة الحافلات أو وسط الحافلة نفسها؟!
أجاب راكان بعصبية!

- إنني آسف أن أقول لك يا أخ إبراهيم، بأنني ومنذ أن ركبت الحافلة في مدينة نيويورك، قبل حوالي خمسة أيام، لم أركع ركعة واحدة! كان من الصعب عليّ؛ بل من المستحيل، أن أفعل ذلك! قال الفتى وهو يتصنع الأسف والخجل معا.

- ما وجه الصعوبة في ذلك؟ سأل إبراهيم باستغراب، ثم أضاف!

- لقد طلبنا مرارا وتكرارا إلى سائق الحافلة، ونحن نسافر بين عمان والقدس ،أو بين عمان ودمشق، أن يوقف الحافلة، عندما يحين موعد الصلاة، فنصلي جماعة، ثم نتابع سيرنا!

- هذا في الوطن ، ولكن ليس في أمريكا ! قال راكان وهو يكاد ينفلق غيظا وقهراً.

وصلت إلى أذني الفتى قهقهة كأنها انهيار جبل من الصخور، فقد كان عصام يحاول أن يقول شيئا ، ولكنه لم يستطع لشدة استغراقه بالضحك، وأخيراً أسرع راكضا خارج البيت!

- على ماذا يضحك عصام يا ترى ؟! سأل إبراهيم بسذاجة وطيبة قلب !

لا شك إن إبراهيم، سامحه الله، لم يكن مدركاً من الضحك وراكان يكاد ينفجر من الغيظ لهذه الأفكار الغريبة!

"اللعنة، اللعنة، المتعصبون دينيا يطاردونني في كل مكان ! أحمد الموسى ومنصور العايش، وحسين المصطفى في الوطن، وجوليانا في الحافلة، وإبراهيم في البيت! ماذا فعلت يا رب حتى ترسل لي كل هؤلاء المتزمتين، والذين لا يعرفون من الدين إلا قشوره؟!" سأل راكان نفسه!

"اسمع يا راكان ! إذا أردت أن يحبك عمي إبراهيم ويحترمك ويساعدك في كل ما تحتاج إليه: فقل له أنك تصلي وتصوم. قل له أنك تصلي سبعة أوقات في اليوم بدلا من خمسة، وأنك تصوم ليس فقط رمضان، وإنما تصوم كذلك العشرة أيام الأولى من شهر شوال، وكذلك تصوم كل يوم اثنين وخميس من كل شهر، وكذلك كل الأيام المقدسة !" قال حكمت لراكان قبل أن يغادر إلى أمريكا !

- وتصديقا لكلامك يا أخ إبراهيم، لقد طلب إلينا الخالق، سبحانه وتعالى، أن نصلي عندما يحين موعد الصلاة، حتى ولو كنا راكبين علّى ظهر دابتنا ! قال راكان بحماس مصطنع !
- لقد ذكر لي حكمت برسالته ، أنك متدين جدا وأنك تصلي سبعة أوقات في اليوم بدلا من خمسة ، وتصوم ما مجموعه شهرا آخر غير شهر رمضان الفضيل! قال إبراهيم بفخر واعتزاز!
"سوّد الله وجهك يا حكمت. لقد فعلتها وكتبت إليه! لقد أجبتك مازحا بأن تكتب لإبراهيم ذلك عندما سألتني إن كنت أمانع في أن تكتب إليه بذلك." قال راكان لنفسه!
- هذا صحيح ! قال راكان وقد باغتته المفاجأة ! ثم أضاف:
- لقد تعلمت هذه العادة من والدتي! أطال الله في عمرها.
- ومتى تصلي المرتين الإضافيتين؟ سأل إبراهيم باهتمام!
- إحداهما ضحى ، والثانية تهجد، قيام الليل !
- عظيم جدا ! هنيئا لك بالجنة وهنيئا للجنة بك ! قالها إبراهيم بفرحة صادقة ! قال ذلك وحمل فناجين الشاي وصحون الحمص والبيض والجبنة ووضعها على الطاولة في المطبخ !
- إنك إنسان مثالي يا سيد راكان ! لقد كنت أعتقد أنني سبقت كثيرا من المسلمين في العبادة، ولكن يظهر لي أنك سبقتني ! قال إبراهيم بتواضع !
- العفو يا سيد إبراهيم ! وهنا شعر الفتى باحتقار شديد لنفسه لهذا الكذب !
دخل عصام وصار يساعد إبراهيم في ترتيب الطاولة وكأن شيئا لم يحدث، ثم انخرط بعدها ثلاثتهم يتناولون وجبتهم ويجيبون على أسئلة راكان التي كانت كلها تدور حول الطعام، فأعلموه أن كل ما هو موجود بالوطن يستطيع أن يجده الإنسان هنا!
- تعال معي لأريك أين سوف تتوضأ وأين تصلي! قال إبراهيم لراكان حالما انتهوا ثلاثتهم من تناول وجبة الإفطار!
- إن الوقت مبكر لصلاة الضحى! قال راكان.
- أنا أعرف ذلك! أنا أعني صلاة الصبح.
- ولكن الشمس مشرقة، والوقت الآن متأخر والصلاة غير مقبولة. قال الفتى محاولا أن يتهرب من أداء هذا الواجب !
- لا بأس! إن الله يعرف أنك كنت في سفر، وهو سيسامحك !

- إنني لا أحب إزعاجكم، لقد كنت عازما أن أصلي كل ما فاتني في بيت كفيلتي.
- إنك لن تزعجنا، بل على العكس من ذلك، سننال ثواباً وأجراً من عند الله. ثم نهض وأشار بإصبعه للشاب أن يتبعه. وهنا تقابلت عينا راكان بعيني عصام، فهز الأخير كتفيه علامة الحيرة والاستغراب !
- يجب أن أستحم قبل أداء الصلاة، فهل لك أن تعيرني منشفة كبيرة بدلا من هذه الصغيرة؟! سأل راكان إبراهيم وهو يعيد إليه المنشفة التي كان قد أعطاها له. وأشار إلى منشفة لونها أخضر معلقة على مسمار في الحمام.
- عندما تكون مستعداً للصلاة، صل في غرفة نوم عصام، لأنها أكبر! قال هذا، وأشار إلى غرفة تقع على يمين الحمام.
- سأضع لك سجادة الصلاة. قال ذلك وانصرف، ولكنه عاد في الحال!
– خذ وقتك، واقض كل ما فاتك من فرائض منذ غادرت نيويورك !
- شكرا لك يا أخ إبراهيم ! جزاك الله عني خيرا! إنك مثال المسلم الملتزم ! قالها راكان وقد شعر بأن تصرفات إبراهيم نحوه، بخصوص الدين، قد حركت مشاعره، وأثارت ذكرياته، وجعلته يحن إلى الأيام التي كان لا يقطع بها فرضا، ويصلي جميع الفروض في أوقاتها!
- تذكر أننا سنتحرك من هنا إلى بيت كفيلتك في الساعة الحادية عشرة، أي بعد حوالي ساعتين من الآن، إن شاء الله !
- سأكون جاهزا، إن شاء الله. قال راكان وموجة عارمة من الفرح تملأ إهابه !

كان البيت صغيرً ا وبه ثلاث غرف نوم، احتلت صاحبة البيت أكبر الغرف، واحتل عصام الغرفة التي تليها بالحجم، وأخذ إبراهيم الصغرى، ولعلها كانت أرخصهن أجرًا ! ويشترك إبراهيم وعصام باستخدام المطبخ والحمام وغرفة الجلوس، وكما فهم راكان، فإن لصاحبة البيت مطبخاً صغيراً مستقلاً وكذلك حمام، وبابها مستقل.

كانت غرفة إبراهيم ضيقة جدا، وبها سرير صغير وخزانة وطاولة وكرسي ملأت فراغ تلك الغرفة، فقد كان من الصعب جدا أن

يجد المصلي مكانا يفرد به سجادة الصلاة! كانت الحيطان مزدانة بأنواع مختلفة من الصور: بعضها لإبراهيم وهو بكامل ملابسه ومعه بعض الرجال والنساء، وأخرى لإبراهيم بملابس السباحة ومعه نساء بملابس السباحة أيضا، وهناك صور لنساء شبه عاريات معظمهن ممثلات سينما أو عارضات أزياء.

حلق راكان ذقنه، واستحم، ثم دخل غرفة عصام وأغلق الباب خلفه. كانت غرفة نظيفة ومرتبة وكان بها بيانو. فرش سجادة الصلاة فوق سجادة الغرفة، واستعار مخدة من على فراش عصام، وألقى بنفسه على الأرض، فقد كان مرهقا خائر العزيمة، منهك القوى من عناء السفر عامة، ومن الليلة السابقة خاصة، إذ ما كان ليضع رأسه على الوسادة حتى راح في سبات عميق!

نهض النائم مذعورا على تخبيط متواصل على الباب، وعندما فتح ، سأله إبراهيم باهتمام زائد:

- ألم تصل كل ما فاتك من فروض بعد ؟!

- كنت أصلي آخر ركعة عندما بدأت تقرع الباب! قال الضيف كاذباً.

- لا شك أنك تشعر الآن بالسعادة والرضا وراحة الضمير، بعد أن أديت كل ما فاتك من فروض ! قال إبراهيم باهتمام وبسمة كبيرة تغطي وجهه !

- أشعر الآن بسعادة لا توصف، الشكر لله ولك! قال ذلك وهو يناوله سجادة الصلاة.

- هل حان وقت ذهابنا؟

- نعم، وعصام بالسيارة ينتظرنا.

- إذن، فلنتحرك على بركة الله.

خرجا، وأغلق إبراهيم الباب الخارجي، وفتح باب السيارة للضيف فجلس بجانب السائق في الوسط، وجلس هو إلى جانبه، وانطلقوا ثلاثتهم بالسيارة إلى مدينة آركاديا، حيث بيت كفيلته!

*****

الفصل الرابع

لا... لا... لا... إنك لست بالحالم! إنك مستيقظ وإنك في وضح النهار! إنك الآن في "آركاديا "، إحدى مدن ولاية كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية! نعم، في آركاديا نفسها ! هكذا تقول اليافطة المزروعة هناك عند أول مدخل المدينة: مرحبا بك في آركاديا.

إن آركاديا ترحب بك؛ كما ترحب بابن غاب عنها طيلة مدة الحرب، وعاد إليها بعد الانتصار !

لقد انتظرت سنتين كاملتين ! لقد كنت في جبهة الحرب، فتعذبت وقاسيت طويلا... لم يتعذب الجنود ويقاسون أكثر مما تعذبت وقاسيت ! لقد كانت حربك حرب استنزاف! استنزفت بها كل طاقاتك وصبرك وأعصابك...! لقد تسرب اليأس إلى قلبك مراراً.. بل كان يتسرب إليك في كل يوم، ثم يعاودك الأمل من جديد في اليوم التالي ! لقد أمضيت أياما وليالي طويلة تتمزق وتحترق ! ناقماً على حياتك، وثائراً على وجودك ، وكارها لآدميتك ! سنتين قضيتهما في مد وجزر، وكر وفر، تأمل يوماً وتيأس أيامًا، تفرح مرة وتحزن مرات ومرات، تهدأ مرة وتثور عشرات المرات...!

كنت كثور الساقية تدور وتدور وتدور، ولا تدري من أين بدأت وإلى أين ستنتهي! كانت تكتب لك مرة أن الكفالة ستصلك في أقل من شهر ، فتستعد للحضور إلى أمريكا، وبعد يومين اثنين تصلك رسالة أخرى تعلمك فيها بأن لا أمل في الحصول على كفالة؛ ثم بعد أسبوع أو أكثر أو أقل، تصلك رسالة تقول لك إن الكفالة ستصل في الرسالة القادمة!

كنت أنت كميزان الحرارة في فصل الشتاء، ترتفع درجة حرارتك أحيانا حتى ترى الشمس الدافئة الجميلة تحيط بك، وتنزل درجة حرارتك في كثير من الأحيان حتى ترى الجليد يلف قلبك وعواطفك وأحاسيسك !

سنتان في قلق مستمر وتوتر أعصاب، ولم يبق بينك وبين أن تنهار وتفقد عقلك سوى خيط رفيع جدا. كنت تعيش في قهر وإحباط وتمزق؛ فلم يبق منك سوى الجلد والعظم، حتى ظن أهلك أن الذي أوصلك إلى هذه الدرجة المخيفة هو حبك لفتاة لا تستطيع أن تصل إليها ...ولم يدروا أن فتاتك كانت هي مدينة آركاديا، في كاليفورنيا،

حيث السعادة الدائمة والنعيم المقيم...! نعم، إنك الآن في آركاديا؛ إنك والله لا تحلم !

انظر إلى يمينك وشمالك، ما أجملها من مدينة...! إنها غابة من الأشجار الجميلة، وإن الأشجار والورود والأزهار تحف بالشوارع وتملأ حدائق البيوت ! إن البيوت ليست مصنوعة من الإسمنت والطوب والخشب، إنها مص نوعة من الورود والزهور والرياحين !

يا الله ! أنا لم أر في حياتي مثل هذا الجمال، حتى ولا في السينما ولا في صور المجلات! إنك لا ترى إلا جزءً يسيراً من البيت... إنك ترى الأشجار والحشائش والأعشاب والورود والزهور، فوقه وتحته وتحيط به من كل جانب ! لا شك أن هذه المدينة هي جزء من جنة الأرض، فيا إلهي كيف تكون جنة السماء ! لا شك أن هذه هي الجنة التي وعد الله بها عباده المؤمنين على الأرض! إنك مؤمن، وهذه هي جنتك على الأرض منذ اليوم !

انظر ما أنظف الشوارع ! إنها أنظف من بيوت كثيرة في الوطن، عليك أن تخلع حذاءك حتى لا تدنس الشوارع النظيفة. آه ما هذا ؟ فتاتان طويلتان كعمودين من نور، شعورهما مرسلة على كتفيهما كأنهما كنوز الملك سليمان، ويلبسان ، والله والله ، مايوهات السباحة ذات القطعتين، وليس على جسميهما أكثر مما كان على جسم أمنا حواء عندما قابلها أبونا آدم ... فقط ورقة التوت ! آه ! لقد أقبلتا لاستقبالي من الجهة الثانية من الرصيف، و لكن عصاماً سامحه الله، إذ لعله لم يلاحظهما، طلب إلي أن أنظر إلى جهة اليمين لأشاهد بيتا تقف أمامه أربع سيارات جميعها من أجود الصناعات وأجددها! لا شك أن هاتين الفتاتين أتيتا لترحبا بي، فهما تعرفان كم أنا تواق إليهما، مدنف بحب هذا النوع من الجمال، متيم بما وراء أوراق التوت وتحتها !

آه لقد بدأت الذئاب الجائعة تعوي في داخلي، والكلاب المسعورة تريد أن تقطع جنازير الحديد المربوطة بها والتي تقيد حريتها، والطبول القارعة تصك الآذان، وأنا على وشك أن يفلت زمامي فأنطلق بشوارع آركاديا أصرخ وأستغيث، إنني أنسحق جوعا، فيا من عندها أكل دسم يشبع جوع السنين !

يا حبيبتي! يا آركاديا! إنني أعرف أشجارك شجرة شجرة، وأعرف شوارعك شارعا شارعا، وأعرف كم أهلك يحبون الورود

والزهور. وأعرف كل أصنافها وأنواعها! أعرف من كثرة ما قرأت وصفا لها في السنتين الماضيتين.

كنت أستلم بمعدل رسالة أسبوعيا وأحيانا أكثر، حتى تجمع منها عندي صندوق كبير! إنك الآن في آركاديا، وآركاديا هي جزء من أمريكا، إنك الآن في بلد الخيرات والوفرة، بلد النعيم والنعمة، بلد السعادة والرفاهية، بلد الترف والبذخ...! بلد الحرية والديمقراطية. بلد الإخاء والمساواة والعدل أيضا... البلد المثالي التي أرادها أفلاطون لجمهوريته !

لقد صبرت فنلت، فافرح، فليس بعد اليوم عذاب ولا معاناة... وليس بعد اليوم قلق ولا إحباط ، وليس بعد اليوم تمزق ولا يأس ! لقد انتهى زمن المعاناة وذهب إلى غير رجعة، لقد تركتها كلها هناك وراءك في الوطن.

إن بينك وبين الوطن عشرة آلاف ميل أو تزيد... لا قهر ولا إحباط ولا تمزق بعد اليوم... لا جوع ولا مسغبة ولا حرمان بعد الآن... فعش حياتك الجديدة هانئا سعيدا... متع روحك وقلبك وعقلك وكذلك متع جسدك... إياك أن تذكر عذاباتك بعد اليوم... أُمحها من ذاكرتك! إنك ستراها بعد دقائق قليلة... ستراها بعينيك هاتين... ستراها في الحقيقة بلحمها ودمها وليس في الصورة على الورق، وستسمع بأذنيك صوتها... وسترى الأشجار والورود والزهور المحيطة بالبيت... سترى الجنينة كلها، وستقارن بين ما وصفته لك في رسائلها وبين الحقيقة !

سترى بعد دقائق قليلة، تلك المرأة الطيبة... الصابرة... المؤمنة، والتي أمضت من عمرها ، عامين كاملين ، وهي تتعذب وتتمزق ربما عذابا وتمزقا لا يقلان عن عذابك وتمزقك، حتى أمّنت لك الحضور إلى أمريكا!

- نحن الآن في شارع آركاديا، كم رقم البيت؟!

- قلت لك أننا الآن في شارع آركاديا، كم رقم البيت؟! صاح إبراهيم براكان وهزه من كتفه، عندما لاحظ أنه غارق في تفكير عميق... عميق...!

- هل تتكلم معي؟ سأل الشاب المخدّر ؟!

- نعم؛ قل لي كم الرقم !

- 914! نطق راكان الرقم بخشوع وتهيب كأنما يلفظ اسمًا مقدساً... رقماً حبيباً إلى قلبه، قريباً إلى روحه... رقماً كتبه عشرات المرات...! وفجأة بدأ قلبه يخفق خفقاناً عالياً، حتى خيل إليه أنه من حلقه ! إنه خفقان الفرح ممزوج بالرغبة والخوف معا!

- تقاطع شارعين أمامنا. إن البيت يقع على اليمين. قال عصام.

- ليتك تتوقف يا عصام قليلاً ، إذ أخشى أن يتوقف قلبي من شدة الخوف والشوق معاً ، إذ أنني أشعر كأنما يكاد يهرب من مكانه!

كان إبراهيم يتابع أرقام البيوت على يمينه، عندما صاح فجأة:

- هذا هو البيت. الرقم مكتوب على صندوق البريد! وأشار بيده إلى البيت الذي يحمل الرقم 914، ثم أضاف:

- أدخل السيارة في مدخل البيت!

- إنه بيت راكان! والشارع هادئ جدا! قال عصام وهو يحرف السيارة إلى اليمين ويدخل البوابة.

همّ راكان أن يقول شيئا، ولكن لسانه لم يسعفه ! لقد كان يرتجف كالطير الذبيح!

"إن البيت كما وصفته لك في رسائلها، وكالصور التي أرسلتها لك...! إنه جنة على الأرض. إن الأشجار مزروعة بطريقة رائعة، والأزهار والورود منسقة بطريقة فنية مذهلة! حقا إنها حديقة غناء! قال الفتى مخاطباً نفسه!"

وقفت السيارة أمام البيت، وفتح باب المنخل، وخرجت منه امرأة بيضاء الشعر، قصيرة القامة، مملوءة الجسم، حلوة الوجه والتقاطيع، تتدحرج كأنها دجاجة سمينة، تركض لتساعد أحد أفراخها بعد أن طوقت رجليه كبة من شعر امرأة ملقاة بالشارع!

نزل إبراهيم وعصام على عجل، وقابلا المرأة في منتصف الطريق، وظل راكان جالسا في مقعده مخدراً يحدق بالمرأة من بعيد ويتساءل في سره إن كان ما يراه هو حلماً أم حقيقة، لكثرة ما تصور ولطول ما حلم خلال السنتين الماضيتين!

- السيدة هييز؟! أليس كذلك؟! وصل صوت إبراهيم إلى راكان قوياًَ نشطاً! قالت المرأة وهي تمد يدها إليه وتحملق بعصام الواقف إلى جانبه!

- إن هذا ليس راكان! راكان أطول من هذا وأضخم وأكثر وسامة! وقبل أن تسمع جوابه تطلعت نحو السيارة، ثم جعلت من يدها اليسرى مظلة تحجب بها لمعان زجاج السيارة الذي ضخمته حرارة الشمس وحجبت ما بداخلها!

-هذا صديقي عصام. إن راكان بالسيارة! قال إبراهيم بسرعة.

- وهل هو مريض؟! سألت المرأة بلهفة وقلق، ثم انطلقت مسرعة نحو السيارة، تاركة عصام مادًّا يده بالهواء.

- لا، لا! قال إبراهيم وهو يلحق بالمرأة:

- إنه بخير! لا تنزعجي! ثم بصوت أعلى:

- لم لا تنزل من السيارة يا راكان، وتسلم على السيدة هييز؟!

ونزل راكان، وكانت كل ذرة في جسمه ترتجف وتهتز، وكانت ساقاه تتأرجحان تحته ولا تقويان على حمله، وبيد واهنة مرتجفة، مد يده أمامه، ولكن العجوز قفزت إلى أعلى كبنت السادسة عشر وليس السابعة والستين، وألقت يديها حول عنقه، فأناخ هو إلى الإمام ليتساوى طوله مع قصرها، وانهالت عليه ضماً وعناقاً وتقبيلاً، بشوق محموم مجنون، وصارت تقبله على وجهه وعنقه وخديه وشعره وكتفه، وعلى كل مكان تستطيع أن تصل إليه شفتاها! وأحس القادم المنهك عاطفياً أن قبلاتها كانت تبللها الدموع!

لقد تجمّد الفتى في مكانه كالتمثال، لا يبدي حراكاً، تاركاً للعجوز أن تفعل به ما تشاء، بينما العرق يتصبب من جسمه بغزارة مخيفة، لم يعهدها هو نفسه من قبل! ثم فجأة تنبه إلى الرجلين الذين كانا يقفان غير بعيدين عنه وهما يتبادلان الابتسامات ويتغامزان، فشعر بخجل شديد ضاعف من نزول عرقه !

كان إبراهيم وعصام يقفان تحت ظل شجرة كبيرة وضخمة ذات ظلال وارفة، بينما كان هو والعجوز يقفان تحت شمس أغسطس الحارقة!

- إنني لا أستطيع أن أصدق عيني ! قالت المرأة مخاطبة نفسها وبصوت عال سمعه الرجال الثلاثة.

- نعم، نعم، إنني لا أستطيع! إنك الآن أمامي بدمك ولحمك! نعم إنني لا أستطيع أن أصدق عيني!

ثم أبعدته عنها قليلا وصارت تحملق به ثانية، ثم عادت وعانقته وانهالت عليه تقبيلاً من جديد. ثم امتزجت دموعها مع عرقه،

وهنا أحسّ الفتى بأن نرفزته قد ازدادت، وأن خجله قد تضاعف، عندما لاحظ أن إبراهيم وعصام قد استغرقا في ضحك وغمز وهمس!!

- لقد انتظرت حتى يئست من طول الانتظار! لقد صليت حتى كدت لا أؤمن بالصلاة بعد ذلك ! ولقد دعوت الله ليل نهار حتى صرت أظن أنه لا يريد أن يستجيب لدعائي! ثم فجأة كفت عن تقبيله، وتراجعت إلى الوراء. فرأى العجوز تنهنه كطفل صغير، فأحسّ أن دمه يحترق شفقة عليها وتأثراً واعتراه اشمئزاز من نفسه من جراء خجله أمام صاحبيه. ثم بدأت تتحسسه كأنما لتتأكد من أن ما تراه حقيقة وليس حلماً!

- هل لنا أن ندخل إلى البيت؟! قال راكان ذلك وهو يمسح بمنديله القماشي عرقه المتصبب الذي كان كأنه سيل متدفق؛ ثم أضاف:

- إن الجو حار جداً! قال هامساً وبخجل.

- نعم يا عزيزي! إنه حرٌّ مخيف! وكفت عن عناقه.

- أعذرني! لقد أنساني فرحي حرارة الطقس! قالت ذلك وقادته من يديه وسارت به باتجاه الباب.

-هذا صديقي عصام! قال إبراهيم.

- اعذروني يا أولادي. قالت وهي تمد يدها لمصافحة عصام:

- كيف حالك يا بني؟! كم أنا سعيدة أن أرى راكان، وأن أرى أن له أصدقاء من وطنه، ثم التفتت إلى مكفولها وقالت:

- إنك لم تعلمني أن لك أصدقاء هنا!

- لقد تعارفنا هذا اليوم فقط! أعني لقد تقابلنا اليوم فقط، خلال ابن أخي في الوطن، وهو صديق حميم لراكان! قال إبراهيم.

- نعم يا أعزائي، دعونا ندخل. لقد أنساني فرحي أنك متعب ومرهق. إنك ترتجف وكأننا في عز البرد! قالت ثم تحسست كتفيه وأضافت:

- إنك نحيف جدا. لا تنزعج! سأسمّنك! وأمسكت بيده وقادته إلى جانبها وتبعهما إبراهيم وعصام إلى داخل البيت.

- تكلّم، دعني أسمع صوتك! لقد سمعت صوتك بعيني على الورق ومن رسائلك، ولكنني لم أسمعه بأذني. قالت وقد أجلسته على كنبة طويلة وجلست ملاصقة له، بينما جلس إبراهيم على كنبة صغيرة قبالتهما، وجلس عصام محاذياً له على كرسي من الخشب.

وبطريقة عفوية، أزاح راكان جسمه بعيدا عنها، ولكنها قربت جسمها منه، فتبادل إبراهيم وعصام بعض النظرات وتغامزا، مما زاد من إحراج الفتى ومن تساقط عرقه!

- أبانا الذي في السماوات والأرض فليمجد اسمك! قالت بخشوع وورع، وهي تنظر إلى صورة المسيح المعلقة فوق الحائط إلى شمالها؛ قالت هذا ورسمت إشارة الصليب على صدرها! ثم أضافت:

- أبانا الحي الذي لا يموت! إنني أشكرك أن أحضرت إليّ راكان بعد طول انتظار... سنتين كاملتين... إنني أمجد اسمك العظيم! ثم التفتت إلى إبراهيم وعصام وقالت:

- لقد ركعت أمام صورته وصليت وبكيت ساعات وساعات، طالبة إليه أن يحضر راكان إليّ ! وقبلت رؤوس أصابع يديها وهي تنظر نحو الصورة، ثم رمت أصابع يديها في الهواء كأنما ترسلها له وأضافت:

- لقد استجاب لدعائي وصلواتي، فشكراً له! ثم أحاطت يدها حول خصر راكان وقربته إليها، ونظرت إليه نظرة كلها حب ووله! ثم حولت نظراتها إلى إبراهيم وعصام وسألت:

– كم صار لكما في أمريكا؟

- أنا صار لي ست سنوات، أما عصام فصار له أربع سنوات.

-هل أنتما طالبان أم تعملان؟!

- كلاهما، أجابا بصوت واحد.

- إن عصام صديقي يعمل خلال عطلة الصيف والعطل المدرسية الأخرى فقط، أما أنا فقد كنت أعمل ليلاً وأدرس نهاراً ! وابتسم ابتسامة كبيرة لاحظ راكان لأول مرة أن فم إبراهيم أكبر كثيرا من أفواه الأشخاص الآخرين، كما لاحظ أن ابتسامته قد غطت معظم أجزاء وجهه، حتى خيل له وكأن وجه إبراهيم قد ابتلعه فمه!

- ولكنني تخرجت الشهر الماضي، إدارة أعمال!

- يا للروعة! ولكن أليس هذا صعبا؟! قالت العجوز.

- إنه ليس سهلاً! قال إبراهيم وقد عادت شفتاه إلى مكانيهما.

- ولكن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يجب أن يسلكها الواحد منا إذا أراد أن يواصل دراسته.

- إن أي مبلغ يرسله لنا أهلنا من الوطن لا يكفي، فكيف وهم لا يستطيعون إرسال شيء! قال عصام.

- لهذا السبب فقد استغرقت الدراسة ست سنوات بدلا من أربعة، مع أنني كنت آخذ دائما بعض المساقات في فصل الصيف. قال إبراهيم.

لقد أعلم حكمت صديقه راكان، أن والدة إبراهيم غنية غناء فاحشا، وأن عندها نقوداً لا تأكلها النيران، وأن لا حاجة لابنها أن يعمل أثناء دراسته الجامعية، ولكن بسبب حبه الشديد لجمع النقود وكنزهما، فهو يدرس ويعمل !

- وماذا تعمل؟ !

- أعمل في شركة لصنع المرطبات.

- يا لك من محظوظ!

- هل تعرفين يا سيدة هييز، أنني عندما أتيت من الوطن قبل ست سنوات، عينوني حارساً ليليا للشركة التي أعمل بها الآن، ثم نقلوني مسئولا عن مستودع العبوات الفارغة، وفي العام الماضي عينوني مفتشا لأتأكد من صفاء ونقاوة ما في قوارير الشراب! قالها إبراهيم بفخر.

وهم راكان أن يفتح فمه ليسأل إبراهيم عن الراتب، كعادة أهل الوطن، ولكن إبراهيم كان قد سبقه في الكلام!

- لقد صنعت نفسي بنفسي! لم يساعدني أحد سوى صديق عاد إلى الوطن خلال عامين، ساعدني بالحصول على قبول في الجامعة، واستقبلني أيضا في المطار عند حضوري! ثم تركني أكافح وحدي!

لقد أعلمني صديقي حكمت ، بأن السيد إبراهيم يهتم بكل من يأتي من الوطن مهاجرًا أو طالباًً، يستقبلهم بالمطار ويؤمن لهم سكناً ويساعدهم بإيجاد عمل أيضاً!

- هذا واجبنا في الغربة! ساعدنا من أتى قبلنا، ونساعد نحن من يأتي بعدنا!

ابتسم راكان وشعر بأنه يجب أن يتشارك بالحديث ولا يبقى صامتا!

– لقد ذكرتني يا أخ إبراهيم بقصة الشيخ الذي مر عليه أحدهم وهو يغرس أشجار زيتون، فسأله: وهل تعتقد يا شيخ أنك سوف تعيش حتى تأكل من ثمرها ؟! فأجاب الرجل بحكمة وتواضع: لقد غرس آباؤنا فأكلنا، ونغرس نحن، فيأكل أبناؤنا.

- هذا هو المسلم الحقيقي! قال إبراهيم بحماس.

- وهكذا علمنا السيد المسيح! قالت السيدة هييز.
- أظن هكذا تقول كل الأديان السماوية وغير السماوية! المهم التطبيق. قال راكان.
- صدقت يا راكان. قال عصام بحماس.
- اسمحي لنا يا سيدة هييز. قال إبراهيم وهو ينهض، وقد نهض لنهوضه عصام.
- يجب أن أكون في عملي الساعة الثالثة. إن راكان وأنا محظوظان جداً أن يكون لنا صديق مثل عصام ! وتطلع إلى عصام وابتسم، ثم أضاف:
– لقد بعت سيارتي الأسبوع الماضي، وأنا الآن في سبيل البحث عن سيارة أشتريها. وصديقي عصام هو الذي يأخذني ويحضرني من وإلى العمل، وإلا لما استطعت جلب راكان من محطة الحافلات.
- لقد كنت أعتقد أنكما ستمكثان للعشاء. قالت السيدة هييز متمتمة.
- في المرة القادمة إن شاء الله. سيكون عندي سيارة وسأحضر أنا وعصام وسنتعشى عندك!
وكانت السيدة هييز وراكان قد نهضا واقفين.
- دعني أنزل حقائبي! قال الفتى وهو يتوجه نحو باب البيت.
- لا، نحن سننزلها لك. قال عصام وهو يشير بيده إلى راكان أن يعود إلى مقعده، ثم أضاف:
- أنت متعب وتحتاج لأيام عديدة للراحة حتى يعود لك نشاطك!
أصر راكان، وخرج أربعتهم، وبعد أن تساعدوا على إنزال الحقائب استمهلتهم السيدة هييز، وغابت داخل غرفة نومها ثم عادت تحمل بعض النقود ناولتها إلى عصام!
- يجب أن تأخذها ثمنا للبنزين.
وبلا شعور، خبأ راكان وجهه بيده، وتمنى لو أن الأرض تفتح تحت قدميه ليختبأ بها. وعلت جسمه من جديد موجة من العرق الساخن اللزج!
- لا يمكن يا سيدة هييز! قال عصام وهو يدفع بيده إلى الوراء يدها الممدودة نحوه.

- نحن الذين يجب أن نشكرك لكل ما قمت به نحو راكان.
- إن ما فعلته من أجله لا يفعله إلا والد أو أخ؛ صدقيني! قال إبراهيم ذلك، والتفت إلى راكان وقال له بالعربية:
- لا تخجل من تقديمها الفلوس! هذا شيء عادي وطبيعي جدا هنا في أمريكا! معظم عاداتنا وقيمنا في الوطن مجموعة سخافات هنا!
ارتاحت نفس الشاب كثيرا وفارقه بعضٌ من خجله، فشد على يدي إبراهيم وعصام شاكراً لهما مساعدتهما له، وكذلك فعلت معهما السيدة هييز!
- أرجوكِ يا سيدة هييز أن لا تنسى بأن راكان مؤمن، لا يأكل لحم الخنزير فلا تطعميه له! ثم التفت إلى راكان وقال له، وكان قد جلس إلى جانب عصام بالسيارة:
- أرفض أن تأكل لحم الخنزير إن قدمته لك، ثم حافظ على واجباتك الدينية. إن صلاة الصبح، موعدها بعد الساعة الخامسة بدقائق قليلة ... أريدك أن تصليها حاضراً!لا تصلِّها قضاء، كما يفعل بعض أخواننا الكسالى! ثم صلِّ جميع الفروض في أوقاتها! إياك أن تؤجل فرضا واحداً! قالها إبراهيم بلهجة الآمر الناهي!
- لا تقلق عليه، دعه يتعامل مع قضاياه بنفسه! إنه ليس طفلاً! قال عصام شبه مغتاظ!
- لا تقلق يا أخ إبراهيم، سأكون عند حسن ظنك، إن شاء الله! قال راكان وقد تذكر جوليانا وعظاتها له؛ ثم تساءل عن سر هذا التزمت الديني الذي يحمله بعض المتدينين في نفوسهم؛ فهل هو ينفع الدين أو يسيء إليه؟! أليس الدين الحقيقي هو حسن معاملة الإنسان لأخيه الإنسان، وكذلك احترامه لآراء الآخرين ومعتقداتهم؟ !

*****

ما كادت السيدة هييز ومكفولها يدخلان الباب بعد توديع إبراهيم وعصام، حتى وقفت المرأة مذهولة من جديد، وصارت تنظر إلى راكان وتتأمله كأنما هي فنان يتأمل لوحة فنية، قد انتهى لتوه من رسمها؛ ولكن راكان غض من بصره خجلاً، وصار ينظر إلى الأرض كأنما هو فتاة غرّة يتغزل شاب بمحاسنها!
- إنك هنا الآن، في بيتي، وأمام عيني! قالت المرأة هذا وفتحت يديها تعجباً!

- إنني أشعر الآن أنني أقوى من أي مخلوق على هذه الأرض! إنني أستطيع الآن أن أهز السماء وأحرك الكون! إنني الآن أقوى مما كنت عليه وأنا ابنة العشرين... إنني أحس أنني أقوى من شمشون الجبار! قالت هذا وشدّت على قبضتي يديها ورفعتهما إلى أعلى، وهي تهزهما بالهواء!

كانت العجوز تتكلم وقد فلت لسانها، وفقدت السيطرة على أعصابها، وتتصرف كطفل محروم أعطي فجأة لعبة وحلوى وملابس وأشياء كثيرة ، طالما حلم بالحصول عليها!

– لقد تحققت الآن كل آمالي وأحلامي! هذا ما طلبته من منقذنا ومخلصنا السيد المسيح، قلت له: أحضر لي راكان، وأنا لا أريد منك شيئاً آخر، فشكراً لك يا أبتاه أن حققت لي ما طلبت ! ثم تقدمت من الفتى وصارت تتحسسه من جديد، وكأنه خروف تنوي شراءه!

- إنك نحيف جدا، إن وجهك أصفر وعيناك غائرتان بمحجريهما ! قالت المرأة مرعوبة قلقة.

- إنك أسمن كثيرا جدا بالصورة التي أرسلتها لي قبل بضعة شهور. قالت ذلك واتجهت إلى البيانو الموضوع غير بعيد منها، وأحضرت من فوقه صورة متوسطة الحجم موضوعة في إطار من الزجاج. وبعد أن ألقت عليها نظرة خاطفة، قالت:

- خذ، وانظر. إن البون لشاسع بين صورتك وحقيقتك!

أخذ راكان الصورة من يد كفيلته، ونظر إليها ثم أعادها إليها!

- لقد فقدت الشهية في الباخرة، ولم آكل شيئا طيلة الأسبوع الأول سوى السوائل. لقد أصابني ما يسمونه مرض البحر، دوار البحر، وكان معظم المسافرين ملقين فوق أرض المركب وكأنهم كانوا على وشك الموت، وهم يتألمون ويتقيأون! كنت حتى بمجرد أن أشم رائحة الطعام أبدأ بالتقيؤ، وبدأنا نأكل على الخفيف فقط الأسبوع الأخير! وسكت راكان قليلا، ثم استطرد:

- أما على الحافلة فقد كنت آكل قليلا، إذ لم أكن أشعر قط بالجوع الحقيقي.

- لا تهتم، سوف أظل أطعمك حتى تصبح سمينا وتصير صحتك أحسن مما كانت عليه قبل أن تغادر بلدك. قالت المرأة بثقة واطمئنان.

- شكراً يا سيدة هييز. إنك كريمة جدا! لقد تعذبت وضحيتِ من أجلي كثيرا! أسأل الله أن يقدرني على رد جميلك! قال مكفولها بحماس وصدق.

- أولا: نادني ماري مثلما أناديك راكان. ثم إنني ساعدتك لأنني أردت أن أساعد إنساناً من الأرض المقدسة التي مشى عليها الرب، سيدنا المسيح، مخلصنا، والذي مات على الصليب من أجل خطايانا!

"أستغفر الله العظيم، وسامحك الله يا ماري. إن الله هو خالق هذا الكون ومدبره، ولكن المسيح هو نفخة من روحه." قال راكان لنفسه.

- إنكِ والدتي الثانية هنا في أمريكا! قال الشاب وقد هزه الشوق الشديد، فجأة، لوالدته!!

- أنا فخورة وسعيدة أن يكون لي ابن رابع من بلد الرب المسيح. وهجمت عليه من جديد، تعانقه، ثم قادته من يده، وأدخلته المطبخ، وفتحت له باب الفرن وسحبت منه حلة كبيرة، كشفت غطاءها فتصاعدت منها رائحة، أحس صاحبنا بالغثيان الشديد، ورأى طيراً من الحبش يكفي لأكثر من عشرين شخصاً. وقالت وهي تعيده إلى داخل الفرن:

- لقد طبخت هذا خصيصا لك! إنني أريدك أن تتغذى جيدا لتستعيد عافيتك! ثم خيمت على لهجتها نغمة حزن، وأضافت:

- كنت أتمنى لو أن صديقيك إبراهيم وعصام تغديا معنا!

- إنني أكاد أتقيأ ولا أستطيع أن آكل شيئا طيلة هذا اليوم سوى سوائل حامضة وربما بعض الشوربة.

فتحت الثلاجة وملأت له كأسا من عصير الليمون، صبتها من إبريق زجاجي كبير، شربها راكان مرة واحدة، ثم ملأته له ثانية فشرب نصها وأبقى الكأس بيده.

- اعذريني، إن رائحة الأكل في المطبخ تضايقني جدا، فهل لنا أن نخرج إلى غرفة الجلوس؟ ودون أن تقول شيئا، توجهت إلى غرفة الجلوس، وكان هو يتبعها.

- عندما أجبت على الهاتف هذا الصباح، وبعد أن سألني المتكلم إن كنت أنا السيدة هييز، قال: هل تتوقعين شخصاً من وراء البحار؟ قلت: نعم. إنني أتوقع شابا من الأرض المقدسة، قال: إنه الآن

عندي، وسوف أحضره لك الساعة الواحدة ! نحن في لوس أنجلوس! كنت أريد أن أضرب السقف، ثم شعرت بأنه يكاد يغمى علي، ثم تجمد لساني ولم أستطع فتح فمي ولكنه أضاف: إنك تأخذ حماما ولا تستطيع مكالمتي. وأغلق السماعة، دون أن أسأله حتى عن اسمه. ومرت فترة لا أدري أطالت أم قصرت وأنا ما زلت ممسكة بسماعة الهاتف متجمدة في يدي وأنا كالمسطولة البلهاء! كنت أفكر بأنني أحلم، وعندما عاد إلي رشدي صرت أركض بالغرفة وأصرخ، وشعرت كأنما أصبحت ابنة العشرين. شعرت أنني قوية وربما أقوى من هذا الجدار!

وفجأة اعترت العجوز شبه نوبة جنونية فأردفت:

- إنك هنا أمامي بدمك ولحمك! إنني لا أستطيع أن أصدق عيني ! إنني ما زلت أشعر أنني في حلم! ثم نظرت إلى صورة السيد المسيح وقد فاضت عيناها بالدموع، وقالت:

- لقد رثي لحالتي وأشفق على دموعي! إنه يعرف معنى العذاب والآلام. لقد تعذب وقاسى في سبيل خطايانا، ثم مات على الصليب من أجل أن نحيا!

وهنا مدت يدها وأنزلت الصورة من على الحائط، ثم بدأت تقبلها بشوق وحماس، وبعدها صارت تنهنه بعواطف جياشة، شعر الفتى أن قلبه يتمزق لبكائها، حيث بللت دموعها برواز الصورة وزجاجها، فاحتار ماذا يقول وماذا يفعل!

بقيت على هذه الحالة لفترة ليست بالقصيرة، ثم أعادت الصورة إلى مكانها على الحائط، بعدها سحبت راكان من يده وسجدت على الأرض وسجد هو إلى جانبها، وصارت تصلي من خلال دموعها، أما الشاب فصار هو الآخر يشكر الخالق، ومن أعماق قلبه وبحرارة، على أنه حقق له حلمه الذي انتظره طويلاً؛ بأن أحضره إلى أمريكا!

"إنك تسجد الآن يا راكان، عند أقدام صورة ورقية موضوعة في إطار ومعلقة على الحائط، كما سجد آباؤك الجاهليون قبل أكثر من ألف وخمسمائة عام. كانوا يسجدون لأصنامهم ويعبدونها، يطلبون منها أن تغفر لهم خطاياهم وترضى عنهم بأن تيسر أمورهم وتنجح مقاصدهم، وها أنت اليوم تمارس عادة مارسها أجدادك قبل قرون خلت، ثم تخلصوا منها! إنك أنت الآن تجدد، بل وتحيي ما أقلعوا عنه وحطموه! إنك أنت الآن وثني القرن العشرين."

نهضت العجوز وأنهضته معها وتطلع الفتى إلى عينيها فقد كانتا جمرتين متقدتين!

- لقد أعلمني الدكتور أن سبب هذه الحبوب في وجهي هو من كثرة الهم والقلق والحزن! قالت ذلك وهي تمسح عينيها بظهر يديها! ولكنها بدأت تختفي بعد أن طمأنتني برسالتك الأخيرة أنك حصلت على التأشيرة! إنني لا أدري هل أبكي أم أضحك!

- أنا حزين وآسف أيضا أن سببت لك كل هذه الآلام طيلة السنتين! قال مكفولها صادقاً.

– إنها سنتان وشهران وأحد عشر يوما عدا هذا اليوم، لقد حسبتها قبل وصولكم ببعض الوقت! قالت المرأة بفخر واعتزاز أتبعتها بهزة من رأسها. وفجأة بدأت العجوز تبكي وتنهنه كطفل صغير، فاحتار الشاب ماذا يفعل ولا ماذا يقول، وشعر كأنما نياط قلبه تتقطع وأن ألما صارخا يفري كبده، وبدأت دموعه تسيل هو الآخر على خديه بغزارة، ولم ينقذه من عذابه سوى رنين جرس الهاتف !

- نعم، أنا السيدة هييز! نعم، نعم! انتظر لحظة أعطيك الرقم! قالت ذلك، ووضعت المرأة السماعة بجانب الهاتف على طاولة الوسط، وعادت وجلست إلى جانب راكان!

- لقد أعلمتني ديان أنه يسعدها جداً جداً أن تأخذني بسيارتها إلى محطة الحافلات في لوس أنجلوس لإحضارك. إنها تحبني كثيراً وتسألني دائماً عن أخبارك، مع أنني عارضت جداً زواجها من آنثوني. آنثوني يعمل ميكانيكي سيارات وهو دائما يبيع ويشتري سيارات. يأخذ السيارة بسعر رخيص ثم يصلح ما بها من خراب ويدهنها فتعود كأنها جديدة فيبيعها ويربح نقوداً كثيرة. قلت له أن يجد لك سيارة نظيفة وصغيرة عمرها سنتان أو ثلاث فقط، إذ لسنا بحاجة إلى سيارة كبيرة، السيارة الكبيرة تصرف وقوداً كثيراً. أريد أن يكون باستطاعتنا أن نذهب إلى حيث نشاء.

- سأعمل كل ما بوسعي لأعوضك عما فاتك! أنا أيضاً أحب السفر والترحال! قال راكان.

- آنثوني وعدني أنه لن يربح منا نقوداً؛ فقط ما تكلفه... منذ أن توفي السيد هييز، قبل ثلاثة وعشرين عاماً وسبعة شهور وخمسة وعشرين يوماً، وأنا قلما أغادر البيت. كنت في البداية أربي الأولاد وأعتني بهم، وعندما تزوج آخرهم، آنثوني، قبل عام ونصف وأربعة

أيام، كنت قد كبرت وكان من الصعب علي أن أحصل على رخصة قيادة سيارة. إن الأولاد لا يكترثون بأخذ أمهاتهم إلى أماكن اللهو والتسلية، إنهم يأخذون صديقاتهم أو زوجاتهم. يقولون لماذا لا يكون لكِ صديق يؤنس وحدتك؟!

وهنا لاحظ الشاب أن حمرة قد علت وجه العجوز.

- الرجل الذي يريد له صديقة في مثل سني، يريدها أن تكون خادمة له، تنفق عليه ويسكن في بيتها، وليس لينام معها فقط. كنت أراسل بحاراً قبل معرفتي بك. أمضينا عاماً كاملاً نكتب لبعض رسائل ملتهبة حباً. كان قبطان سفينة تجارية. وكان قد بقي على تقاعده أحد عشر شهراً وتسعة أيام، واتفقنا أن يأتي ويعيش هنا ونتزوج. وحضر في الوقت المحدد وعشنا ثلاثة أسابيع لم يدفع سنتاً واحداً. كان يأكل ويشرب ويسكن وأغسل له، ولا يعمل شيئاً، ثم فجأة حزم أمتعته ورحل. قال بأنه لا يستطيع أن يعيش إلا في البحر، لأنه متزوج من البحر !

- ما أغباه! رجل يترك امرأة مثلك تتمتع بكل هذه الصفات الرائعة! قال راكان مواسياً!

- عندما وصلتني رسالتك الأولى كان قد مضى على رحيله اثنى عشر يوماً، وكنت متضايقة جداً، وبعد أن قرأت رسالتك قلت لنفسي إن المسيح أرسلك إليّ لأكفر عن خطيئتي! لقد عشت بالخطيئة مع ذلك البحار، ولا بد من أن أساعدك للحضور إلى أمريكا، فأنت من بلد الرب. هل تريد كأساً أخرى من عصير الليمون؟ ! ضع الكأس الفارغة إلى جانبك على طاولة الوسط... ديان قالت بأنها ستعلمك القيادة إذا أنا جلست مع الصغيرة سوزي. إن سوزي ليست ابنة آنثوني، ولكنها ابنة ديان من زوجها السابق. ولكن آنثوني مولع بها كثيراً وكأنها ابنته. إن ديان أحياناً تغار من ابنتها. لا تقل لها ذلك. لقد أسرّ إلي آنثوني.

- امرأة تغار من صغيرتها؟! وكم عمر سوزي هذه؟

في الحقيقة إن راكان لم تكن عنده الرغبة ليعرف تفاصيل هذه الحوادث، ولا ليعلق عليها، وإنما كان يفعل ذلك مجاملة لكفيلته، وليؤكد لها أنه مهتم بما تقول!

- إن عمر سوزي عام ونصف وثلاثة أيام. ديان طلقت زوجها لأجل آنثوني. كانت سوزي هي السبب. إنها قصة غريبة حقاً. كان

آنثوني يحضر مسابقة سيارات في جزيرة كتالينا، تبعد حوالي خمسين ميلاً من هنا. كانت ديان وسوزي يحضران السبق أيضاً، وكان آنثوني هو السباق دائماً. كانت ديان وسوزي في إجازة لوحدهما. في زمن المرحوم زوجي لم يكن باستطاعتي أن أذهب في إجازة لوحدي بدونه، ولكن الزوجات في هذه الأيام يفعلن ما يشأن دون خوف ولا وجل. كان المتفرجون يصفقون لآنثوني، وكانت ديان تصفق معهم. لقد أعلمني آنثوني فيما بعد بأنه لم ير ديان ولم يشعر بها، لا هي ولا غيرها. كان كل ما يفكر به هو كسب السبق. كانت الأم تحاول أن تجلب انتباهه فتتكلم معه ويجيبها كما يجيب أي إنسان آخر. ولكنه شعر بوجود سوزي الصغيرة. كانت تشد جاكيته الجلدي؛ آنثوني مولع بالجاكيتات الجلدية. ونظر إلى سوزي وابتسم، ثم مدت إليه يديها لكي يحملها ففعل. ومنذ تلك اللحظة شعر بالأم، أعني أصبح يهتم بها. أحب الصغيرة ومن خلالها شعر بالأم. وبعد أن انتهت المسابقة، وقد دامت ثلاثة أيام، ربح آنثوني السبق النهائي.

- وما القصد من هذا السبق؟ أعني هل يجري كل عام أم بالمناسبات فقط؟

- القصد منه هو لتشجيع السياحة لزيارة تلك الجزيرة، وكذلك يجري كل عام، ويدفعون مبالغ جيدة للمتسابقين! البلدية والتجار هم الذين يدفعون! قالت العجوز ثم رشفت بعض عصير الليمون من كأسها، وأضافت:

- وهنأته ديان مع المهنئين، وظلت الصغيرة سوزي تبكي وتلقي بنفسها باتجاه آنثوني، ولم تسكت حتى حملها. صارت تعبث بخوذته الفولاذية وتبتسم. قالت ديان إن ابنتي سوزي تريدك كثيراً، وشكرها آنثوني طبعاً للمجاملة. هنأه أناس كثيرون لفوزه. ثم قالت له ديان أنها معجبة به جداً وشكرها، ثم ناولها ابنتها لينصرف!فقالت له ألا تود أن تدعو سوزي وأمها لتناول بعض المرطبات؟ ولم يدر ما يفعل سوى الموافقة. وسألها عن زوجها فأعلمته ديان انه لم يحضر، وأنها هي وابنتها يقضيان إجازة قصيرة في هذه الجزبرة الساحرة، وأنها جاءت لتشاهد السبق لأنها تحب سبق السيارات كثيراً.

- لا شك أن ديان ذات شخصية قوية، وليس من السهل التعامل معها! قال راكان مجاملاً.

- جداً! جداً! قالت لأنثوني وهما يتناولان المرطبات أن زوجها لا يفكر بشيء غير عمله، وأن العمل يسيطر عليه حتى أصبح مملوكاً له. إنه يعطيها كل ما تحتاج إليه من نقود وتشتري كل ما تريد... أعني ضمن المعقول طبعاً. ولكنه لا يعطيها كل ما تحتاج من حب وحنان. تذكر هذا يا بني. صحيح أننا نحن النساء نحب أن يكون عندنا الكثير من حاجيات الدنيا المادية، ولكنها لا تكفي المرأة. إن مال العالم كله لا يعوض حاجة المرأة من الحب والحنان واهتمام الرجل بها. كان زوج ديان بدلا من أن يحدثها عن حبه لها وتفكيره بها واهتمامه برغباتها، يحدثها عن مستقبله كرجل أعمال ناجح. تصور؛ لقد صار خلال عامين اثنين، من صبي في مضخة بنزين إلى مالك لها، ثم اشترى مضخة بنزين ثانية وثالثة ورابعة وخامسة، وربما الآن عنده أكثر !

- لا شك أن عنده عقلاً كبيراً! قال راكان .

- إنه يدرس السوق وبذكائه وخبرته يستطيع أن يعرف المكان المناسب لمضخة البنزين. إنه لا يشتغل هو بنفسه، بل عنده موظفون وهو يشرف عليهم فقط. هو لا يكتفي بمضخة البنزين، بل ينشىء لها كراجاً للتشحيم وغسيل وإصلاح السيارات. قال لها آنثوني إن زوجها يفعل ذلك من أجل إسعادها هي وابنتها. صحيح إن آنثوني لا يذهب إلى الكنيسة ولا يؤمن بالرب المسيح، ولكنه عنده أخلاق وضمير. هكذا علمت أولادي منذ الصغر. قالت له إنها تريده وإنها تتمنى لو أنه زوجها، ولكنه أكد لها وقال لها إنه لا يمكن أن يتزوج امرأة سبق وأن تزوجت. فنحن الكاثوليك ملتزمون بتعاليم الدين، ثم إنه لا يفكر أن يتزوج قبل أن يبلغ الثلاثين. كان عندما قابلها عمره فقط ستة وعشرون عاماً وتسعة شهور وتسعة عشر يوماً! لقد رفض حتى أن يعطيها عنوانه ورقم تليفونه، ولكن النساء لا يقف في طريقهن شيء. وبعض الرجال يشبع غرورهم أن تطاردهم النساء؛ على كل حال ديان جريئة أكثر من اللازم، إن كل بنات أمريكا جريئات. قلت إن بنات بلادك محافظات جداً، أعطهن الوقت وسيصبحن كبناتنا. كنت في زماني أخجل أن أكلم رجلاً. إن المجتمع يتطور بسرعة مذهلة. عرفت ديان اسم آنثوني وأين يسكن من السبق. لقد أعلمني آنثوني بأنه رفض أن يراها أو حتى يكلمها. وأكد لي بأنه لن يتزوجها، ولكنه جاء إلى البيت في إحدى الأمسيات وكانت معه، وكانت أول مرة أراها به. إنها جميلة وجذابة. نامت معه في نفس سريرك الذي ستنام عليه، وهددتها بأنني

سأهاتف زوجها والبوليس أيضاً، ولكنها لم تهتم لتهديداتي. كانت الصغيرة سوزي تنام على الطرف الآخر من السرير. لم أستطع النوم تلك الليلة، وسمعت جسماً يسقط على الأرض ثم الصغيرة تصرخ. وهرعت إلى الغرفة وأضأت النور، كانا نائمين عاريين والصغيرة تصرخ. كانت ديان ملتصقة إلى صدره وكأنما لتحتمي به من البرد القارس. لقد نامت عندنا ليالي وليالي. كانت لا تخجل ولا تخاف فتدخل البيت كأنه بيتها، وكنت أنام والصغيرة سوزي في فراش واحد. إنها تحبني كثيراً وتناديني جدتها. إنها حتى اليوم مولعة بي وأحياناً تأتي ديان إلى هنا، لأن سوزي تطلب إليها بأنها تريد أن ترى الجدة ماري. إنها تهجم علي وتلفني وأنا أحبها أيضاً، إنها طفلة ذكية وجميلة.

- حقاً لقد شوقتني لكي أرى الأم والابنة! قال راكان صادقاً!

- لا تهتم! ستراها! إنها متشوقة جداً للقائك والتعرف إليك!هي قالت لي ذلك. ثم تابعت المرأة سرد قصتها:

- قلت لهما يجب أن يتزوجا بدلا من أن يعيشا بالخطيئة، وأحبتني ديان لهذا. كان آنثوني يعارض بشدة ولما رأى أنني موافقة بدأ يتقبل الفكرة. دفع زوج ديان مبلغاً كبيراً لها مقابل معيشة لسوزي، وقد دفعا ذلك المبلغ –أعني آنثوني وديان- القسط الأول من ثمن البيت الذي يسكنانه الآن. كانت ديان في أول الأمر تكذب على زوجها فتقول له بأنها تنام عند والدتها، وكانت والدتها تتستر عليها فيصدقها. يبدو أن الزوج طيب القلب صافي النية والسريرة، ثم بدأ يتضايق من نومها عند والدتها، وفي النهاية أعلمته بأنها لا تحبه وإنما تحب رجلاً آخر وتريد الطلاق. زوجها مسالم ولا يحب المشاكل، وعندما شعر أنه لا أمل في أن تغير زوجته رأيها وافق على الطلاق. آه! إنك تتثاءب وعيناك تبدوان مثقلتين بالنعاس. أنا أعرف أنك متعب جداً من السفر الطويل المتواصل. ثم؛ آه! يا لي من حمقاء! لقد سبق وقلت لك كل هذا برسائلي إليك!

- هل تركت سماعة الهاتف مفتوحة عن قصد؟ ! سأل الفتى.

- آه يا إلهي! قالت ذلك وهرولت نحو الهاتف.

- ألو، ألو! ثم أغلقت السماعة.

- لقد ذهب، انشغلت بالكلام. إنه موزع الحليب يريد رقم هاتف إحدى الجارات. وضحكت ببراءة! ألم أقل لك أنني أتصرف بدون تفكير وأنني منفعلة جداً!

- ألا تعتقدين أنه سمع كلامك عن أسرار علاقة آنثوني وزوجته! فنظرت إليه باستغراب ولعلها كانت مندهشة من سذاجته!

- وهل تسمي هذا سراًّ؟! ثم إن كل الذين نعرفهم يعرفون ذلك. لقد قلت لهم ذلك مرات عديدة للتسلية وقتل الوقت. ثم ماذا يعنيهم؟!

"حقاً إنك ساذج ومغفل يا راكان، بل وغبي! وهل نسيت أنك في أمريكا ولست في الوطن؟! إن الناس هنا لا يفعلون شيئاً معيباً، إلا لأنهم لا يؤمنون بفعله، أما الناس في الوطن فهم لا يفعلون ما لا يفعلونه إلا لأنهم يخافون فعله، لأنه يؤذيهم مادياً؛ ولأنهم يخشون من كلام الآخرين عنهم. ثم أي من المجتمعين على حق، المجتمع الذي يفعل أفراده ما يريدون فعله دون حياء ولا خوف، أم المجتمع الذي يريد أن يفعل أفراده الكثير من التصرفات ولكنهم يخشون كلام الآخرين وانتقاداتهم وربما بطشهم؟؟!" سأل الفتى نفسه.

- دعيني أريكِ ما أحضرته لكِ معي من الوطن، لقد ركبنا الحافلة، أخي كريم وأنا، وسافرنا إلى فلسطين وقضينا ثلاثة أيام نتنقل بين مدينتي القدس وبيت لحم واشترينا هذه الهدايا!

- لاشك أنها كلفتكما نقوداً كثيرة، وهذا يحزنني كثيراً! قالت.

- قال راكان هذا، ونهض بحماس وهمة، وأحضر إحدى حقائبه؛ وبعد أن عاد وجلس في مكانه، بدأ بفتحها.

- ألم أقل لك بأن لا تشتري لي شيئاً، وأن توفر نقودك وتصرفها على رحلتك فقط! أردت أن تحضر لي بنفسك فقط! قالت ذلك وهي ترقب يديه يفكان حزام حقيبة الملابس.

- إن كل ما أحضرته لكِ هو هدية بسيطة! قال راكان بتواضع وخجل!

- لا شك أنك حرمت نفسك من أشياء كثيرة لتبتاع لي هذه الهدايا!

- صدقيني إنني ابتعت كل ما أردت ابتياعه، وما زال معي بعض النقود! قال راكان بحماس.

كانت السيدة هييز تراقبه بشوق. فتناول ثلاثة سجاجيد تعليق مصنوعة من الحرير وفردها بين يديه، وأخذت المرأة تنظر إليها مشدوهة. كان على إحداها صورة كنيسة القيامة، وعلى الثانية صورة كنيسة المهد، أما الثالثة فعليها سائق جمل فارشاً سجادة صلاته ويصلي وخلفه جمله النائخ وفي الخلفية الأهرامات.

- هذا رائع جداً! كل هذا لي؟! قالت ذلك وفتحت فاها على سعته. ثم أخرج صينية مصنوعة من النحاس ومطلية بالفضة وعليها صورة مكة.

- أيها الابن العزيز! هذا كثير جداً. قالت وهي تحملق بالنقوش ثم ناولها طقمين من المخمل أحدهما أبيض والثاني أسود، مكون كل واحد منهما من جاكيت وتنورة وطاقية وشنطة، ثم شال كبير، مطرزة بالقصب، وكلها من شغل اليد ومصنوعة في مدينة بيت لحم.

نظر راكان إلى العجوز فإذا عيناها مفتوحتان وفمها على وسعهما!

– طقم لك وطقم لزوجة محاميك.

بقيت المرأة تنقل طرفها بين هذا وذاك وهي تردد كالببغاء:

- جميلات جدا! جميلات جدا! جميلات جدا! وأخيرا فتح الله عليها فقالت:

- أوه راكان، أشكرك. هذا رائع جدا ثم إن السيدة "استيوارت " ، زوجة المحامي الذي عمل لك الكفالة ، ستسر جدا عندما ترتدي كل هذه الملابس، إنها سوف تبدو كحورية من حوريات الجنة!

- لقد تعذبت كثيرا من أجلي، فلا أقل من أن أكافئك على بعض جميلك! ثم ربت على كتفيها وأردف:

- لقد ساعدنا الرجل بالحصول على كفالة، فلا أقل من أن نسرّ زوجته بهذه الهدية المتواضعة !

كانت السيدة هييز قد أعلمت راكان في إحدى رسائلها إليه، بأن محاميها، السيد استيوارت، متزوج من فتاة إنجليزية، ذات جمال وأخلاق عالية، وأنه كان قد ساعدها بالحصول على الجنسية الأمريكية، بعد صراع طويل بينها وبين دائرة الهجرة، بسبب دخولها الأراضي الأمريكية بطريق غير قانونية.

ثم أخرج الفتى نصف دستة من قاطرات الجمال يقودها حمار، ثم جملين كبيرين كلاهما نائخ مع هودج، ثم ألبوما غطاؤه من خشب الزيتون المصقول بمهارة وحذاقة، ثم مجموعة كبيرة، صغاراً وكباراً، من الصلبان للحائط والطاولة والعنق، ثم كتاب العهد الجديد، مصنوع غطاؤه من خشب الزيتون. وكذلك علب جيب للسجائر، ثم علبتي سجائر للطاولة، وأشياء أخرى كثيرة، ثم مجموعة كبيرة من المسابح والقلائد والخواتم والحلق والدبابيس وملاعق عليها صور منحوتة

للأماكن المقدسة، كلها صنع يد في مدينة بيت لحم، ثم صنادل من دمشق.

بعد أن انتهى تطلع إليها وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة. فرأى المرأة تنقل بصرها ويديها بين ما حولها وهي تردد كالآلة الصماء:

- رائع جدا، رائع جدا، لقد كلفتك هذه الحاجيات ثروة كاملة! كان الله في عونك!

- لا تفكري أبدا، لقد وفرت ذلك، واشتريت هذه بما زاد عن إيجار الباخرة والباص ومصروف الطريق. وصدقيني إنه ما زال معي ما ينوف عن المائة دولار!

- أوه راكان! إنني لا أستطيع شكرك. فهل تمانع إن أعطيت بعضاً من هذه الهدايا إلى أفراد عائلتي؟

- إنها كلها لك، أعطها لمن تشائين.

وهنا هجمت المرأة على الفتى وعانقته، ثم انفجرت في بكاء مؤثر، ثم قالت:

- إن ظني بك لم يخب! أعلمني قلبي عندما قرأت رسالتك الأولي، بأنك شاب أمين ومخلص! وبعد أن مسحت دموعها أضافت:

- لقد أعلمت راهب كنيستنا، الأب ماكدونالد، بأنني أريد أن أكفلك لتأتي إلى أميركا، فأشار علي أن لا أفعل، وأن أكفل شابا كاثوليكيا مثلي وليس مسلماً، ولكنني أعلمته بأن رسائلك تدل على أنك شاب أمين، ولم أستمع لنصيحته، وأنا سعيدة وأشكر المسيح لأنني لم أفعل.

- آمل أن لا أخيب ظنك. قال راكان وقد تأثر كثيرا لكلامها، ثم أضافت:

– اعذرني لبكائي! إنني لا أستطيع كبح جماح عواطفي. قالت هذا، وأطلقت يديها من حوله وأضافت وهي تمسح دموعها بظهر يدها:

- لقد بكيت حتى ظننت أنه لم يبق بعيني دموع، ولكن ها أنا أبكي الآن كما لم أبك من قبل! ثم نهضت، وتوجهت إلى الحائط حيث صورة السيد المسيح وأخذت تتمتم وهي تبكي:

- أيها الرب! ليجل جلالك وليمجد اسمك! أشكرك لإحضار راكان! ثم صارت تقبل الصورة.

"أرجوك يا ماري أن لا تناديه رباً، إن هذا حرام وشرك. إنه نفخة من روح الله! إنني أحزن وأرتعب عندما أسمع مثل هذا الكلام!" قال راكان في سره.

- تعالي وجربي أي الطقوم تليق بك أكثر! ثم نهض من جلسته وساعدها على ارتداء الطقم الأبيض ثم أحد الصنادل، ونظر إليها والطاقية على رأسها وحقيبة اليد في يدها والصندل بقدميها وصاح بفرح:

- إنك تظهرين كأنك حورية من حوريات الجنة! قال الفتى صادقاً.

احمرت وجنتا العجوز، وقد رآها تتبختر بدلال وتيه، فقال:

- لو لم أكن أعرفك لتساءلت من تكون هذه الصبية الساحرة الرشيقة والتي تتبختر كأنها غزال!

- آه يا راكان! قالت العجوز وكأنما استعادت شبابها حقاً.

- إنك تغازلني فتجعلني أشعر وكأنني في السابعة والثلاثين من عمري، ولست في السابعة والستين! قالت هذا واحمرت وجنتاها وتجنبت النظر إلى عينيه.

- إن المقياس الذي نقيس به حياتنا هي ليست السنين التي نحياها، وإنما هو القلب والشعور والعواطف والأحاسيس! إنني وأنا أقرأ رسائلك كنت أشعر كأنما كتبتها امرأة في الثلاثين من عمرها!

وهنا هجمت عليه وعانقته من جديد، وبدأت دموعها تنزل بغزارة، وخاف الفتى أن تبدأ البكاء ثانية فقال وقد انحنى ليلتقط الطقم الأسود:

- دعيني أرى كيف تبدين بهذا الطقم؟ قال هذا، ونظر إليها بعد إن ارتدت الطقم الأسود:

- أوه يا ماري! إنك لولا شعرك الأبيض لأقسمت أنك من إحدى بنات بيت لحم.

- أوه يا عزيزي، الآن وقد تحققت أمنيتي الأولى بحضورك، فإنني أتمنى لو تتحقق أمنيتي الثانية، وهي أن أمشي على نفس الأرض التي سار عليها الرب، ثم أموت هناك!

- أرجوك يا ماري أن لا تتحدثي عن الموت، أنني أراهن على أنك ستعيشين حتى تتجاوزي المائة! إنك تبدين أكثر صحة وأقوى من كثير من الناس الذين في العشرين! قال راكان صادقاً!

- لقد جعلتني السنتان الماضيتان أكبر عشرين عاماً. كنت أعيش في خوف دائم من أنك لن تحضر. قالت العجوز وهي تخلع الطقم الذي ترتديه!

- سآخذ الطقم الأسود، وسأعطي الطقم الأبيض إلى السيدة استيوارت، إذ ربما يلائمها أكثر ويبدو لي كأنه صنع خصيصا لها وكذلك طقمي!

– إن هذا يفرحني جدا. قال الشاب.

- وسأعطيها زوجاً من الحلق وعقدا ودبوسا وصندلا، وأساور وملعقة وسجادة وقاطرة جمال. وسأعطي السيد استيوارت علبة سجائر، ثم سأعطي العلبة الثانية إلى ابني رينيه لأنه الوحيد من بين أولادي الذي يدخن وسأعطي زوجته صندلا وقاطرة جمال وسأعطي آنثوني.......!

- لا حاجة لأن تعددي! أعطي ما تشائين لمن تريدين! قال راكان مقاطعا.

بدأت المرأة تجمع الهدايا، ووضعتها في صندوق من الكرتون، وطلبت إلى مكفولها أن ينقلها إلى غرفة نومها. وبعد أن فعل ذلك قالت:

- تعال لأريك غرفتك! وفي طريقهما إليها أضافت:

- عندما تقابل فتاتك التي ستكون زوجتك، سأكون سعيدة أن أعطيها طقمي.

احمرت وجنتا الفتى وخفق قلبه، فقد تصور أن تكون فتاته، كالفتاة الانجليزية التي تزوجها السيد استيوارت ذات جمال ساحر.

كان أثاث الغرفة من النوع المتوسط ولكن الذي سر راكان كثيراً هو أن رائحة الورود والزهور كانت تصل إلى أنفه من جميع نوافذ الغرفة، وأنه يستطيع أن يراها كلما نظر من الشباك؛ ثم إن الأغصان تكاد تلامس الشبابيك ! لقد كانت غرفته محاطة بالزهور والورود والأشجار من كل جانب! ثم إنه كان للغرفة ثلاثة أبواب، أحدهما يدخل إلى المطبخ والثاني إلى غرفة الجلوس والثالث إلى الحديقة الخلفية؛ وفجأة أحس بنسمة منعشة تأتي من النافذة على الرغم من حرارة شهر أغسطس.

- بعد أن تبدأ تكسب من عملك، تستطيع أن تغير ما لا يعجبك من أثاثها!

- إنها غرفة جميلة جدا! إنها كما تخيلتها منذ سنتين، كما وصفتها في احدى رسائلك!

بعد أن ساعدته المرأة على إفراغ حقائبه وترتيب ملابسه ، سألها إن كان يستطيع أن يتمدد قليلا إذ إنه شعر فجأة بتعب شديد. ألقت العجوز فوقه شرشفا خفيفا وقبلته على جبينه وأغلقت الباب خلفها وخرجت.

"سيكون لي فتاة. فتاة طويلة ممشوقة القوام، هيفاء القد، ناعسة الطرف، رفيعة الخصر، شقراء الشعر، مرسلته على كتفيها، عندما تسير كأنما هي غزال يتبختر. أحبها وتحبني، أضع يدي حول خصرها ونحن نسير أمام الناس علانية، غير خائفين ولا وجلين. لن نسمع من يقول لنا هذا حرام، ولا من يقول لنا هذا عيب، ولا من يقول لنا هذه خطيئة، ولا هذا تصرف لا أخلاقي ! إننا لن نرى من ينظر إلينا شزراً واحتقاراً. سأقبلها وتقبلني... سأقبلها فوق شفتيها وفوق عنقها وعلى صدرها؛ وعلى كل جزء من أجزاء جسمها ... سأضمها إلى صدري وسأنومها عليه، وسأضع رأسي في حضنها وسأحلم وأحلم وأحلم ... وسأعبث بأصابعي بشعرها الذهبي، وسأحدثها حديثا طويلا عن الحب... والحرمان... وسوف... وسوف..." ثم نام.

عندما استيقظ الشاب من نومه، لم يستطع أن يتبين أول الأمر أين كان، إذ وجد أن الغرفة تسبح في ظلام دامس، وشعر أن كل مفصل من مفاصله يؤلمه؛ وعندما تطلع إلى الساعة في يده، ذات الأرقام الفسفورية، وجدها تقترب من الثانية صباحا، ووجد أن بطانية قد وضعت فوقه؛ ثم شعر بنسيم لذيذ منعش يداعب وجهه وشعره، وبرائحة ذكية تملأ خياشيمه وتبعث في نفسه شعورا لذيذا، كما شعر برغبة لا تقاوم لأن ينهض.

فتح الباب المؤدي إلى الحديقة فوجدها تسبح في الظلام ما عدا نجوم الليل تتلألأ في السماء كأنها عناقيد من الزبرجد، وحفيف الأشجار يصل إلى أذنيه كالموسيقى الحالمة، والنسيم يبعث في نفسه نشوة لا توصف؛ وشعر بهيجان عواطفه، وهزه جمال الليل الساحر فشعر أن دموعاً ساخنة بدأت تتساقط فوق خديه، واستبدت بنفسه مشاعر جياشة محمومة، وشعر كأنما تلاشى في الوجود وانسحق في

العدم، وهو واقف يحدق بالظلمة بعينين جامدتين ودموعه تسيل فوق خديه كنهر لا ينقطع، ولذة سماوية تستولي على كل خلجة من خلجات نفسه!

- هل هذا أنت يا راكان؟

- نعم، هل أيقظتك؟ أنا آسف جدا!

- إنك لم توقظني. هل أنت جائع؟! قالت السيدة هييز وصوتها يقترب منه.

- لا، شكرا، سآكل في الصباح.

- دعني أسخن لك بعضا من الديك الرومي. قالت بعد أن أضاءت النور.

- الم تذهبي للفراش بعد؟ سأل وقد علت الدهشة وجهه.

- لا بأس يا بني! قالت العجوز: إنني لم أشعر بالنعاس، إن السعادة أيقظت كل مشاعري وشدتها حتى لا أظن أنني سأحتاج للنوم بعد الآن.

- ولكنك ما زلت بملابس الخروج!

- لقد فكرت أنك ستستيقظ لتأكل، وفي كل مرة أفكر بالذهاب إلى الفراش، أقول أنك ربما تستيقظ بعد قليل، كما إنني لست نعسانة.

- إذن دعينا نذهب إلى غرفة الجلوس، ونتحدث.

- لا! لا! إنك بحاجة إلى أن تنام، لتعوض ما فاتك أثناء الرحلة. قالت ذلك، وقادته إلى فراشه، ثم رفعت الغطاء، وبعد أن دس نفسه، ألقت الغطاء عليه وقبلته على جبينه:

- نم حتى تعوض ما فاتك. قالت ذلك، ومن ثم أطفأت النور وأغلقت الباب وخرجت.

أغلق الفتى عينيه وحاول أن ينام، ولكن موجة من الفرح والنشوة بدأتا تداعبان مشاعره وأحاسيسه وقلبه وروحه وكل كيانه، وأحس بسعادة سماوية ترتفع به إلى أعلى حتى تصل السحاب، وهناك على ذرات الأثير، رأى نفسه وفتاة مضطجعان جنبا إلى جنب يتحادثان ويتسامران، ويحدقان معا بنجوم الليل الصافية، وصوتها الساحر الحنون يصل إلى أذنيه، فيهتز كيانه هزا، وتعبث أصابعه بشعرها الطويل المرسل، ثم اختلطت الأشياء برأسه فنام من جديد!

استيقظ الشاب على صوت تغريد عصفورين كانا يقفان على شجرة أمام نافذة غرفته! لقد كانا يقفان قبالة بعض ويتناجيان كأنهما

ينشدان أنشودة الشكر لله الذي منحهما هذا الجمال الباهر الأخّاذ، جمال الصباح وجمال الطبيعة. لقد كانا يتناجيان كعاشقين يعبدان الله خلال حبهما لبعض.

ووجد أن شعاع الشمس قد تسلل إلى غرفته، فاختلط نسيم الصباح بعطر الزهور بأرومة الغرفة، بأنوثة ديان الملتهبة والمتفجرة؛ والتي تتعرى أما رجل غريب عليها، ثم تعطيه جسدها المتعطش للشهوة المحمومة، وهي مرتبطة بعقد زوجي مقدس مع رجل آخر؛ ثم تترك ابنتها الرضيعة تسقط من على السرير في الغرفة المجاورة، على بلاط أرض الغرفة، والصغيرة تصرخ وأمها تروي شبقها المتلظي وإحنها المتوقد!

امرأة تنطلق مع الشهوة إلى ما لا نهاية، وتعتبر أن هذا حقا من حقوقها، ليس لأي إنسان الحق حتى أن يسألها، ولا حتى الرجل الذي عاهدته أمام الكاهن وفي المعبد، أن تصون عهده وترعى شرفه! وهناك البنت في وطنه التي تعتبر حتى ملامسة شاب ليدها حرام، قبل أن توقع معه عقد الزوجية! يا لغرابة الكون!

أحس الفتى أن دمعتين كبيرتين كأنهما جمرتان قد نزلتا من عينيه قهراً وغيظاً؛ وتساءل: أيهما على حق؟! ديانا المندفعة مع شهوتها بكل ما عندها من قوة، أم بنت وطنه المحافظة والتي تعيش في أغلال الرق والعبودية؟ ! ولما لم يجد جوابا على تساؤله هز رأسه بحيرة وعدم فهم!

ابتسم الغريب ابتسامة الرضا، وأحس بسعادة غامرة، تملأ قلبه ونفسه وروحه وكل كيانه. ولأول مرة منذ سنوات طويلة، طويلة، شعر بالرضا عن نفسه، وعن حياته، وأحس أن الفراش كان ناعما وطريا تحته، وأن المخدة كانت كأنما هي صدر حسناء مغناجة، وهو راقد فوقها، يرضع من نهديها، ثم أحس أن الألم الذي كان في مفاصله لم يكن شديدا كما كان يفكر ! نهض من فراشه، ثم دخل إلى الحمام، وما كاد يخرج منه، حتى سمع صوت السيدة هييز ينادي من المطبخ:

- الفطور جاهز!

- صباح الخير! لقد كنت أظن أنك ما زلت نائمة! فهل حركتي أزعجتك؟!

- طبعا لا. قالت السيدة هييز وصوتها تعلوه فرحة صارخة.

- هل تعرف يا بني؟ عندما كان عندي ابني آنثوني كنت دائما أشعر أن حياتي مملوءة. كان دائما عندي ما يشغلني طيلة النهار. أما عندما رحل بعد أن تزوج قبل سنتين، وأنا أشعر أن حياتي أصبحت فارغة. ولولا انتظاري وأملي في مجيئك، لربما فقدت عقلي. إنه لمؤلم جدا أن يعيش الإنسان بدون هدف. إنه يشعر أن حياته فارغة ضائعة لا قيمة لها ولا معنى! وأشارت إلى مكفولها أن يجلس إلى الطاولة!

- كانت تمر علي أحيانا ساعات أظن أنني فقدت بها إيماني فأشعر بيأس شديد. كنت أنهض من فراشي صباحا وليس من حافز يدفعني للنهوض. وبعد أن أفطر أعمل لمدة قصيرة في الحديقة، ثم أعود وأقرأ الجريدة... ثم أجلس وأجتر ذكرياتي! لقد اجتررتها مرات ومرات حتى لم يعد هناك ما أجتره! وبعد أن وضعت صحن البيض أمامه أضافت:

- على الرغم من أنني لم أذهب إلى فراشي إلا في ساعة متأخرة جدا، ولم أنم إلا ثلاث ساعات، إلا أنني أشعر الآن ، بأنني أقوى من حصان!

- إن الدنيا لا تسعني من السعادة عندما أسمعك تقولين هذا! قال الشاب بحماس.

- وهذا هو نفس شعوري!

جلست قبالته بعد أن وضعت كأسا من عصير البرتقال وكأسا من الحليب.

- هل لكَ أن تقول الصلاة؟

- نعم، ولكن صلاتنا قصيرة جدا! نذكر اسم الله عند البدء ونشكره في الختام، فهل لك أن تقولي الصلاة أنت حتى أتعلمها منك؟

أحنت العجوز رأسها وحذا راكان حذوها، وبدأت تقول بصوت عال:

- أبانا الذي في السماوات والأرض، فليعظم أسمك ولتجل قدرتك، إننا نشكرك يا الله على هذا الطعام، ونرجوك أن ترزقنا دائما قوت يومنا! إننا نشكرك يا رب على أن أحضرت راكان إلى أمريكا، وعلى أنك أوصلته إلى هنا سالما معافى، ونرجوك يا رب أن تمنحه الرزق الكثير والخير العميم والذرية الصالحة والصحة الجيدة والعافية الممتازة، وأن تعطيه العمر الطويل والزوجة الصالحة وأن تجعله يحب

وطنه الجديد، واجلب له السعادة والمسرة، وأوجد له عملا حسنا يكسب منه نقودا كثيرة! آمين! وأعاد هو بعدها كلمة آمين، ثم قال:

- ولكن لي عمل، وأنا قانع وسعيد براتبه، على الأقل للسنتين القادمتين!

أما المرأة فتابعت صلاتها:

- اللهم إني أسألك باسم ابنك العظيم الذي تعذب من أجل خطايانا ومات على الصليب ليخلص أرواحنا من عذاب جهنم، أن تجعل السلام والحب والوفاق والوئام تسود العالم، وأن لا تكون هناك حروب ولا مجاعات، بحق ابنك المسيح آمين.

- آمين، ردد الفتى بعدها.

لم يرفع راكان رأسه عن صحنه، فقد كان خجلا من نفسه، خجلا من تفاهته، أمام إيمان هذه العجوز البسيطة وقناعتها العميقة، ثم أمام تضحياتها العظيمة والعديدة في سبيل الله وحبا للإنسانية، وفي سبيل إنسان لا تربطها به أية رابطة، وبدآ يأكلان.

- هل تدري ماذا حدث مع السيد أسوردلو؟ وبعد أن فكر راكان قليلا قال:

- أنا آسف! لقد نسيت من هو السيد أسوردلو هذا. لقد سمعت هذا الاسم من قبل!

-أعني السيد روجر أسوردلو، الرجل الذي وقع كفالتك ووعدك بعمل!

خفق قلب الشاب وضحك:

- طبعاً! طبعاً! اعذريني! لقد نسيت.

- عندما استلمت رسالتك التي أعلمتني بها بأنك حصلت على التأشيرة، اتصلت بالمحامي لأعلمه ذلك، فقال لي بأن السيد اسوردلو قد طلقته زوجته، وأخذت هي كل أعماله، وهو يعمل الآن كمستخدم في شركة صديق له!

- شعر الشاب بغصة في حلقه، وبخيبة أمل تستولي عليه!

- على كل حال لا تهتم! إن السيد استيوارت محام مشهور وشخصية معروفة ومحبوبة وله أصدقاء ومعارف كثيرون، وقد وعدني بأن يجد لك عملا في مكان آخر. قالت كفيلته وهي ترشف قهوتها:

- إنه كريم ويريدني كثيرا. تصور أنه مرة كان في مهمة في واشنطن العاصمة، واتصل بي من هناك فقط ليسلم علي، وقد فعل ذلك مرة ثانية من فينكس، بأريزونا!

ضحكت العجوز بخجل واحمرت وجنتاها كأنها ابنة مدرسة ثانوية غازلها زميل لها:

- لقد تكلم معي أكثر من نصف ساعة، وعندما أعلمته أن ذلك يكلف نقوداً، أجاب بأن هذا لا يهم لأنني عنده أعز من كل النقود! إنه يشعر بسعادة عظيمة عندما يتكلم معي. وصبت لنفسها فنجانا آخرا من القهوة بعد أن اعتذر راكان عن الثاني!

- تصور أنه لم يدفّعني سوى ألف دولار للكفالة!

وقفز راكان من مكانه وصاح دون وعي: ألف دولار؟!

- نعم! هل ذلك كثيراً ؟!

- إنه كثير جدا! لقد أعلمني عدة أشخاص من الوطن أن رسوم الكفالة لا تكلف سوى دولارات قليلة جداً، وأن أي مبلغ آخر زيادة هو للكفيل. قال راكان وقد اعتراه حزن مفاجئ، ثم تابع:

- أخشى أن يكون قد أخذ المبلغ لنفسه وليس للكفيل! قال راكان بمرارة!

- إنه ليس لطيفا يا عزيزي أن تقول هذا عن محامي.

- أنا آسف، ولكنه يحزنني جدا جدا أن يستغل أحد طيبة قلبك، وحسن نيتك! قالها بحزن!

- لم يفعل ذلك أحد ولم يستغلني أحد! إن الكفالة تعني أن يعطيك شخص مأوى لمدة ستة شهور على الأقل، ويكون مسئولا عنك وعن سلوكك، ثم أن يضمن لك عملا عند حضورك. لقد كان باستطاعتي أن أحقق الطلبين الأولين، ولكن ليس الجزء الثاني. قالت وهي تربت على يده.

- إنني أعرف ذلك، ولكن لم الألف دولار؟!

- نحن لا نتوقع من السيد استيوارت أن يخدم زبائنه بالمجان! قالت السيدة هييز!

- طبعا! ولكننا نتوقع منه أن يكون أمينا على شرف المهنة التي ينتمي إليها! قال راكان.

- إنه لم يفعل شيئا من ذلك! أرجوك أن لا تزعج نفسك! لقد قال السيد استيوارت أن له صديقا سيعطيك عملا ويوقع الكفالة مقابل

خمسمائة دولار، ثم هو نفسه يأخذ الخمسمائة دولار الباقية ووافقت. ثم أضافت بلهجة ينقصها الحماس، وكأنما تحاول أن تقنع نفسها:

- إنني في ذلك الوقت لم أكن أهتم. كل ما كان يهمني هو أن الألف دولار ستحضرك.

- على كل حال ما زلت أنت سعيدة فأنا كذلك.

- لم أكن في حياتي أسعد يوما مما أنا الآن. قالت وقد فردت ابتسامة كبيرة فوق وجهها!

- وماذا قال أولادك؟ أعني بالنسبة للمبلغ! ثم ألم يعتقدوا أنه كثير؟!

- أنا لم أخبرهم. لأنهم عارضوا فكرة كفالتك منذ البداية، ولو عرفوا بأن ذلك يكلفني نقودا غير طوابع الرسائل وإعطائك مكانا تسكنه حتى تجد عملًا، لتدخلوا لإيقافه!

ومرت بينهما فترة صمت قطعتها السيدة هييز قائلة:

- إنني عندما أعلمت المحامي السيد استيوارت بحصولك على التأشيرة، وأنك ستكون هنا في خلال ستة أسابيع، لم يصدقني أول الأمر، واعتقد بأنني أمزح معه، ولكنني عندما أكدت له ذلك، استغرب جدا جدا!

- ألم يكن يعتقد بأنني سأحصل على تأشيرة؟! سأل الفتى باستغراب وحيرة أيضاً!

- لا أظن ذلك! لقد أعلمني فيما بعد بأنه كان يشك كثيرا بحصولك على تأشيرة للحضور، ولكنه لم يعلمني مخافة أن أحزن وأصاب بالإحباط! قالت المرأة بفرح يبدو على علائم وجهها.

- لم إذن استعد أن يتولى القضية ؟! وكيف يعمل شيئا لا يؤمن به ؟! ثم كيف يأخذ منك النقود وهو واثق من فشل النتيجة ؟! سأل الشاب بغيظ.

- لا أعرف يا بني. أنا لم أفكر حتى بذلك! قال بأنه كان عازما أن يعيد لي النقود بعد مدة !

- لقد تقاسم محاميك المبلغ مع السيد أسوردلو، بعد أن أقنع الأول الأخير بتوقيع الكفالة اسميا لإرضائك والاستيلاء على نقودك! وإن صار عندي شك الآن بأن السيد أسوردلو هو شخصية وهمية لا وجود لها.

- لا يا بني! لا يا راكان، لا تقل هذا، إنه ليحزنني أن تفكر بمثل هذا التفكير.

- أنا آسف يا ماري! ولكن القصة ليست منطقية!

- أرجوك يا بني أن لا تزعج نفسك. كل ما كنت أفكر به، وكل همي كان أن أراك هنا في أمريكا. إن السيد استيوارت رجل غني جدا، وليس بحاجة إلى خمسمائة دولار أو ألف دولار، إنه يعرف أنني فقيرة جدا وأنني أعيش على تقاعدي، وكذلك يعرف أنني رهنت بيتي حتى حصلت على المبلغ!

شعر الفتى وكأنما سكين حادة تغوص في أعماقه، ولكنه لم يقل شيئا.

- لو تعرف الطريقة التي تعرفت عليه بها لاستغربت. كنت قد اتصلت بعدة محامين أسألهم عن طريقة أستطيع بها إحضارك، جوابهم دائما واحدا، إنهم على استعداد لكتابة الكفالة ولكن بعد أن أجد من هو مستعد لإعطائك عملا. كانت هذه المشكلة منذ البداية وإلا لكنت أرسلت لك الكفالة بعد عزمي على مساعدتك بشهر على أكثر تقدير. المهم لقد قرأت يوما بالجريدة بأن المحامي السيد جورج استيوارت قد ربح أخيرا قضية فتاة إنجليزية دخلت الولايات المحتدة كزائرة وترغب بالبقاء في أمريكا وترفض العودة لبلادها، وأنه دافع عنها حتى ربح القضية ثم تزوجها. اتصلت به وشرحت له مشكلتك، واهتم اهتماما شديدا بك، وأعلمني بأنه سيهاتفني بعد أن يفكر بالمسألة. بعد ظهر ذلك اليوم؛ وفعلاً اتصل بي وأعلمني بأنه أقنع صديقاً له بإعطائك عملا، وأن القضية سوف تكلفني ألف دولار. أمهلته حتى أرهن بيتي، وبعد شهر حصلت على النقود! تصور أنه جاء في اليوم الثاني ورآني هنا ووعد بأنه سيحضر زوجته ويقدمها لي. أنا أعرف أنه سيفعل ذلك يوما ما، إنه رجل مشغول دائما.

" ما أشدّ سذاجتك وما أطيب قلبك، يا سيدة ماري! إنك تصدقين كل ما يقال لك! لا شك أن محاميك إنسان غير مستقيم، كما يجب أن تتطلب منه المهنة!"

- ولم استغرقت القضية إذن عشرة شهور بين قبضه النقود واستلامك الكفالة؟! سأل راكان.

- استغرقت عشرة شهور وتسعة أيام. لقد أعلمني بأن السيد أسوردلو قلما يكون في المدينة ليوقع المعاملة، إنه مسافر دائما.

هز الفتى رأسه وقال باستسلام: ما زلت أنت سعيدة ومقتنعة بما يقول، فهذا هو المهم.

- إني سعيدة جدا بأنه أحضرك، حتى ولو أخذ بيتي مني! قالت المرأة بسعادة غامرة، لاحظها راكان باحمرار وجنتيها وتألق وجهها.

شعر الشاب بأنه ينسحق حباً وتقديراً واحتراماً لهذه المرأة العظيمة، والتي ضحت بسببه بصحتها وببيتها، وهو الغريب الذي لا تعرفه، بل لا تعرف عنه شيئا سوى أنه من الأرض المقدسة والتي تحبها وتتمنى أن تموت على ترابها! وطلب من الله أن يمكنه من أن يعيد إليها بعضا من دينها... لا كله، لأنه لا يستطيع تسديد كل دينها!

بعد أن انتهيا من تناول فطورهما، نهضت العجوز وجلست على كرسي مريح تستطيع أن تعيده إلى الوراء وتسترخي فوقه، أما هو فقد أستأذنها وتمدد فوق الكنبة الطويلة المقابلة لها. وصارا يتحدثان في شتى المواضيع، وإن كان حديثهما معادا. فخلال السنتين الماضيتين كانا يكتبان لبعض رسائل طويلة، ولا ينكر راكان بأن سبب قوة لغته الإنجليزية كان من جراء تلك الرسائل. لقد كانا يكتبان لبعض رسالة على الأقل كل أسبوع. كانت رسائل طويلة جدا. لقد ذكرا لبعضهما كل شيء عنهما. كانت رسائلهما كأنها مذكرات يومية، وإن كانت السيدة هييز قد خبأت عنه مقدار المبلغ الذي أعطته للمحامي!

- عندما أرسلت اسمي إلى نادي المراسلة، أعلمتهم بأنني أحب مراسلة أي إنسان من أية بقعة من بقاع الأرض! كنت أريد أن أشغل نفسي! لم أكن أفكر بأن شابا في الواحدة والعشرين من عمره، ومن الأرض المقدسة سوف يكتب لي. الأرض التي ولد ومات الرب فوق ترابها. مخلصنا يسوع المسيح! ورشفت رشفة من فنجانها وأضافت:

- لم أكن أحلم بأن شابا صغيرا يحب أن يراسل عجوزا في مثل سني. إن الذي جذبني إليك هو أنك منذ أول رسالة أعلمتني بقصدك. الناس غالبا ينتظرون فيطلبون ما يريدونه بعد أن تقوى عرى الصداقة بينهما!

- لقد آمنت دائما أن الصدق والأمانة والصراحة هي التي تقود إلى السعادة وراحة البال، وأن الكذب والخداع وعدم الأمان كلها تقود إلى التعاسة والشقاء! قال الشاب بحماس.

- هكذا علمنا المسيح! قالت المرأة بثقة واطمئنان.

- كما قلت لك في إحدى رسائلي، بأنه كان لي صديق عضو في نادي المراسلة، وأعلمته أنني أرغب بالهجرة إلى أمريكا ولكن تعوقني الكفالة، فاقترح عليّ أن أختار اسما من قائمة أسماء معه! فاخترتك أنت. وضحك راكان. وأضاف:
- كنت أفكر أن المسألة لا تأخذ أكثر من شهر، ولم أعلم أنها ستأخذ سنتين !
- على كل حال بعد أن يأتي السيد استيوارت، ويطمئننا على الوظيفة، سأهاتف أختي روز لتأتي وتأخذنا لنذهب إلى بيتها . لقد قالت لي أننا مدعوان عندها للغداء عندما تصل، فهي تحب كثيرا أن تراك. لقد أعلمتني بأنها قد لا تستطيع أن تحضر هي بنفسها، ولكنها ستطلب إلى أختنا الصغرى جيسيكا؛ لتأتي لأخذنا ! لقد قالت هي الأخرى بأنها هي كذلك تحب أن تتعرف إليك! فهي لا تعمل، هي ربة بيت فقط وعندها وقت فراغ كبير! ولدى زوجها شركة مقاولات صغيرة؛ يقوم من خلالها بشراء البيوت القديمة، حيث يعمل هو وشريكه على تجديدها ثم بيعها فيحققان أرباحاً جيدة !ضحكت المرأة وأضافت:
- لا تؤاخذني إن ضحكت. إن جيسيكا شيطانة وخبيثة. صحيح أن عمرها واحد وأربعون عاما وثمانية شهور، واثني عشر يوما، ولكنك تظن أنها لم تبلغ الثامنة والعشرين من عمرها بعد! إياك أن تقول لها أنني قلت لك عمرها الحقيقي. هي تغضب جداً جداً، ولا تحب أن يعرف أحدا عمرها الحقيقي. إنها تعتني بجسمها كثيرا، وترفه نفسها لدرجة كبيرة! إنك قد تظنني أبالغ إن قلت لك أنها تزداد جمالا كلماقدمت بها السن ! لقد ساعدها على ذلك عدم الإنجاب! إنها تحب مغازلة ومعاكسة الرجال؛ مغازلة ومعاكسة فقط ... ولكنها لا ترتكب أية خطيئة، هي متزوجة، وأعتقد أنها محافظة على رباط الزوجية ! تحب الرجال أن يغازلوها، وأن يقولوا لها بأنها جميلة! لقد أسرت لي يوما بأنها تشعر بالضيق الشديد لدرجة الاكتئاب إذا مر يوم ولم يغازلها به شاب !إنها تقول بأن المغازلة اليومية لها ضرورية جدا كالأكل تماما، لا تستطيع أن تعيش بدونها! إنها تذهب دائما إلى الأماكن العامة، وتتحرش بالشباب ليثنوا على جمالها ويغازلوها!
- ألا تعتقدين أن هذا النوع من الهواية قد يقودها إلى أن تتورط في علاقات غرامية خارج قفص الزوجية؟!

- لا أعتقد ذلك، إنه كلام فقط. قالت العجوز بثقة مطلقة واطمئنان زائد.

"مرة أخرى أقول ما أشدّ سذاجتك وما أطيب قلبك يا سيدة ماري ! "

- أما أختي روز، فقد تعرفت على زوجها جورج عن طريقي. كان جورج حبيبي وكنا نحب بعضنا كثيرا! كان مجنوناً بي. وقال لي: إن لم أتزوجه فإنه لن يتزوج في حياته أبدا، وقد يقتل نفسه ! انتظر قليلا حتى أريك ما كتب لي مرة وكان في رحلة إلى السويد. لقد ذهب إلى هناك يحاول أن يجد أحداًو ًمن عائلته، وليساعد من يريد منهم الحضور إلى أمريكا.

نهضت المرأة وغابت قليلا ثم عادت تحمل مغلفا يبدو للناظر إليه ممزقا مهلهلا من كثرة الاستعمال.

- اقرأ ما تقول هذه البطاقة: "أحبيني والعالم ملك يدي ! " كان دائما يلح علي بأنه يحب أن ينام معي وكنت دائما أرفض. قلت له إن هذا يغضب الخالق! إنني لا أستطيع ذلك إلا بعد الزواج. لم نكن في أيامنا مثل بنات اليوم اللواتي ينمن ألف مرة مع الرجل قبل أن يتزوجنه، ثم اكتشفت أنه كان على علاقة مع روز وأنه كان ينام معها، ثم علمنا أن في بطنها منه طفلة في الشهر الثالث من عمرها. علمنا ذلك بعد أن تزوجها. لقد حزنت كثيرا من فعلتها، وقلت إنني لن أكلمه ولن أكلمها مدى الحياة، ولكن الله جعلني أقابل زوجي السيد هييز. كان رجلا صادقاًً أميناً لا يعرف الكذب ولا الخداع. عرفنا بعضا وفي أقل من شهر قال لي بأنه يريد أن يتزوجني، وتزوجنا، ورزقنا الله ثلاثة أولاد. انظر إلى صورهم على الجدران. ها هم وهم صغار. إنهم كالملائكة، وقلت أن الله عوضني عن جورج بالسيد هييز وأشكره أن فعل ذلك. إن طبيعتي تختلف عن طبيعة روز وهي تحب المغازلة وتحب المتعة. ولهذا دائما زوجها يغار عليها ويخاف عليها أن تخونه، ولكنني لا أعتقد أنها تفعل ذلك. اعذرني إن ضحكت فقد أعلمتني بأنها ستخطفك مني كما خطفت جورج. قلت لها أنك لست حبيبي! أنت ابني الرابع ! ثم إنك شاب متدين لا تعمل علاقات غرامية مع نساء متزوجات حتى ولو أردن ذلك. قالت حتى ولو كان ذلك، فسآخذه منك!

- يبدو لي أنك تختلفين كثيراً في تصرفاتك عن أختيك، فأنت متدينة تخافين الله، وهن لا يهمهن إلا متعتهن الجسدية ! قال الشاب بأسف !

- للأسف هذا صحيح ! قالت المرأة وأتبعتها بهزّة من رأسها!

كان راكان مستلقيا فوق الكنبة باسترخاء وتكاسل، يستمع لما تقوله السيدة هييز وعينيه شبه مغمضتين ، محاولاً أن يكون مستمعا لحديثها أكثر مما يكون مشاركاً ! وفجأة شق الفضاء صوت صفارة عسكرية تطلق صفرات متتالية، انبعث من البيت المجاور إلى اليمين! قفزت السيدة هييز من مقعدها كالملسوعة، وتوجهت نحو باب الخروج بأقصى سرعتها، وهي تقول:

- أسرع يا راكان! إلحقني. السيدة دوول سقطت!

لحق بها الفتى مسرعا دون أن يفهم ما عنت، وظلت تركض وهو يجري خلفها حتى وصلت السياج الذي يفصل بين بيتها وبيت جيرانها، وحركت زقاطة ثم فتحت بابا حديديا صغيرا، وانتظرت حتى يدخل راكان وتغلق الباب خلفها. ولكنها ما كادت تقع عيناها على مكفولها حتى صاحت منزعجة:

- يا إله السماء، ما هذا الذي ترتدينه؟! ودون أن تنتظر جوابه سحبته من يده وهي تركض وتجره خلفها حتى أدخلته من الباب الخلفي والمؤدي إلى غرفتها، وألقت بنفسها فوق سريرها وأنفاسها تعلو وتهبط، حتى خاف الفتى أن تصيبها جلطة دموية.

- قولي لي ماذا حدث وأي خطأ ارتكبت! سأل راكان باندهاش ممزوج بالانزعاج.

- لـ..حظة..وا... حدة... من... فضـ... لك...!

كانت أنفاس العجوز المتلاحقة تعلو وتهبط حتى خاف الفتى أن يحدث لها مكروه ! وكان صوت الصفارة العسكرية ما زال متلاحقا يشق عنان السماء، وقد أحس الشاب أن صوت الصفارة قد بدأ يثخن ويخشوشن وكأنما لم يعد به قوة ليتابع انطلاقه.

- أرجوك قولي لي ماذا حدث؟! لقد أقلقتني كثيراً! سأل راكان ثانية وبلهفة! وعندما استطاعت المرأة أن تتكلم قالت وهي تشير بذقنها نحوه.

- البيجاما!

- وماذا عن البيجاما؟ ! سأل راكان بقلق وهو يتفحص بيجامته!

- لقد خرجت من البيت وأنت مرتد بيجاما.

- أنا أعرف ذلك!! وما هي المشكلة؟! رد هو بغيظ.

- ولكن هذا معيب جدا! وارتاحت قليلا ثم أضافت:

- الناس يلبسون بيجاماتهم فقط في غرف نومهم، وإذا لبسوها في الصالون فيجب أن يلبسوا فوقها روبا! ثم استراحت قليلا وأضافت:

- إنه معيب جدا جدا أن يرى الغرباء بيجامتك !

أغمض الفتى عينيه نصف إغماضة يفكر في ما قالته العجوز! إذ إن عقله لم يستوعب ما قالت!

- لم أعترض لبسك إياها خارج غرفة النوم، لأن كل ملابسك ثقيلة وليس عندك ما تلبسه في هذا الطقس الحار. لم أعارض لبس البيجاما، لأنها صيفية وخفيفة ولا يوجد عندك شورت ولا بنطلون صيفي؛ أما أن يراك الغرباء، فهذا معيب جداً !

- يا للسخرية ! لقد شاهدت أمس في الطريق إلى هنا رجالا يرتدون البنطلونات القصيرة جدا وليس عليهم غيرها، شيء، حتى ولا فانيلا! ورأيت نساء أشباه عرايا لا تستر أجسادهن سوى شورت قصير بحجم ورقة التوت ،يغطي ما بين أفخاذهن ورؤوس حلمات نهودهن؛ فهل ذلك ليس مخالفا للأخلاق والحشمة؟! أما أنا فأرتدي بيجاما وفي حديقة البيت، ويعتبر ذلك وقاحة وقلة حياء ومخالفا للأخلاق والحشمة، يا له من عالم سخيف! سخيف جدا! قال راكان بحيرة.

- أنا لا أعرف يا بني! قالت العجوز وقد نهضت واتجهت نحو الخزانة.

- هكذا تسير الأمور هنا، وهكذا يفكر الناس! قالت ذلك وأخرجت بنطلونا وقميصا ناولتهما للفتى!

- أرجوك أن تسرع يا عزيزي، إن السيدة دوول سيجن جنونها، إذ ربما تعتقد أن لا أحد يسمع صوت صفارتها، وأنها ستموت!

حشى الشاب نفسه في بنطلونه وقميصه ثم سأل:

- وهل أحتاج لتغيير شبشبي بحذاء؟!

- ذلك لا بأس به. قالت وهي تخرج مسرعة ويخرج هو خلفها.

- هل تعرفين يا ماري! قال راكان وهو يغلق خلفه باب منخل الغرفة وهما خارجان!

- إن الكثيرين من الناس في الوطن يخلعون ملابسهم حالما يعودون من أعمالهم ، فيلبسون بيجاماتهم طيلة الوقت الذي يقضونه في بيوتهم، وأحيانا يذهبون لزيارة الجيران أو حتى شراء حاجياتهم من بقالات مجاورة، وهم يرتدون بيجاماتهم وليس فوقها روب ولا شيء.

لم تعلق السيدة هييز على ما قاله راكان، فقد كانت أنفاسها تعلو وتهبط وهو يسيرخلفها!

- لا تقلقي يا سيدة دوول! نحن قادمون لنجدتك! قالت السيدة هييز.

كفت الصفارة العسكرية عن الدوي، وشاهد الفتى امرأة ضخمة الأطراف كبيرة الحجم ترتدي فستانا من القماش الكاكي وكأنها سجّانة في إحدى سجون الوطن الحبيب، ممددة على ظهرها فوق الحشائش كأنما هي كومة ضخمة من الأمتعة!

انحنت السيدة هييز وسبقها راكان، وأنهضا المرأة.

- كدت أموت من الخوف! قالت المرأة الممددة وهي تبلل شفتيها الغليظتين، واللتين خيل للفتى بأنهما في حجم شفة الماعز بلسانها الكبير.

- كاد اليأس يستولي علي، إذ ظننت أنك ذهبت لزيارة أحد أقاربك ولن تعودي إلا في المساء! واستراحت قليلا وهي تسترد أنفاسها!

- جارتنا السيدة "زمرمن" ذهبت قبل يومين إلى سان فرنسيسكو لزيارة ابنتها لمدة أسبوع، فقلت لا بد أنني ميتة عندما تأخرت أنت، إذ إنك كنت دائما تأتين لنجدتي في الحال. اليوم تأخرت كثيرا، يا ماري! لم فعلت ذلك؟! سامحك الله! لا تفعليها مرة أخرى! قالتها بلهجة عتاب رقيقة ومحزنة!

لاحظ الشاب أن المرأة كانت تمسح دموعها بظهر يديها: لعلها دموع الفرح من النجاة من موت محقق!

- لقد انحنيت لأفتح رشاش الماء لأسقي الورود، ولكن يبدو لي أنه كان مبتلا فانزلقت رجلي، فسقطت!

- السيدة دوول! هل لي أن أقدم لك السيد راكان؟ قالت السيدة هييز وعلى وجهها بسمة فرح كبيرة.

- لا شك أنك تمزحين! أجابت المرأة وهي تحدق براكان.
- هذه صديقتي السيدة دوول. قالت المرأتان تقاطعان بعضهما بعضا.
- أنا سعيدة جدا جدا بلقائك. أنت في الحقيقة أجمل من الصورة كثيرا! قالت المرأة وقد مدت يدا كبيرة خشنة كأنها يد مزارع جلف! وشدت على يده بقوة، ثم تطلعت إلى وجهه تتفحصه!
- لقد انتظرت ماري طويلا وتعذبت المسكينة، كانت تبكي كثيرا وهي تشكو لي انتظار مجيئك، فكنت دائما أشجعها وأحثها على الصبر! ثم التفتت إلى السيدة هييز وقالت:
- ولم لم تخبريني أنه وصل؟! ألا تعرفين أنني تواقة لمعرفة وصوله وتواقة لأن أعرف أنك قد توقفت عن المعاناة؟! سألت المرأة عاتبة!
-لقد كان في نيتي أن أخبرك غدا بأن نأتي لزيارتك وأعرفه عليك. لقد جاء ظهر أمس وهو ما زال متعباً !
- إنه شاب وسيم جدا ! قالت السيدة دوول وهي تنظر إلى راكان من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى؛ ثم ضحكت وأضافت:
- طويل جدا ونحيف! شعر أسود مجعد... أسنان بيضاء ناصعة البياض... عيناه متوقدتان كعيني الصقر! انظري ما أطول أصابعه وأجملها!
كانت كل هذه المدة ويدها ما زالت ممسكة بيده. ثم طبطبت بيدها اليسرى على يده اليمني واسترسلت:
- ستتهافت الفتيات عليك! يجب أن تراقب خطواتك. البنات هنا جريئات وقويات. هنّ اللواتي يطاردن الرجال، وليس العكس!
احمرّت وجنتا راكان، وألقى برأسه إلى الأرض!
- هل رأيت يا ماري؟! إنه خجول جدا. الخجل أحيانا ليس حسنا. البنات سيستغللن خجلك!
ازداد خجل الفتى واعترته موجة من العرق!
- انظري يا ماري، إنه يعرق وتحمرّ وجنتاه عند الإطراء، كالفتاة في أيامنا السالفة !
- انه خجول جدًا ومؤدب. قالت السيدة هييز بفخر وهي تبتسم:

- ألم أقل لك ذلك يا أفلين؟ إنه لا يرفع صوته عندما يتكلم، وإذا تكلم فإنه يتكلم ببطء وكأنه يفكر في كل كلمة قبل أن يقولها!

- كن دائما لطيفا مع ماري! لقد تعذبت المسكينة كثيرا، وغضب منها كل أهلها وأصدقائها لأجلك. أنا الوحيدة التي شجعتها على مساعدتك للحضور. كلما سألتْ إنسانا عن رأيه في مساعدتك كانوا يقولون لها وما شأنك بمساعدة مسلم ليس من دينك؟ !

- هذا صحيح ؛ كنت أسال أحد إخواتي أو أولادي أو أولادهم وحتى أصدقائي، كان كل واحد يقول لي إياك أن تفعلي ذلك، إذ سيكلفك نقودا بدون مقابل. ولكنني سأقبض أجري من الرب ، خالقنا السيد المسيح. إنه هو الذي سيكافئني على مساعدة راكان ، لأنني ساعدت إنساناً من البلد الذي ولد بها وعاش ومات على الصليب من أجل خطايانا!

- كيف وجدت أمريكا؟! سألت السيدة دوول، وفتح الشاب فمه ليقول شيئا ولكن المرأة استرسلت:

- إن أمريكا بلد عظيم، والإنسان يستطيع به أن يبني نفسه ويصبح غنيا إن شاء ومتعلما أيضا. تستطيع أن تجمع ثروة كبيرة إن كنت على استعداد أن تعمل بجد ونشاط. كثيرون جاؤوا مهاجرين إلى أمريكا لا يملكون شيئا وأصبحوا أغنياء جدا ومرموقين !قالت المرأة بحماس.

حاول الفتى أن يسحب يده من يدها، ولكنها ظلت ممسكة بها، بل لاحظ أنها زادت إصرارا، على الرغم من موجة العرق التي تلفها، ثم أضافت:

- وتذكر أيضا أنه مثلما أمريكا تستطيع أن تعطيك الجاه والمال والعلم، تستطيع أن تسحقك حتى تصبح كالغبار!

وهنا ضربت يديها ببعضها، كأنما لتريه كيف تخرج الغبار من ضرب يديها ببعض، فسحب راكان يده بسرعة، وأحس بعدها كأنما أطلق من سجنه وصار يجفف بيده اليسار العرق الذي على يده اليمين.

- تعالوا! دعونا ندخل إلى الداخل من حر الشمس، لأقدم لكم شيئا باردًا تشربونه. قالت ذلك وتوجهت نحو حنفية الرشاش وأغلقتها.

كان جسم المرأة يسبح في نهر من عرق لزج، إذ لا شك أن لها مدة طويلة تحت حر الشمس اللافح، ولكن لا شك أن فرحة الإنقاذ وفرحة لقاء الشاب أنستاها معاناتها تحت حر الشمس.

- إننا لا نستطيع الدخول لأننا ننتظر آنثوني. إنه قادم ليسلم على راكان. سنزورك قريبا. قالت السيدة هييز.

- إن ماري صديقتي الحميمة. إنها تطلعني على كل أسرارها ولا تخفي عني شيئا. لقد أطلعتني على كل رسائلك وماذا كانت تكتب لك. إننا جيران وأصدقاء منذ أكثر من ثلاثين عاما.

- واحد وثلاثون عاما وخمسة شهور وأربعة عشر يوما. لقد رحلتم في شهر مارس.

- إن لماري ذاكرة قوية جدا.

- لقد بدأت ذاكرتي تضعف. إنني أحتاج أحيانا أن أتمهل لأفكر عندما أريد تاريخا. قالت السيدة هييز بحزن.

- تعالا لزيارتي غدا، سأنتظركما. أسرعا مخافة أن يأتي آنثوني ولا يجدكما. ثم التفتت إلى راكان وقالت وهي تمد يدها لوداعه:

- سعيدة بلقائك يا عزيزي! سنتحدث طويلا عندما تأتيا لزيارتي غداً !

- سعيد للقائكِ! قال راكان وهو يرفع يده إلى رأسه تحية على طريقة الوطن ودون أن يعطيها يده ! لقد تظاهر بعدم رؤية يدها الممدودة، فهو لا يريد أن يقع في نفس القبضة الفولاذية ثانية!

*****

- ما رأيك بأن أعطي السيدة دوول قاطرة جمال؟ ! سألت السيدة هييز راكان بعد أن اجتازا السياج بين البيتين.

- كما تشائين؛ ولكنني لم أفهم القصد من الصفارة العسكرية؟!

وبعد أن ضحكت وضربت على فخذها دليل التعجب قالت:

- إن السيدة دوول قد بلغت الواحدة والثمانين في التاسع عشر من الشهر الماضي. إنها أحيانا تجلس ولا تستطيع النهوض، إذا كان مقعدها منخفضا لمستوى أقل من طول ركبتيها، وأحيانا تسقط على الأرض وهي تسقي الزهور مثلما حدث اليوم. هي مثلي تحب الزهور. بالمناسبة، إنني لم أسق الزهور اليوم، إن زهور الأضاليا بحاجة إلى السقاية دائما! إنني لم أرك الجنينة بعد، وأنا واثقة بأنك ستحبها كثيرا!

وتوقفت للحظة، وهنا لاحظ راكان أن جدائلها معقوصة وموضوع بها شريط أحمر، كأنها في العاشرة من عمرها؛ ذكرت راكان ببنت كان يراها مع أمها ويفرح كثيراً لرؤيتها ! كانت دائما تقودها أمها وشعرها مربوط إلى أعلى بشريط أحمر فاقع اللون، وكان

هو يمضي بعض الوقت يراقبها وجدائلها تتطاير ذات اليمين وذات الشمال، فيشعر بسعادة غامرة!

- عن ماذا كنا نتكلم؟ سألت السيدة هييز، ثم أطلقت ضحكة!

- آه! لقد سألتني عن سر صفارة السيدة دوول. آه ! إنني لا أدري ماذا حدث لي مؤخرا! لقد صرت أنسى كثيرا، وخصوصا في الفترة الأخيرة ! ثم ضحكت ثانية وقالت:

- كما لاحظت يوجد حديقة كبيرة حول بيت السيدة دوول، مملوءة بالأشجار والزهور والورود. ستراها أكثر وستستمتع بجمالها عندما نزورها. هي وأنا نحب حديقتينا كثيرا؛ وهما اللتان تحفظان أجسامنا قوية. نحن نحب كثيرا العمل في حديقتينا. طبعا حديقتها أكبر من حديقتي بكثير. هي عندها جنائني صيني يأتي يوما كل أسبوع. هو يعتني بالأشجار ويساعدها بالعناية بالزهور والورود، ولكنها تحب أن تعتني بالزهور والورود بنفسها، ولا تعتمد دائما على الجنائني. إنك دائما تراها تسقي، ودائما تراقب الزهور. إنها أحيانا تنحني لفتح حنفية الرشاش، أو لتفتح خرطوم الماء، أو تنحني لتقطف بعض الزهور أو الورود، فتجد نفسها تسقط على الأرض، ولا تستطيع النهوض، حتى يأتي أحد ويساعدها على النهوض. هذه عادتها منذ أكثر من عشر سنوات. أولادي الثلاثة يحبونها كثيراً وهي تحبهم أيضا، منذ أن كانوا صغاراً. هم لا يحبون زوجها مثل حبهم لها، لأنه غير بشوش. كانت لهما ابنة واحدة وهي أيضا مثل والدها. أنا مسرورة أنها أكبر من ابني الكبير جيمي، إذ لا أحب أن تكون زوجة له. إذ لو كانت في مثل سنه أو أصغر قليلاً لربما كان قد تزوجها! سقطت يوما مثلما سقطت اليوم، هذا كان ربما قبل أحد عشر عاما، ولم تجد من يساعدها على النهوض. أمضت أكثر من ساعتين حتى استطاعت أن تصل إلى الهاتف وهي تزحف، كان من حسن حظها أنها سقطت داخل البيت وإلا لو كانت سقطت في الحديقة لربما ماتت. كانت قبل أحد عشر عاما طبعا أقوى من اليوم. هاتفتني، وذهبت وساعدتها. في نفس الليلة، مر عليّ ابني جيمي ليطمئن علي. فأعلمته بقصتها، لم يكن وقتها ضابطا مثلما هو الآن. كان رقيب شرطة. فكر جيمي قليلا وقال لي: وجدت الحل يا أمي لقضية السيدة دوول. وغاب قليلا وعاد وهو يحمل صفارة عسكرية ولها قيطان وقال: اتبعيني. كنت ألح عليه أن يعلمني ولكنه قال: انتظري وسوف ترين، وذهبنا إلى بيت السيدة دوول. كان

آنثوني يعيش معي ورفض أن يرافقنا. قال لها جيمي وهو يضع الصفارة في رقبتها: لا تخلعيها أبدا أبدا حتى وأنت تستحمين. عندما تسقطين حتى ولو كنت في الحمام، استمري في التصفير حتى يأتي أحد الجيران، أو أحد المارة أو ربما سيارة البوليس وهي تمر بالشارع ، فيأتون لنجدتك. طبعا، هي أعلمت الجيران، وهو قام بإبلاغ سيارات الشرطة. الكل يسمع القصة ويسر لسماعها، والكل سعيد بأن يأتي ليساعدها عندما تسقط. وجيمي سعيد لأنه صاحب هذه الفكرة. رئيسه هنأه على الفكرة، لأن السيدة دوول مسئولية البوليس أيضا!

"مسئولية البوليس في الوطن هي أن ينقص فردًا من المواطنين لا أن يزيدهم. همهم أن يموت مواطن لا أن يعيش!" قال راكان لنفسه.

- هل هي نفس الصفارة ونفس الخيط منذ أن أعطاها لها جيمي؟! سأل الفتى.

- لا، لا! لقد بدلها لها كثيراً. إنها كلما شعرت أن الصفارة لا تعمل جيدا أو أن خيطها قد اهترأ، تقوم بالاتصال بجيمي في مكتبه أو حتى في بيته، فيكون عندها البديل بعد دقائق! وضحكت السيدة هييز هذه المرة، وكركرت طويلاً:

- إن للسيدة دوول الحق في تبديل صفارتها مثل أي بوليس أو ضابط بوليس في الخدمة الفعلية ! هكذا قال لها جيمي عندما كان شاويشا، وقالها لها عندما صار مسئولا عن المخفر، وقالها لها رئيس جيمي عندما أعلمه جيمي بالقصة! وغمزت السيدة هييز بطرف عينها وضحكت!

- إن جيمي يسر كثيرا عندما تهاتفه السيدة دوول لتطلب بديلا، لأنه صاحب الفكرة!

- ولم لا تحاول أن تطلب من أحد أن يسكن معها ليعتني بها؟! سأل مكفولها.

- إن السيدة دوول لا تحب أن يسكن معها أحد. لقد اقترحت عليها ابنتها أن تسكن امرأة معها في هذا البيت الكبير بعد وفاة زوجها، ولا تأخذ منها إيجارا. فقط تكون كرفيق ومؤنس، ولكنها رفضت. هي لا تطيق أن يسكن معها أحد. إنها تعيش لوحدها منذ أكثر من خمسة عشر عاما. كان زوجها يصغرها بخمس سنوات. كذلك، اقترحت عليها ابنتها أن تذهب وتعيش في بيت للمسنين وتبيع بيتها ولكنها

رفضت. قالت أنها إن ذهبت وسكنت مع المتقدمين في السن فسوف تموت. إن مجرد الفكرة ترعبها. قالت لي يوما: إن الأزهار والورود هي أصدقاؤها. ليس لها قريب سوى ابنتها التي تكلمها بالهاتف وتأتي لزيارتها كل شهر أو شهرين. ولكنها بعيدة! السكن في بيت للمسنين شيء فظيع ومخيف أحيانا. إنهم يشعرون بأن لا أحد يحبهم، وأن أهلهم يريدونهم أن يموتوا. إنهم يعيشون بلا هدف!! إنهم فقط ينتظرون الموت! إنه شيء مخيف أن يعيش الإنسان بلا هدف، ويظل ينتظر الموت يوما بعد يوم. لن أسكن يوما في بيت من تلك البيوت!

وهنا وصلا الباب فدخلت ودخل راكان خلفها!

*****

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بقليل عندما أدارت السيدة هييز رقم هاتف السيد استيوارت:

- لن أخبره عن الهدايا. سأنتظر حتى مجيئه ثم أفاجئه بها. قالت قبل أن تدير آخر رقم.

- نعم. هذه السيدة هييز، أريد أن أتكلم مع السيد استيوارت. سأنتظر! ووضعت يدها اليمنى على الميكرفون وأبقت السماعة فوق أذنها وأبعدت فمها عن لاقط الصوت وهمست لمكفولها:

- إن سكرتيرته تريدني كثيرا... إنها تعرفني من صوتي... إننا لم نتقابل بعد... إننا أحيانا... ثم بسرعة أخذت يدها عن السماعة وقربتها من فمها.

- أنا مسرورة، أشكرك وأنتِ؟ وكيف حال السيدة استيوارت والصغيرة مارلين؟ هذا عظيم جدا! أحزر ماذا؟ آه جورج، إنك تحب أن تمزح معي! لقد قلت لك أنني لم أفكر بهذا منذ أكثر من عشر سنوات! ولاحظ راكان أن وجه السيدة هييز قد علته حمرة شديدة من الخجل.

- أوه جورج، أوقف المزاح! إن عندي خبرا أهم من هذا. ماذا؟ بالضبط! وصل أمس عند الظهر. ماذا؟ لا أنا لا أمزح. إنه جالس قبالتي. لقد قلت له ذلك! نعم قلت له أنك تبرعت بمقابلته بالمحطة. ولكن شابا من وطنه أحضره. لا، لا، تعرف عليه هنا فقط. نعم، إنه بصحة جيدة! فقط متعب قليلا. تريد أن تكلمه. لحظة واحدة. وأشارت إلى الفتى أن يقترب منها ومدت له السماعة.

- هالو السيد استيوارت! وحاول راكان أن يضع ابتسامة على شفتيه وأن يبدو هادئا وسعيدا.
- كيف كانت رحلتك؟
- لقد كانت رحلة لا بأس بها. قال راكان بحماس.
- أنا مسرور جدا بقدومك. قال الرجل.
- أشكرك جدا، إنها بفضل مساعيكم.
- في الحقيقة إن الفضل يعود للسيدة هييز! لقد آلمني حزنها فأشفقت عليها ولم يهدأ لي بال حتى أرسلت لك الكفالة!
- أشكرك يا سيدي. إنك لطيف جدا! لن أنسى معروفك ما حييت؛ وأحب أن أقابلك لأشكرك!
- إنه لشيء بسيط جدا.
- كبير بالنسبة لي. إنها هنا. تفضل تكلم معها.
مد راكان السماعة إلى السيدة هييز التي كانت تبتسم طيلة الوقت، وبعد أن وضعت السماعة على فمها قالت:
- ألم أقل لك أنه شاب مهذب؟! إنك لا تستطيع إلا أن تحبه عندما تكلمه! شاب لطيف للغاية. نعم إنني أعرف ذلك. متى ستأتي لزيارتنا؟ إننا نتطلع بشوق لرؤيتك اليوم أو غدا؟ هذا عظيم جدا. في أي ساعة تحضر؟ لا تدري بالضبط... يعني ربما تكون بعد الظهر أو في المساء! إذا لم تستطع أن تحضر اليوم؟ غداً! ممتاز! إذن نقول بين الساعة الثامنة صباحا، والعاشرة ليلاً. حسب ما تسمح به ظروفك... طبعاً! طبعاً! مع السلامة. فليحفظك الرب. ثم أغلقت السماعة.
نهضت إلى راكان تضمه إلى صدرها وتعانقه وتقبله على جبينه ورقبته وخديه.
- لقد قال إنه يود لو يستطيع أن يحضر في الحال ولكن أمامه قضية يريد أن ينهيها... ربما يحضر قبل الظهر غدا!
- يجب أن أرتب البيت وسأضع هديته جانبا.
شعر الفتى بأنه يحب أن يقول شيئا ليسعد كفيلته ويزيل الشك من ضميرها من أنه يعتقد بأن محاميها إنسان غير أمين، فقال:
- يظهر من حديثه أنه رجل مهذب!
- لقد قلت لك ذلك! إنه إنسان نبيل وشهم وكريم! ثم ابتسمت وتطلعت إلى الأرض كأنها فتاة من وطنه تعلمها أمها بأن أحد الشبان تقدم لخطبتها!

-إنه دائما يمزح معي ويقول لي: سنجد لك زوجا يا ماري، وعندما أعلمته أن عندي له مفاجأة ظنها عريسا! وضحكت وضحك راكان معها.

- إنني لم أفكر بالزواج منذ أن توفي السيد هييز... لقد انشغلت بتربية الأولاد وتزوج آخرهم قبل عامين. لقد قمت بواجبي في الحياة، فربيت ثلاثة رجال!

لم يدر الفتى ما يقول، وهل كان من اللائق أن يصمت أو أن يقول شيئا. وأخيرا فتح الله عليه فقال:

- أعتقد أنه كان باستطاعتك الزواج عندما انتهيت من تربية أولادك، أعني بعد أن أديت واجبك كأم نحوهم! وتوقف لحظة كأنما يفكر ثم أضاف:

- ولكن المشكلة أن الإنسان لا يجد الشخص الذي يعتقد أنه سيسعد معه، فيفضل البقاء عازبا خيرا من أن يتعذب من أجل زواج فاشل!

انتظر راكان أن تعلق المرأة ولكنها لم تفعل فأردف قائلا:

- في الواقع، إن الزواج حظ... إنه مغامرة، قد يسعد به الإنسان وقد يشقى!

- ولهذا السبب فكرت أن لا أتزوج! إن جميع الذين خطبوا ودي لم يعجبوني، وكنت واثقة أنني لن أسعد معهم، ولهذا فضلت حياة العزوبية على الرغم مما فيها من وحدة وألم وعذاب!

وصمت كل منهما، ومرت فترة سكون قطعتها السيدة هييز بقولها:

- إنني لم أذكر للسيد استيوارت شيئا عن عمل لك، وهو لم يفعل أيضا، ولكنني أعرف أنه قادم هنا لبحث إمكانيات العمل! إن له أصدقاء كثيرين، وله نفوذ واسع في الشركات، فسيجد لك عملا في الحال!

- ماذا تظنين سيكون نوع العمل؟ سأل الفتى بلهفة.

وفكرت السيدة هييز لحظة ثم قالت:

- أظن كموظف في إحدى الشركات. هل عندك مانع في ذلك؟

- طبعا لا! وماذا أطمح أكثر من ذلك؟! لقد كنت أعمل في مكتب بالحكومة بالوطن، إذن سأحصل على عمل مثل عملي؟

هزت المرأة رأسها علامة الموافقة ثم قالت:

- إذا عرض عليك عملا بدولارين في الساعة إياك أن ترفض!

- طبعا لا! ثم بدأ راكان يحسب في مخيلته أربعين ساعة في الأسبوع تعني ثمانين دولارا مضروبة بأربعة أسابيع، تعني ثلاثمائة وعشرين دولارا... إن هذا راتب وزير في الوطن ، بل راتب رئيس الوزراء نفسه !

قطعت السيدة هييز على راكان أفكاره بقولها:

- إذا أظهرت نشاطاً واجتهاداً؛ ستحصل على ترفيع خلال ستة شهور؛ وستظل تترفع عاما بعد آخر حتى تصبح رئيسا للشركة!

شعر راكان بسعادة غامرة، ورأى نفسه وهو رئيس لشركة يعين من يشاء، ويقيل من يشاء، ثم له سكرتيرة خاصة. إنه سيختارها في عمر الربيع في العشرين وربما أصغر قليلاً... طويلة، لها شعر ذهبي مرسل فوق كتفيها وعينان زرقاوان، ثم شفتان قرمزيتان!

إن راكان يحب الشقراوات ذوات الشعر الذهبي المرسل على الكتفين ويحب العيون الزرقاء؛ فشعر بنشوة غامرة وسعادة عظيمة، إذ تصور نفسه يطبع على شفتيها القبلات في خلوة غرامية وهي لا تستطيع أن تمانع ولا أن تقول لا! إنه رئيسها!

لقد تحقق الحلم الذي قدمت من أجله إلى أمريكا يا راكان... لقد تحققت الأمنية التي طالما تمنيتها... سيكون لك سيارة فاخرة، وراتب ممتاز ورصيد في البنك ثم سكرتيرة ذات شعر ذهبي... طويلة... شعرها ينسدل على كتفيها كشلال من ذهب، نفس الفتاة التي كنت تحلم بها... افرح، واسعد، لقد تحققت أول أمنية لك في سلسلة أحلامك! ابتسم. إن مستقبلا عظيما ينتظرك!

*****

كانت السيدة هييز وراكان قد جلسا بعد تناول الغداء على كرسيين متجاورين قبالة الباب وكان باب الخشب قد ترك مفتوحا، وأغلق خلفه باب المنخل، وكان الناظر خلال الباب يستطيع أن يتبين كل ما يمر بالشارع، وكل من يدخل من مدخل الحديقة الخارجي.

كانت الساعة حوالي الثالثة بعد الظهر، وكان الفتى نصف مفتوح العينين، يراقب الطريق بشوق واهتمام زائدين؛ وهو يحلم بالوظيفة التي سيشغلها، والسيارة الفارهة التي سيقتنيها، والبيت الفاخر الذي سيملكه، ثم الفتاة الساحرة التي سوف تكون له!

كانت السيدة هييز وهو قد ارتديا ملابس الخروج، استعدادا لاستقبال السيد استيوارت، والمتوقع وصوله بين لحظة وأخرى. وفجأة، قطعت السيدة هييز الصمت بأن قالت:

- كن جريئا ولا تخجل عندما تتكلم معه؛ إنه لا يكبرك سوى بتسع سنوات! قل له طلباتك وحاول أن تؤثر به من أول لقاء.

هز رأسه بتراخ وكسل علامة الموافقة، إذ كانت الدنيا في الخارج حارة كأنها جهنم.

لاحظ الشاب أن كفيلته قد أغلقت جميع أبواب البيت ونوافذه في اليومين السابقين، حتى لم يستطع أن يميز الأثاث أمامه بسبب الظلمة، كما لاحظ أن هذه أحسن طريقة لحفظ البيت باردا، أو لمنع الحرارة من الدخول؛ أما اليوم فالباب مفتوح وستائر نوافذ غرفة الجلوس مكشوفة؛ والسبب هو أنهما يريدان أن يريا السيد استيوارت عندما يقبل من بعيد، حتى يهرعا ويفتحا له باب السيارة بدلا من أن يأتي هو إلى باب البيت ويقرعه!

كانا يتحدثان إلى بعض في تراخ وكسل، وكانت ربطة عنق راكان تكاد تخنقه والبذلة الصوفية الجديدة التي أحضرها معه من الوطن؛ تكاد تحرق جسده. لقد أصر على أن يرتدي البذلة الغامقة، على الرغم من أنها مصنوعة من الصوف الثقيل:

- لأنني أبدو بها أكثر شخصية من البذلة البنية. قال راكان هذا ردا على السيدة هييز التي نصحته أن يرتدي بدلته البنية الخفيفة...!

كانت عيونها لا تتحول عن الباب الخارجي، وإن كانت نصف مغمضة، تحلم، وفجأة ظهرت سيارة شيفروليه زرقاء تكاد تكون جديدة بالباب، وقفز الاثنان من مكانيهما كأنما لسعتهما حية، أو ألهب جسديهما سوطاً من نار! هرولت السيدة هييز ودفعت الباب المنخلي وخرجت، وكان راكان في أثرها، ولكن قبل أن يترك الباب يغلق وراءه، كانت السيارة قد انصرفت، مما سبب له خيبة أمل عظيمة! وقالت السيدة هييز وهي تضحك بخيبة:

- فقط سيارة تدور في الممر.

تضاحك هو بمرارة ليداري خيبته، وظل ممسكا لها الباب حتى دخلت، ثم دخل هو خلفها، وبلطف رفع يديه عن الباب فأغلق:

- إنه قد يأتي في أية لحظة! قالت السيدة هييز!

- إنني في الواقع أحب المواعيد المحددة، إذ إنني أكره الانتظار! قال راكان شبه محتد!

- وأنا أكرهه أيضا، ولكن السيد استيوارت لا يستطيع أن يعطي مواعيد دقيقة! قالت السيدة هييز بفجاجة!

لم يعلق راكان بشيء وعاد وجلس على كرسيه بعد أن رأى السيدة هييز جلست في كرسيها.

- إن الإنسان في زحمة السيارات لا يستطيع أن يحضر في موعد محدد، حتى وإن وعد! إن السير أحيانا يكون مزدحما، فتأخذ الطريق ساعتين مع أنها تأخذ ساعة أو حتى نصف الساعة أحيانا إذا كانت غير مزدحمة!

- هذا صحيح! على كل حال، ما زال الوقت مبكرا! قال راكان ثم أضاف:

-أرجو أن لا تفهمي أنني غير راض عن الانتظار.

مرت أكثر من ساعة أمضياها بالتحدث في شئون تافهة متفرقة، وعينوهما لا تتحول عن مراقبة مدخل الحديقة عندما دخلت في المدخل سيارة سوداء قديمة تعلوها طبقة من الغبار، لكن عمرها كان عشر سنوات أو أكثر. وهب راكان من مقعده فرحا: "ذلك هو". ولكن فرحته فارقته عندما لاحظ أن السيدة هييز لم تنهض من على مقعدها.

- إنه لا يمكن أن يقتني سيارة مثل هذه... وقبل أن تتم جملتها كانت السيارة قد دورت ورجعت؛ وعاد هو ورمى نفسه فوق مقعده، ولكن قبل أن يلقي بنفسه إلى الوراء، رأى سيارة سوداء فاخرة جدا تتهادى كالعروس في حلة زفافها، تقف أمام المدخل حتى تسد طريقه، ثم تطلع الرجل "المبرنط" بداخلها باتجاه البيت، وضغط على البنزين قليلا حتى تجاوز المدخل، فأوقف السيارة، وهنا هرعت السيدة هييز وهرع راكان خلفها وهو يمر بيده اليمنى على ربطة عنقه ليتأكد من هندامه، ثم أخرج وهو يجري منديله من جيب سرواله الخلفية، ومسح بها عرقه المتصبب من على جبهته ورقبته، ثم عاد ودسها في مكانها.

- إنني لا أدري لماذا لم يدخل ويقف أمام البيت بدلا من الشارع. قالت السيدة هييز وهي تنحني لتسوي شبشبها في رجلها اليمين.

- إنني لا أدري أيضا! قالها راكان وهو يدير لسانه الجاف في فمه، إذ شعر بأن قلبه قد ارتفعت دقاته رهبة! لقد كان متوترا جدا.
- إنه رجل مثلك، تستطيع أن تكلمه دون حياء ولا خجل! قال راكان هذا لنفسه وهو يجري مسرعا ليسبق السيدة هييز وليفتح باب السيارة للسيد استيوارت الذي ما فتئ يجلس بالسيارة!
- انتظري هنا في الظل سوف أسأله ليدخل السيارة إلى الداخل. قال الشاب هذا للسيدة هييز وهو يوسع خطاه وقد تركها خلفه. ولكن السيدة هييز لم تقف في الظل، وظلت تتبعه باتجاه السيارة الواقفة أمام بيتها.
- كيف حالك يا سيد استيوارت، أنا راكان عبد الله دهشان، السيدة هييز تقول بأن تدخل سيارتك أمام البيت! قال الشاب هذا بعد أن وقف ينظر إلى الرجل الجالس في السيارة ويتطلع في جريدته كأنما يفتش عن شيء فيها.
رفع الرجل وجهه عن الجريدة ثم كشر عن أسنانه، وقطب ما بين حاجبيه، وأخذ ينظر إلى راكان نظرة حيرة واستفسار. ظل راكان مادا يده، والرجل ينقل عينيه بين وجه راكان ويده الممدودة. ووسع راكان من ابتسامته وقال ثانية:
- أنا راكان عبد الله دهشان، الشاب الذي حضرت لتراه، إنك تعرف هذا! كفيلتي تتساءل لماذا لم... وهنا وصل إليه صوت السيدة هييز يقول من الطرف الآخر للسيارة:
- إنه ليس هو يا راكان!
ثم نظرت إلى الرجل وقالت:
- متأسفين يا سيد، كنا نعتقد أنك شخص نتوقع قدومه. ولم يقل الرجل شيئا، وعاد وأغرق وجهه ثانية في جريدته، وأخرج راكان منديله، وفرده أمامه، وبدأ يجفف عرقه الذي كان يزحم وجهه كله ورقبته وجبهته، وسار إلى جانب السيدة هييز دون أن يفتح فمه. لقد شعر بخجل شديد، لقد أحس بأن الرجل وكأنما كان يسخر منه!
-لقد شككت أن يكون السيد استيوارت، لأن السيد استيوارت لن يوقف سيارته في الشارع. وبعد أن ضحكت، أضافت:
- لا شك أننا أرعبنا الرجل عندما رآنا مقبلين نحوه. وضحكت بصوت أعلى.
- لعله ظن أننا هجمنا عليه لنأخذ منه سيارته.

لاحظ راكان أنها تنظر إليه باهتمام شديد، وكأن القصد من نكاتها وكأنما تريد أن تسري عنه فتظاهر بأنه يبتسم.

- أعتقد أنه يجب أن ننتظر حتى نرى سيارته تقف أمام البيت، ثم نخرج للقائه، حتى نتجنب هذا الارتباك! قال راكان ذلك، وقد شعر أن الشمس حارة جدا.

- إنني أعتقد ذلك أيضا، وعندما أغلق باب المنخل خلفهما، سأل راكان:

- ألا تريدين كأسا من المرطبات تبللين به فمك؟ إنني ذاهب إلى المطبخ لأصب لنفسي كأسا. قال الشاب.

- فكرة عظيمة، أنني أشعر أنني عطشى.

وتوجها إلى المطبخ، وفتح راكان الثلاجة، وأخرج منها إبريقا من عصير الليمون، وبدون أن يغلقها، مد يده اليسرى، وتناول من على الرف كأسين طويلين في وسطيهما خط أحمر، ووضعهما على أرض الطاولة وملأهما، ثم أعاد الإبريق إلى الثلاجة وأغلقها. تناول كل منهما كأسه، وشرب منه شربة كبيرة. ثم عادا وجلسا على كرسيهما، وألقيا بنفسيهما إلى الوراء.

- إنني متعبة جدا! قالت السيدة هييز ذلك وهي ترمي بنفسها فوق الكرسي.

- إنني أكاد أحترق. قال راكان هذا، وهو يمسح بظهر يده بعض العرق المتصبب من على جبينه.

- ولماذا لم تخلع جاكيتك وترتديه حالما تراه مقبلا؟

- فكرة عظيمة. وهبّ من مقعده وخلع جاكيته، وسار حتى دخل غرفة الجلوس ورماه فوق أحدى الكنبات وجلس مع كفيلته!

عندما تجاوزت الساعة السادسة بقليل، خرجت السيدة هييز وراكان وجلسا على مقعدين طويلين كانا موضوعين أمام البيت، وبدأ نسيم لطيف يهب عليهما من الأشجار المحيطة بهما، وقد سُمع لبعض الأشجار حفيف لطيف. وصلت إلى أنفيهما رائحة زكية من بعض شجيرات الورد المزروعة أمام الدار، وظلا يتحدثان بمختلف المواضيع. تحدثا عن السيد استيوارت، وعن سبب تأخيره، وتحدثا عن السيارات التي تعبر الشارع، وعن الجيران، والأطفال الذين كانوا يلعبون بالشارع، وأحيانا يركض أحدهم ليلحق بكرة القدم، فقفزت فوق السياج إلى أرض الحديقة. ثم اقتربت الساعة من التاسعة، وصارت

بعض السيارات عندما تدور أمام البيت، يأتي ضوء السيارة إلى عينيهما فيزعجهما! وكانا يظنان أن كل سيارة تنحرف في طريق الحديقة هي سيارة السيد استيوارت. وعندما تطلع راكان إلى ساعته وجدها قد جاوزت التاسعة والنصف بقليل.

- لماذا لا ندخل ونسخن الديك الرومي ثم نتعشى؟ أنا أشك بأنه سوف يأتي الليلة، طالما أنه قد تأخر إلى هذه الساعة؟ أما إذا صادف وجاء ونحن نتعشى، فسوف ندعوه لينضم إلينا. قالت السيدة هييز، ثم نهضا ودخلا البيت.

بدا راكان يرتب الصحون والفوط والملاعق فوق الطاولة، بينما كانت السيدة هييز تسخن الطعام، ولم ينتهيا من طعاميهما إلا والساعة تقارب الحادية عشرة إلا ربعا.

- لا شك أنه سوف يأتي غدا. لقد أعلمني بأنه سوف يفعل ذلك إذا لم يتمكن من الحضور اليوم. إنني أرى أن نذهب إلى أسرتنا مبكرين حتى نستيقظ نشيطين! ربما يأتي في الصباح الباكر، قبل أن يذهب إلى مكتبه

- متى تعتقدين أنه سيأتي؟

- ربما يكون في تمام الساعة الثامنة! من يدري؟

- إذن يجب أن أنهض في الساعة السابعة كي أحلق وأرتدي ملابسي... إنني بطيء في الحلاقة وفي ارتداء الملابس. ثم أرى أنه من الأوفق أن نتناول فطورنا قبل أن يحضر، لأنه ربما ينسجم بحديثك فيبقى حتى الظهر.لقد أعلمني منذ مدة طويلة، أنك عندما تحضر، فإنه سوف يأتي ويقضي معظم اليوم معنا، وربما يأخذنا للغداء أو للعشاء!

عندما انتهى راكان من حمامه وضع نفسه في فراشه، فجاءت السيدة هييز وتأكدت من الغطاء!

- يجب أن تبقي كل الغطاء عليك، إذ إن الجو يبرد في آخر الليل! ولما لم يقل شيئا أضافت:

- إن السيد استيوارت لا بد من أن يأتي غدا، وأنا أعتقد أن سبب تأخره اليوم، هو لأنه يريد أن يؤمن لك العمل قبل أن يحضر! وهزت رأسها وأتبعتها برسم علامة الصليب على صدرها، ثم أضافت:

- إن عندي ذلك الإحساس، ثم لا تنس أنك لا تستطيع أن تعمل الآن بسبب ضعفك! ألا تذكر بأننا قد اتفقنا بأنك يجب أن لا تباشر

العمل قبل أسبوعين على الأقل من وصولك! حتى تعرف المنطقة قليلا!

وهز راكان رأسه موافقا، وقبلته العجوز على جبينه وأطفأت الضوء وخرجت.

*****

اكتبي لهم يا آنسة شارلوت جوابا على هذه الرسالة، بأننا سنرسل إليهم خمسمائة سيارة في منتصف الشهر القادم، ولكن عليهم أن يدفعوا لنا ثمنها أولا! أما هذه الرسالة، فأجيبيهم بأننا نقبل أن نعوضهم عن خسارتهم خمسة آلاف دولار فقط، وأن طلبهم عشرين ألفا تعويضا هو طلب غير معقول ومرفوض من شركتنا! أما الإجابة على هذه الرسالة: فاكتبي لهم بأننا نستطيع أن نشتري شركتهم رغم إفلاسها، ولكننا سندفع لهم فقط نصف المبلغ الذي يطلبونه على دفعتين: الأولى عند توقيع العقد، والثانية بعد ستة شهور من التوقيع! أما طلب هذه الشركة، فاكتبي لهم بأننا استلمنا المبلغ الذي اعتمدوه في البنك، وأننا سنجهز لهم جميع قطع الغيار التي يطلبونها، وإننا سنشحنها لهم في باخرة الشهر القادم! إن عندي غدا صباحا، وفي تمام الساعة العاشرة، اجتماع مع صاحب الشركة. لا، لا؛ يجب الانتهاء من كتابة التقرير السنوي هذا المساء ولو اضطررت للتأخير بعد انتهاء الدوام الرسمي.

- هذه جميع الرسائل التي تحتاج إلى رأيكم يا سيد دهشان!

- شكرا لك يا آنسة شارلوت. إنك سكرتيرة نشيطة ومخلصة، ونظرا لإخلاصك وتفانيك في خدمة الشركة، فقد أمرت لك بمكافأة راتب شهر كامل. ثم إنك فاتنة، وأنا أحب أن أمتع ناظري بشعرك المرسل على كتفيك كشلال من ذهب! إن جمالك يسحرني ويثير في نفسي شتى الانفعالات.

ابتسمت شارلوت وأطلقت غمازتاها سهمين اخترقا قلب مديرها، وأشعلت الحرائق بدمه، فقالت الفاتنة:

- إنني ومنذ أن صرت أنت مديرا لهذه الشركة، وأنا أريد أن أقول لك شيئا ولكنني دائما أتردد إذ أشعر بخجل شديد.

- ولم يا آنسة شارلوت؟! ألم أقل لكم أنتم جميعا، موظفين وموظفات، بأننا يجب أن نكون دائما صريحين مع بعضنا البعض، وأن يقول كل واحد منا ما يجول بخاطره، حتى ولو ظن أن فكرته

ربما لا تكون تستدعي الاهتمام ولا تلاقي قبولاً من أحد، لأن ذلك من أجل مصلحة الشركة، وحتى نبني شركة قوية مبنية على الصدق والتفاهم؟!

- هذا صحيح! ولكن ما أردت قوله يتعلق بك كإنسان وليس بالشركة!

- أرجوكِ، قولي ما يجول في خاطرك ولا تخجلي، فأنا دائما أحب الصراحة.

- إنك ثالث مدير لهذه الشركة أخدم بمعيته كسكرتيرة، ولكنني لم يمر على مدير يعامل موظفيه، وخصوصا نحن الإناث، بمثل هذا الاحترام والمودة، وكأننا أصدقاؤك ولسنا موظفين تحت إمرتك! إننا نحن الإناث نحبك كثيرا وكل واحدة منا تتمنى أن تكون صديقها. إنك لطيف جدا يا سيدي، إن شعرك الأسود المجعد، ونظراتك الحالمة تحطمان قوى حصن كل فتاة تقابلك!

- إذن؛ اقتربي مني يا آنسة شارلوت، لأني أريد أن أدك حصونك المنيعة، وأستولي على قلاعك الضخمة، وأجعل شفتيّ تعربدان فوق شفتيك، وفوق كل جزء من أجزاء جسدك... إنني أريد أن تذوب ذاتي في ذاتك... أريد أن ينصهر جسدي مع جسدك وينسحقان معا ثم يتلاشيان في العدم! ومد راكان يده وطوق بها عنق شارلوت، وجذبها إليه وهي تبتسم ابتسامة إغراء، زادت في تهيج عواطفه واشتعالها، وبسرعة قياسية، ينهض راكان ويقفل درباس الباب ويطبق بشفتيه على شفتيها، وقد استيقظ في داخله مارد جبار، عانى طويلا من جوع السنين وحرمان الجنس! ثم بدأت شارلوت بخلع ملابسها، فرأى جسما من الأبنوس المصفى تفنن الخالق الأعظم في تكوينه، فخلع ملابسه، فغرق وأغرق نفسه بما منحه الله من جمال...!

- راكان! راكان! انهض! لقد جاوزت الساعة السابعة. قالت السيدة هييز وهي تهزه ليستيقظ، ثم تابعت:

- إن السيد استيوارت سيكون هنا بعد ساعة من الآن!

استفاق الفتى من حلمه قبل أن يتذوق طعم الثمرة بل حتى قبل أن يقطفها من على الشجرة!

-أرجوكِ! اتركيني دقيقتين فقط.. أرجوكِ!

- إن الرجل سوف يأتي وأنت ما زلت نائما! أسرع! يجب أن نستعد للقائه. قالت السيدة هييز بحماس وهي تستحثه على الإسراع!

- سأنهض في الحال! نعم، سأنهض!

انصرفت المرأة وأغمض هو عينيه ليستأنف حلمه، وليقطف الثمار الدانية قطافها، ومرت أكثر من خمس دقائق، ولكن شارلوت لم تأت إليه ثانية، ليغرق في كيانها!

اللعنة! اللعنة! جميع اللمسات الحلوة في الحياة، التي تفرح القلب وتنعش الروح، تحدث في الأحلام!

*****

كانت الساعة تقترب من السابعة والنصف صباحا، عندما كان راكان يسرح شعره أمام المرآة ويتفنن في تسريحه؛ وكان يردد أغنية عاطفية تتحدث عن لقاء حبيبين طال غيابهما عن بعض، كما كان ما زال يعيش تحت وهم حلم هذا الصباح!

كان ما زال يشعر بلمسات أنامل شارلوت وجسدها الناعم الرقيق، وكان مذاق حلاوة قبلاتها ما زال على شفتيه وعذوبتها على لسانه، عندما رن جرس الباب؛ وبسرعة البرق، فتح باب الحمام، وركض خلف السيدة هييز التي كانت هي الأخرى، متجهة نحو الباب، وهمس في أذنها:

- لقد نسيت أن أقول لك بأن تعلمي السيد استيوارت، أن يحاول بأن يكون العمل ليس بعيدا من هنا، حتى لا أضطر للذهاب كل يوم إلى لوس أنجلوس. إنني أكره أن أسوق كل يوم وسط ذلك الطريق السريع، على الأقل حتى أعرف المنطقة جيدا!

هزت السيدة هييز رأسها، ومدت يدها لتمسك بزقاطة الباب لتفتحه، ولكن مكفولها استوقفها، وهمس ثانية:

- لا تخبريه أنني أنا الذي طلبت منك ذلك... وليكن اقتراحا من عندك! ومرة أخرى هزت المرأة رأسها، وفتحت الباب، وسمعها تقول للطارق:

- آسفة يا بني، لقد نسيت أن أضع قارورتي الحليب الفارغتين خلف الباب، واستمهلت الرجل قليلا ثم ناولته القارورتين قائلة:

- أريدك اعتبارا من الغد أن تحضر كل يوم، وليس كل يومين، قارورتين من الحليب وتضعهما خلف الباب، وأنا أترك لك في المساء الفارغتين!

- وهل عاد ابنك آنثوني للسكن معك؟! سأل بائع الحليب.

أجابت وهي تضحك:

- لا، لا، عندي شاب حضر من الأرض المقدسة، الأرض التي ولد عليها ربنا يسوع المسيح! ولمح الرجل راكان يقف خلف السيدة هييز فقال:

-أهلا وسهلا بك في أمريكا! لقد أعلمتني السيدة هييز بأنها تنتظر قدوم شاب من الأرض المقدسة! لقد تأخر حضورك كثيراً!

مد الفتى يده وصافح الرجل وهو يشعر بخيبة أمل، فقد ظنه السيد استيوارت!

- عندما ضرب جرس الباب، كنت على شبه يقين أن ضارب الجرس لم يكن السيد استيوارت. قالت السيدة هييز وهي تغلق الباب. إذ لا أظن أنه سيصل قبل الثامنة أو الثامنة والنصف!

- هل تعتقدين أننا يجب أن لا نتناول فطورنا حتى يحضر ونأكل ثلاثتنا سوية؟

وبعد أن فكرت السيدة هييز قليلا، قالت:

- من الأفضل أن نتناول فطورنا، وعندما يحضر سنعرض عليه ذلك فإن قبل، فسأعد له فطورا جديدا!

جلسا يتناولان طعام الإفطار وأذناهما معلقتان بجرس الباب.

*****

- هل أنت واثقة من أنه قال لك بأنه سيحضر اليوم؟

- طبعا! طبعا يا بني! قالت السيدة هييز بحماس ممزوج بالاستغراب!

- ولكن الساعة الآن قد تجاوزت التاسعة مساءً، والظلمة قد لفت الكون، فهل من المعقول أن يحضر بعد الآن؟

- إن أمامنا ساعة أخرى من الانتظار قبل أن نجزم بعدم حضوره، وإن كنت أعتقد أنه ربما يكون الآن على الطريق! إن ازدحام السير على الطريق السريع الآن أخف كثيرا!

- إنني أشك بأنه سيحضر الليلة! قال الشاب بيأس!

- إنه رجل مشهور ومهم وعليه واجبات كثيرة! وقطبت ما بين حاجبيها، وقلبت يديها، وهزت كتفيها:

- ربما حصل طارئ فأخّره! أو ربما تذكر أن عنده ارتباط سابق؛ تذكره بعد أن وعدنا بالحضور، فلم يستطع تأجيله!

- كان من الممكن أن يعلم السكرتيرة لكي تتصل بنا.

- ربما فعل، ولكنها نسيت أن تفعل ذلك.

- ألا تعتقدين أنه ربما أضاع العنوان؟
- في المرة الماضية، أعني عندما حضر لأخذ النقود، قال إنه عرف العنوان كأنما كان عنوان بيته!
- إذن، ما الذي أخره؟! سأل الفتى بعصبية.
- إن الأشخاص أمثاله، عندهم التزامات كثيرة، وربما كان مدعوا إلى العشاء أو ربما وعد أن يأخذ زوجته إلى السينما، أو إلى حفلة موسيقية، ولم يستطع الحضور. وسكتت قليلا ثم أضافت:
- ستصبح غدا شخصاً مهماً ومرموقاً وسترى، كيف أنك أحيانا لا تستطيع أن تلبي كل وعودك.
- إنني لن أعطي وعدا ما لم أكن واثقا من تنفيذه! قال الشاب بحماس وقد استيقظت في نفسه مبادئه ومثله العليا.
- هذا هو المفروض، ولكننا أحيانا لا نستطيع التقيد بذلك.
تصور راكان نفسه شخصية مهمة ومرموقة في المجتمع الأمريكي، يدعى إلى الحفلات والسهرات ، أو إلى بعض الاجتماعات، ولا يستطيع المحافظة على كل مواعيده ! ابتسم لنفسه وشعر بنشوة تملأ أهابه، ولكن سرعان ما فارقته ابتسامته وسرعان ما طارت منه نشوته، إذ لاحظ أن ساعته تتجه نحو العاشرة، فشعر بخيبة أمل مريرة، كما شعر بنوع من الإحباط!
لعل السيدة هبيز قد لاحظت السحابة من الكآبة التي كانت تغطي وجهه، فقالت وقد وضعت يدها اليسرى فوق يده اليمنى الموضوعة على قبضة المقعد الطويل.
- أرجوك يا بني أن لا تحزن! إنك ما زلت متعبا وضعيفا من جرّاء السفر الطويل! وأرجو أن تتذكر أيضا أنني قلت لك في رسائلي، أنك سوف تحتاج إلى شهر كامل على الأقل من الراحة قبل أن تبدأ العمل.
شعر الشاب بتأنيب الضمير الشديد، واعترف بينه وبين نفسه، في سره على ما قالته المرأة. لقد كان الاتفاق بينهما أن يرتاح أولا، ثم يتعرف على المنطقة ثانيا، وبعد ذلك يبدأ العمل، ولكن ها هو قلق ومحبط ولما يمضِ على وصوله عدة أيام!
- إنك على حق يا ماري! قال راكان، وقد شعر بالانتعاش فجأة، ثم أضاف:

- لقد كان هذا ما اتفقنا عليه، ولم أكن أفكر غير ذلك، ولكن الذي أحزنني ويؤلمني هو أننا قضينا طيلة اليوم ننتظر قدوم السيد استيوارت، وعيوننا مشدودة ترقب الباب ونجري مهرولين كلما سمعنا صوتاً!

- لا بأس يا بني! انهض واخلع بدلتك إذ لا شك أنها ترهقك، وأنت مرتد لها طيلة النهار وجزءًا من الليلة! دعنا نتعشى ونتحدث قليلا ثم نذهب لننام. أنا واثقة أنه سيأتي غدا! قالت المرأة تطمئن خاطره وعلى شفتيها ابتسامة كبيرة! ثم أضافت:

- أرجوك يا بني، إن الحياة ليست سيئة إلى هذا الحد! لقد صار لك أسبوع كامل وأنت عابس الوجه مقطب الجبين، لا تأكل إلا قليلا! ولما لم يقل شيئا استرسلت تقول:

- صدقني إن كل شيء سوف يكون على ما يرام. إن المسيح الذي ساعدك على الحضور إلى هنا، فإنه سوف يتكفل بإيجاد عمل لك. أنا أعرف أن ظنك خاب بالسيد استيوارت، ولكن لا بد لشيء جيد أن يحدث!

هز الفتى رأسه ولم يقل شيئا!

- إن الناس يذهبون إلى بلاد غير بلادهم وليس معهم نقود ليشتروا بها طعاما، ولا مكانا ليأووا إليه! أنت في بيت ومعك نقود والثلاجة – شكرا للسيد المسيح – مملوءة بالطعام!

- شكرا لله ولك يا ماري. إنك كريمة جداً ولطيفة، وأنا أشكر الله، سبحانه وتعالى، أن يسر لي امرأة عظيمة مثلك! ثم فجأة، اجتاحته موجة من الغضب العارم، ضرب ذراع الكرسي بيده وقال بصوت محبط ومحزون:

- إن الذي يؤلمني ويغضبني يا صديقتي العزيزة ماري هو أننا نقضي، أنت وأنا، كل يوم جالسين على كرسيين مقابل الباب وعيوننا مزروعة ترقب مدخل الحديقة، في هذا الحر الشديد! ثم نهض من على كرسيه وأضاف:

- أنا لست حزينا لأنني لم أجد عملاً بعد، ولكنني حزين وغاضب لهذا الكذب! لماذا لا يقول لنا السيد استيوارت بأنه لا يستطيع أو حتى لا يريد المساعدة؟! أما أن يعد بالحضور ولا يفي بوعده فهذا ما يغضبني!

- إن الرجل ربما يكون صادقا! دعنا نعطيه فرصه أطول. أسبوعا آخر ثم نرى!

شعر راكان وكأنما سكينة طعنت قلبه.

- أنتظر أسبوعا آخر، مزروعا فوق الكرسي كالصنم؟ سأفقد عقلي، إنني لا أستطيع الانتظار يوما آخر!

- لا تيأس من رحمة الله! المسيح سيساعدنا! قالت المرأة بإيمان صادق عميق.

- أنا لم أيأس ولن أقنط من رحمة الله، ولكنني أشعر بالقرف والاشمئزاز! أشعر بأنني أكاد أختنق! قالها بغضب لاهب.

نهض راكان من على الكرسي بعصبية ظاهرة، وصار يذرع الغرفة جيئة وذهابا ويضرب أرض الغرفة بقدميه وكأنما يريد أن يخنق عدواً له تحت رجليه.

وهنا رن جرس الهاتف، وقفزت السيدة هييز من على كرسيها تجري نحوه!

- إنه هو. لا بد من أن يكون هو! قالت العجوز بإصرار وتحد وقد غطت وجهها فرحة كبيرة! وتوقف راكان في مكانه وكأنما تسمرت قدماه في منتصف الغرفة يحدق بالهاتف بأنفاس مبهورة وأعصاب متوترة ثائرة!

- ألو...! سكرتيرة السيد استيوارت؟! أوه! أنا آسفة يا سيدة دوول! لقد فكرتك سكرتيرة السيد استيوارت. ماذا؟ إنه المحامي الذي عمل كفالة لراكان ووعده بعمل له. نعم؛ أنا قلت لك ذلك في حينه. إننا ننتظر قدومه أو هاتف منه. لا، لا. لا نستطيع زيارتك قبل مجيئه ربما اليوم أو غدا. صار لنا بانتظاره أسبوعًا كاملاً. هذا ما قلته لراكان. مع السلامة! وأغلقت السماعة، ثم التفتت إلى مكفولها وقالت:

- السيدة دوول تقول أن المحامين المشهورين دائما مشغولين، ولكنه لا بد من أن يأتي!

لم يعلق الفتى بشئ وإنما استأنف يقطع أرض الغرفة جيئة وذهابا بخطوات شديدة ومتوترة!

دخلت السيدة هييز الغرفة، وسمع هو صوت ملعقة كبيرة تضرب في الإبريق الزجاجي، فعلم أنها تمزج بعض المرطبات.

*****

كان قد مضى أسبوع كامل على اليوم الذي تكلمت به السيدة هييز وراكان مع السيد استيوارت على الهاتف ووعد بالحضور. إنهما ومنذ ذلك اليوم وهما يستيقظان كل صباح مبكرين، وبعد الإفطار يجلسان على مقعدين مجاورين قبالة الباب وعيناهما لا تتحولان عن مدخل الحديقة. كانا في كل يوم يظنان بأنه لا محالة سيأتي في ذلك اليوم، وكانا لا يقطعان الأمل إلا عندما تعلن الساعة العاشرة ليلاً. كانا يظلان مزروعين فوق الكرسيين وراكان مرتد بذلته وبكامل زينته، وكأنما هو ذاهب لمقابلة عظيم ينتظر قدوم بشير السلام.

لقد اتصلت السيدة هييز في اليوم الثاني هاتفيا بمكتب السيد استيوارت وأعلمتها السكرتيرة أنه خارج المكتب، وأنها ستبلغه الرسالة عندما يعود. ولما لم يحضر ولم يتصل هاتفيا فإن السيدة هييز اتصلت بمكتبه صباح اليوم التالي فأعلمتها السكرتيرة بأنها بلغته الرسالة وأنه أجاب بأنه لم ينس الوعد، ولكنه تأخر عن الحضور بسبب مشاغل كثيرة لم يكن يتوقعها، وأنه سيحضر في أول فرصة تمكنه ظروفه!

- ألم أقل لك أنه رجل مشاغله كثيرة، وأن ما أخره هو عمل طارئ وليس نسيان أو عدم اهتمام؟! قالت السيدة هييز وكأنما تلوم مكفولها على تسرعه وإحباطه معاً!

ولكن اليوم التالي مضى ولم يحضر... وفي اليوم الرابع فعلت السيدة هييز ما فعلته في اليوم الثالث، واستلمت نفس الجواب، وأن السكرتيرة ستبلغه الرسالة، ثم أنها بلغته، ثم أنه سيتصل، ثم أنه سيأتي... وأمضيا طيلة الأسبوع مزروعين فوق كرسييهما يحدقان بمدخل بوابة الحديقة، يدققان في كل سيارة تمر ويهرعان لوقوف كل سيارة، ولا يغادران البيت مخافة أن يأتي ولا يجدهما!

كان راكان يشعر بخيبة أمل عظيمة وبمرارة قاسية، وكان يشعر أحيانا بأنه يكاد يستفرغ من الاشمئزاز من هذا الانتظار!

في ضحى اليوم الثامن، وبينما كان الشاب والعجوز مزروعين فوق الكرسيين ينتظران كعادتهما في كل يوم، يرقبان الطريق ويصغيان لكل نأمة، إذ قفز راكان من على مقعده فجأة وصاح بأعلى صوته، مما أزعج كفيلته وحيرها أيضا!

- لقد وجدتها يا يوريكا! لقد وجدتها!

- ومن هي هذه يوريكا؟ وهل هي فتاة تعرفت عليها بالحافلة؟ ! سألته السيدة هييز بحيرة.
- لقد وجدت الحل لمعرفة حقيقة السيد استيوارت، إن كان حقاً مشغولاً أم أنه يتهرب منا !!
حدّقت المرأة بالشاب وصارت تنظر إليه حائرة، وكأن عينيها تقولان له لا أفهمك!
- نعم وجدتها! وسأخبرك عنها في الوقت المناسب! وتقدم منها وأنهضها من على كرسيها!
- أريدك أن تتصلي بمكتب السيد استيوارت وتسألي إن كان قد عاد لتتكلمي معه!
- ولكن السكرتيرة وعدت أن تكلمني عندما يعود؟!
- أرجوكِ أن تفعلي ذلك من أجلي!
بعد أن أدارت الرقم سمعها تقول: نعم... هنا السيدة هييز ثانية... من فضلك هل عاد السيد استيوارت؟ لم يعد بعد؟ أرجوك أن لا تنسي إعلامه بأن يتصل بي حالما يعود، إننا ننتظر قدومه منذ ثمانية أيام... أنا أعرف أنه دائما مشغول وعنده ارتباطات... ولكنه وعد بالحضور... أشكرك جدا.
- ألم أقل لك أنه لم يعد بعد، ألا تصدقني؟ سألت السيد هييز عاتبة.
- إنني لا أصدق السكرتيرة!
وقبل أن يعطيها مجالا لتقول شيئا، رفع سماعة الهاتف ووضعها على أذنه وقال:
- أرجوك أن تديري رقم هاتف السيد استيوارت الآن، فأنا أريد أن أكلمه.
- راكان! ما هذا الذي تفعله ؟!
- أرجوكِ يا ماري! أريد أن أبرهن لك شيئا!
ولما رأت إلحاحه وإصراره أدارت رقم الهاتف على مضض وهي تقول!
- إن السكرتيرة سوف تعلمه بأننا لم نصدقها وسيغضب!
وسمع الشاب صوت الهاتف يرن وصوتا نسائيا يقول: هذا مكتب المحامي السيد استيوارت، فهل لي أن أساعدك!

- هل السيد استيوارت يقبل التوكيل بقضايا تتعلق بدائرة الهجرة؟ سأل راكان.

- نعم يا سيدي، هذا هو اختصاصه! أجابت السكرتيرة.

- إن لي مشكلة مع دائرة الهجرة وأحب أن أوكله بها، إذا كان يقبل التوكيل عني!

- سيكون سعيدا لرؤيتك ومساعدتك. هل تريدني أن أحدد لك موعدا؟

- نعم. ولكنني أريد أن أسأله سؤالاً أولاً، إذا كان وقته يسمح بدقيقة، إذ إن قضيتي معقدة جدًا ، وربما لا تكون من ضمن اختصاصه أو ربما لا يريد أن يتوكل بمثل هذه القضايا!

- قل لي وأنا أسأله لك.

-آسف جدا، جدا! إنني لا أستطيع. إنها في غاية السرية، ولا بد من أن أتكلم معه هو شخصيا. قال الشاب متظاهراً بالقلق.

- إذن أحدد لك موعداً !

- أنا أتكلم من سان فرانسيسكو، فإذا وافق على أن يتوكل عني فسآتي وأراه!

- انتظر لحظة من فضلك!

لاحظ راكان أثناء مكالمته أن السيدة هييز كانت تحدق به، فتارة تتسع عيناها وكأنهما ستنفجران، أو أن تهربا من مآقيهما، وتارة تضرب بيديها على خديها، أما هو فقد شعر بعد أن أعلمته السكرتيرة أن ينتظر، أن قلبه كأنما هو طائر ذبيح يريد أن يهرب من بين ضلوعه، كما شعر بأن لسانه قد جف في فمه وأصبح قطعة من الخشب الذي بقي في الماء طويلا، ثم ألقى به تحت حر الشمس اللافح ! كما شعر أن كل جسمه يرتجف وكأنما أصابته حمى!

- شكرا للانتظار! السيد استيوارت معك! قالت السكرتيرة.

- السيد استيوارت يتكلم، فهل لي أن أساعدك؟!

لم يستطع راكان أن يقول شيئا، فقد كانت دقات قلبه عالية لدرجة أنه لم يستطع أن يسمع المتكلم على الطرف الآخر، وأن لسانه قد تحول إلى قطعة من الحجر!

- السيد استيوارت يتكلم، فهل لي أن أساعدك! قال الصوت الخشن شبه غاضب.

تنحنح راكان عدة مرات ليستطيع أن يحرّر صوته ليقدر على الكلام وأخيرا قال:

- اعذرني يا سيد استيوارت! أنا راكان عبد الله دهشان!

- من؟!! سأل الرجل بلهجة المرعوب!

- أنا راكان عبد الله دهشان! الشخص الذي أحضرته السيدة هييز من البلاد المقدسة. هل تتذكرني؟!

- أوه، كيف حالك يا راكان، وكيف حال السيدة هييز؟ وكيف حياتك في أمريكا، آمل أن تكون تمضي وقتا طيبا هنا. أمريكا بلاد عظيمة جداً!

وقال المحامي أشياء كثيرا، وإن كان راكان لا يعرف ماذا قال، إذ إن الرجل استرسل في أسئلته المتتالية، وكأنما أفلت لسانه منه دون أن يترك مجالا للشاب ليسمعه شيئا!

- لقد وعدت السيدة هييز أن أحضر لرؤيتكم في الأسبوع الماضي، ولكن مشاغل عديدة حالت دون ذلك، إنني آسف جدا لهذا. كلما أنوي الاتصال بكم لأعتذر لكم ولأطمئنكم على أنني لم أنس وأنني آت، يجد جديد، فيحول بيني وبين مكالمتكم. على كل حال فإنني سأحضر اليوم أو غدا بالتأكيد. هل السيدة هييز عندك؟ دعني أكلمها!

تجاهل راكان سؤاله وقال:

- إننا نعرف يا سيدي أنك دائما مشغول، ونحن واثقان بأنك ستحضر في أول مناسبة ستسمح بها ظروفك. ولكنني اتصلت بك لغير هذا السبب!

التقط الشاب أنفاسه، واستغرب، هو نفسه، من جرأته وسرعة بديهته على حبك مثل هذه القصة، كما لاحظ أن السيدة هييز قد فتحت فاها دهشة وصارت تنظر إليه بذهول:

- لقد أحضرت لك وللسيدة استيوارت هديتين نادرتين جدا وثمينتين! خمس قطع من المخمل المطرز بالذهب، مصنوعة باليد في مدينة بيت لحم، وجاءت أخت السيدة هييز ومعها ابنتها وقد أعجبتا جدا بالطقم وتلحان على أخذه ودفع أي مبلغ أطلبه!

توقف راكان ليبتلع ريقه وتنفس تنفسا عميقا، ولكنه لاحظ أن خوفه واضطراب قلبه وتجمد لسانه قد تلاشت فجأة، وبقدرة قادر، وكما أنه رأى السيدة هييز قد اقتربت بوجهها منه، وعيناها تتراقصان قلقا وحيرة!

- طبعا السيدة هييز وأنا رفضنا بشدة، إذ إنني أحضرت هذه الأشياء هدية لزوجتك مكافأة لك على جميلك معي، ويؤلمني أن أراها تعطى لغير زوجتك! إنني أخشى إن طالت المدة أن نضعف تحت إلحاحهما.

- كان يجب أن لا تزعج نفسك بإحضار هدية لنا! إن هدية مثل هذه تكلف كثيرا، على كل حال سوف أدفع لك ثمنها!

- لا يا سيدي! إن الهدية هي تعبير عن رد للجميل، ولا يؤخذ لها ثمن! قال الشاب بإخلاص!

- إنك رجل طيب، أرجو أن لا تفكر أنت وماري أنني نسيتكما! أبدا! إنني جد مشتاق للقائك! كنت أسال عن عمل لك بين معارفي وأصدقائي. لقد فكرت أن أحضر لعندكم بعد أن أجد لك العمل أولاً لأقدمه هدية لك! قال المحامي بصوت هادئ متزن.

- شكراً لك يا سيد استيوارت.إنك إنسان عظيم! لم يخالجنا الشك ولا للحظة واحدة بأنك نسيتنا! لقد عزونا تأخركم في الحضور لكثرة مشاغلكم! قال راكان بهدوء واتزان هو نفسه استغربهما!

- لا، أبدا! قال الرجل بلهجة تواضع ثم أضاف:

- إنني أقوم بواجبي، على كل حال، أعتقد أنني وجدت لك عملاً. فقط أريد أن أتأكد منه أولا. اسمع! قال وكأنما خطرت على باله فكرة طارئة:

- سأحضر اليوم الساعة الخامسة بالتأكيد لنتفق على نوع العمل الذي تريد أن تعمله. إنني مدعو إلى العشاء وزوجتي هذه الليلة... الدعوة حوالي التاسعة والنصف، وسيكون لدينا متسع من الوقت للكلام!

- سنكون بانتظارك الساعة الخامسة اليوم وسوف نكون سعداء لرؤيتك!

وحيا الرجلان بعضهما التحية المعتادة.

- سيكون هنا الساعة الخامسة ! قال راكان حالما وضع سماعة الهاتف.

- تعني بعد حوالي ساعة ونصف من الآن؟! سألت السيدة هييز بعد أن ألقت نظرة على الساعة المعلقة فوق البيانو.

- نعم يا سيدتي الجميلة، أراهن على أنه الآن يلملم حاجياته ويستعد للحضور! قال مكفولها وهو يكاد يطير فرحاً من ذكائه.

- راكان، إنك حاذق. لم أكن أفكر أنك ذكي لهذه الدرجة! قالت السيدة هييز وهي تحيطه بيديها، وابتسامة جذلى تغطي نصف وجهها! لقد عرفت كيف تجعله يسرع بالحضور!

شعر راكان بفرحة عظيمة تملأ نفسه، فرحة بمهارته، وفرحة بقدوم السيد استيوارت، ليعلمه عن عمله الجديد، وليبدأ أول خطوة في سلم المجد في حياته الجديدة بأمريكا... الحياة التي طالما حلم بها وانتظرها...!

كان قد بقي ثلاث عشرة دقيقة حتى تعلن الساعة الخامسة عندما وقفت سيارة السيد استيوارت في مدخل باب السيدة هييز، إذ ما كادت السيارة تظهر في أول مدخل الحديقة حتى قفزت المرأة من مقعدها وكذلك فعل راكان.

دفعا باب المنخل معا بشدة وركضا لمقابلة السيد استيوارت. ما كادت السيارة الزرقاء الفارهة الفاخرة والطويلة جدا، تقف، وقبل أن يطفئ السيد استيوارت محرك السيارة، حتى كان الفتى يضغط على مقبض باب السيارة ويفتحه وكذلك ما كاد السيد استيوارت يخرج من السيارة حتى مد له يده مصافحا ومحييا. مد الرجل يده بحرارة وقد علت شفتيه ابتسامة كبيرة وجذابة أضاء لها وجهه الأحمر المليء صحة وعافية، وشد بيده الضخمة والقوية على يد راكان بحرارة، وهزها لعدة مرات حتى خيل للشاب بأنه يكاد يقتلعها من مكانها، وأنه يكاد يحطم أصابعه.

- إنني سعيد جداً جدًا أن أراك يا سيد راكان! كم كان سروري عظيما عندما أعلمتني ماري بقدومك! وشعر الشاب أن في صوت الرجل نغمة صدق وإخلاص، فرد عليه:

- وأنا جد سعيد لرؤيتك يا سيدي! لقد حدثتني السيدة هييز عنك كثيرا! لقد قالت إنك تعبت جدا لتأمين الكفالة لي ! وهنا مد الرجل يده اليسرى، بينما ما زال ممسكا بيد راكان اليمنى، ووضعها فوقها وصار يطبطب عليها، ثم نقلها وصار يطبطب بها على ظهره، وكأنه ابن صغير له يثنى على عمل جليل قام به، ثم قال:

- إنه لشيء مفرح للقلب أن نرى إنسانا قادماً من وراء البحار، من الأرض المقدسة! لقد رأيت أناسا من جميع الجنسيات، ولكنك أنت أول إنسان أراه رأي العين من الشرق الأوسط! لا بد وأن تكون بلادكم جميلة وساحرة! ثم توقف لحظة وأضاف:

- أتمنى لو يكون لي شعر مجعد مثل شعرك! ثم إنك تبدو أكثر بياضا وأكثر جمالا من الصورة! أنت حقا جميل جدا!

شعر الفتى بالخجل، وفكر أن يتطلع إلى شعر الرجل ليتبين لونه ولكنه خاف من أن يمسك به الرجل وعيناه تسرقان النظر إلى رأسه!

لقد كان السيد استيوارت أطول كثيرا من راكان، كما كان ضخم الجثة، كبير الوجه، عريض المنكبين، واسع الصدر، قوي البنية، طويل الساقين! كان ضخما كالعملاق، ولو أنه دفع راكان دفعة واحدة لألصقه بالشجرة. وأخيرا أطلق الرجل سراح يد الشاب الذي شكر الله لتحرر يده من القبضة الفولاذية، وتوجه نحو السيدة هييز التي كانت تقف إلى جانب مكفولها وتراقب الرجلين وتبتسم!

- كم أنا سعيد أن أراك ثانية يا ماري! إنها مدة طويلة جدا منذ أن رأيتك أول مرة ؛ وانقض على المرأة وأحنى قامته ولف يديه حول خصرها ورفعها عن الأرض وضمها إلى صدره، وبدأت كأنما هي متسلقة شجرة كبيرة، وساقاها يتطايران في الهواء؛ ثم صارت المرأة تكركر كابنة السادسة عشرة !

- إن صحتكِ جيدة، وعزيمتكِ قوية! إنك تزدادين جمالا كل يوم، وأنت اليوم أجمل بكثير مما رأيتك بالمرة السابقة! إن وجهك أحمر بلون التفاح ووجنتيك كلون الورد الذي تفتح لتوه! ما أغبى الرجال الذين تركوك عزباء كل هذه المدة ! إنهم لا يدركون مقدار خسارتهم ! لا شك أنهم مصابون بالعمى!

كان الرجل يتكلم، وكأنما هو يقرأ من ورقة كتبها مسبقا! لقد كان يقرأ دون تلعثم ولا تردد. حقاً إنه محامٍ يحفظ الدرس جيداً!

قهقهت المرأة، وابتسم الفتى وأردف العملاق يقول:

- إن عدم اختلاطك بالناس، وانعزالك في بيتك، هو الذي لم يعط الفرصة للرجال لكي يروك فيخطبوا ودك ويطلبوا يدك للزواج، فبقيتِ كل هذه المدة تقاسين مرارة الوحدة!

كان الرجل يتكلم بلغة رقيقة وعاطفية وجميلة، كأنما هو شاعر متيم ولهان يتغزل بحبيبته! وفكر راكان أن يسأله إن كان ينظم الشعر أو يكتب القصة، ولكن الرجل استرسل!

- لو أنني قابلتك يا ماري قبل أن أتزوج لربما فكرت بالزواج منك على الرغم من تباعد السن بيننا.

لاحظ راكان أن الدم يكاد ينفر من وجنتي السيدة هييز الحمراوين، وأن وجهها وأذنيها قد احمرت وصارت تتطلع إلى الأرض بحياء وخجل ، وكأنما هي فتاة غرة سمعت كلمات غزل نابية فجرحت حياءها، فقالت وهي مطرقة في الأرض وقد انتصبت جديلتاها القصيرتان المعقوصتان والمربوطتان بخيط أحمر، كأذني الأرنب المستنفر!

- ما ألطفك وأخف دمك يا جورج! قالت ذلك ثم رفعت عينيها إلى عينيه، فالتقتا، فعادت وأنزلتهما!

- لقد أدخلت السرور إلى قلبي. إنك تعرف أننا نحن النساء المتقدمات بالسن نحب أن نسمع مثل هذا الغزل؛ ولو أن قائله لا يعني ما يقوله! قالت ذلك وأتبعتها بكركرة!

- لا، لا، يا ماري! قال الرجل بحماس مبالغ به، وقد فارقته رومانسيته فأنزل العجوز إلى الأرض .

- أنا لا أبالغ يا ماري، إنني أقول الحقيقة والصدق، إنني لا أمزح ولا أتملق. كان الرجل يدافع عن رأيه بحرارة وحماس وصدق، مما لم يدع مجالا للشك لراكان بأن الرجل يربح كل قضية يتوكل بها، للأسلوب الذي يتبعه، وكيف أنه يندمج بدوره اندماجاً حتى أنه يعيشه!

انتهز الشاب فرصة تطلع الرجل إلى السيدة هييز فصار يتأمل وجهه الحلو وعينيه الزرقاوين وشعره الذهبي! لقد كان يرتدي بذلة سكنية بها خطوط خفيفة بيضاء، ويرتدي صدرية وربطة عنق حمراء بها خيوط بيضاء كلون خيوط البذلة، كما كان يرتدي قميصا أبيض ذا أزرار ذهبية تدل على الثراء الفاحش، وكان يتدلى من جيب صدريته سلسلة ذهبية لا شك أنها لساعة غالية الثمن! أما حذاؤه فقد كان عريضا كالذي أحضره راكان معه والمصنوع في بريطانيا، وإن كان حذاء السيد استيوارت يبدو أنه أثمن كثيرا من حذاء راكان. لم يكن الرجل يرتدي نظارات كما تخيله الشاب!

- أشكرك يا جورج! لقد أحببتك منذ رأيتك ودائما أفكر بك كأحد أولادي!

- اعتبريني ابنك! ابنك الرابع وأخبريني عن كل ما تحتاجين!

- إن ما أحتاجه في الوقت الحاضر هو عمل لراكان! وهزت إبهام يدها اليمنى إلى الأرض وأردفت:

- أريدك أن تجد له عملا جيدا وبسرعة. إنني لا أريد أن أخيب ظنه بنا وبأمريكا!

التفت الرجل إلى الشاب وقال كأنما ينفي تهمة باطلة وجهت إليه:

- أبدا، أبدا! إن راكان لن يخيب ظنه بل على العكس، سيجد هنا أحسن مما كان يتوقع!

سر الفتى كثيرا وشعر بعاطفة حب جارفة نحو هذا الرجل، كما وشعر بندم شديد عندما أساء الظن به، وطلب من الخالق أن يغفر له ويسامحه!

- إن راكان وأنا أولاد لكِ يا ماري، وإنه من واجبي أن أساعد أخي راكاناً! استدرك الرجل، وأضاف:

- إنني لا أعني مساعدة بمفهومها الضيق. إن راكان رجل قوي ولا يحتاج إلى مساعدة أحد، ولكنه بحاجة إلى إرشاد وتوجيه حتى يتعرف على البلاد، وواجبي أن أرشده بأن أجد له عملا جيدا، وبعد ذلك ينطلق هو في الطريق الصحيح!

حركت كلمات الرجل عواطف راكان من أعماقه، وشعر بسعادة كبيرة، وقد تعملقت شخصية الرجل بعيني الشاب حتى لامست عنان السماء، كرما وأخلاقا!

هجمت السيدة هييز على السيد استيوارت تريد أن تعانقه، ومدت يدها إلى أعلى لتنزل رقبته إليها، فشعر بما تريد، فأحنى قامته المديدة وأناخ لها رقبته، فقبلته فوق عنقه:

- أوه جورج! إنني أشكر المسيح الذي أتاح لي فرصة مقابلتك! إنك ألطف إنسان وأكثر تهذيبا من أي رجل عرفته في حياتي! قالت المرأة ثم تطلعت إلى الأرض جذلة باسمة وأضافت:

- لو كنت صغيرة السن لوقعت في حبك حتى لو أنك كنت متزوجا!

- لقد أفرحتني يا ماري! كم أتمنى لو أن زوجتي تظنني هكذا، لكنت أسعد إنسان على وجه الأرض! قال الرجل بحياء وتواضع، لاحظهما راكان في احمرار أذنيه ونغمة صوته!

- أنا متأكدة أنها تفكر بك كثيرا وتحبك حبا عظيما! قالت السيدة هييز!

صار راكان يتصور بنت التايمس بخصرها النحيف وقدها الأهيف وصدرها الناهد وساقيها الطويلين وشعرها الذهبي المسترسل فوق كتفيها كأنما تحمل متحف برج لندن المكدس بالذهب، وعينيها الزرقاوين اللتين تبتسمان كأنما تدعوانك إلى أن تذهب معها إلى الفراش، وشفتيها المصنوعتين من قشطة البقر الهولندي. وتمنى الفتى لو يستطيع أن يسأله عنها، ويصف له ليلة غرامية معها!

لقد كان راكان يريد أن يعرف إن كانت تشبه بعض الانجليزيات اللواتي رآهن على الشاشة، عاريات الصدور، جميلات النحور، يقفزن كالغزلان... أولئك الحسان اللواتي طالما اشتهاهن وتمنى لو يقضي ليلة مع إحداهن مقابل نصف عمره أو ثلاثة أرباعه ،أو حتى مقابل عمره كله!!

اللعنة! اللعنة! إنه الفراغ العاطفي والقحط الجنسي وكذلك الإحباط النفسي والقهر الاجتماعي، جميع هذه المسببات مجتمعة هي التي جعلت راكان يفكر بمثل هذه الأفكار الغريبة والشاذة !

كان هذا اليوم يوما لطيفاً وجميلاً، به بعض الرطوبة المنعشة، على عكس الأيام التي مرت منذ وصول راكان! إنه اليوم الأول الذي شعر به الفتى بالرطوبة والانتعاش! إنه ومنذ أن وصل آركاديا، والطقس حار يحرق الأجسام ويصيب النفوس بالنرفزة والتوتر؛ أما هذا اليوم فقد كان يوما تغطي سماءه السحب الخفيفة، وكان النسيم يداعب الأجسام وكذلك الأشجار! كان يقبل الزهور والورود برقة ورومانسية ! وكان أول يوم يشعر به الفتى بأن بذلته لم تلتصق بجسمه من العرق اللزج !

إن الشمس لم تظهر في هذا اليوم منذ الصباح، فقد كانت مختفية خلف سحب بدت لراكان لطيفة ومنعشة، وكانت مفرحة للقلب ومنعشة للروح! إنه اليوم الأول الذي لاحظ الفتى به، أنه كان خاليا تماما من الدخان الممزوج بالغيوم، ففي الأيام الماضية كانت الشمس محجوبة عن الأرض بسحب كثيفة هي مزيج من الدخان والغيوم!

- دعونا ندخل البيت ! قالت السيدة هييز ذلك وتوجهت نحو الباب، وسار السيد استيوارت خلفها ولحق بهما راكان، ولكن المرأة ما كادت تمد يدها لتمسك بمقبض باب المنخل لتفتحه حتى سبقتها يد السيد استيوارت وفتحت لها الباب، وظل ممسكا بالباب حتى دخلت، ثم أومأ

بيده الأخرى إلى راكان أن يدخل وقد أحنى قامته باحترام، ولكن الشاب أشار إليه بيديه احتراما أن يتفضل هو ويدخل أولا!

– إنني لا أدخل قبلك يا سيدي! قال راكان بأدب واحترام شديدين!

- لا، لا يا عزيزي! أنت ضيفنا ويجب أن تدخل أولا.

أصرّ راكان على عدم الدخول، ولكن الرجل وضع يده خلف ظهره بلطف؛ فأدخله وهو يقول:

- هذا مستحيل! لابد من أن تدخل أنت أولا.

لم يكن باستطاعة الشاب الممانعة، إذ إن يد الرجل القوية أدخلته داخل الباب دون أن يستطيع المقاومة ثم دخل الرجل وأغلق الباب خلفه بلطف.

- ما هو العمل الذي وجدته لراكان؟! سألت السيدة هييز وقد أشارت إلى محاميها بأن يجلس على الكنبة الصغير ، بينما جلست هي ومكفولها مقابلة له على الكنبة الطويلة.

- إن لي صديقا يعمل مديرا لشركة تبيع أدوات تجميل للسيدات. لقد أعلمته عن راكان، فوعدني بأن يعطيه عملا عنده في الشركة. ومط الرجل بوزه وكأنما يبحث عن كلمة معينة ليختارها:

- إن الشركة ليست كبيرة جدا ولكنها متوسطة الحجم!إنها تكبر بسرعة، ويستطيع راكان أن يكبر معها.

لعل الرجل لاحظ أن راكان ينظر إليه فكأنما يريد أن يعرف أكثر عن هذه الشركة فأضاف:

- إنهم يشترون لوازم للتجميل من مصانع عديدة ثم يجمعونها بطريقتهم الخاصة والمميزة، ويبيعونها بالجملة إلى شركات عديدة، هذه الشركات توزعها في السوق!

-يعني أنهم يشترونها بالجملة ليبيعونها بالمفرد؟! سأل راكان.

-ليس بالضبط.هم يشترون عشرات الآلاف من القطع البلاستيكية التي تصنع في مصانع مختلفة ومتفرقة في جميع أنحاء البلاد،وهم يجمّعونها ويجعلون منها أشكالا مختلفة ومتميزة ، ثم يوزعونها على زبائنهم في جميع أنحاء أمريكا!

- وماذا تكون وظيفة راكان ؟! سألت السيدة هييز.

- بالمكتب طبعا! يؤمن الطلبيات للزبائن. وبعد أن ابتسم أضاف:

- إن الرجل الوحيد بالشركة هو المدير، وسيكون راكان ثاني رجل في الشركة، طبعا سيكون هناك بعض السكرتيرات والموظفات.

-إن راكان لا يمانع أن يعمل مع نساء! قالت السيدة هييز هذا، ثم التفتت إلى مكفولها الجالس على يسارها، وسألته:

- هل تمانع؟!

وفجأة، غطت موجة من العرق الساخن جسم راكان وقد اعتراه حياء وارتباك شديدان، وهزّ رأسه علامة النفي!

"أيها الأغبياء! كيف يكون عندي مانع أن أعمل مع نساء، ولا هم لي في هذه الدنيا، وليس هنالك ما يسيطر علي تفكيري إلا أن أكون مع النساء، وقريباً منهن!!"

- وكم سيكون الراتب؟ سألت المرأة.

- بين الأربعمائة، والخمسمائة دولار شهريا.

بدأ قلب الفتى يدق دقات الفرح، وتمنى لو يستطيع معانقة الرجل ليشكره على صنيعه ! يعمل مع حسناوات ويتقاضى راتبا ضخما،ماذا يريد من دنياه أكثر من ذلك!!لقد صبرت فنلت يا راكان! يا ابن...

- لقد أعلمني صديقي بأن راتب راكان سيكون أربعمائة وخمسين دولارا فقط، ولكنني طلبت منه أن يجعلها خمسمائة دولار وأصررت! فوافق!

- إذا أصر على طلبه، فلا بأس! المبلغ جيد. قالت السيدة هييز وهي تمصمص شفتيها!

- وهل لي فرصة بالترفع ؟! سأل راكان .

- كل ستة شهور! قال الرجل بحماس.

- وكم تظن ستكون الزيادة ! سألت السيدة هييز.

- ليس أقل من خمسين دولارا في الشهر! ثم كأنما خطرت برأس الرجل فكرة فأضاف:

- إذا أصر صديقي على أربعمائة وخمسين دولارا شهرياً، أقول له على شرط أن تعطيه زيادة خمسين دولارا بعد ستة شهور!

- اتفقنا! فكرة رائعة! قالت السيدة هييز وراكان يقاطعان بعضيهما.

- إنني لا أستطيع أن أقاوم رغبة النظر إلى شعرك المجعد! قال الرجل.

- إن الشعر الذهبي أجمل كثيرا من الشعر المجعد يا سيدي!
- ليس في رأيي! قالها وأتبعها بهزة من رأسه!
- كنت أريد أن أطلب منك معروفا، ولكنك مازلت قد وجدت هذه الوظيفة لراكان فلا حاجة لذكره! قالت السيدة هييز.
- وما هو؟! اطلبي، وأنا طوع بنانك! قال الرجل بحماس.
- كنت أريد أن أسألك أن تحاول إيجاد عمل لراكان قريب من هنا!
- ولم؟!
- حتى يتعرف على المنطقة!
- إنها فكرة رائعة، إنني لم أفكر بها! إن الطريق السريع مزعجة، وخصوصا في وقت الزحمة، أظن أن راكان سينرفز وهو يقود عليها مرتين في اليوم! قال الرجل بحماس.
- إن راكان لا يعرف كيف يقود السيارة!
- ليس كل الناس في أمريكا يعرفون قيادة السيارات! قال الرجل ببساطة. ثم التفت إلى الشاب وقال:
- إنك ستبتاع سيارة وستتعلم كيف تقودها! المسألة في غاية البساطة!
- تستطيع أن تتعلم القيادة خلال أسبوع! قالت السيدة هييز.
- وأين تفضلين إيجاد عمل له إذن! سأل الرجل باهتمام مبالغ به.
- في مدينة مجاورة: منروفيا أو دورتي أو باسدينا أو روزميد أو المونتي.المدن القريبة من هنا والتي لا تحتاج لأن يسلك الطريق السريع!
- إنها فكرة في منتهى العقل!
- لا يا سيد استيوارت،سآخذ الوظيفة التي وجدتها لي في شركة أدوات التجميل. لا بأس! سوف أستخدم الحافلة حتى أشتري سيارة وأتعلم!
- على كل حال سأرى كيف ستسير الأمور! لقد قبلت دعوة صديق الليلة فقط من أجل خاطر راكان، لأني أريد أن أسأله عن إمكانية إيجاد عمل لراكان، وإلا لما قبلت الدعوة لكثرة ارتباطاتي!
- وماذا يعمل صديقك! سألت السيدة هييز.

- إنه مهندس في شركة لصنع الطائرات، لا أعرف مكانها بالضبط، ولكنني أظنها في هذه المنطقة، في إحدى المدن التي ذكرتها.

شعر الشاب بالخيبة، إذ إنه يريد العمل في الشركة التي كل موظفيها من النساء الجميلات، ذوات الشعور الذهبية، والعيون الوطف الساحرة، حوريات الجنة... ولكن الرجل قطع عليه أفكاره، عندما قال:

- من المفروض أن تكون رواتب شركات صنع الطائرات أعلى بكثير من شركات أدوات التجميل!!

- وهل العمل في شركات الطائرات عمل في المكتب أيضا! سأل الفتى.

- طبعا! طبعا! إنني لا أفكر لك في عمل إلا أن يكون عملاً مكتبيّاً. وهل شاب مثلك بكل هذه الثقافة والأدب والأخلاق يعمل عملا جسديا؟! هذا عمل لغير المثقفين!

- شكرا لك يا سيدي وألف شكر. إنك إنسان عظيم! قال راكان، والفرحة تكاد تفري كبده، ثم رفع رأسه نحو السماء، وقال في سره:

"شكرا لك يا رب على هذه النعم! لقد بدأت أماني تتحقق، وبدأت الأيام تبتسم لي بعد عبوسها الطويل! لقد ولى زمان الألم والحرمان وأقبلت أيام السعادة والكثرة!"

- إن قلبي لم يخدعني فيك يا جورج، فمنذ أن رايتك احترمتك وأحببتك، وعرفت أنك رجل أمين وصادق وتحفظ عهودك!

- العفو يا ماري ، إنني أعمل واجبي فقط.

التفت راكان إلى السيدة هييز وقال بصوت حاول أن يكون خافتا ولكن لا شك أن السيد ستيوارت قد سمعه:

- ألا تريدين إحضار هديته؟!

- هل تصدق أنني نسيت الهدية! أن رؤية جورج وحديثه الشيق أنسياني كل شيء، وخصوصا حديثه عن وظيفة ممتازة لراكان تعطيه مبلغًا جيدا ليبني نفسه ويتزوج!

- يجب أن نفرّح قلب زوجته بهدية بسيطة مثلما أفرح قلبينا بوظيفة ممتازة! قال الشاب مازحاً وهو يبتسم.

غابت السيدة هييز داخل البيت للحظات وعادت تحمل صندوقا كبيراً من الكرتون وضعته على طاولة الوسط أمام السيد ستيوارت وقالت بفخر وقد أشرق وجهها:

- هذه هدية السيدة ستيوارت، وهديتك أنت! قالت ذلك، ثم مدت يدها ورفعت الجاكيت الأبيض المطرز بخيوط الذهب. وهنا، لاحظ الفتى أن عيني الرجل قد جحظتا حتى كادتا تبتلعان وجهه!ثم فتح فمه على وسعه وهو يحدق بما بين يدي السيدة هييز، والتي وضعت الجاكيت جانبا، وأخرجت التنورة، ونشرتها أمام وجهه، فقال بصوت، لاحظ راكان أنه كصوت طفل فوجئ بهدية لم يحلم أن يحصل عليها يوما!

- أهذا لزوجتي؟! وهذه أيضا؟!

وضعت السيدة هييز التنورة فوق الجاكيت، ومدت يدها، وأخرجت الشال من الصندوق، ووقفت، ثم فتحته أمامه، فتلمسه، ومر بوجهه عليه!!

- إنه ناعم الملمس ورائع جدا، لاشك أنه يساوي ثمنا غاليا!!

لم يعلق الشاب ولم تعلق العجوز، وإنما وضعت الشال فوق الجاكيت والتنورة، ثم مدت يدها داخل الصندوق، وأخرجت منه الطاقية وناولته له، فصار يمر بيده فوقها فكأنما يمرر على وجهه خد حسناء يتغزل بها، ثم أخرجت بعد ذلك الحفاية المصنوعة من المخمل والمطرزة بالقصب والخرز وقالت:

- هذه هدية السيدة استيوارت!

- إن زوجتي ستطير فرحا! إن هذا الشيء يخلب الألباب! إنه عظيم جداً جداً!

ضل الرجل ينقل يديه بين هذه القطع الخمسة يلمسها تارة ويرفعها متأملا إياها تارة أخرى ! أما السيدة هييز ومكفولها فقد كانت فرحتهما لا تقل عن فرحة المحامي!

أما راكان فقد تخيل نفسه بين أحضان السيدة استيوارت، الإنجليزية الساحرة، بطلة قصة "جرازيلا "، التي قرأها وهو ابن السادسة عشرة،وتأثر بها لدرجة أنه كان يبكي أحيانا قهرا لشدة انفعاله وحزنه! ابنة التايمس، ذات الجسم الفائر الثائر المتوقد شهوة ، المتلظي بنار الرغبة، المتحرق للحب ، المسعور للّذة، المحموم للعراك والصراع والقبل، والتي تقفز بخفة الغزال، وهي تقبله بنهم وهو يأكل شفتيها أكلا، ثم وهو يشدها إلى صدره! لقد كانت تستجيب لحممه،بحمم مثلها، ويضمها إليه بقوة، ثم يفجر فيها اللبيد المحتبس الذي صار له سنوات يغلى في جوفه، والذي لا مخرج له ولا متنفس! وبعد أن قضى

راكان منها وطره، رمي بها إلى السيد استيوارت ! كانت عواطفه تغلي في داخله كالمرجل شوقاً لابنة نهر التايمس!

- والآن هذه هدية السيد استيوارت! قالت السيدة هييز وكأنما كانت تقدم خطيبا من على منبر الخطابة!

مدت يدها في الصندوق، وأخرجت منه علبة سجائر فاخرة، مصنوعة من خشب الزيتون الثمين، صناعة يدوية، ومنقوش عليها قاطرة من الجمال بشكل فني دقيق الصنع، ساحر التعابير. وبعد أن ناولتها له قالت:

- هذا صندوق لحفظ السجائر في غرفة الضيوف!

فتح السيد استيوارت الصندوق وقال باندهاش:

- يا إلهي! هذه تحفة فنية رائعة! إنها تجمّل غرفة الضيوف حقا!

وقبل أن ينتهي من النظر إليه، ناولته صندوقا صغيرا مصنوعا هو الآخر من خشب الزيتون الثمين صناعة يدوية، يوضع في الجيب للسجائر:

- وهذا تضع به سجائرك وتحمله في جيبك!

وضع السيد استيوارت الصندوق الكبير جانبا، وأمسك بالصندوق الصغير، وبعد أن قلبه بين يديه، حاول أن يفتحه ولكنه أبى عليه، ولاحظ الفتى حيرته فقال:

- اسمح لي يا سيدي أن أريك كيف يفتح.وبعد أن فتحه له، قال الرجل:

- آه، أليس فتحه ممتعاً أيضاً ؟! إن الإنسان يستمتع ؛ حتى وهو يفتحه، ويستمتع أيضا وهو يدخن السيجارة التي يخرجها منه، أليس هذا رائعا ؟!

وقبل أن يغلقه، فتحت السيدة هييز أمام عينيه سجادة عليها صورة قصر من قصور الأندلس؛ قصر بناه أجداد راكان،يوما مضى، ففرّطوا به بسبب أنانيتهم وجهلهم وفرقتهم، ونظر إليها، ومد يده، وخطف السجادة من يدها، وخيل للشاب أن الرجل فقد السيطرة على أعصابه أمام جمال ما رسم على السجادة ومن السجادة نفسها، ونهض من مقعده، ثم سار نحو الحائط وفردها فوقه وهو ممسك كل طرف بيد، وقال كالعابد الذي يقف إجلالاً أمام معبودته:

- جميلة جدا! جدا جدا! تحفة فنية رائعة! قال وهو يصر على مقاطع الكلمات!

- وهذه أختها! قالت السيدة هييز، وقد فردت سجادة ثانية إلى جانب السجادة الأولى ، وإن كانت على منخفض كبير من الأرض أوطأ بسبب قصر المرأة، على الرغم من أنها رفعت يديها إلى فوق لتكون قريبة من الأخرى، وعليها صورة كنيسة القيامة!

صار الرجل ينقل طرفه بين السجادتين، إذ لا شك أنه كان يحاول أن يميز أيهما أجمل من الأخرى!

- إن زوجتي ستطير فرحا لهاتين السجادتين، وإن كانت ستسر أكثر لهذه ! وأشار إلى السجادة التي عليها صورة كنيسة القيامة، وأضاف:

- إنها شبه متدينة!

- في الواقع أن الهدية التي نقول إنها للسيد استيوارت هي ليست له وحده.قال راكان بأدب وموجها كلامه للسيدة هييز:

- إن الذي له وحده هو علبة السجائر الصغيرة فقط، أما بقية الهدايا هي هدايا للبيت، والبيت هو ملك للزوجة !

- هذا صحيح! قال السيد استيوار ت؛ ثم أضاف وهو يضحك:

- يظهر أن العالم اليوم هو عالم المرأة وحدها.. إنها سيدة الأرض ، وكلنا في خدمتها!

- إن المرأة لا شيء لها، إنها فقط زينة للرجل! قالت السيدة هييز مدافعة وهي تبتسم.

لم يسمعها السيد استيوارت فقد كان لا يزال ينظر إلى السجادتين وينقل بصره بينهما وينظر إليهما في اتجاهات مختلفة!

مضت أكثر من دقيقتين قبل أن يعود الرجل والمرأة إلى مكانيهما على الكنبة؛وبعد أن وضع كل منهما السجادة التي كان يحملها فوق الحاجيات الأخرى، مدت السيدة هييز يدها داخل الصندوق، وأخرجت منه قاطرة مؤلفة من ست جمال: الأول كبير جدا والثاني أصغر من الأول والثالث أصغر من الثاني وهكذا دواليك والقاطرة كان يقودها حمار.

- وجِمال أيضا! أيها الرجل العظيم: ما أكرمك! إن هذا كثير... كثير جدا! إنها ظريفة حقا! ستجن زوجتي فرحا كما جننت أنا! قال الرجل وهو يتنفس بصعوبة!

شعر راكان أن السيد استيوارت يتكلم بصدق ويعبر عن مشاعره حقا! وقبل أن ينتهي من التطلع إليها وتأملها، ناولته السيدة هييز جملا كبيرا نائخا، وعليه بردعه محفورة بطريقة كلها فن وإتقان!

نهض السيد استيوارت، وأوقف قاطرتي الجمال على بسطة البيانو، وابتعد قليلا إلى الوراء يتأملها:

- إنها حقا تحفة فنية رائعة ! إن زوجتي لن تنام الليلة من شدة فرحها!

وهنا أخرجت السيدة هييز زوجين من الحلق المصنوع من الأحجار الكريمة وسوارين وبعض الخواتم المصنوعة من الفضة، وبيديها الصغيرتين وضعتها في فتحة يديه الكبيرتين الضخمتين، ثم مدت يدها في الصندوق وأخرجت منه ملعقتين مصنوعتين من الفضة المطلية بالبلاتين، أحدهما عليها صورة كنيسة القيامة، والثانية عليها صورة كنيسة المهد وقد كتب عليهما: صنعا في القدس!

- هذه آخر الهدايا! قالت السيد هييز كأنما أزاحت عن نفسها عبئا ثقيلا وهي تتأمل عيني السيد استيوارت الواسعتين ووجهه البريء الذي يشبه وجه ملاك!

- إنها هدية عظيمة! إنها أكثر من هدية! إنها محتويات محل لبيع الهدايا بأكمله! لا شك أنها كلفتك ثمنا غاليا! إنني لو عينت راكان مديرا لشركة لما كنت كافأته على ما أحضر لي ولزوجتي معه!

- إن راكان يقدر الذين يساعدونه، ولا ينسى فضلهم! قالت السيدة هييز بتواضع!

- أنتما الاثنان ساعدتماني بالحضور إلى أمريكا، وإنني لن أنسى فضلكما ما حييت. قال الشاب بصدق وتواضع وبحماس أيضا!

- إنك يا راكان شاب شهم وكريم، وإنني أتنبأ لك بمستقبل مشرق زاهر عظيم، وحياة سعيدة هانئة بأمريكا! سنذكّر بعضنا يوما يا ماري، وكيف أن مساعدتنا له كانت من أعظم الأعمال التي قمنا بها ، أنا وأنت بحياتنا كلها! إنه سوف يكون القنطرة العظيمة بين أمريكا وبلاده ليجعل أبناء البلدين يفهمان بعضهما البعض، ويوم تفهم الشعوب بعضها بعضا، فلن يكون هناك تحاسد ولا تطاحن ولا تنافس ولا كراهية، وعندها لن يكون هناك حروب، وسوف يحل محلهما الحب والوفاق والوئام! قال ذلك وطوّح يده اليمنى بالهواء، ورمى إبهام يده

اليسرى المغلقة إلى الأرض، وكأنما انتهى من خطبة عصماء ألقاها أمام مؤتمر للسلام أو نزع السلاح!

اعترى راكان فرح لا يوصف، وغمرته سعادة يعجز البيان واللسان عن وصفها، فقال وهو ما زال ينظر إلى الأرض خجلا:

- آمل أن أكون عند حسن ظنكما بي، وآمل أن لا يأتي اليوم الذي تندمان به على مساعدتي!

- اطمئن يا صديقي! إن هذا لن يحدث! إننا نعرف أي نوع من الشباب أنت... إن سريرتنا لن تخدعنا وفراستنا لن تخوننا... أليس كذلك يا ماري؟! قال الرجل بصوت عالٍ وبحماس.

وهنا شعر الشاب وكأنما بدأ السيد استيوارت يلقي خطابا جديدا، ولكن هذه المرة عن الرجولة والشهامة، كما لاحظ أن السيدة هييز كانت تمسح دموعها بظهر يديها، فقالت من بين دموعها:

- إنني أشعر اليوم بأنني حصلت على سعادة أكثر مما أستطيع احتماله ! إنني أخشى أن يهاجمني القلب فأموت من فرط سعادتي! وانتظرت قليلا. ولما لم يقل أحد شيئا، أضافت:

- إنني لا أريد أن أموت قبل أن يؤمن راكان نفسه، فيكون له عمل، ويمتلك بيت وسيارة وزوجة، عندها أموت وأنا مستريحة البال!

- ما هذا يا ماري؟! ما هذا الكلام الذي تقولينه؟! إنني واثق بأنك ستعيشين وستبلغين المائة. إنني لو كنت موظف تأمين، لأمنت عليك وأنا مطمئن البال، بأنك ستبلغين المائة بل وسوف تتجاوزينها !! قال السيد استيوارت ذلك، واقترب منها وصار يربت على ظهرها، ولم يستطع راكان أن يكتم عواطفه، وبدأ هو الآخر ينهنه!

لقد بدا الثلاثة لراكان وكأنهم مجموعة من السماسرة الدجالين، والمهابيل المغفلين، وكذلك المتخلفين والمعتوهين !

- ما هذا يا سادة ! هل نحن في مأتم أو في فرح؟! لقد كنت أظن أننا نحتفل بسعادة راكان ومستقبله الزاهر؟! قال السيد استيوارت بانفعال وصوت عال ! وسكت لحظة وصار ينقل طرفه بين السيدة هييز ومكفولها اللذين كانا ما زالا يجففان دموعهما.

بدأت السيدة هييز تعيد الهدايا إلى صندوق الكرتون وترتبها، بينما كان السيد استيوارت يراقب ما تفعل.

فجأة، صاح السيد استيوارت، إذ خطرت بباله فكرة:

- إن لي صديقا، من أصل سوري، جاء جده مهاجرا إلى أمريكا. إن عنده شركة تستورد حاجيات شرق أوسطية، فما رأيك أن أكلمه وتعمل معه، وبعد أن تتعلم المهنة، تستطيع أن تستقل بنفسك، وتصبح تاجرا عظيما، وبدلا من أن تعمل لدى الآخرين، هم يعملون لديك؟ !

- أوه يا سيد استيوارت! إنني عاجز عن الشكر ولا أدري كيف أكافئك؟! قال راكان وهو يمسح دموعه بظهر يديه الأثنتين !

- لا تقل هذا يا رجل، أنا الذي لا أدري كيف أكافئك على كل هذه الهدايا العظيمة! ثم ابتسم وأضاف:

- إن زوجتي ستغضب علي غضبا شديدا إذا أنا لم أساعدك بالحصول على وظيفة مميزة، بعد أن ترى كل هذه الهدايا الجميلة والثمنية!

- بالمناسبة، كيف حال إزابيلا؟! لقد كنت عازمة على أن أسألك عنها عند وصولك، ولكن الحديث سرقنا! قالت السيدة هييز بأسف.

- إنها ولله الحمد بصحة جيدة! قبل أيام مرضت ، فانزعجنا عليها ولكنها شفيت، والحمد لله!

- والصغير بول؟

أضاء وجه الرجل وكأنما سمع خبرا مفرحا!

- إنه شقي للغاية. كلانا مولع به لدرجة الجنون والهوس. إننا نلوم بعضنا بأن أفسدناه من كثرة التدليل. ولكننا في الواقع سعداء بهذا الإفساد. إنه جميل جدا، وذكي كثيرا و...

- وكم عمره الآن؟! ولولا سؤال راكان، لربما أمضى الرجل وقتا طويلا قبل أن يكف عن التحدث عن ابنه.

- لقد بلغ العامين اليوم الثالث من هذا الشهر! أجابت السيدة هييز، ثم التفتت إلى الرجل وسألت:

- أليس صحيحا يا جورج؟

- نعم، هذا صحيح! قال الرجل بفرح.

- والبنت؟ سأل راكان. ولم يجب السيد استيوارت، وإنما انتظر من السيدة هييز أن تقوم بالجواب.

- إنها لما تبلغ التسعة شهور بعد... وترددت قليلا ثم أضافت:

- اثني عشر يوما. صحيح يا جورج؟

ضحك السيد استيوارت من أعماق قلبه، ثم نقر بإصبعه على خشب البيانو وقال:

- عقل صاف مثل البرلنتين. وهز رأسه بجدية وعمق.

- كم أتمنى يا ماري لو أن لي ذاكرة قوية مثل ذاكرتك، إذ لربما وصلت إلى مكتب رئاسة جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية!

- إنني أتذكر كل الوقائع والتفاصيل والتواريخ منذ أن وعيت على نفسي!

- إنها موهبة حقا! وهي نعمة من الله تعالى. قال الشاب.

نهض السيد استيوارت وحمل صندوق الكرتون وقال:

- أعتقد أنني يجب أن أغادر الآن... ثم إنني أريد إزابيلا أن ترى الهدايا قبل أن نغادر إلى العشاء... أراهن على أنها سوف تقضي معظم الليل وهي مرتدية هذه الملابس تتأملها وتعرض نفسها أمام المرآة!

- سوف يحمل راكان لك الصندوق إلى السيارة. قالت السيدة هييز، ولكن مكفولها لم يسمع ما قالت، فقد كان يفكر ببنت التايمس، وهي تتبختر كالغزال الرشيق أمام المرآة مرتدية الملابس التي أحضرها لها، وتصور نفسه يقف خلفها يتطلع إليها، بإعجاب ووله، وهي تتهادى كآلهة من آلهة قدماء الإغريق، أو كجنية من جنيات البحر، وينقض عليها يمزق شفتيها الناعمتين بأسنانه ويظل يضمها بين يديه بقوة وعنف حتى يشبع جوعه... ابن الشرق المتخلف والمحروم ! ابن "التابوهات" والحلال والحرام!

- راكان! راكان! ساعد السيد استيوارت على حمل الصندوق. صاحت السيدة هييز.

نهض الفتى بسرعة البرق، وخطف الصندوق من يد السيد استيوارت ووضعه فوق الكنبة وهو يقول:

- لحظة واحدة من فضلك! وجرى إلى غرفته، وغاب لحظات، ثم عاد يحمل شيئا بين يديه، وعندما وقف أمام السيد استيوارت، مد يده إليه بما يحمل!

- هذا الألبوم للصور، مصنوع من خشب الزيتون الفاخر... صنع يد... في بيت لحم وقد أهداه لي أخي، كريم، يوم غادرت الوطن هدية وداع. ثم مد يده بالقطعة الثانية وقال:

- وهذه صينية مطلية بالفضة الاسترلينية، أحضرتها لي خالتي، مشخص، في العام الماضي هدية معها من مكة المكرمة عندما ذهبت إلى الحج!

نقّل السيد السيد استيوارت عينيه بين الألبوم الذي بيد راكان اليسرى والصينية التي بيده اليمنى وقال وهو يشد على مقاطع الكلمات:

- جميل جدا! أنظر النقش فوق الصينية... هل هذه صور مكة؟!

- إنها صور الكعبة... المكان المقدس الذي يحج إليه جميع المسلمين من جميع أنحاء المعمورة يطلبون الرحمة والغفران من الخالق!

- ولكنهما هديتان من عزيزين عليك قدماها لك، ويجب أن تحتفظ بهما ، لأن الهدية لا تهدى! قال الرجل بغير حماس، وعيناه تحملقان مبهورتين بما هو أمامه!

- إنني أريدك أن تأخذهما... أريدهما أن تكونا لك... إنهما هديتان من شخصين حبيبين إلى قلبي، عزيزين على روحي، من أخي وخالتي، وبما أنك أنت أخي، فهي من أخيك وخالتك!

لاحظ راكان أن عاطفة السيد استيوارت قد غلبته فبدى كأنما هو يشهق للبكاء!

- هذا ليس حقا! أنا لا أستطيع قبولهما، إنني لا يمكن أن أقبلهما، إنهما لك.

- إنني أصر على أن تأخذهما، إنني لن أتراجع. قال الفتى بحماس وإصرار!

- ساعديني يا ماري! إن راكان عنيد! قال الرجل بلهجة الضعيف المستجدي!

- خذهما يا جورج، إنه يصر على أن يعطيهما لك!

- إنني لا أدري ماذا أقول. قال الرجل وكأنما غلب على أمره.

- لا تقل شيئا، فقط اقبلهما! قال راكان. وقبل أن يسمع موافقة السيد استيوارت، تقدم نحو الصندوق، ووضعهما به، ومن ثم حمل الصندوق وتوجه نحو الباب، وتقدمت السيدة هييز لتفتحه، ولكن السيد استيوارت كان قد سبقها إليه، فدفعه فانفتح، فظل ممسكا به حتى خرجت، وخرج راكان خلفها، ثم خرج هو وأغلقه بهدوء خلفه.

- هل تعرف يا جورج؟ إننا لم نغادر البيت منذ أن حضر راكان! كنا نخشى أن تأتي، أو تهاتفنا ولا تجدنا! قالت السيدة هييز والسيد استيوارت يضع مفتاح السيارة بالباب ليفتحه.

- حقا! إنني آسف يا ماري! لقد كنت مصمما على أن لا أحضر للسلام على راكان وتهنئته بسلامة الوصول، إلا بعد أن أؤمن له عملا، ولكن شوقي إليه لم يدعني أنتظر أطول! قال الرجل بلغة تفيض رقة وحنانا وأسفا أيضا.

كان السيد استيوارت قد فتح الباب الأمامي ثم الخلفي وتناول الصندوق من الشاب ووضعه في منتصف المقعد الخلفي!

- لا حاجة بكما إطلاقا أن تبقيا في البيت تنتظران مهاتفتي! إنني لا أعرف متى أحصل على الوظيفة! ربما تكون هذه الليلة، وقد يكون الغد، وربما بعد ذلك بقليل... على كل حال، يجب أن لا تزيد المدة عن ثلاثة أيام! وعندما أحصل عليها، سوف أتصل بكما هاتفيا... سأظل أتصل، أنا نفسي، حتى أجدكما، ولو كان ذلك في ساعات الصباح الباكر. سأحضر بنفسي أو أرسل أحداً خصوصي ليبلغكم الرسالة. الآن اطمئنا، واذهبا حيث تشاءان واتركا الأمر لي! قال السيد استيوارت بطريقة واضحة وحاسمة، ثم التفت إلى راكان، وقال:

- إنني لا أستطيع أن أعبر لك عن شكري وشكر زوجتي للهدية الثمنية والجميلة... إننا بعد أن تستقر الأمور... أعني بعد أن تستقر أنت بوظيفة... سندعوكما أنتما الاثنان إلى بيتنا لتناول العشاء ولقضاء السهرة، ثم لتحدثنا عن بلادك يا راكان! لا شك أنها بلاد عظيمة! تلك البلاد التي تنجب شابا مثقفا كل هذه الثقافة، وكريما وشهما وعنده كل هذه الأخلاق العالية! أريد أن تشكرك زوجتي بنفسها. لا تهتما، سآتي لأخذكما وسوف أعيدكما!

- هل لك أن تبلغ تحياتنا، السيدة هييز وأنا، إلى حرمكم المصون؟

- سأفعل، سأفعل، إنني لواثق من أنها تواقة جدا لمقابلتك لتشكرك على هديتك لها!

- قبّل الأطفال نيابة عني. قل لهما أن العمة ماري تبلغكما تحياتها.

- سأفعل، سأفعل! ثم التفت إلى راكان وأردف:

- بالمناسبة، إن لغتك الانجليزية رفيعة، ومفرداتك كبيرة!

خجل الفتى لهذا الإطراء. وقالت السيدة هييز:
- إنه يعرف كلمات باللغة الفصحى لا أعرفها أنا!
- إن الذين يتعلمون لغة أجنبية كثيرا ما يتبحرون في قواعدها وأصولها أعمق من كثير من أهل البلاد! قال السيد استيوارت، وتقدم من السيدة هييز وأنزل قامته وضمها إلى صدره ثم قبلها على جبينها، وقبلته هي على خده.
- اعتني بنفسك يا ماري، ولا يكن لك فكر بخصوص وظيفة لراكان!
- شكرا يا جورج، ليحرسك الرب وليباركك المسيح!
دخل السيد استيوارت السيارة وأغلق الباب خلفه وأدار المفتاح وتحركت السيارة إلى الوراء حتى وصلت نهاية المدخل، ووقفت السيدة هييز ومكفولها يلوحان له بيديهما، وعندما وصلت السيارة الشارع انفتلت إلى اليمين ثم اختفت عن الأنظار.

*****

- هل رأيت كم هو لطيف ومتواضع؟! إنني لم أر في حياتي إنسانا أكثر منه تأدبا وتفهما لمشاعر الآخرين! ثم إنه متعلم ومثقف ثقافة واسعة! قالت السيدة هييز حالما اختفت السيارة، ثم تابعت:
- إن حصافتي لم تخني ولا مرة واحدة، ولكنني فكرت الأسبوع الماضي أنها خدعتني لأول مرة، لولا ما حدث قبل قليل! وانتظرت أن يقول راكان شيئا، ولما لم يفتح فمه سألت بقلق:
- إن وجهك تعلوه سحابة من الهم والاكتئاب؛ فلم أنت عابس؟ ! ولما لم يجبها الفتى، أضافت:
- كنت أفكر أنك سوف تكون في أسعد لحظات حياتك؛ إنك الآن قد حصلت تقريبا على كل ما تريد وتتمنى، بل حصلت على أكثر مما كنت تحلم بالحصول إليه! قل لي أرجوك ماذا حدث وما سبب وجومك؟
- إن ضميري يؤنبني حتى إنني صرت أكره نفسي وأحتقرها! قالها راكان بألم.
- ولم؟ ! سألت السيدة هييز بقلق وفزع!
- لقد اتهمت السيد استيوارت، بيني وبين نفسي، بأنه كذاب ونصاب ومخادع! وهنا شعر راكان بأنه بكلامه هذا، قد بدأ يزيح بعضا مما على صدره من حزن وندم، فاستطرد:

- لقد اتهمته، بيني وبين نفسي، بأقذع التهم، ووصفته بأقذر النعوت؛ ولست أدري كيف أعيش مع نفسي ولا كيف سأقابل وجه الله يوم الحشر!

ضحكت السيدة هييز حتى كادت أن تستلقي على ظهرها، مما أثار غيظ مكفولها، وقالت:

- إنك لست أنت الوحيد الذي ظن به الظنون السيئة، لقد شككت أنا نفسي بأمانته وصدقه، ولكنني الآن غيرت رأيي طبعا! ثم ضحكت ثانية وأردفت:

- فليسامحنا الرب ويرحمنا!

- نعم، إننا بحاجة إلى مسامحة الله وبحاجة إلى غفرانه!

- هل لاحظت كم هو مهتم بأمرك وتواق لمساعدتك؟ إنه يعتبرك أخاً له!

- وهذا هو الذي جعل ضميري يؤنبني، وصرت أشعر بالغثيان من أفكاري السيئة نحوه، حتى صرت أتمنى لو أنه لم يهتم بأمري كل هذا الاهتمام!

- خفف عن نفسك! إننا بشر وعرضة للخطأ. وهذا هو الفرق بيننا وبين السيد المسيح، ولهذا السبب هو مات على الصليب من أجل خطايانا! ثم سكتت لحظات وأردفت:

- إن أمامك قرارا كبيرا لتتخذه. يجب أن تقرر إن كنت تريد العمل في شركة بيع أدوات التجميل، أو شركة صنع الطائرات، أو شركة الاستيراد والتصدير، وربما شركات أكثر، من يدري؟

- هذا صحيح! إنني أكره أن أختار بين وظائف لا أعرف عنها شيئا! أتمنى لو أننا نعرف شخصا نستطيع استشارته! قال راكان بحزن وقلق. ثم خطرت بباله فكرة.

- ولم لا أستشير آنثوني؟ لقد لاحظت من كلامه عندما أتى للسلام عليّ أنه رجل خبير، ولمست أنه أحبني!

- نعم، إن آنثوني يحبني كثيرا، أكثر من كل أولادي، وشعرت أنه أحبك أنت أيضا! وأظن أن ديان ستحبك أيضا عندما تقابلها. ولكن آنثوني لا يعرف كثيرا عن الوظائف. إنه خبير ومتعمق في كل شيء عن السيارات... عن جودتها... وأثمانها... وتصليحها. عندما تنوي أن تشتري سيارة، سوف نطلب منه ذلك!

- إذن، من تعتقدين أننا يجب أن نسأل؟

- لا أحد. أترك الأمور للسيد استيوارت. إنه هو الذي سيختار لك أنسب الوظائف! لا تزعج نفسك بالتفكير في هذا الأمر. ألم يقل لنا هو ذلك؟

- هذا صحيح! نسأل الله أن يهدينا لما فيه رضاه وما فيه الخير لنا!

فجأة شعر راكان كأن حملا ثقيلا قد انزاح عن كاهله، وفارقه حزنه واكتئابه، وشعر بنشاط مفاجئ وبدا يحلم بالمستقبل الزاهر!

دخلا البيت، وقالت السيدة هييز بأسف:

- لقد نسينا بزحمة الكلام حتى أن نقدم له كأسا من المرطبات.

ثم قلبت شفتيها وأضافت:

- لا شك أنك جائع، فلنبدأ بتجهيز العشاء.

- إنني أشعر وكأنما قد نهضت لتوي عن وجبة عشاء دسمة! كأس من عصير الليمون كل ما أريده الآن، ولنؤجل العشاء لساعة وربما لساعتين!

- كنت أريد أن أقول لك أنني لا أشعر بالجوع إطلاقا، ولكنني خشيت أن تكون أنت جائعا! قالت السيدة هييز وقد أخرجت إبريق العصير من الثلاجة وبدأت تصب منه كأسين:

- يبدو أن الفرح كالحزن يفقد الإنسان شهيته للأكل!

هز راكان رأسه موافقا، وصار يرشف من كأس عصير الليمون. "يا إله السماء! كم كان العصير لذيذاً!" ومرت فترة صمت قطعتها السيدة هييز بقولها:

- إنني أعرف أن بيتي بسيط ومتواضع، إنك لن تقبل العيش به عندما تصير تتقاضي راتبا ضخما! ثم، وكأنما خطرت لها فكرة فأكملت تقول:

- إنك تستطيع أن تدخل عليه بعض التحسينات.

- إنني أحب بيتك لأنني أحبك، وأحترمك، وأقدر المصاعب والتضحيات التي قمت بها من أجلي. ثم، إن بيتك جميل وواسع، وأنا لا أطمع أن أسكن في بيت أفضل منه!

- تستطيع أن تهدمه وتبني مكانه بيتا على النظام الحديث وحسب النمط الذي تحبه زوجتك، وربما يكون من الخير أن تنتظر إذ قد تعجبك منطقة أخرى في مدينة ثانية!

- إن هذا موضوع سابق لأوانه، يجب أن ننتظر حتى نرى أين سوف أعمل وعندها نقرر.

- هل تعتقد أن زوجتك سوف تحبني، وتقبل بأن تعيش معي؟ سألت المرأة.

- هذا شرف لها، أن تقبلي أن تعيشي أنت معها! قالها الشاب بحمية جاهلية وتفكير قبلي، وعلى طريقة الأهل في الوطن.

- إن بعض الزوجات يكرهن أن يعيش معهن أحد، وخصوصا امرأة كبيرة في مثل سني؛ ولكنني لن أزعجكم وسأعتني جيدا بالصغار وأخدمك أنت وزوجتك!

تصور راكان زوجته الأمريكية التي سوف يعيش معها قصة حب مستمر، وأولادهما الجميلين، كأنهم ملائكة! ثم تصور زوجته عندما يعود من عمله منهكا وقد فكت له ربطة العنق، وساعدته في خلع ملابسه! ثم تصور السيدة هيبز تعتني بالصغار، وتلاعبهم حتى لا يقطعوا عليه متعته وانسجامه وهو يعيش مع زوجته قصة حب عنيفة !

- إنك ملاك يا ماري، وإن لك عليّ أفضالا كثيرة وعظيمة. إننا نحن الذين يجب أن نخدمك، زوجتي وأنا والأولاد! وكأنما سر لما يقول فاستطرد:

- فقط، انتظري وسوف ترين كيف سأكافئك علي جميلك! وخصوصا عندما تتقدم بك السن.

- أنا واثقة من ذلك، فليحفظك الرب وليباركك المسيح!

بعدها، استرسل راكان مع خيالاته، يحلم بالمستقبل الباسم الذي ينتظره... بالحياة الرافهة الرغدة التي يعيشها... ويتذكر أدعية والدته الصالحات، وكيف أن الله قد استجاب لدعواتها؛ فبدأت تتحقق أمانيه وأحلامه خطوة خطوة، ثم صار يفكر بأخيه وأخواته، وأولادهم والأهل والأصدقاء بالوطن، وكيف أنهم سيكونون فخورين به، وبإنجازاته العظيمة؛ وكيف أنه وُفّق وبنى نفسه؛ ثم كيف أنهم سيكتشفون أنهم كانوا مخطئين عندما نصحوه بعدم الذهاب إلى أمريكا؛ مدعين أنه سوف يتعذب، وأنه لن يستطيع أن يجد عملا! كم هم مخطئون ولا يعرفون الحقيقة!

- هل تريد أن نذهب غدا لزيارة أختي روز؟ لقد وعدتها أن نزورها في أول فرصة نستطيع بها مغادرة البيت!

- نعم، لنفعل ذلك: إنني أريد أن أرى الناس وأن أتعرف عليهم.

نهضت المرأة، ورفعت السماعة، ثم تكلمت، وعادت إلى مقعدها.

- لقد سرت جدا، وسوف تحضر غدا صباحا في التاسعة، لتأخذنا إلى بيتها، لتتعرف على عائلتها، ونتناول طعام الغداء معهم. وبعد أن رشفت رشفة من كأسها أردفت:

- إنها تبعد من هنا فقط حوالي خمسة عشرميلاً نحو الجبال. سوف يعجبك بيتها جدا، ولكن بيت ابنتها سالي أكبر وأجمل من بيتها ...إن بين البيتين حوالي خمسة أميال فقط.

مضى بعض الوقت والمرأة تتحدث عن أختيها وعن عائلتيهما، وعن البيوت وأثمانها في مناطقهم، وتقارن بينها وبين المنطقة التي تسكنها عندما رن الهاتف! وبعد أن انتهت من المكالمة، عادت وأعلمت الفتى بأن المتكلمة كانت أختها روز تعلمها بأنه من الصعب عليها أن تأتي غداً لإحضارهما، ولكنها سألت أختها جيسيكا إن كانت تستطيع إحضارهما، وهي تعيدهما، فوافقت!

*****

الفصل الخامس

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة ببضع دقائق عندما ابتدأ راكان والسيدة هييز يتناولان فطورهما، ثم ليهيئا نفسيهما للمغادرة!

- إن أختي جيسيكا دقيقة في مواعيدها. قالت الساعة التاسعة، تعني الساعة التاسعة، والويل للذي لا يحافظ على موعده معها، فإنها سوف توجه توبيخا لاذعا ، كان سنه، ومهما كان مركزه الاجتماعي! لقد حاولت هي الأخرى أن تشوّه الاحترام والمحبة والتقدير الذي كان بين زوجي وبيني؛ مدعية بأنني زوجة مهملة لا أعتني ببيتي ولا بأولادي كم يجب، وأنني أمضي وقتاً طويلاً أثرثر مع الجارات ! لقد نسيت القصة في حينها، خصوصاً وزوجي لم يُعر ما قالت اهتماماً، وقد نصحها بأن لاتتدخل في شؤوننا! كان رجلا عظيما، رحمه الله وأدخله جناته. كان لطيفا ومؤدبا يحب بيته وأولاده. كان عندما يعود إلى البيت من عمله لا يخرج منه، إلا بصحبتي أو بصحبة الأولاد!

كان يعمل لحام كهرباء وكان ماهرا في عمله وملتزما! وبعد أن ازدردت بعض الطعام، أضافت:

- أختي روز وزوجها يعملان في مصنع تملكه ابنتهم سالي وزوجها. سالي وزوجها سيتناولون الغداء معنا في بيت أختي روز، هكذا قالت، لأنهما يريدان أن يتعرفا عليك! سالي وزوجها يملكان شركة قطع غيارات كهربائية. إنهم متعهدون للحكومة. هم أغنياء جدا وثروتهما تقدر بعشرات الملايين! وبما أنهم متعهدون للحكومة، فإن أي إنسان غير مواطن أمريكي، لا يستطيع أن يعمل عندهم، وإلا لكنت طلبت منهم أن يستخدموك! ثم إن جميع الموظفين والموظفات يجب أن يكونوا فنيين، ومعظم موظفيهم إناث. أنت تحتاج إلى خمس سنوات حتى يحق لك أن تصير مواطنا أمريكيا. سالي وزوجها يفكران أن يبيعا المصنع ويتقاعدا. سالي تكبرك بثلاثة أعوام وشهر وأربعة عشر يوما. وزوجها يكبرها بعامين وشهر وأربعة أيام. يستطيع الإنسان أن يتقاعد في أي سن يشاء. إن كل ما عليه هو أن لا يعمل. إن عندهما نقودا لا تأكلها النيران. دائما يسافران إلى جزيرة هاواي وأوروبا، وجنوب أمريكا والبحر الكاريبي. المكان الذي لم يذهبا إليه هو الشرق الأوسط، وسوف يزوران الأرض المقدسة قريبا، كما قالا لي.

"آه ما أسعدكما! كم أتمنى لو أن عندي نقودا تغنيني عن العمل! ولست أريد ذلك لأنني لا أحب العمل، بل لأتفرغ للحياة الفكرية والكتابة!" قال راكان مخاطبا الزوجين في ضميره!

- إن روز جميلة جدا، ولكن سالي أجمل منها. سوف تراها على الغداء وسوف تحكم بنفسك. كانت سالي متزوجة من رجل آخر، وكان جيرالد متزوجا من امرأة أخرى، فظلت تطارده حتى طلق زوجته وطلقت هي زوجها وتزوجته.

- أبهذه البساطة يتخلى الزوج عن زوجته، وتتخلص الزوجة من زوجها؟!

- لقد علمت فيما بعد أن جيرالد تزوج زوجته بعد حب عنيف بينهما، تعرف عليها بالكنيسة. كانت جميلة جدا ومتدينة جدا. كانت لا تعمل، وتربي ولديها، وتقوم ببعض الأعمال الخيرية، لمساعدة المحتاجين، وكانت سالي تعمل سكرتيرة لجرالد. كانت تجلس في حضنه في المكتب، وتدعه يعاشرها وهي متزوجة. سالي أنهت فقط الثانوية العامة ودخلت معهد سكرتاريا. لقد صممت أن تطلق زوجها

وتتزوج من جيرالد. زوجها فقير، ولكن جيرالد يملك شركة ناجحة. لقد دفع جيرالد بعض النقود لزوج سالي، فطلقها.

- لم أكن أعرف أن الناس يباعون ويشترون في بلاد الإخاء والمساواة! قال راكان ، باشمئزاز وقرف !

لم تعلق السيدة هييز، وإنما تابعت كلامها!

- كان زوج سالي أجمل كثيرا من جيرالد، وأكثر منه جاذبية، وذو شخصية قوية؛ ولكنه فقير. يعمل موظفا في نفس الشركة. هو الذي توسط لزوجته حتى عملت في شركة جيرالد. كانت تجلس في حضن جيرالد أمام زوجها، حتى ترغمه على أن يطلقها، وكانت تذهب إلى الغداء أو العشاء مع جيرالد وزوجها يتمزق ألما.

- يا لها من مخلوقة لا قلب لها! قال راكان بأسى!

- المهم؛ عندما سمعت زوجة جيرالد عن الحب الآثم بين زوجها وسكرتيرته، حزنت كثيرا، ومرضت من شدة الحزن، وفي خلال ثلاثة شهور توفيت المسكينة، وتركت ولدين، واحد في الحادية عشرة من عمره والثاني في الثالثة عشرة. إنهما الآن في مدرسة داخلية. الزوجة ماتت، وسالي تتمتع بثروة الزوج بعد أن استولت على الاثنين!

هنا شعر راكان بالاشمئزاز والقرف الشديدين من هذا العالم النتن القذر، الذي قدم إليه: إنه عالم الغاب، عالم القوة والغش والخداع... إنه عالم المال... عالم موبوء... سكانه وحوش كاسرة، قويهم يأكل ضعيفهم! إنهم يتصرفون كحيوانات الغاب، هذا يخطف زوجة ذلك، وتلك تأخذ زوجة هذا، وهذا يعاشر تلك، وتلك تعاشر ذاك، وإن كانت حيوانات الغاب أحيانا ترعى حرمة الجيرة وتحترم الصداقة والعشرة. ألا فليلعنكم الله، وليسخطكم الرب، ولتحل عليكم لعنة السماء يوم الدين، أيها الكلاب والخنازير!

كدّر كلام السيدة هييز المشين، عن أختيها وابنة إحداهما، خاطر راكان، وبدّد سعادته بالوظيفة الواعدة التي سيستلمها وبالحياة الرافهة التي سيعيشها في بلاد السمن والعسل!

*****

في تمام الساعة التاسعة ودقيقتين، أطفأت السيدة جيسيكا محرك السيارة، أمام بيت أختها السيدة هييز، التي هرعت حالما رأت السيارة، وهرع مكفولها خلفها للقاء المرأة! تقدم الشاب وفتح لها باب

السيارة، ومد يده ليساعدها على الخروج، وقبل أن تعطي راكان يدها، خلعت قفازها وألقته على يمنيها ثم أعطته يدها.

انحنى الفارس على طريقة القرون الوسطي احتراما للمرأة، وفي أثناء الانحناءة، لاحظ أن الفستان الذي كانت ترتديه، والذي كان الإنسان يستطيع أن يرى من خلاله، قد انحسر عن فخذيها فبدأتا وكأنهما قطعتان من الأبنوس، واستطاع الفتى أن يتبين لون كلسونها الذي كان مصنوعا من الحرير الشفاف، حتى خيل له أنه رأى ما خلفه!

- أنا راكان! سعيد بلقائك يا سيدة جيسيكا! قال راكان ويده الممدودة ترتجف وقد استيقظت ذئاب مسعورة تعوي في كل ذرة من جسمه وتحاول أن تنطلق من عقالها.

- أهلا راكان! نادني جيسيكا؛ أنا لا أحب الرسميات! نطقتها بطريقة بسيطة، وبدون تكلف، وكأنما قالتها لشخص تعرفه من مدة طويلة، أو كأنما قالتها لأختها ماري التي رفعت الكلفة بينهما، ثم قفزت كالغزال من مقعدها! في هذه الأثناء، لاحظ راكان أن نهديها رقصا تحت الفستان المبرقع الناعم!

لقد أبقت المرأة يدها ممسكة بيد الشاب لفترة ليست بالقصيرة أثناء حديثهما، بينما عيناها تحدقان بعينيه، كما لاحظ أيضا من الطريقة التي كانت تمسك بها يده، وكأنما هي تعرف سحرها على الرجال، تريد أن تشعل النيران في كل ذرة من جسمه، قبل أن تطلق سراح يده!

- لم أكن أتصورك بهذه الوسامة، وعندك كل هذا الذوق والاتيكيت! قالت المرأة وهي ما زالت تسدد عينينها النجلاوين، تتفحص بهما راكان، وكأنما تريد أن تزيد في إلهاب مشاعره!

"يا إله السماء! رحمتك وغفرانك! إن المرأة قطعة ملتهبة من الشهوة المجسّدة!" قال الفتى لنفسه.

- إن راكان شهم جدا ومؤدب، ويحترم النساء كثيراً؛ ثم إن عنده ذوقا رفيعا وثقافة واسعة! قالت السيدة هييز وهي تبتسم باعتزاز وفخر!

- لقد لاحظت ذلك! قالت المرأة بثقة وهي تتفحص الفتى وتذبّل عينيها الساحرتين الناعستين!

سحب راكان يده من يدها، إذ شعر بأنه قد تحول إلى كتلة ملتهبة من الشهوة العارمة، وتمنى لو يستطيع أن يطفئ الحرائق التي بداخله بين أحضان هذه المرأة وفي التو واللحظة!

لقد جلب انتباهه أن أعلى النهدين يظهران حتى منتصفيهما من بين فتحة الفستان الواسعة، وقد تصورهما الفحل كأنهما قديسان وثنيان قابعان في سفح جبل يتعبدان في أحد الأديرة البوذية؛ كما لاحظ أيضا، أن الفستان لا يكشف عن النهدين فقط، وإنما يستطيع الإنسان أن يرى حمالة الصدر المنفلتة التي تحتضن النهدين، ويرى الصدر خلف القميص، وقد ظهرت تقسيمات الأضلاع، وكان يستطيع أن يعدها أيضاً!

لا شك أن المرأة قد لاحظت عيني الجائع المحروم وهما تحدقان بنهديها، لأنها غمزت له بعينها اليسرى، ثم أتبعتها بابتسامة جذلى!

"والله يا سيدة جيسيكا لولا بقية من حياء، خجلي واحترامي لأختك ماري، لكنت ألقيتك أرضا، في وضح النهار، ومزقت ما عليك من ملابس، ولما تركتك إلا وقد أفرغت كل ما في داخلي من لبيد محتبس، والذي تجمع خلال ثلاثة وعشرين عاما! إنها ثوانٍ، وأفقد السيطرة على نفسي، وليذهب العالم بعد ذلك إلى الجحيم!"

- إن الصورة الشخصية التي أرتني إياها ماري لا تفيك حقك من الوسامة! قالت المرأة وهي تنظر إلى الفحل من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى. ثم أضافت:

- إن الصورة لم تظهر جمال شعرك المجعد... ولا سحر شفتيك المزمومتين... ولا نظراتك الحادة التي تشبه نظرات صقر! ثم إن أصابع يديك الطويلة لأجمل وأنعم كثيرا من أيادي السيدات المرفهات! وأتبعت ذلك بغمزة أخرى من عينها.

لم يسمع الفتى منذ أن وعي على نفسه، لا في حياته العامة ولا حتى على شاشة السينما، صوتاً بعذوبة ورخامة، وكذلك بأنوثة وحنيّة صوت هذه المرأة وهي تتكلم! كان كلامها بطيئاً... همساً... وشوشةً... وكأنما كانت تناجي حبيبها وهي تتلظى وتتأوه تحت ضربات عناقه وقبلاته المحمومة، وهما بالفراش يتبادلان الغرام، ويذوبان في بعضهما!

كان صوتها كأنه عزف كمان أو تشبيب قيثارة... يلهب الأحاسيس... يوقظ الغرائز... يدغدغ الأعطاف... يجعل الواحد يحلق بخيالاته في أجواء السماوات العلى!

لا شك أن هذه هي طريقتها الخبيثة في إلهاب قلوب وعواطف من تريد أن تشبك أحابيلها حوله!

نظر الشاب إلى الأرض، إذ اعترته موجة من العرق الساخن، فقد أخجله إطراء المرأة، وكذلك مغازلتها المكشوفة له، وإن كانت أسعدته كثيرا هذه المغازلة وهذا المديح!

- شكرا لهذا الإطراء! قال راكان وهو يحس بمتعة سماوية والمرأة ترسل من عينيها حمما جهنمية توجهها إلى عينيه وكل جوارحه! كانت وكأنما تدعوه علانية ليتقدم ويعانقها.

- قبل أن أراك كنت أتوقع أن أرى امرأة كبيرة السن، مترهلة الجسم، بيضاء الشعر، ولم أكن أعرف بأنني سوف أقابل شابة لم تبلغ الثلاثين من عمرها بعد وذات جمال أسطوري، يسلب عقل وقلب الناظر إليه!

لا شك أن جرأة راكان في التحدث، بحرية وصراحة، مع المرأة كان سببها قناعته المسبقة؛ من أحاديث السيدة هييز أولاً، ومن ملابس المرأة وتصرفاتها ثانياً، من أن المرأة شبقة وتحب مطارحة الغرام!

استغرقت المرأة بضحك عميق، وعندما استطاعت أن تتكلم، التفتت إلى أختها، وقالت:

- لم أكن أعرف يا ماري، أن راكان يجيد الغزل وماهر بالوصف!

- أنا سعيدة جداً أن أسمعك تقولين هذا! على كل حال دعونا ندخل ولنتكلم بالداخل، فالطبيب منعني من الوقوف في حر الشمس. قالت السيدة هييز وتوجهت نحو الباب، وتبعتها جيسيكا ثم راكان.

نظر راكان أمامه، وقد ظهر له جسم المرأة وأضلاعها من تحت الفستان. لقد كانت تتمتع بجاذبية جنسية مخيفة، لقد كانت الطريقة التي صففت بها شعرها والتي ارتدت بها ملابسها، تدل على ذوق رفيع وخبرة عميقة ودراية واسعة. فقد توجت شعرها فوق رأسها وكأنما هو كنز من الألماس تتباهى به، وبدت كأنها طالبة من طالبات المدارس الثانوية المراهقات، وشبكت به وردة حمراء صارخة، وبدت الحسناء كأنما لتعلن للملأ أن قلبها ينشر الحب وأن جسمها متوقد للغرام ويبحث عن الدفء!

لقد كانت المرأة طويلة القامة، نحيفة القوام، ممشوقة القد، وعلى عكس السيدة هييز والتي كانت قصيرة القوام مملوءة الجسم! لا شك أن الخالق سبحانه وتعالى، قد تفنن فأبدع في صنع جسمها، وتدويرة ساقيها! لقد خلق بطريقة فنية، وسكب بتشكل هندسي، وقد رسمت خطوطه بشكل متساو ولم يكن به خطأ واحد في غير موضعه! كان خداها أحمران كلون تفاحة، نضجت حديثا، تعلوها حمرة شديدة طبيعية، يكاد الدم ينفر منهما.

أسرع الشاب وفتح باب المنخل، فدخلت السيدة هييز أولا، تم تبعتها جيسيكا والتي اقتربت من راكان وكأنما ألقت بنفسها في أحضانه، فأزكم أريج عطرها أنفه، وأسكر عبق جسدها حواسه، فلم يشعر إلا وهو يطوقها من جنبها، ولكنها، وبخفة الغزال وسرعته، تملصت من بين يديه وتجاوزت عتبة الباب وهي تتصنع الغضب! شكر راكان الخالق أن السيدة هييز لم تر ما حدث!

- إنني سعيدة جدا أنكِ أردت راكان وأنك غيرت رأيك به.

قالت السيدة هييز بعد أن صار ثلاثتهم داخل البيت، ثم أشارت إلى أختها أن تجلس على كرسي بجانب الصوفة، وشكر الفتى الله أنها لم تجلس على الكنبة إذ كان من الطبيعي أن ينحسر فستانها عن فخذيها، ولبدأت معاناته من جديد، ولربما تصرف تصرفا قد يغضب السيدة هييز، وإن كان يعتقد بأن جيسيكا تتمنى لو تذهب معه إلى الفراش وبرغبة لا تقلّ عن رغبته!

- لا شك أن ماري قد أعلمتك بأنني كنت إحدى المعارضين لها في مساعدتك للحضور إلى هنا!

- إنني لا أرى سببا مقنعا في أن لا تعارضي! فأنا لو كنت مكانك لعارضت، وبشدة! شخص لا تعرفينه ومن عالم آخر، فكيف تثقين به؟! قال الفتى صادقا!

- في كل دقيقة أكتشف بك ميزة جديدة عظيمةً!! قالت السيدة جيسيكا بلهجة حاسمة.

- إن راكان عنده نعمة تفهم الآخرين، وله قلب كبير لا يملك الإنسان إلا أن يحبه ويحترمه! قالت السيدة هييز. وقبل أن يفتح الشاب فمه ليشكرها، أضافت وهي تنهض:

- سوف أحضر لك الهدية التي جلبها راكان لك!

- وكيف وجدت المرأة الأمريكية؟ سألت السيدة جيسيكا وقد انتهزت غيبة أختها لإحضار الهدية من الداخل.

- إنها أكثر امرأة تلهب عواطف الرجل وتثير غرائزه وتمتعه بالفراش! والدليل على ذلك ماثل أمام عيني! خرجت الكلمات من فم راكان بسهولة وعفوية، استغرب هو نفسه كيف قالها، وكيف نطق بها لسانه!

- وهل تعني أنا! سألت وهي تتضاحك.

- نعم، أنتِ، ومن سواكِ؟! قالها وهو يصرّ على شفتيه بمتعة عجيبة.

لا شك أن الفرحة العارمة لوجوده في بلاد الحرية الاجتماعية المطلقة، والانفلات الجنسي، وكذلك المستقبل الزاهر الباهر الذي ينتظره بعد حصوله على الوظيفة ذات الراتب الضخم، وشعوره بالأمان والاطمئنان ... والمرأة المغناجة الشبقة؛ كل هذه العوامل وعشرات غيرها، أطلقت للفتى عنان شهوته وزمام رغباته ... فصار يتكلم بجرأة عجيبة وصراحة مذهلة، كما لو أنه كان مخموراً أو منوّماً!

- وكيف تقول ذلك وأنت وصلت حديثاً! وبعد أن حملقت به أضافت:

- وهل سمحت لك الظروف فعاشرتها؟ ! أنك تتخيلها هكذا؟!

- لمّا أعاشرها بعد! ولكنني أتوقع أن تكون كذلك! قال الفتى ذلك وشعر بأن جماح انطلاقه قد أبطأ بعض الشيء!

- وما الذي جعلك تقول ذلك؟! سألت وهي تبتسم وكأنما تضمه بعينيها!

- ما تتمتعين به من جمال متميز وأنوثة ملتهبة! قال بحماس وهو يضغط على كل كلمة!

- يا ويلاه!! أنا أملك كل هذه المزايا؟! لم أكن أعرف ذلك! قالت وهي تتضاحك.

هز الفتى رأسه طرباً عدة مرات!

- ما أسعدني أن أكون أنا الموديل الذي تحكم به على جميع بنات أمريكا! أخشى أن يصيبني الغرور فأصدّق ذلك!

- صدّقي ذلك! قال بحماس.

- والمرأة في بلادك؟!

- إن المسكينة ما زالت تعيش في كهوف القرن الحجري! لقد حكموا عليها بالجهل والتخلف! لقد أرضعوها مع الحليب قبول الذل والخضوع والمهانة للرجل! قال بغضب!

- وماذا تعني؟

- إنها ما زالت تناقش قضية الحلال والحرام، وأن الحب ممنوع وضد الشرف والأخلاق، وأن القبلة حرام وتدخل صاحبها النار!

- ومتى تعتقد أنها سوف تتحرر من هذه المعتقدات؟

- في العالم الثاني!

- هل تؤمن بالحياة بعد الموت؟

- أؤمن بأنني وجدتك ممتعة جداً، وأتمنى لو أنني أقضي شهرا كاملا بين أحضانك، لأشبع حرماني من جسدك المستعر!

- وهل أنت محروم وجائع؟!

- أكثر مما تتصورين! ربما حتى النخاع!

- مسكين، ليتني أستطيع إشباع جوعك!

- إنك تستطيعين.. تستطيعين، صدّقيني!

- انك أجرأ مما تصورت!

- أنتم الذين علمتموني الجرأة. إنكم مجتمع متحرر أخلاقيا، وسيطرت عليه شهوة الجنس حتى استبدت به!

- ألا تحب الجنس!

- أحبه كثيراً! إنني أتمنى لو أستطيع أن أنام مع كل الفرافير المغناجات في أمريكا!

- وهل أنا واحدة من أولئك الفرافير!

- أنت على رأسهن، فدعيني أبدأ بك الآن!

- ولكنني امرأة متزوجة وهذا غير عدل! قالت وهي تتضاحك!

- إنك لا تؤمنين بما تقولين! ولو أننا وحيدان لتجردت من ملابسك في هذه اللحظة! ولطلبت إلي أن أمارس الجنس معك!

- إنك واثق من نفسك ومعتد بها أكثر من اللزوم!

- أنا أعرف أخلاقيات وقيم المجتمع الذي أتيت إليه!

- ولم لم تبق في مجتمعك الأخلاقي والمثالي؟! قالت بسخرية!

- لا تذكريه لي! لقد هربت منه، إنني ألعنه وألعن أخلاقياته ومثالياته، لقد أورثني اللعنة والقهر والجنون!

- إذن أنت تحب مجتمعنا!

- أنا أحب نساء مجتمعكم، ولهذا هربت من هناك وأتيت إلى هنا! قلت لك، أريد أن أنام مع كل امرأة جميلة أقابلها!

- وهل تعتقد أنك سوف تستطيع؟

- سوف أحاول، والتي لا تقبل سأجرب غيرها!

- ولم أتيت إلى أمريكا؟!

- فقط لأنام مع أمثالك من الجميلات!

- غداً سوف تسأم النساء والجنس! قالتها ببساطة وسهولة وكأنما تحدثت عن طبخة تنوي طبخها مما حير الشاب القادم من مجتمع الممنوعات والمحرمات!

- هذا ما تظنين! إنني على العكس من ذلك تماما! إنني كلما غرقت في الأحضان كلما تفتحت شهيتي وقويت قابليتي لأكثر وأكثر!

- ألا تعتقد أن هذا نوع غريب من المرض! قالت وهي تضحك بحبور وشهية وكأنما تلقي نكتة!

- لقد أتيت إلى أمريكا لأنضم إلى المجتمع الذي أنتمي إليه!

- نحن نعتبر الجنس كوسيلة، أما أنت فإنك تتحدث عنه وكأنه غاية!

- الهدف والوسيلة عندي سيان! أنام معك لأنني أريدك! وأريدك لأنني أنام معك!

انفجرت تضحك بحميمية، ثم قالت:

- هل تصدق إن قلت لك أنك تعبر عن مشاعري؟ الفرق بينك وبيني هو أنك تقول ما تعتقد، وأنا أعتقد بشيء أخاف البوح به!

- ولم تخافين، وممن تخافين! قال راكان بشهية متفتحة، استغرب هو نفسه ضخامتها وشراهتها.

- لأنني زوجة، ثم إن المجتمع لا يقبل ذلك!

- وأي مجتمع تعنين!

- الناس من حولنا! قالت باستغراب وكأنما تستهجن عدم إدراكه!

- تعني مجتمعك الذي سرقت فيه أختك روز خطيب أختها ماري، والتي سرقت به ابنتها المتزوجة زوج امرأة غيرها وتسببت في موتها، وبينها وبين زوجها رباط مقدّس وثّقه القسيس وشهد عليه الشهود وباركه الخالق، أو كما فعلت المرأة المتزوجة ديان عندما ظلت

تطارد الرجل الأعزب، ابن أختك، حتى أوقعته في حبائلها فنام معها وهي متزوجة وعلى ذمة رجل، وهي الأخرى أيضا تربطها روابط مقدسة برجل بينهما رباط مقدس وثّقه القسيس وشهد عليه الشهود وباركه الخالق، والبريئة الصغيرة ابنتها تسقط من فوق السرير وتظل تبكي، ولا أحد يهتم بها!

- وهل أعلمتك ماري بكل ذلك؟! يا لها من امرأة لا تحفظ سرّاً!

- أليس هذا صحيحا؟

- نعم! ولكن يجب أن يظل سرا، هذه أسرار عائليّة!

- وهل يغير شيئا من الحقيقة إن عرف واحد آخر عن هذه الأسرار العائلية؟!

- هل تصدق يا راكان أنني لم أقابل إنسانا بجرأتك وصراحتك، وأيضا بشجاعتك!

- شهادة أعتز بها وأفتخر، وأعتبرها وساماً أزين به صدري من امرأة جميلة مثلك!

لم تشكره المرأة على مدحه لها، وإنما سألت:

- إنك لم تخبرني ماذا قالت لك ماري عني؟!

- قالت بأنك هددتها بأن تأخذيني منها!

- وهل تعتقد أنني أستطيع أن أفعل؟!

فتح الشاب فاه ليقول لها بأنها فعلت قبل أن تنزل من سيارتها؛ ولكن صوت السيدة هييز نادته من الداخل:

- راكان! راكان! هل تعرف أين وضعنا هدية أخواتي! لقد فتشت عليهما في كل مكان!

- أنا آسف! لقد وضعتهما تحت سرير نومي. قال مكفولها وهو ينهض.

عاد راكان والسيدة هييز يحملان الهدية.

- هذا طقم لك وطقم لروز، كل طقم من خمسة قطع! قالت السيدة هييز وهي تضع الطقمين أمام أختها.

- واحد أبيض والثاني أسود. اتفقا بينكما ولتأخذ كل واحدة اللون الذي تحب!

مدت السيدة جيسيكا يدها وتناولت الجاكيت الأبيض وفردته أمامها وصارت تمر به فوق وجهها وعيناها مصوبتان إلى راكان، كأنما هي قطة تتمسح بأذيال صاحبها في ليلة من ليالي الشتاء البارد!

- آه ما أجملها وأنعمها! إن طراوتها ونعومتها تسعد الإنسان وكأنها آتية من عالم سحري!

كانت تأخذ كل قطعة من القطع العشرة وتمر بها على وجهها وتنوم رأسها عليها وعيناها مسلطتان على وجه الفتى وكأنما تعريه في مخيلتها.

- والآن، وقد رأيت الطقمين، فما رأيك بهما؟ سألت السيدة هييز.

- إنهما جميلان جدا. جدا جدا! أظن أنني سآخذ الطقم الأسود، وسوف أعطي إلى روز الطقم الأبيض، فأنا لم أر بجمالهما في حياتي! إنهما تفوقان الوصف وكأنما قد نزلا من السماء ! الجاكيت والتنورة والشال والطاقية! أحس كأنما أنا حورية... أما وأنا ألبس الصندل المخملي، فأنا أحس وكأنما أطير إلى السحاب! ثم نظرت إلى الشاب وذبّلت عينيها وكأنما تقول له: أحس أنني أطير وإياك فوق السحاب!

- شكرا يا راكان! إنها هدية مميزة ورائعة! حقا، إن ذوقك رفيع ومترف، وتعرف كيف تختار هداياك!

احمرت أذناه خجلا من هذا الإطراء.

- أريد أن أشتري مجموعة من الجرابات الانجليزية لزوجي، بمناسة عيد ميلاده الأسبوع القادم، وهي متوفرة فقط في متجر صغير هنا في آركاديا. إنه المكان الوحيد الذي أعرف أنه يتواجد عنده هذا النوع! قالت ذلك وهي تنهض وقد وضعت الهدايا بجانب آلة البيانو!

- أمامنا نهار طويل! بعد أن أشتري الجرابات سوف أحاول أن أقنع راكان ليشتري لي فنجان قهوة في مكان مجاور طالما شربت من قهوته وأحببتها! قالت ذلك ومدت يدها وأمسكت يد الفتى وسحبته خلفها فانصاع لها، وكأنما هو طفل صغير تسحبه أمه خلفها!

- نذهب نحن الثلاثة! قال راكان احتراماً لشعور كفيلته، وهو يحاول أن يفلت يده اليمنى من يد أختها! وقد مد يده اليسرى نحو السيدة هييز!

- ستتضايق ماري في هذا الحر اللافح!

- أنا أفضل البقاء في المنزل لأكوي ملابس راكان! قالت المرأتان تقاطعان بعضهما بعضا!

- إلى اللقاء يا ماري! نراك بعد ساعة أو اثنتين! قالت السيدة جيسيكا وهي تسحب راكان خلفها.

- أمضيا وقتا طيبا! قالت السيدة هييز وهي تودعهما إلى الباب.

مدت مفتاح السيارة الى الفتى وقالت:

- هل ترغب في القيادة؟

شعر الفتى بخجل صاعق، وفتح فمه ليعتذر لها بأنه لا يعرف القيادة، ولكنها سبقته وقالت:

- آه! ما أغباني! إنه غير مسموح لك أن تقود سيارة وأنت لا تحمل رخصة قيادة أمريكية. أنت جديد هنا!

تقدم راكان وأخذ المفتاح من يدها وفتح لها الباب، وظل ممسكا به حتى جلست، فأرجعت فستانها، عن فخذيها فظهر الكلسون وما خلفه، فتشنجت كل خلجة في جسم الفحل، وفكر أن يهجم عليها ويعانقها، إذ كان قطعة ملتهبة من الشهوة وهو يلف حول السيارة ويدخل من الباب الثاني الذي فتحت درباسه له من الداخل، وعندما رمى بنفسه فوق المقعد الوثير، أحس بأنه غرق في إحدى طنافس جنة أرضية، وأنه يدخل غرفة نوم السيدة جيسيكا ليغرق ذاته في ذاتها، ويشبع جوع السنين.

- أرجوك! إن كل ذرة في جسمي، تصرخ وتستغيث! قال راكان بعد أن خرجت السيارة من مدخل البيت وابتلعها الشارع. ثم أضاف:

- إنني سوف أصبح الآن كالكلب المسعور، إن لم تلتحم ذاتي في ذاتك! قال هذا، وطوق عنقها وبدأ يقبلها بنهم ووحشية فوق شفتيها وصدرها ونهديها!

- حذار! إن كل الجيران يعرفونني في هذا الشارع! قالت وهي تبعده عنها بلطف!

- ومتى تخافين من الناس؟ سألها بجرأة استغربها هو نفسه!

- إنك بوضع يديك حول عنقي وخصري قد أرتكب حادثة اصطدام!

أزاحته عنها هذه المرة بشدة وقالت: اضبط نفسك لدقائق!

- وأين نحن ذاهبان؟ سأل وهو يرتجف كالذي به حمى!
- ستعرف بعد قليل!

لا يدري راكان المسافة التي قطعتها، ولا الأماكن التي مرت بها! إنه لم يشعر بشيء ولم ير شيئا. كان قطعة ملتهبة من الشهوة المستعرة، وكان يريد جسد جيسيكا بأي ثمن! وكالمنوم، أحس بأن السيارة قد توقفت، واستطاع أن يقرا كلمة "موتيل + مكتب". فتحت المرأة باب السيارة وخرجت، دون أن تعطيه فرصة السؤال!

- انتظر لحظة! قالت وهي تحمل حقيبة يدها وصفقت باب السيارة خلفها!

كان راكان يحس أن بينه وبين الانفجار خيطا رفيعا، رفيعا جدا، وكان يضغط على هذه الوحوش الثائرة والتي تعوي بداخله. عادت بعد قليل تحمل في يدها مفتاحا، وحالما دخلت السيارة، وأغلقت الباب خلفها، وقبل أن تدير المفتاح، سألها راكان بخوف وقلق:

- أين نحن؟! وماذا تفعلين؟ ! وما هذا المكان؟! ولم هذا المفتاح الذي بيدك؟!

- قلت لك اسكت، ولا تفتح فمك. قالت ذلك وقد أدارت مفتاح السيارة!

- إننا لا نستطيع أن ننام الليلة هنا، فالكل ينتظر حضورنا! قال راكان وقد نامت كل الوحوش التي تعوي بداخله فجأة!

- ومن قال أننا سنقضي الليلة هنا؟! قالت وقد نفد صبرها.

- أنا المسئولة عن كل شيء. قلت للموظف بالمكتب ، زوجي وأنا قادمان من سان فرنسيسكو ومتوجهان إلى سانتياغو، ومتعبان، ونريد أن نرتاح بعض الوقت من الزمن، ثم نتابع سفرنا!

- وهل صدقك؟ ! ألا يخبر البوليس عنا؟!

وكانت قد أوقفت السيارة أمام بناء طويل ذي دور واحد، فنظرت إليه كأنما لا تصدق أذنيها، فقالت بغضب وكأنما تطلق عليه رصاصة مع كل كلمة تقولها:

- وما شأن موظف الفندق بنا؟! لقد دفعت له أجرة ليلة، فماذا يهمه غير ذلك؟ ثم ما شأن البوليس بنا حتى لو رآنا ننام مع بعض؟ أنا التي أدفع راتب البوليس، فما شأنه بنا؟ وهل من أسئلة أخرى؟

قالت ذلك، وفتحت باب السيارة وخرجت وأغلقته خلفها بشدة، وظل هو جامدا في مكانه، وبرأسه تدور عشرات الأسئلة... استئجار

فندق لبضع ساعات... وموظف الفندق لا يسأل عن الهويات ولا عن جوازات السفر... ولا يمضي نصف ساعة في سؤال وجواب؟ أليس هذا ما يفعلونه في وطنه الحبيب؟ أليس من وظائفهم وضمن اختصاصاتهم الحيوية والمهمة، مراقبة تصرفات قضيب الرجل وفرج المرأة؟ والبوليس الذي تدفع جيسيكا راتبه وعشرات الأسئلة؟

- ألا تريد أن تنزل؟ سألت المرأة باستغراب!

- نعم، إنني أحب ذلك، أعني نعم، إنني سأنزل!

- إذن، أسرع!

قالت ذلك، وسارت نحو الغرفة رقم 16، وفتحت بابها، ودخلت، ودخل هو خلفها، وما كادت تغلق الباب خلفهما، حتى استيقظت كل الوحوش النائمة في داخله من جديد، وهجم عليها، وأوقعها فوق السجادة وصار يلتهم كل مكان تصل إليه شفتاه في جسمها التهاما.

- دعنا نخلع ملابسنا أولا ثم نستحم! قالت برجاء وهي تتضاحك وتحاول أن تبعده عنها.

- وهل تعتقدين أنني أستطيع أن أنتظر كل هذا الوقت! إنني سأنفجر الآن، إن لم أطفئ الحمم الثائرة في جوفي! قالها وهو يرتجف!

- دعنا نذهب إلى غرفة النوم، إن قساوة الأرض تؤلم ظهري!

وهنا حملها الفتى بقوة، وشفتاه ما زالتا مطبقتين على جسدها تقبلانه في كل موقع تقعان عليه، ثم رمى بها فوق السرير وألقى بنفسه فوقها، وبإحدى قدميه نزع فردة حذاءها، فسقطت على الأرض، وبالقدم الثانية خلص فردة حذائها الأخرى وألقى بها بعيدا!

- أرجوك، اخلع بذلتك ودعني أخلع فستاني! لا يستطيع الإنسان منا أن يستمتع جنسيا وهو مرتد ملابسه!

- قال وهو يرتجف، كالذي أصابته حمى مسعورة!

- دعيني أدخل جنة ذاتك أولاً، لقد حرقني الشوق وأضناني الانتظار لألتحم بك!

لا يدري راكان كم مضى من الوقت وهو يتصارع مع الوحوش المنفلتة بداخله، ثم فجأة صار يهتز فوق جسد المرأة وهو يرتجف.

- ضمني إليك بقوة... مزق جسدي يا حبيبي... حطم عظامي... أنا ملك لك! لم أشعر بحياتي كلها بمثل هذا الاستمتاع وهذه

السعادة التي أشعر بها الآن! قالت المرأة، ولما لم يقل هو شيئا، نظرت إليه فوجدت عينيه حمراوين وكانت دموعه تغطي وجهه، لقد كان يبكي! إنه لا يدري هل كان يبكي ندما على ما فعل، أم كان خوفا من الله، لأنه ارتكب الخطيئة الكبرى... عملية الزنا...! أم أنه كان يبكي السنين التي مضت من عمره صائما يعيش حياة الحرمان، تسيطر عليه فكرة الحرام والحلال؟!

مضت فترة ليست بالقصيرة، والفتى يبكي فوق صدر المرأة وهي تضمه إلى صدرها وتشد عليه، كأنما تخاف أن يهرب منها أو كأنما هو ابنها الصغير تريد أن تحميه من مجهول!

- هل تصدقين أن هذه أول مرة في حياتي كلها أمارس الجنس بها مع امرأة؟ قال ذلك وفي اعتقاده أن ما فعله مع جوليانا لم تكن عملية جنسية!

- أول مرة في حياتك؟ كم أنا محظوظة، وما أسعدني! إذن إنا التي سلبتك عذريتك؟ وهل سعدت معي؟ سألت جيسيكا بشوق واهتمام شديدين!

- لقد شعرت بسعادة لم أشعر بمثلها من قبل... سعادة متميزة ومن نوع غريب وعجيب! قال راكان وهو يلوك الكلام كالسكران!

قربت شفتيها من شفتيه وقبلته بحرارة وشهوة متوقدة!

- إنني أريد أن أمارس الجنس معك مرة ثانية! وقبل أن يسمع رأيها قفز من على الفراش، وألقى كل قطعة من ملابسه في أرض الغرفة، وكانت هي قد تعرت من ملابسها، فبدأ كالوحش الضاري يقبلها ويعضها في كل مكان من جسمها!

- أرجوك! لا تترك أثارا على جسمي يستطاع رؤيتها. قبلني وعضني في الأماكن التي يغطيها الفستان! قالت وهي ترتجف شهوة!

ومرت فترة طويلة هذه المرة قبل أن يصير جسم الشاب يتراقص فوق صدر المرأة!

- في المرة الأولى حدثت مطارحة الغرام سريعا، لذلك لم أرتو، أما هذه المرة، فقد شعرت أنني قد رويت عطشي. قالت وهي تتلوى من اللذة وبصوت مكتوم ولفترة طويلة!

- إذن، وماذا أنت فاعلة في المرة الثالثة؟!

- وهل هناك مرة ثالثة؟ ! سألت باستغراب!

- هناك ثالثة ورابعة وخامسة، حتى أتخلص من جوع سنوات طويلة! قال ذلك، ثم نهض وتوجه إلى الحمام، وأخذ يسكب الماء البارد فوق جسمه، وأحس والماء ينسكب فوقه أن الذئاب المسعورة في داخله قد بدأت تدق طبولها من جديد، وبمثل سرعة البرق راح يعدو نحو الفراش، وأغرق نفسه بين أحضانها، ولكنه في هذه المرة قد أمضى ما يقارب الساعة وهو يتعبد في محراب هذا الجسد، يلكده ويلكده ويلكده، وقبل أن يصيح من أعمق أعماقه، أطلق صرخة وبصوت عال اهتزت له جنبات الغرفة، وإن كانت المرأة في هذه المرة قد رافقته في الصياح والارتجاف!

- صدقني، يا حبيبي، إنني لم أشعر بنشوة جنسية مثلما شعرت بها هذا اليوم! قالتها بلهجة المنوم!

- وصدقيني، أنا أيضا، إنني لم أشعر بنشوة وسعادة في حياتي كلها كما شعرت بها اليوم!

- إذن، نحن مناسبان لبعض! قالت المرأة وقد تعاظمت سعادتها وازدادت نشوتها، ثم وكأنما خطرت على بالها فكرة! عندما سألته وهي تتضاحك!

- ما رأيك في جزيرة هوائي؟ !

- أنا طبعا لم أرها، ولكنني سمعت عنها الشيء الكثير! لقد قيل لي بأنها جميلة جدا، ويقصدها السواح من جميع أنحاء العالم!

- أعني، ما رأيك بأن نذهب إليها، أنت وأنا، ونقضي بها شهراً كاملاً !

وبعد أن توقفت قليلا، لعلها تريد أن ترى وقع كلامها عليه، أضافت:

- وأنا أتكفل بجميع مصاريفنا!

- نذهب على أي أساس؟ ! سأل الشاب وقد استهوته الفكرة وإن استبعد حدوثها!

- نذهب كعاشقين ! قالت بجرأة أذهلت راكان!

- وماذا عن زوجك... وبيتك... وأختك... وجميع أفراد عائلتك... الناس الذين تعرفينهم!

- فليذهبوا جميعا إلى الجحيم! أنا لا أهتم لهم. أنا حرة! أفعل ما أشاء وأنام مع من أشاء! قالت شبه غاضبة وكأنما أهانها! وبعد أن ابتلعت ريقها سألته:

- ماذا قلت، هل تقبل عرضي؟ !
- وكيف نبرر ين سفرنا؟!
- اترك الأمر لي، وأنا سوف أتدبر الأمر ! وقبل أن يجيب، هجمت عليه تماما كما فعل معها هو أول مرة، فقد صارت تقبله بنهم في كل جزء من جسده تقع شفتاها عليه، ولم ينضم إليها هو هذه المرة، فقد شعر بأنه ارتكب خطيئة الزنا، فأصابه هم وحزن شديدين وشعر بأنه يكاد يختنق وعلى وشك أن يستفرغ !
- قل لي، هل توافق؟! إن جزيرة هوائي جميلة جدا، وقد ذهبت وزوجي إليها وقضينا شهر العسل هناك! إنني أريد أن أقضي شهر عسل آخر معك يا حبيبي!
سألت وهي تقبله كالمسعورة بنهم وشغف أكثر من السابق، بينما كان هو يحاول أن يبعدها عنه.
- يجب أن نذهب الآن، وإلا قلقت ماري علينا! قال ذلك وخلص نفسه من بين يديها وتوجه إلى الحمام فقد أحس بأن الجنابة التي عليه والتي تعلم من حداثته أنها ثقيلة، وأن الإنسان قذر حتى يتخلص منها. شعر أنها تكبس على أنفاسه فتكاد تزهق روحه!
وضع نفسه تحت الماء المنهمر وصار ينظف جسده بشدة كأنما يريد أن يطلع له جلدا جديدا، إذ إن الجلد الأول مملوء بالرجس والقذارة.
لبست ملابسها بعصبية ظاهرة ودون أن تستحم.
- ألا تريدين أن تستحمي وأن تزيلي القذارة عن نفسك؟
نظرت إليه مستفهمة:
- ماذا تعني؟ ! وأية قذارة ؟ !
- بعد ممارسة عملية الجنس، يصير الإنسان قذراً ، ويجب أن يتخلص من قذارته بأن يستحم !
- أهكذا علمك مجتمعك؟! إن عملية الجنس هي أجمل شيء في الحياة! لا شيء يقرب بين إنسانين ويجعلهما يحبان بعضا أكثر وأقوى إلا بعد عملية الجنس! لا حقيقة في الدنيا أجمل من جسدين يلتقيان وينصهران معا إذا كانا يريدان بعضا! إنها عملية مقدسة لحفظ ودوام الخلق!

- ولكنها عملية قذرة ومقرفة ويجب أن نغتسل منها حالما ننتهي منها! هكذا تعلمنا منذ الصغر! قال الفتى بعصبية الخاسر الذي يشعر بأن حجته واهية.

لو كانت مقرفة كما تقول، لما جعلها الله أساس خلق الإنسان، إذ لولاها لما عمر الكون؟ ولما لم يقل شيئا أضافت بدلع المحب الولهان:

- أنا لا أريد أن أستحم لأن جزءا منك أحمله في داخلي وفوق ذاتي! وسبب آخر لأنك أنت، وليس إنسانا آخر، الذي تركها على جسمي! أريدك أن تبقى عليّ لأنك أعطيتني سعادة لم أحصل عليها منذ أن تزوجت.

ازداد شعور الشاب بالإثم والندم، ولم يستطع أن يحمل نفسه إلى النظر إليها، ولا إلى الاستماع إلى كلامها!

- أنا لا أدخن، ولا أشرب، والجنس هو ألذ متعة عندي!

- أنت متزوجة وتستطيعين أن تحصلي على الجنس كل ليلة! قال راكان بغيظ.

- هذا ما تعتقد، ولكنك مخطئ! إن زوجي لم يعد يستهويني، وأنا لم أعد أهتم به! قالت باشمئزاز وكأنما ذكر لها شيئا تمقته.

- وماذا يقول لو عرف ما حدث اليوم؟ ثم ماذا يفعل لو نذهب إلى جزيرة هوائي؟ سأل الشاب وفكرة ذهابه إلى جزيرة هوائي ما زالت تستهويه وتداعب أعطافه!

- إذا لم يعجبه، فليأخذ ملابسه ويرحل، فالبيت باسمي وكل شيء لي!

- بهذه السهولة؟! سأل الفتى وقد حملق بها مذهولا وفتح فمه على سعته؛ إذ إن عقليته العربية المحافظة لم تستطع استيعاب ما سمع!

- أسهل مما تتصور!

هز الشاب رأسه ولم يقل شيئا!

أعادت مفتاح الغرفة إلى مكتب الفندق، وغادراه في الساعة الواحدة والنصف وخمس دقائق، وفي الطريق ذكّرها راكان بالجوارب التي سوف تشتريها!

- لقد ابتعتها الأسبوع الماضي وهي في صندوق السيارة! قالت.

*****

جلس راكان في المعقد الأمامي بين السيدة جيسيكا والسيدة هييز، وقد تمنى لو أن يجلس في المقعد الخلفي، ولكن السيدة هييز، سامحها الله هي التي طلبت إليه ذلك. كان كلما تطلع إلى صدر جيسيكا ورأى نهديها نصف الظاهرين من فتحة القميص، وفخذيها اللذين أزاحت عنهما الفستان إلى الخلف، وحتى سروالها الذي يستطيع أن يرى خلفه، لم تعد كل هذه الأشياء توقظ فيه أي نوع من الرغبة، كما فعلت هذا الصباح، بل على العكس، فإنها أثارت في نفسه التقزز والاشمئزاز!

لقد رأى بعد أن دخلت السيارة في شارع آركاديا الرئيسي، فتيات في عمر الزهور، بعضهن يسرن بالشارع، والبعض الآخر واقفات يتأملن واجهات المحلات الزجاجية، وكن شبه عرايا، وقد ارتدى بعضهن بنطلونات قصيرة جدا لا تغطي إلا جزءا بسيطا من أفخاذهن وقد ارتدين فوقها قميصا صغيرا شفافا، يظهر خلفه الصدر والنهدين، مما يزيد الجسم إغراء وجاذبية !

كان كثير منهن قد استبدلن بالقميص شريطا دقيقا ووضعنه فوق صدورهن لم يحجب إلا حلمتي النهدين! لقد كن يتفنن في لون هذه الأشرطة التي يضعنها فوق أماكن الحشمة مما تجلب انتباه الرجل وتثير غرائزه أكثر مما تصدها !

أحس الفتى بأن شهيته قد تفتحت من جديد، وأن الوحوش في داخله قد بدأت تعوي وتحاول الإفلات ! لقد أدرك الآن بأن إحساسه نحو هذه الأجساد المملوءة الثائرة قد اتخذت مسارا غير ما كان عليه قبل أن يطفئ ظمأه فوق جسد جيسيكا وبين أحضانها. إنه يعتبر نفسه الآن ذا خبرة وتجارب مع أجساد النساء، ولم يعد غرّا كما كان قبل أن يمارس الجنس مع جيسيكا هذا الصباح! إنه الآن يشعر بجوع المحنك المجرب، وليس جوع المحروم الذي لم يذق الطعم بعد! إنه الآن يشتهي المرأة ويعريها، يغرق نفسه بين انها، بطريقة تختلف عن الطريقة التي كان يتبعها قبل هذا الصباح ! إن الوحوش التي بداخله هي وحوش من نوع آخر، وحوش لا يشبعها إلا الأجساد الطرية اللدنة، وليست أجساد النساء المتقدمة بالسن! إن أجساد النساء الكبيرات الآن تثير في نفسه القرف والتقزز والاشمئزاز!

-ما رأيك باللباس الذي يرتدينه هذه البنات؟!سألت جيسيكاراكان همساً، حتى لا تسمعها أختها التي تتطلع على زجاج المحلات والتنزيلات المكتوبة على واجهاتها وتعلق عليها.

على الرغم من أن سؤال جيسيكا أسعد راكان وهيّج عواطفه، وأكّد رجولته وفحولته، إلا أنه لم يفهم ما الذي عنته من سؤالها؟

- إذا كنت تحب هذا اللباس، فعندي مثله، أستطيع أن أرتديه لك في جزيرة هوائي ! قالتها همساً !

لم يجب الفتى، وإنما شعر بأن قرفه واشمئزازه قد ازدادا!

التصقت به المرأة، وابتعد هو نحو السيدة هييز التي كانت لا تزال لا تكف عن التعليق على كل شيء يمرون به.

- هل لك أن تنزاح قليلا باتجاه جيسيكا؟ طلبت السيدة هييز من مكفولها، وقد رافقتها بضحكة بريئة ساذجة، وأضافت:

- إن الباب يضغط على جسمي، وأنا أكاد أختنق؟

اعتذر راكان للمرأة وتظاهر وكأنما هو غير واع لما يحدث !

- لقد خرجنا الآن من مدينة آركاديا ودخلنا مدينة منروفيا! يا إلهي! إنني كلما أتذكر هذه المدينة قبل عشرين سنة، وعندما أراها الآن أكاد أقسم أنها ليست نفس المدينة التي أعرفها! لقد كان زوجي رحمه الله يشتغل بها، وكان يحبها كثيرا وسعيدا جدا!

لاحظ الشاب أن حرارة الجو تزداد رويدا رويدا، وشعر أن عينيه بدأتا تحرقانه من هذا المزيج من دخان المصانع والسيارات ممزوجة بالسحب، هذا المزيج الذي تشكو منه كل المدن الكبرى في أمريكا !

سارت السيارة وسط المدينة لفترة قصيرة، ثم بدأت تصعد باتجاه بعض الهضاب الخالية من البيوت، وهنا لاحظ الفتى بعض البيوت المتناثرة فوق الهضاب المطلة على مناظر خلابة، ثم فجأة دخلت السيارة في طريق ضيق متعرج بين الجبال، فرأى أن البيوت المتناثرة على جانبي الطريق كانت بيوتا حديثة، فخمة البناء لا يصلها الدخان؛ وأن الهواء، هنا، كان منعشاً!

فكر راكان بأنه، لا بد في يوم من الأيام، وأن يبني بيتا في تلك الهضاب، ذات الهواء النقي المنعش والمناظر الخلابة، والتي تطل على سهول ووديان مكتظة بأشجار الليمون والبرتقال! غير أن شيئا واحدا لفت انتباهه وأحزنه أيضاً، فقد رأى من بعيد بعض أشجار

الليمون والبرتقال تقلع ليبنى مكانها بيوت، وتسوى شوارع، وأن هذا الجمال الساحر الأخاذ في طريقهاإلى الزوال!

وصلت إلى أنفه مع هبات النسيم، رائحة أشجار البرتقال فأنعشت روحه وأدخلت السرور إلى أعطافه، وشعر بسعادة غامرة، ونسي السيدة هييز والسيدة جيسيكا وصار يحلم ويتخيل البيت الذي سوف يبنيه فوق إحدى هذه الهضاب بعد فترة وجيزة، عندما يتسلم عمله ذو الراتب الضخم، وبالسعادة التي تنتظره بعد قدومه إلى أمريكا! وهنا استولت على أعطافه لذة جارفة، ولا يدري لماذا تذكر في تلك اللحظة والدته وأفراد عائلته. ! إنه لم يتذكرهم طيلة تلك الرحلة حتى كأن لم يكن له في يوم من الأيام أم ولم يكن له أهل !

تذكر منظر أمه يوم سفره! كانت تودعه: وكانت تبكي بصمت، فقط دموعها الغزيرة تسفح فوق خديها، وكانت ابتسامتها لا تفارق شفتيها! كانت تقبله على وجهه وجبينه ورأسه ورقبته وذقنه، وتذكر كيف أنها طلبت من الله أن يحميه من أولاد وبنات الحرام، وتساءل إن كانت جوليانا وجيسيكا بنتي حرام؟! فهل هما رديئتان لأنهما سمحتا له أن ينام معهما ليثبت رجولته؟! لقد وضعته الأولى على أول درجات سلم الرجولة، واليوم ثبتّت الثانية أقدامه على هذا الطريق... ثم إنهما لم ترغماه على ما فعل! لو لم يكن هو يريد ذلك ؟! فهل هو انتهى الآن أم بدأ؟!

لقد حضر إلى أمريكا هرباً من قيود مجتمعه، يبحث عن المرأة وعن الحب وعن الانطلاق وعن الحرية، واللامسئولية؛ فالمرأة بالوطن لا تستطيع أن تعطيه أي شيء من هذا، بل على العكس، فإنها قد تطالبه بأشياء دون أن تعطيه شيئا، وهاتان المرأتان أعطتاه كل ما يريد دون أن تطلبا منه شيئاً ! هل كانت جيسيكا تريد أن تختبر انوثتها أو تختبر رجولته ، عندما سلطت عليه غرائزها؟! هل كانت تريد أن تبرهن لنفسها أنها ما زالت تثير غرائز الرجال على الرغم من كبر سنها؟ ! هل كانت تريد أن تقول له إن شرقك العتيد... شرق الأساطير والخرافات... والذي تفاخر بأصالته وصموده، سيأتي مستسلما ويسجد عند قدمي، أنا المرأة الأمريكية المتقدمة في السن، لأمنحه جسدي ليشبع جوعه؟! هل عرفت أنه محروم ويقتله الجوع؟ ! هل كانت حقاً تريده أم أنها كانت تريد أن تمتع جسدها المتصابي؟! ولكنها امرأة متزوجة، ولو كان لها ابنة لكانت هي الأخرى متزوجة ولكان عندها

أطفال، و لكانت والآن جدة ! سوف أتحداها، ولن أقبل الذهاب معها إلى جزيرة هوائي! إنها تريد أن تستمتع بشبابي، إنها تريد أن تدفن شبابي بشيخوختها... إنها...

- راكان! راكان! ما لك لا تفتح الباب وتنزل؟ لقد وصلنا!

انتبه راكان على صوت كفيلته، ووجد أن السيارة تقف أمام بيت كبير... كبير وجميل... على سفح الجبل تحيط به حديقة كبيرة غناء محاطة بأسلاك شائكة !

أنزلت السيدة جيسيكا أختها ماري وراكان أمام منزل مضيفهما، وتمنت لهما وقتاً سعيداً؛ فقد كانت الاتفاقية أن تحضرهما، ثم تذهب إلى بيتها بسبب ارتباطات مسبقة!

لقد شكراها لإحضارهما، وأعلمتهما بأنها ستهاتفهما في القريب العاجل لتدعوهما إلى الغداء في بيتها!

*****

الفصل السادس

رحبت المضيفة بضيفيها ترحيباً حاراً، واعتذرت لهما بأنها لم تستطع أن تذهب لإحضارهما، وفرحت أن أختها قد تكرمت وقبلت إحضارهما؛ كما شكرت راكان لقبوله دعوتهما هي وزوجها، وتمنت له إقامة سعيدة !

ما كادوا يدخلون البيت وتقابلهم غرفة الجلوس، حتى ألقت السيدة هييز بنفسها على أول مقعد يقابلها، فقالت بعد أن استراحت قليلا، وقد مدّت يديها على طولهما فوق الكنبة، كأنما هي عصفور يهم بالطيران:

- سامحينا أيتها العذراء يا أم يسوع المسيح. إنني متعبة جدا!

قالت ذلك مخاطبة صورة للسيدة العذراء المعلقة قبالتها فوق الجدار!

لم يدر الفتى لماذا طلبت كفيلته المسامحة! فهل عرفت ما حدث بينه وبين أختها أم أنها مجرد دعوة روتينية؟!

- يا له من بيت متميز! أنا لم أر في حياتي كلها أجمل من هذا البيت، ثم إن موقعه ساحر حقا يحرك الوجدان ويهز المشاعر! قالها راكان بعفوية ومن أعماق قلبه، وهو ينظر خلال الجدار الزجاجي إلى الوادي تحته، والذي تملؤه أشجار البرتقال!

- وهل أعجبك حقا؟ ! سألت السيدة روز وقد أشرق وجهها وعلته ابتسامة مضيئة، ثم خفضت من صوتها وهمست:

- إنه سيكون أجمل بيت إذا كانت معك المرأة التي تحبها! قالت وهي تتضاحك وقد غمزت بطرف عينها اليسرى.

- إن منظر الوادي وهو يحتضن أشجار البرتقال والليمون وأشجار الحمضيات الأخرى لصورة صادقة للطبيعة تفنن الخالق في إبداعها!

- أنا مسرورة جدا أن بيتنا قد أعجبك! قالتها هي بصوت عال وكأنما تريد أن تسمعها أختها الجالسة في نهاية الصالون!

لقد كان الصالون كبيرا جدا، يبدأ من مدخل الباب وينتهي بحائط من الزجاج السميك. كان الزجاج قد وضع بدل الحائط بكامله، وكان طول الصالون حوالي العشرين مترا، فيخيل للجالس به، وهو ينظر خلال الحائط الزجاجي ! أنه يعيش في بيارة مكتظة بأشجار البرتقال والليمون، وكان الإنسان وهو يقف خلف الحائط الزجاجي، فيرى الوادي، فيشعر وكأنه قطعة من الجنة التي وعد الله بها عباده المؤمنين !

لقد كان البيت في أعلى الجبل يطل على كل جزء من الوادي، وكذلك سفح الجبل! كانت هناك بيوت متناثرة تحيط بها هي الأخرى غابة من الأشجار!

كان أثاث الصالون بسيطاًً ومتناثراً، وإن كان قد لفت نظر راكان رفوف بنية تشغل جزءا كبيرا من حيطان الصالون، عليها بعض براويز الصور والتحف، ولكن القسم الأعظم منها كان خاليا. وأحزنه أنها كانت فارغة من الكتب!

- لقد اخترت أنا قطعة الأرض في هذا المكان بالضبط، لأنها تكشف كل ما أمام الناظر حتى نهاية امتداد البصر؟ ! قد رسمت مخطط البيت بنفسي وقلت للذي بناه أنني أريده بهذا الشكل تماما! قالت السيدة روز.

- لا شك أن ذوقك رائع! قالها الشاب بصدق وعفوية!

- طبعا ذوقي رائع! قالت وهي تتضاحك!

كان من الصعب على السيدة هييز، وهي تجلس في أول الصالون، أن تسمع ما تقوله همسا أختها المتواجدة في نهاية الصالون! فقالت:

- ألم أقل لك بأنك ستحب المنطقة كثيراً!
- إنها مناظر خلابة حقا! قال راكان بصوت عال وهو يحدق ببيارات البرتقال والليمون الممتدة أمام ناظريه!
- ما زلت قد أحببت المنطقة فإنك تستطيع أن تشتري إحدى قطع الأرض المجاورة، فقد أعلمتني روز بأن جميع القطع برسم البيع! قالت السيدة هييز وهي تستريح بين كل كلمة وأخرى.
- نعم، هذا صحيح. قالت السيدة روز بحماس.
- ربما قطعة الأرض والبيت يكلفان كثيرا ولكنك تستطيع أن تدفع مبلغا بسيطا وتقسط الباقي على ثلاثين سنة! هذه هي الطريقة المتبعة في هذه الأيام!
- زوجي وأنا نستطيع أن نكفلك! قالت السيدة روز.
- سأضع بيتي برسم البيع، وأسكن هنا مع راكان، أنا أدفع الدفعة الأولى، والأقساط الشهرية تدفعها أنت يا راكان من راتبك، فهل أنت موافق؟! سألت السيدة هييز وسعادة غامرة تطل من عينيها.
- طبعاً! طبعاً! وهل أنا مجنون حتى أرفض مثل هذا العرض؟ قال مكفولها بحماس!
- إذن، سوف أكلم جورج وسالي وزوجها عندما يأتون! قالت السيدة روز، ثم أضافت:
- إن الثلاثة خبراء في هذا الحقل، تستطيع أن تضمن من كل شيء الأحسن.
شعر راكان بسعادة غامرة، وتأكد له بأن أحلامه بدأت تتحقق.
- ألا يكون البيت بعيدا عن مكان العمل؟ سأل الشاب بسذاجة.
ضحكت المرأتان معا، فقالت السيدة هييز:
- إن الناس يعملون في بلد ويسكنون في بلد آخر، المسافات هنا لا تقف عقبة في طريق الإنسان!
- كنت أقود ما ينيف عن الستين ميلا في اليوم ، ذهابا وعودة في عمل كنت أعمله! قالت السيدة روز، ثم أضافت:
- ساعة في الصباح، وساعة في المساء، مع هذا كنت سعيدة، فقد كنت آتي إلى بيت مريح ولدي سيارة فارهة، وحولي الذين أحبهم!
- هذا صحيح، قال الشاب موافقا.

تصور راكان نفسه، وقد عاد من العمل، فوجد أن زوجته كانت بانتظاره، وبعد أن يستحم، ويتعشى، يجلس على مقعد مريح يقرأ في كتاب تارة، ويمتع ناظريه بهذه المناظر الخلابة تارة أخرى !

- أري البيت يا روز لراكان. قالت السيدة هييز.

فتحت المرأة بابا مؤديا إلى بهو طويل، ثم فتحت باب أول غرفة، وقالت:

- هذه غرفة المكتب التي نستعملها؛ زوجي وأنا!

لاحظ الشاب أن بها خزائن للكتب تغطي جدرانا كاملة ولكن عدد الكتب التي بها قليل، ثم فتحت باب غرفة واسعة ومؤثثة أثاثا فاخرا، وقالت:

- هذه غرفة نومنا جورج وأنا!

كانت هناك صورة كبيرة لرجل وامرأة في لباس الزواج، وكانت المرأة ساحرة حقا وجسمها يضج بالأنوثة الممزوجة بالشهوة الطاغية وشفتاها مملوءتان كأنهما عنابتان أو حبتا كرز كبيرتان ناضجتان.

- هل هذه صورتك، أنت وزوجك يوم زفافكما؟

هزّت المرأة رأسها ولم تقل شيئا، وإن كان الشاب قد لاحظ أن المرأة كانت تنظر إليه نظرات تفحص وتساؤل؛ وكأنما كانت تريد أن تقرأ أفكاره؛ إذ لعلها تحاول أن تعرف إن كانت أختها قد أخبرته بأنها سرقت خطيبها منها! لقد كان الرجل على قدر كبير من الأناقة والحسن والوسامة.

- حقّاً! حقّاً! لا شك بأن الأختين روز وجيسيكا كانتا في صغرهما تحفتين فنيّتين، أبدع سبحانه وتعالى في تسويتهما! وهل كانت، يا ترى، أختهما ماري بجمالها! إنه لم يرَ لها صورة وهي شابة! تساءل الفتى!

- دعينا نرى بقية البيت! قال راكان عندما رأى المرأة تحملق به وقد أزكم عطرها أنفه!

- ما رأيك بصاحبة الصورة؟!

- إنها جميلة جداً وما زالت! قال راكان ثم أضاف:

- إنه بيت جميل جدا، شكرا لك أنك أريتني إياه! قال راكان وقد هزه جمال صاحبة الصورة!

- لم تر غرفة نوم الضيوف! قالت السيدة روز وهي تلحق به ولكنه لم يلتفت خلفه، وخرج إلى الصالون حيث كانت كفيلته إذ شعر أن شهيته للمرأة بدأت تستيقظ، فخاف أن لا يستطيع السيطرة على نفسه؛ فيرتكب حماقة.

لحقت به المرأة بعد قليل تحمل صينية وعليها ثلاثة أكواب من عصير التفاح، ثم صار راكان يجيب على أسئلة المرأتين وخصوصا روز التي انهالت بالأسئلة عليه. تسأله عن بلاده وكيف يعيش الناس وكيف يفكرون، وماذا يأكلون، ويشربون... إلخ... إلخ...؟

- خلال نصف ساعة، سوف يصل الجماعة للغداء! قالت المضيفة وهي تنظر إلى ساعة كبيرة مثبتة على الحائط.

- لقد جهزت الأكل من البارحة، فقط على أن أسخن بعض الطعام وأعمل السلطة!

- ما رأيك أن نترك راكان مستقليا على الكنبة ونذهب نحن الاثنتين لنهيئ الطعام؟ سألت السيدة هييز.

نهضت المرأتان، وتوجهتا إلى المطبخ، وبقي راكان مستقليا فوق المقعد الطويل محدقا بالوادي أمامه، وعواطف شتى تتنازعه وتغلي في داخله. إن المنظر أمامه خلاب... وساحر ساحر، وفي غاية الجمال والروعة!

"إنني أستطيع أن أقضي عمري كله متطلعا إليه دون أن أمل أو أسأم. إنه يثير في نفسي شتى العواطف والانفعالات. إنني أشعر بسعادة روحية عارمة تسيطر على كل جوارحي. إنني سأبني بيتا مثل هذا، فوق رابية تشرف على مناظر خضراء خلابة، في بقعة غير قريبة من بيوت مجاورة!"

"إنني أريد أن يكون حول بيتي أشجار وزهور كثيرة... كثيرة جدا! أنا دائما مغرم بالزهور والورود ومولع بها! أنا متيم بالنظر إليها على أمهاتها! أنا لا أحب أن أقطفها، لأن الأيادي التي تمسكها تدنسها... إنني أعتبر أن الزهور كالفتيات الجميلات العذراوات، أحب أن أنظر إليهن ولا ألمسهن! إنني أحب أن أستمتع بجمالهن وسحرهن، إذ إنني أحب أن أتأمل صنع الخالق وما أبدع! أنني أحب أن أشاهد أعظم فن أبدعه مبدع هذا الكون، إنني أعتبر أن الفتيات كالزهور، للنظر فقط وليس للقطاف... لإشباع النظر والحواس والعواطف، وليس للقطف وإشباع الجسد! إنني أعتبر أن قطف الزهور كقطف جمال

الفتيات جريمة فنية... جريمة في حق القيم والفن... في حق خالق هذا الكون ومبدعه!"

"إنني أرى الفتاة الجميلة فتستبد بي عاطفة مجنونة مسعورة، وأتمنى لو أقضي أياما طوالا أتأملها لأشبع جوعي الفني وحبي العذري، إنه يخدش إحساسي الفني ويشوه تذوقي الجمالي حتى مجرد التفكير بالإمساك بها أو ضمها أو شمها. إن مجرد تفكيري بلمس فتاة أو عناقها يثير القرف والاشمئزاز في نفسي ويزعجني أشد الإزعاج وأعنفه، تماما كما يرسم فنان لوحة جميلة يبدع في رسمها، ويضع روحه ووجدانه وقلبه وكل كيانه بها، وبدلا من أن يجلس أمامها الساعات الطوال يتأملها ويغذي روحه وعواطفه ووجدانه بجمالها، يلقي عليها كومة من القمامة! أو كما ينحت مثال تمثالا رائع الجمال، دقيق التفاصيل، فيأتي إنسان ويهوي عليه بفأس يحطمه."

"هكذا كنت أريد المرأة الجميلة التي تفنن الخالق في إبداعها، لأنها قطعة منه! كنت أريد أن تكون المرأة الجميلة كاللوحة الزيتية الجميلة... كالتمثال المنحوت... كالزهرة... كالقصيدة... كالسيمفونية! إنني أريد أن أنظر إليها ولا ألمسها. إن اللمس يذبلها، يدنسها، ويذهب بجمالها، ويجعلها شيئا... مجرد شيء!"

كانت هذه فكرة راكان بالمرأة قبل بضع سنوات: كان يقدس المرأة بل يعبدها، ولكنه اليوم يريد أن يضمها... يعانقها... يشم أريج أنفاسها... ثم يغرق ذاته في ذاتها... ليشبع جوعه، وليروي ظمأه وليجتث حرمانه، وينفس عن كبت السنين الطوال...!

لقد كان قبل اليوم فنانا، يبحث عن الجمال.. عن القيم... عن الفكر... عن الروح... عن الإبداع... عن الفن السماوي... أما اليوم، فهو يبحث عن الجسد، عن المادة... عن الشهوة... عن الأفخاذ! إنه محروم! إنه جائع! إن به سعارا! إن جوعه لن تشبعه كل نساء العالم مجتمعة، وحرمانه لن تجتثه من جذوره كل أجساد نساء أمريكا...! إنه يموت ظمأً، وينصهر شوقا!

لقد أحب المرأة منذ كان صبيا. لقد هام بها، وتدله بحبها... أين زينة وأين سميحة؟ أين أسماء وأين هند؟! لقد كان يفكر أنه لن يلمس الفتاة التي يحب، حتى ولو كانت زوجته! كان يريد أن يصلي لها، أن يعبدها، أن يتعبد في محراب حبها... أن يتهجد في معبد قدسيتها...! لقد كان يفكر:أنه سينام في فراش غير فراشها، وإن فعل فإنه سيضع سيفا

بينه وبينها، كما فعل آباؤه من العذريين... لن يمسها، لن يقبلها، فقط سينظر إليها ويتأملها، سيقف أمامها الساعات الطوال يتعبد الله فيها، يقف أمامها كأنما يقف أمام لوحة زيتية معلقة على جدران بيته... يجلس أمامها الساعات الطوال، يتأمل جسدها، وينظر إليه بخشوع وورع وتقوى وابتهال، دون حتى أن يفتح فمه، تماما كما يسجد المتعبد أمام صورة خالقه، ينظر إليه ولا يكلمه، ويجلس أمامه دون أن يلمسه! هكذا كان! أما اليوم، فقد أصبح إنسانا آخر... أصبح وحشا مفترسا، حيوانا شرها، يحب أن يلغ في الأجساد وأن يمزق لحمها بأسنانه، وأن يشرب من دمها بشفتيه، لقد هبط من درجة الفنان، فتخلى عن آدميته! إنه محروم... إنه جائع... لم تكن المرأة الجميلة في عينيه جسدا وسيقانا ونهودا أو أذرعا، لقد كانت روحا، كانت نورا، فكرة جميلة... خيالا ساحرا جذابا! لقد كان جسدها الخطوط المتباعدة التي تستطيع بها العين أن تدرك هذا الجمال الفاتن والفن الخالد. كان جسدها تماما كأوراق الورد والأزهار، يذبله اللمس ويميته الشم والعناق والقطف. كانت المرأة الجميلة في تفكيره هي للعبادة، للإلهام، للتأمل والخشوع... كان يريد من فتاته أن تكون شبه إله... أن تكون ملهمة، موحية، مبدعة، تلهمه ليقدم عملا فنيا خالدا للإنسانية! إنه لم يرد منها أن تفرّخ له الأولاد، وتطهو له الطعام، وتغسل له الملابس، إن هناك نساءً كثيرات يستطعن أن يقمن بهذا العمل!

إنه يريد من حبيبته أن تكون فنانة ملهمة. ولكن ما الذي جعله يغير رأيه بالمرأة ؟! وما الذي جعله يفكر بها فقط كجسد وفخذين وصدر ونهدين؟ ! فقط لإطفاء الشهوة في داخله! فهل سقطت المرأة من عينيه أم هو الذي سقط من عيني نفسه ؟و هل المرأة التي تغيرت أم هو الذي تغير؟ ! الحقيقة، أنه هو الذي سقط من مرتبة الفنان إلى مرتبة الحيوان، إنه هو الذي أصبح تافها. إنه هو الذي عاف الروح وعبد الجسد... إنه جائع... إنه محروم! إنه يكاد ينفلق من الجوع، ويطق من الحرمان. من المسئول؟ ! لا يهمه إن بقيت القيم والأخلاق والمثل العليا أو إن تمرغت بالوحل وإن حتى نزلت مع مجاري الحمامات والجور الامتصاصية؟! إنه لم يعد يهمه أن كانت المرأة للعبادة أو للاستمتاع، إن سمت الإنسانية أو تهاوت إلى أعماق الجحيم! إنه لا يهمه أي شيء في الوجود... إن الذي يهمه الآن هو أن يغرق نفسه في أحضان امرأة ويظل مطبقا عليها كالأخطبوط حتى يمتص

آخر قطرة في جسدها، ثم يلقيها كالنفاية، ثم يذهب إلى ثانية ويذيبها بين أحضانه، ثم ثالثة ورابعة وخامسة، وعشرين ومائة حتى يأتي علـى آخر فتاة جميلة في هذا الكون... يريد أن ينام مع كل فتيات هذا العالم... حتى يشبع جوعه، يشبع شبقه، يطفئ سعاره... "المرأة... آه... المرأة!!"

- راكان! هل لي أن أقدم لك زوجي جورج؟ !

نهض الفتى مذعورا من مقعده وكان كالمنوم! فصافح يد الرجل الممدودة إليه.

- هذه ابنتي سالي، وهذا زوجها جيرالد! قالت السيدة روز!

صافح راكان الأيدي الممدودة إليه بطريقة عفوية ودون أن يعي ماذا كان يفعل! لقد كان دخول الجماعة المفاجئ عليه، في الوقت الذي كان سارحا مع أحلامه وتخيلاته، قد جعله يتصرف ويقول ما هو غير واع له!

لقد أحس أنه غرق في بحر لجي من الارتباك والخجل! فصافح الثلاث أيد الممدودة إليه، دون أن يحسها أو يشعر بها !

انهالت عليه الأسئلة من كل حدث وصوب، وكان هو يجيب عليها، باقتضاب شديد وبدون وعي كامل!

إنه كالحلم... كالضباب... يتذكر أنه صافح أيادي مدت إليه، ولكن لم يعرف أشكال هذه الوجوه. لقد كان تحت تأثير أحلامه وأفكاره، حتى ظن أن دخولهم عليه، ومصافتحهم له وتقديم السيدة روز لهم: كان جزءا من حلمه! ورويدا رويدا بدأ يتنبه إلى وجوده ويعي حقيقته، فصار يجفف بمنديله القماشي موجة العرق الكاسحة التي غمرت وجهه ورقبته!

- إنني لا أدري ما الذي حدث لي! لقد اعترتني فجأة موجة هائلة من العرق الساخن! قالها الشاب وهو يحاول أن يداري خجله وارتباكه!

- الطقس حار جدا هذا اليوم، قال السيد جورج.

لقد أدرك الفتى أن الرجل كان يجامله، إذ إن النسيم المنعش كان يهب داخل البيت من جميع جنباته، وأن خصلات شعره كانت تتطاير في كل اتجاه!

كانت أسئلتهم روتينية جدا؛ عن الوطن، وأهله هناك، ورحلته، وكيف وجد أمريكا، وسبب اختياره كاليفورنيا! كان يجيب على أسئلتهم

بشوق وحماس، كما كانت السيدة هييز تتبرع أحيانا بالإجابة عنه، معتمدة على المعلومات التي عرفتها منه!

- هل صحيح أن نساءكم ما زلن محجبات وأن الزواج يتم باتفاق الأهلين، وأن الزوجين لا يريان بعضهما بعضا إلا ليلة الزواج؟ سألت السيدة جيرالد وهي تتضاحك وبلهجة الواثق من نفسه، والمعتد بها، دون تلعثم ولا خجل! وقبل أن يفتح هو فمه استطردت:

- لقد قرأت وأنا صغيرة، وكذلك شاهدت بعض الأفلام أن الشاب يأتي راكبا فرسه ويخطف حبيبته ويركبها أمامه ويهرب بها والفرس تجري بأقصى سرعتها، أما والد المخطوفة فيركب هو وإخوانها وبعض أفراد قبيلته على ظهور خيولهم ويلحقون بهما ليستعيدوها منه ؟!

- واو! يا لها من طريقة رومانسية مثيرة! قالت السيدة روز!

- إن بعض الفتيات عندنا يتزوجن هذه الأيام حتى دون علم أهلهن! قال السيد جورج!

- كنت أتمنى وأنا صغيرة هو أن يحدث لي ما يحدث للفتاة العربية، بأن يأتي حبيب قلبي ويخطفني من بيت أهلي ويضعني أمامه، ويهرب بي وحصانه يجري بأقصى سرعته ووالدي وأقاربي يطاردوننا ليستعيدونني منه. إنه هذه الأمنية ما زالت تراودني حتى الآن!

قالت السيدة جيرالد هذا بطريقة تمثيلية حالمة، وكانت وهي تتكلم تخرج الكلمات من أعماق قلبها وكأنما تنفث روحها مع كلماتها، وتستعطف حبيبها بأن يرحمها، وأن لا يهجرها ويعود إليها، كما كانت تشد على مقاطع الكلمات وأواخرها وخصوصا كلمات حبيب قلبي!

كانت طيلة هذا الوقت لا تبرح عيناها النظر إلى راكان الذي كانت عيناه لا تتحولان من النظر إلى حذائه، إلا بين الفينة والفينة، وهو يجيب على أسئلة الوالد والزوج!! لقد ألهبت نظراتها عواطفه وأججت بسماتها مشاعره، فتمنى لو أنها تظل تتكلم العمر كله! لقد كان صوتها حنونا جدا يسحر القلب برقته ونعومته، وكأنما هو معزوفة موسيقية تنساب إلى عواطفه ومشاعره فتجعلها تسترخي فتغمرها بالسعادة والحب والرقة والحنان! كانت وهي تتكلم وكأنما تلقي قصيدة غزلية، لتلهب مشاعر سامعيها!

- لم أكن أعرف أن ابنتي رومانسية إلى هذا الحد! قالت السيدة روز وقد استلقت على ظهرها من شدة الضحك! أما زوجها فقال:
- لم أكن أعرف أن ابنتي تحب العرب وتحب أن تتزوج على طريقتهم!
- ولم لم تقولي لي أنك كنت تفضلين أن أركب أحد خيولنا وآتي لأخطفك من بيت والدك ، بدلا من أن آتي لآخذك في سيارتي الكاديلاك! ؟ قال الزوج بلهجة خشنة غير مصقولة، مما حدا براكان أن يعتقد بأن الرجل ولد في بيئة غير مثقفة، وجاء من خلفية غير ميسورة!

استغرق الجميع بالضحك وحاول الشاب أن يشاركهم ضحكهم ولكنه كان مسحوراً بالصوت الذي خدر كل كيانه وبالنظرات التي ألهبت أعماق وجوده!

بينما كانت الأختان ماري وروز تعدان طاولة الغداء كان الشاب يجيب على سيل من الأسئلة المتلاحقة والمتعددة، فعلى الرغم من أن السيدة سالي ووالدها وزوجها كانوا يجلسون قبالته تماما، إلا أن نظره كان مركزا في معظم الأحايين على رأس حذائه، أو كان ينظر إلى الوالد أو الزوج، فقد كانت نظراته إلى سالي قليلة وكان يحاول قصارى جهده أن يتجنب النظر إليها! لقد كان يرتبك ويتلعثم، بل تحمر أذناه ووجنتاه وهي تسدد إليه نظراتها! لقد كانت جميلة حقا، وذات عينين ساحرتين تربكان وتسحران وذات وقع عظيم على ذوي القلوب الضعيفة من أمثاله!

- ومنذ أن وعيت نفسي وزيارة الأرض المقدسة لا تبرح مخيلتي؛ إنها أمنيتي الوحيدة التي أتمنى أن أحققها قبل أن أموت! قالت السيدة هييز بحماس ممزوج بخشوع ورهبة!
- أنتِ الآن متقاعدة وليس عندك أية مسؤولية وتستطيعين أن تبدأي بتحقيق رغبتك منذ صباح الغد! قال زوج أختها بأسلوب ساخر وغير مهذب!
- سأذهب وراكان وزوجته وأولاده بعد بضع سنوات للحج إلى بيت المقدس؛ سيعود هو وعائلته وسأظل أنا هناك لأقضي بقية حياتي ولأدفن في الأرض التي ولد ونشأ وبعث فيها منقذنا!
- إنها فكرة رائعة، ونتمنى لك تحقيقها! قال زوج ابنة أختها باحترام شعر الفتى بأنه مبالغ به!

- سأبيع بيتي وكل ما أملك وأساعد بثمنه المحتاجين في أرض السيد المسيح. تابعت السيدة هييز، ثم استدركت:
- طبعاً بعد أن أدفع القسط الأول ثمناً لبيت راكان.
- أما روز وأنا فسنزور الأرض المقدسة بعد أن نتقاعد، وسنعود إلى أمريكا، لأنني لا أحب أن أموت في أرض سواها! وبعد أن ضحك أضاف:
- إن في نيتنا أن نزور النمسا لنسأل عن أقارب لنا هناك، ثم نزور بعض البلاد الأوروبية. إنني أفضل زيارة البلدان الأثرية على زيارة البلدان الدينية!
- إنني منذ أن عرفتك وأنت لا تهتم بالدين كثيراً! قالت السيدة هييز بعصبية وغضب ظاهرين!
انفجر الثلاثة يضحكون ولم يتوقفوا عن الضحك إلاّ بعد أن قال السيد جورج:
- أنا متدين ولكن على طريقتي الخاصة!
- إنه لا يوجد طريقة خاصة وطريقة عامة؛ فإما متدين أو لا متدين! أنا أعرفك ومنذ سنوات طويلة أنك لا تؤمن بالمسيح ولا بيوم الحشر، ثم إنك دائماً تسخر من الأديان، فليسامحك الرب وليغفر لك!
- أنا واثق بأنك ستتشفعين لي يوم القيامة!
لاحظ الشاب أن الرجل قالها بلهجة التهكم والسخرية!
- سأذكرك بما تقول يوم القيامة، عندما لا تستطيع أن تجلس مع السيد المسيح في الجنة، وتظل تحت الشمس المحرقة في الجوع والعطش!
- انفجر السيد جورج يقهقه، ورافقته زوجته وابنتهما وزوجها، بينما كان الفتى يستمع إلى المناقشة دون أن يقول كلمة ودون حتى أن يرفع رأسه عن الأرض!
كان راكان طيلة وقت المناقشة، بل ومنذ دخول الجماعة البيت وهو مطرق بنظره إلى الأرض، وقلما يرفعه ليجيب على أسئلة الرجلين والسيدة روز، ولكنه لم يذكر كل هذا الوقت أن نظر إلى وجه السيدة سالي نظرة مطولة!
كان يعرف أنها موجودة معهم وأنها تشارك في المناقشة ويرى شكلها بطرف عينيه ولكنه لم ينظر إلى وجهها مباشرة ! كان يتمنى بل ويحب كثيراً أن ينظر إليها ليعرف عمق جمالها، ولكنه كان يتهيب ذلك

كثيراً، بل حتى أن مجرد التفكير بذلك يجعل قلبه يبدأ في الخفقان المتواصل !

حقاً لقد كان يخاف حتى من مجرد التفكير بالنظر إليها. وعندما احتدم النقاش بين السيدة هييز وزوج أختها ، فكر أن ينتهز انشغال الجميع في النقاش وينظر إليها، ولكنه خشي أن تمسكه متلبساً بالجريمة!

"هذه هي فرصتك، انتهزها! إنهم جميعاً ينظرون إلى السيدة هييز... إنهم كلهم يصغون إليها، ولا أحد ينظر إليك... فأسرع وأنظر إلى السيدة جيري، قبل أن تنتهي المناقشة."

- إنني سأعطيك نصيبي من الجنة لتتمتعي به وحيدة! قالها الرجل وهو مازال يواصل الضحك!

- إنك تسخر من الجنة ولا تعتقد بوجودها، ولكنك ستندم وستشعر بالحسرة! انتظر وسترى! قالتها المرأة بغضب وشعور بالمهانة والإذلال، لاحظهما مكفولها في بحة صوتها وتتأججِ عينيها.

- هل تعلمون أن الوقت المحدد لغدائنا قد انتهى؟ أرجوكم دعونا نتغدى ونعود إلى أعمالنا! قال السيد جيري.

- لقد جهزت الغداء قبل حضوركم، فتفضلوا! قالت السيدة روز ذلك وتوجهت إلى المطبخ.

لقد تبين له أن السيدة جيري ما زالت في مقعدها غير بعيدة عنه؛ إذ سمعها تسأله:

- أليس في نيتك أن تتناول طعام الغذاء؟

همّ راكان أن يعلمها بأن لا أحد طلب إليه أن يفعل ذلك، ولكنه اكتفى بأن هزّ رأسه علامة الموافقة، متجنباً النظر إلى وجهها!

- إذن دعنا نذهب! قالت هذا ولاحظ الشاب بطرف عينه اليسرى أنها نهضت من مقعدها!

تمهل هو قليلاً حتى تذهب ويلحق بها ولكنه لاحظ أنها مازالت واقفة في مكانها تنتظر نهوضه!

- هل تخجل أن تأكل مع النساء؟ إن كنت تفعل فسأحضر غداءك إلى هنا!

وبعفوية ساذجة، رفع راكان يده اليسرى إلى خده المواجه للمرأة كأنما ليمسح بصقة ألقتها فوقه، أو كأنما ليتحسس صفعة لطمتها به، إذ شعر بغضب شديد يهز كيانه، وتمنى لو يستطيع أن يرد إهانتها بصفعة

قوية تحطم أسنانها ! صرّ الشاب على أسنانه بغيظ وقهر شديدين، ونظر إليها بعينين يتطاير منهما الشرر، فهاله ما رأى! لقد كانت تنظر إليه وفوق وجهها ابتسامة لم ير في حياته كلها أكثر منها جاذبية وجمالاً وسحراً! ابتسامة كانت كأنها مغناطيس قد شدّ عينيه وعقله وقلبه وكل مشاعره، شدّاً محكماً إلى وجهها! كانت حقاً قطعة فنية رائعة ونادرة يعجز عن رسمها أي فنان على هذه الأرض؛ ولم يستطيع أي فنان أن يخلق مثل هذا الإبداع غير خالق الأكوان نفسه !

بدأ قلب راكان يدق دقاً عنيفاً لمجرد فكرة النظر إلى وجه السيدة جيري، وارتفع خفقانه عندما فكر بأنها ستمسكه وهو ينظر إليها! انحرف قليلاً في جلسته وتطلع إلى حذاء السيدة جيري! كان حذاء أسود ذا كعب واطٍ.. رفع بصره قليلاً فلاحظ أنها ترتدي جرابات بنية اللون... ثم رفع بصره إلى أعلى قليلاً فلاحظ أن لها ساقين طويلين متناسقي التفاصيل، ناصعي البياض شفافين كأنهما عمودان من عاج، لا شك أن الخالق الأعظم قد تفنن في صنعهما وأبدع، إذ خيل للفتى وكأنهما نهر من النور المتوهج، وشعر بسرور طاغ، وتمنى لو يستطيع أن يقضي عمره كله ينظر إليهما.. يعانقهما.. يضمهما إلى صدره.. يطبع عليهما آلاف القبل..!

رفع راكان بصره ثانية فرأى صدراً واسعاً ولكن بصره اصطدم بشيء ناتئ فوق الصدر، بارزٍ باحتشام وأدب! شيئين راقدين كأنهما ملاكان يسبحان الخالق ويحلمان بلقائه! شعر هو بفرحة هزّت كل خلجات نفسه.. وتنفس بفرحة... فرحة وثني قضى خمسين عاماً من عمره في عبادة متواصلة، ثم يرى بعدها معبوده المصنوع من حجر ينطق فجأة ويشكره! شعر بلذة وكأنما شرب خمر الأرض دفعة واحدة! فصار يجري بنظره بين أسفل الفستان وأعلى النهدين تماماً كطفل هزه الفرح فصار يركض بين أمه وأبيه، ثم بين أبيه وأمه، ثم بين أمه وأبيه.. وهكذا دواليك!

مضت فترة وهو يمتع طرفه ويسرحه بين طرف الفستان وأعلى النهدين، فلاحظ أن الخصر نحيف، وأنه ملفوف بدقة ومهارة وكأنه عود من الخيزران! ومن ثم رفع طرفه قليلاً قليلاً، وببطء أكثر من السابق، وبخفة الحرامي الماهر وحذره، رفع طرفه إلى أعلى، فرأى صدراً واسعاً، وكأنه ميدان للسبق، وكأنما صنع من البلور الصافي!

لم يستطع عندها الشاب أن يكبح زمام نفسه من الاهتزاز والطرب! لقد تلاعبت النشوة في أعطافه، حتى صار جسمه كله يهتز كأنما هو درويش عبرت به موجة من الحنين فبدأ يرقص بنشوة إلهية، غير قادر على كبح مشاعره وضبط عواطفه!

مرّت هنيهات وهو ينزل ويرفع طرفه بين أسفل العنق وأعلى النهدين، فلاحظ أن المسافة استغرقت وقتاً طويلاً لطول العنق الذي كان يزينه عقد من اللؤلؤ المنقط، والذي ظنه راكان أول الأمر وكأنما صُنع من النقط التي فوق فستانها! لقد كان العنق يشبه قبّة معبد بوذي طويلة، وكان صدرها وكأنما هو باحة ذلك المعبد الذي ينحني إجلالاً لتلك القبة! وفي غمرة فرحه، نسي راكان رعبه، وظل ينقل طرفه من تحت الذقن إلى أسفل الحذاء، ثم صار يغدو ويروح، ويروح ويغدو، وكأنما هو خروف قد أبطره منظر المرج وخضرته بعد أن أكل وشبع!

توقف نظر الفتى عند أسفل الذقن لفترة ليست بالقصيرة، وتساءل؛ هل يمرّ بنظره على الوجه كله، دفعة واحدة، فيرى الذقن والشفتين والأسنان والأنف والخدين والعينين والأذنين والجبهة ثم الشعر، أم يفعل كما فعل في السابق جزءا جزءا؟ وبدون شعور وبلا وعي وبغير تفكير أطلق عينيه دفعة واحدة على هذه الأجزاء جميعاً، وبسرعة صاروخية شعر وكأنما صدمة كهربائية هزّته من أخمص قدميه إلى أعلى شعره في رأسه حتى خيل إليه أن جسمه يكاد يقفز من المقعد...!

لقد كانت عينا السيدة جيري ترقبانه طيلة هذا الوقت، إذ ما كادت عيونهما تتلاقيان حتى علت وجهها ابتسامة، أحسّ راكان بعدها وكأنما صدمة كهربائية قد اخترقت كيانه!

ارتد بصره بأسرع من البرق، وصار ينظر إلى حذائه وقد بدأ جسمه يهتز فوق المقعد، وكأنما نار قد سلطت عليه، وموجة من العرق الساخن قد أغرقته! لقد شعر أن عيني السيدة جيري كانت ترقبانه منذ بدء العملية!

- هل تعتقد يا راكان أنك ستحب أمريكا، وأنك ستسعد بها؟ سألت السيدة جيري.

- أعتقد ذلك! أجاب بعد تردد وهو مازال ينظر إلى الأرض.

- أنا لا أعتقد ذلك! لأنك إنسان خجول، وخجول أكثر من اللازم، وأمريكا تريد الذين لا يخجلون حتى ينجحوا بالحياة! قالتها بجرأة سلطوية أذهلت راكان!

لم يعلق راكان على مقولتها، وإن كان قد توقع أن ينهرها زوجها على هذا السؤال، ولكنه لم يفعل، إذ كان الجميع مازالوا ينصتون إلى محاورة السيدة هييز وزوج أختها!

شعر الفتى برغبة شديدة بأن يعانق المرأة، وتمنى لو يستطيع أن يغرق نفسه في ذاتها، ولا يتركها إلاّ بعد أن يروي جوعه الجنسي! لا شك أن المرأة لاحظت اللهيب المتأجج الذي يخرج من عينيه، فحولت نظرها عنه إلى الأرض ، ولاحظ هو أن حمرة خجل قد غطّت خديها وأذنيها، مما زاد في جمالها وتألقها، ومما زاد أيضاً في هيجان غرائزه الجنسية والعاطفية!

- دعنا نذهب! إنهم ينتظروننا! قالت ذلك بصوت أسكر راكان وخدّره؛ وأشارت بيدها باتجاه طاولة الطعام ،وهي ما زالت تنظر إلى الأرض!

نهض راكان من مقعده وقد عاد إليه بعضٌ من وعيه، فسار كالمنوم نحو تواجد الطعام ! جلس على المقعد الخالي، وجلست هي على المقعد المقابل له.

إن راكان لم يدر ما حدث بعد ذلك بالضبط، لا يدري إن كان قد أكل كثيراً أو قليلاً، وإن كان قد أكل الجماعة أو لم يأكلوا، ولا ما دار من حديث على الطاولة بينهم!

لقد كانت تصل إلى مسامعه بين الحين والآخر كلمات متفرقة لا رابطة بينها ولا معنى كاملاً لها! سلطة... البطاطا... المسيح... النار... الإنجيل...! قطع اللحم البقري المشوي... التوراة... الله... الحليب... القهوة... الجنة...!

كانت هذه هي معظم الكلمات التي وعاها وإن لم يعرف من هو قائلها... كانت تتردد على ألسنة الحاضرين...! إنه ومنذ أن جلس على طاولة الطعام وهو يتناول الجاطات المملوءة بالطعام والتي تعطيها له السيدة هييز الجالسة على يمينه فيأخذ منها شيئاً ويضعه في صحنه ثم يناولها إلى السيدة جيري ، دون أن يتطلع إليها، وعيونه تتطلع في صحنه!

لقد كان كل وعيه، وكل وجوده، وكل حواسه قد انتقلت إلى قدميه! إنه ومنذ جلس فقد شعر بقدمين تتسللان إلى قدميه، وقليلاً قليلاً أخذتا تدوسان فوق قدميه، ولكن بلطف، وتبقيان فوقها لفترة قبل أن تنسحبا ثم لتبدأ المداعبة من جديد، فتضغط عليهما وكأنهما تعانقانهما!

إن الفتى لم يحرك قدميه أول الأمر، فقد ظن أن القدمين قد اصطدمتا بقدميه بعفوية وعن غير قصد؛ حتى فكر أن يعتذر لصاحبتهما، ولكن القدمين لصقتا بقدميه، وتمهلتا فوقهما ثم بدأتا تضغطان عليهما، وكأنما لتعانقانهما! وبعد قليل تحركت إحدى القدمين وانحشرت بين قدميه فأبعدتهما عن بعض وصارت تتحرك بينهما!

لم يحرك الفحل قدميه، إذ شعر بنشوة لذيذة وعارمة تسري في كل ذرة بجسمه، كما إنه لا يدري كم دامت فترة العناق والتقبيل هذه، فقد كان يتصور نفسه مع السيدة جيري في غرفة نومها وقد أعطته كل ما تعطي لزوجها!

- لا أعتقد أنني سأعود معكما إلى الشركة! إنني أشعر بأنني متعبة قليلاً، ثم إنني أحب أن أخذ راكان وأريه بيتنا! أريد أن أريه البيت وموقعه، ليرى إن كان سيحب المنطقة أم لا!

سمع الشاب السيدة جيري تخاطب زوجها ووالدها!

- كما تشائين يا عزيزتي! قال والدها.

- إذن دعنا نذهب يا أبتاه! سمع راكان السيد جيري يخاطب حماه، ثم مد يده إلى الفتى وأضاف:

- إنني سعيد بلقائك، وأتمنى لك إقامة موفقة في أمريكا! إذا أحببت منطقتنا، فأعلم سالي عن القطعة التي تختارها، وسأتكلم مع صاحب الأرض ونحاول أن نشتريها لك! إنه يسعدنا كثيراً أن تكون أنت والعمة ماري جيراناً لنا! ثم التفت إلى السيدة هييز وقال:

- من الضروري يا عمة أن تحضري راكان وتأتيا للعشاء في أقرب وقت! أنتِ هاتفينا وواحد منا سيأتي لإحضاركما! سالي أو أنا!

- شكراً لك يا جيري! سأفعل! فليحفظك الرب وليحرسك المسيح! قالت السيدة هييز وهي تصافحه، وباليد اليسرى طبطبت على ظهر يده المصافحة ليدها!

بُهت راكان مما سمع، واستغرب أن تكون الزوجة بهذه الجرأة، وبهذه الحرية!

انصرف الرجلان وطلبت السيدة هييز إلى أختها أن ينهضا لتعزيل طاولة الطعام وغسل ما يحتاج الغسيل، فنهضت روز وهي تلهج بالشكر لفكرة أختها ... أما السيدة جيري فقد قفزت من مقعدها كأنها غزال شارد وطلبت من أمها أن تعطيها مفتاح سيارتها!

- شكراً لك يا سالي! إنك لطيفة وكريمة وصاحبة ذوق رفيع! إن راكان سيسره كثيراً أن يرى بيتكم وكذلك تلك المنطقة ، فإنه قطعاً سيحبها وسيفكر بإقامة بيت له هناك! قالت السيدة هييز.

كان الفتى مازال جالساً في مقعده خلف طاولة الطعام، وكان ينقل طرفه بين النسوة الثلاثة اللواتي يقررن الأمور دون أخذ رأيه!

- دعنا نذهب يا راكان! قالت السيدة جيري وقد أشارت بيدها نحوه!

لقد وصل صوتها إلى أذنيه ناعماً كموسيقى حالمة، فشعر بسرور جارف! لقد تصورها وهي تطلب إليه مرافقتها وكأنما تدعوه أن يذهب معها إلى غرفة نومها ، ليقضي كل عمره بين ذراعيها!

- إمضيا وقتاً ممتعاً! فليحفظكما الرب وليباركما! قالت السيدة هييز وهي تهز لهما يدها بالهواء.

- ألستما ذاهبتان معنا؟ ! سأل المكفول كفيلته وهو ينهض من مقعده؛ وكأنما يستفيق من حلم!

- لا يا عزيزي! لقد رأيت بيتهم مرات كثيرة، ثم يجب أن أساعد روز في غسل الصحون.

- ديري بالك على راكان يا سالي! أريه كل المنطقة وخصوصاً البيوت الفاخرة ! قالت السيدة هييز!

- سأفعل يا خالتي! سأفعل! أجابت السيدة جيري وهي تخرج من الباب وهو يسير خلفها كالكلب الذي تقوده صاحبته في سلسال!

لقد سأل راكان نفسه وهو يسير خلف السيدة جيري في طريقهما إلى السيارة: هل يجب أن يفرح أم يغضب؟ ! فلا السيدة جيري ولا أمها أو خالتها سألنه إن كان يحب الذهاب أو أنه يفضل البقاء؟! نعم؛ يجب أن يفرح كثيراً؛ إذ ماذا يريد من دنياه أكثر من أن يكون موضع اهتمام نسوة جميلات !

"لا تسترسل مع عواطفك يا هذا! إن المرأة الأمريكية هي غير المرأة العربية! إن المرأة الأمريكية قد تضاحكك، وتمزح معك؛ وتسمعك النكات التي تعتقدها أنت ومجتمعك نكات غير محتشمة، وقد يلامس جسدها جسدك أحياناً، وهي لا تعني شيئاً غير البراءة واللهو! ولكن لماذا أمضت وقتاً طويلاً تداعب بقدميها قدمي؟ لعلها إحدى مزحاتها ومداعباتها البريئة! لقد رأتك غرّاًَ خجولاً فأرادت أن تمزح معك لتخفف بعضاً من خجلك ولتخرجك من قوقعتك وعزلتك! ولكن

المرأة في الوطن لا تفعل مثل هذا ما لم تقصد شيئاً! إن المرأة في الوطن لن تجرؤ على فعل مثل هذا حتى ولو كانت تقصد شيئاً! إنها لا شجاعة عندها! إنها تريد دائماً أن يكون الرجل هو البادئ، حتى ولو كانت تموت به حباً وهياماً! لقد خلقت منها العادات والتقاليد امرأة جبانة، تخاف من الرجل وتخاف من نفسها! إنها تريد أن يقوم الرجل بعمل كل شيء حتى يتحمل مسؤولية ما يحدث! إن المرأة الأمريكية لها حرية كحرية الرجل بل أكثر منه، إنها هي وليس الرجل الذي يقرر!"

- هل تحب أن تقود السيارة؟! سألت السيدة جيري راكان وهي تقدم له المفتاح، وهما يقتربان من موقف السيارة، ولما رأت تردده قالت:

- آه! لقد نسيت أنك لا تملك رخصة قيادة سيارة أمريكية!

- لا؛ شكراً! أنا لا أحسن قيادة السيارات! أجاب الشاب بخجل شديد وهو يتجنب النظر إلى وجهها ومحدق بالأرض!

- لِمَ تقولها بخجل وتردد؟! كثير من الناس هنا في أمريكا لا يملكون سيارات ولا يحسنون قيادتها ؟! قالت ذلك وتقدمت نحو السيارة لتفتح بابها، ولكن الفتى أخذ المفتاح منها وفتح لها باب السيارة وأمسك بالباب بيده اليسرى، وباليد اليمنى نشرها بالهواء وكأنما يمدّ لها سجادة لتمشي فوقها!

ابتسمت ابتسامة كبيرة، وبعد أن دخلت السيارة وجلست شكرته شكراً حاراً، ولم يستطع هو أنه يتجنب رؤية جمالها ونصاعة فخذيها! لقد حاول أن يغض من بصره، ولكن الذئاب في داخله قد بدأت في الاستيقاظ !

كانت سيارة "الشيفروليه" تتسلق الجبل بسرعة هائلة ودون ما مشقة ولا جهد، وكانت السيدة جيري توجه سيرها وكأنما هي فارس محنك يوجه زمام فرسه!

لقد لاحظ الفارس أن عدداالبيوت المتناثرة على جانبي الطريق قليل ، وأن هذه البيوت كانت تحيط بها مساحات كبيرة من الحدائق الغناء!

بعد مسافة قصيرة أدركت السيارة قمة الجبل، فانحرفت إلى الشمال. نظر راكان يمينه فلاحظ أن الوادي ينخفض تحته إلى هوة سحيقة، وأن السيارة لو انحرفت عن مسارها قليلاً فستظل تتدحرج

ولن يمسكها غير بطن الوادي السحيق! لقد كان الوادي وسفح الجبل والمناطق المحيطة بهما، مغطاة بأشجار الحمضيات المختلفة، وكان هناك بعض البيوت المتناثرة بين بيارات البرتقال، وطرق عديدة معبدة توصل البيوت بعضها ببعض! سُرّ راكان كثيراً بجمال المناظر، وشعر بنسيم رطب عليل أنساه حر الشمس المحرقة!

- هل أعجبتك المنطقة؟! سألت سالي وقد حوّلت نظرها باتجاهه.

- كثيراً جداً! إنها جميلة للغاية! لقد ذكرتني ببيارات يافا التي سرقها الأعداء منا في رابعة النهار! قالها راكان دون أن ينظر إليها ودون أن يحول نظره عن التطلع إلى تلك البيارات!

- وهل أنا قبيحة إلى ذلك الحد الذي لا تستطيع معه أن تجبر نفسك لتتطلع إليّ؟! سألت بفجاجة!

ارتبك الشاب ولم يدر ما يقول! لقد لاحظ بطرف عينه اليسرى أنها دائمة التطلع إليه وهي تكلمه! كما تساءل لماذا لم تعلق على ذكره لسرقة بيارات يافا!

- على العكس من ذلك تماماً! إنك جميلة جداً لدرجة مذهلة ! أنني أخشى أن أنظر إليك !

سألته وهي تبتسم ضاحكة:

- ولكن الناس يحبون أن يُكثروا من النظر إلى الأشياء الجميلة! أليس كذلك؟!

وهنا شعر راكان بجرأة فائقة لم يشعر بها من قبل، إذ فارقته الرهبة التي كانت تستبد بنفسه، وفارقه الحياء الذي كان يسيطر عليه، فقال بحماس وصراحة:

- ليس في كل الحالات، وخصوصاً إذا كان في حالة امرأة جميلة لها مثل جمالك المميز! إننا يجب أن لا نكثر من النظر إليها، إذ إن نظراتنا قد تفسد جمالها! فقط يجب أن ننظر إليها في اليوم مرة أو مرتين على أكثر تقدير، من أجل أن نزود قلوبنا ونشحن أرواحنا بما يحتاجان إليه من غذاء!

وهنا انفجرت المرأة تضحك، وقد بدت أسنانها البيضاء كعقد من اللؤلؤ، وعندما توقفت قالت:

- إنك شاعر يا راكان! صدقاً؛ لقد جعلتني سعيدة جداً جداً، ولا أبالغ إن قلت لك بأنني لم أشعر بمثل هذه السعادة منذ أن وعيت على نفسي! إن الرجال عندنا لا يتكلمون مثل هذا الكلام!

- صدقيني إنني أعتبر نفسي محظوظاً أن يكون لي شرف الجلوس بين يدي امرأة مثلك، لها كل هذا الجمال والسحر والأنوثة! إن النساء من أمثالك يجعلننا نحلق، نحن الرجال، عبّاد الجمال والأنوثة، في السماوات العلى! إنني لا أبالغ إن قلت لك إنني أشعر في هذه اللحظة وكأنما (لمسة ربانية)، قد لامست روحي، فجعلتني وكأنما أصبحت جزءا من الأثير!

- أرجوك لا تقل أكثر يا راكان؛ لأن كلامك هذا يجعل كل من يُقال بها تحبك؛ وأنا لا أريد أن أحب رجلاً غير زوجي! قالتها بنبرة شديدة !

- أنا لا أطلب، بل ولا حتى أطمع أو أفكر، أن تحبينني! أنا فقط أعبّر لك عن مشاعري وما يعتريني وأنا جالس في حضرتك ، أتعبد في محراب جمالك وسحر ذاتك! أنا لم أر في حياتي كلها، لا هنا ولا في الوطن، امرأة تمتلك مثل جمالك وقوة شخصيتك! أنت آلهة من آلهة اليونان! أنتِ تجعلين لساني ينطق دون إرادتي!

إن راكان يقسم بأن الكلمات التي كانت تخرج من فمه، لا إرادة له عليها ولا سلطان !

- قلت لك توقف عن هذا! ليس عندي المناعة لأن أقاوم مثل هذا الكلام! قالتها بعصبية ممزوجة بغضب لاهب، مما أطار الفرحة من قلب راكان الذي اعتذر لها وتوقف عن الكلام!

مرّت فترة ليست بالقصيرة، عندما قالت بصوت حزين وذليل:

- أنا الذي يجب أن أعتذر؛ ولكن صدقني وأنت تتكلم كنت على وشك أن أقول لك كن لي، وسأترك زوجي وأعطيك كل ما أملك!

- أنا لم أكن أطمع منك بشيء ، ياسيدتي ! صدقيني! كل ما كنت أقول هو ما كنت أشعر به! إنها طاقات مخزونة في داخلي أخرجها بأن أعبر عنها!

- إنك رائع يا راكان! يا حبذا لو تناديني باسمي! سالي! أريد أن أسمعك تنطقه! أرجوك! قله عدة مرات! وبعد أن فعل سألت:

- هل تنظم الشعر؟! يا حبذا لو تنظم بي قصيدة!

- نعم كنت في صغري أنظم الشعر، وكنت أحلم بأن أكون في يوم ما شاعراً يشار إليه بالبنان، ولكني غيّرت رأيي لأنني أريد أن أكون قاصّاً!

- وهل تعتقد أنني أكون مادة جيدة لكتابة قصة؟! سألت وهي تضحك كطفلة صغيرة ذات قلب خال من الهموم وآلام الحياة!

- لا أدري! ربما! قال الفتى وهو مازال يتجنب النظر إليها، ومحدق ببيارات البرتقال التي تملأ الجبل والوادي!

- وكيف تختار قصصك؟! أعني كيف تجد مادة لقصصك؟!

- من تجاربي واختباراتي؟ إنني لكي أكتب قصة يجب أن أعيش أحداثها، أو أن أتأثر بأحداثها لدرجة أن أعتقد بأنني عشتها ! كيف إذن سأكتب عن انفعالات ما، إذا لم أكن قد مررت بهذه التجربة، وقاسيت من هذه الانفعالات؟! يقولون أنك تستطيع أن تتصور، هذا صحيح، ولكنه لن يكون بالصدق والعمق كما لو كنت قد عشت أنا نفسي تلك الأحداث!

وهنا لاحظ الشاب بطرف عينه اليسرى، بأن السيدة جيري تتطلع إلى وجهه وتطيل النظر، فسألته:

- أراك تحدق بالوادي طويلاً، فهل تريدني أن نتوقف قليلاً!

- هذا إذا كان لا مانع عندك! قال راكان بمنتهى الأدب وهو مازال لا ينظر إليها !

- على العكس من ذلك! إن المنظر لم يستهوني من قبل كما يستهويني الآن، وبعد حديثك الساحر! إننا أحياناً وبعد حادثة معينة، نشعر وكأنما خلقنا من جديد، فنرى أشياء لم نرها من قبل!

انحرفت بالسيارة إلى الشمال، وأطفأت ماتورها، وصارت تنظر إلى حيث كان ينظر!

- إن اسمك جميل يا سالي! إنه اسم ساحر... موسيقي ورومانسي! لقد أحببته منذ أن ذكرته لي خالتك!

- وماذا قالت لك عني؟! سألت بلهفة.

- قالت بأن لها ابنة أخت جميلة جداً وذات شخصية قوية! لقد ظننتها تبالغ لأنك ابنة أختها، ولم أدر أنها لم تفِكِ حقك من الوصف! حقاً! ما أسعد الرجل الذي يضمك وإياه بيت واحد!

- نعم؛ إن زوجي يحبني كثيراً! إنه يحقق لي كل مطالبي، ولا يعترض على أي تصرف لي!

- يظهر لي أن زوجك محترم ومؤدب ولطيف جداً!

- هذا صحيح؛ ولكنه ليس شاعراً ولا رومانسياً! قالت وهي تتضاحك !

- لقد أعلمتني خالتك بأن زوجك غني جداً، وأنه بنى لك بيتاً فخماً؛ فلو أنه كان شاعراً ورومانسياً لما كانت عنده كل هذه الثروة، ولما كان قد بنى لك هذا البيت الفاخر!

- هل تصدق أنني أحياناً أتمنى لو أنه فقير ولكن رومانسي! إنه رجل أعمال لا يتكلم ولا يروق له حديث إلاّ أحاديث "البزنس" وكيف الحصول على النقود!

- هناك بعض الناس لا يؤمنون بالوسطية، فإما أن يكونوا رومانسيين ومعدمين مادياً، وإما أن يكونوا غارقين في كل ما يجلب لهم النقود! كم يكون الوضع جميلاً لهم ولمن حولهم، لو أنهم يكونون وسطيين فيهتمون بالاثنين ولكن دون مبالغة!

مرّت فترة صمت قطعتها المرأة بسؤالها:

- لا أدري إن كانت خالتي قد أعلمتك بأنني كنت متزوجة قبل أن أتزوج من جيري!

- وما حدث لزوجك الأول؟!

- لقد طلقته!

- ألم تكوني تحبينه؟!

- لقد عرفته في المدرسة، وكنت وقتها في الرابعة عشرة من عمري. كنا في فصل دراسي واحد! بدأنا نخرج معاً أحياناً، وفي سن السادسة عشر أعطاني قلادته فقبلتها، وهي تعني أنني لا أقبل الخروج مع أحد سواه وهو لا يخرج مع فتاة غيري، أي أن أكون صديقته الوحيدة والدائمة. بمعنى آخر أنني حبيبته! وفي سن الثامنة عشرة تخرجنا من المدرسة الثانوية وتزوجنا رأساً. كنت وقتها أعتقد أنني سأموت إن تركني يوماً، ولكن بعد الزواج بشهور قليلة اكتشفت أنني كنت واهمة وأنني لم أحبه!

- وماذا كان شعوره هو؟!

- لقد كان يحبني كثيراً، وقد مرض بعد طلاقي منه وكاد المرض يودي بحياته!

- وما الذي كرهك به بعد ذلك الحب العنيف؟!

- لم أكن ناضجة في ذلك الوقت ! ماذا تتوقع من ابنة الثامنة عشرة عاطفياً؟!

- وكم كان عمر السيد جيري عندما تزوجتما؟!

- كان عمري تسعة عشر عاماً، وكان عمره ستة وثلاثين عاماً! كان رجلاً ناضجاً!

- حقاً! لقد كان رجلاً ناضجاً! قال الفتى.

- لا أدري لقد وجدته مملاً، أعني زوجي الأول، بليداً، كان يعمل طاهياً في مطعم صغير، وبعد تخرجنا استلم إدارة المطعم، واشتغلت أنا سكرتيرة! لم يكن طموحاً! كان على استعداد أن يقضي كل عمره يشتغل في ذلك المطعم الحقير!

- يقولون بأن راتب الطاهي في مطعم راتبٌ محترمٌ جداً؟

- ليس المطعم الذي كان يعمل به. كان مطعماً صغيراً، وقلما يسدد مصاريفه! المهم، أنني تعرفت على جيري في الشركة التي كنت أعمل بها، فأحببنا بعضنا وتزوجنا!

تظاهر راكان بعدم معرفته بقصتها مع جيري فقال:

- لا شك أن السيد جيري كان أعزب عندما تقابلتما. قال راكان.

- لا، لقد كان هو الآخر متزوجاً، وكان مثلي قد سئم زوجته ولا يحبها!

شعر الفتى بحزن وخيبة معاً! لقد آلمه أن يرى امرأة عندها كل هذا الجمال والسحر، ولها كل هذه الشخصية القوية؛ تكذب! نعم، لقد آلمه وأحزنه أن يرى هذه التحفة النادرة من الجمال، تشوه الصورة التي رسمها لها في مخيلته! كان يريدها أن تحافظ على هذا الجمال النادر، بأن تكون طاهرة، شريفة، صادقة نقية! كان يريد أن لا يكون لها غرائز وشهوات... أن تكون كاملة... آلهة من آلهة الإغريق! لماذا يا رب دائماً تصدمنا الحقيقة؟! إنه يريد أن يعيش مع شيء جميل... فكرة نقية... من صنع أحلامه وخيالاته وتفكيره...! فكرة جميلة تفرح قلبه وتسعد روحه...! ولكن من يدري؟ ! ربما تكون خالتها قد ظلمتها، وتقولت عليها! وتمنى لو يكون صائبا!

- وهل أنتِ سعيدة الآن مع الرجل الذي أحببته وأحبك؟!

- إنني كثيراً ما أسأل نفسي هذا السؤال، ولكنني لم أحصل على جواب!

- غريب هذا الأمر! ألا تعرفين إن كنت سعيدة في حياتك أم لا؟ ! سأل الشاب شبه غاضبٍ!

- إنني أشعر أحياناً أني سعيدة، ولكن في أكثر الأحايين أشعر أنني مخلوقة تعيسة!

- يا عجباً! ولم؟ !إن عندك كل ما تحلم به امرأة! جمال متميز... شخصية طاغية... زوج جميل ومؤدب... تعملين ما يحلو لك ولا يمنعك... ثم غني...! ثم وكأنما تذكر فقال معتذراً!
- آه! لقد أعلمتني خالتك بأنك لا تنجبين أطفالاً. لا شك أن هذا هو السبب! إنك تستطيعين أن تتبني طفلاً أو طفلة، ولقد علمت بأن هذا منتشر ومقبول في المجتمع الأمريكي.
- إنني على العكس من ذلك! إنني أعتبر أن عدم إنجابي هو نعمة من الله قد منّ بها علي! إنني أكره الأطفال جداً! إن لزوجي ثلاثة أطفال يحب أن يسكنوا معنا، ولكنني رفضت، فهم يسكنون مع خالتهم بعد وفاة أمهم! إنهم بنت وولدان.
- لو تنجبين ولداً أو اثنين، فقد يمنحك وجودهم بعضاً من السعادة وراحة البال! يقولون بأن الأولاد فلذات أكباد آبائهم، تمشي على الأرض! قال راكان.
- إن قضايا الحمل والولادة وتربية الأولاد، تضعف بل تدمّر جسم المرأة وتذهب بجمالها، وأنا أفضل أن أحتفظ بجمال جسمي ورشاقة قوامي على أن أكون أماً!
- ولكن هذه سنّة الحياة! قال الشاب بحماس.
-فلتطبق سنة الحياة على غيري من النساء؛ أما أنا فلا أريدها!
- إذن، ماذا يشفيكِ؟! سأل باستغراب.
- هذا ما لا أدريه! إنني لو أعرف لربما خفّت تعاستي!
- إنها حقاً لمأساة أن لا يعرف الإنسان ماذا يريد من حياته! إن الذين لا يملكون شيئاً أشقياء، ويعتقدون بأن زوال شقائهم متعلق بغناهم، ويقضون كل حياتهم يتمنون ويحلمون بأن يملكوا شيئاً! والذين يملكون شيئاً هم الآخرون غير سعداء كالذين لا يملكون شيئاً سواء بسواء! ثم تابع:
- أعذريني إن قلت لكِ بأن في قلبك خرقاً كبيرا، لا يستقر به شيء مفرح، ولن ينقذك من تعاستك هذه، ويرفع هذا الحزن الفاغر فاه إلاّ حب كبير... حب يملك عليكِ كل ذرة من عواطفك، وكل خلجة من خلجات نفسك... حب يصهر روحك ويطهرها... حب ينسف حياتك نسفاً، ويقلب عاليها سافلها! فهل عندك المقدرة على مثل هذا الحب؟! وهل تعتقدين بتلك الشعلة الربانية المقدسة؛ والتي تمسّ الروح والقلب

فتضرم بهما النار، ليظل أوارها مشتعلاً وللأبد؟! قال راكان منظّراً ومتفلسفاً!!

لم تعلق هي على ما قال، ومرّت فترة صمت قطعها الفتى قائلاً:

- أرجوكِ أن تحترمي صراحتي! أنتِ لم تحبي السيد جيري الرجل، أنتِ أحببت الشركة التي يملكها... الفخفخة التي يعيش بها... الأموال التي يجمعها... وعندما حصلت عليه، لم تعودي تعرفين إن كنت تحبينه حقاً أو لا ؟!

- قد تكون على حق! قالت ولاحظ الفتى المتفلسف أنها هزّت كتفيها علامة الحيرة!

- نعم، إنني على حق، وإذا فكرت قليلاً بما أقول تجدين أنني على حق! صدقيني!

لم تعلق وتابعت حديثها:

- إننا نقيم حفلات، ونحضر حفلات في بيوت أصدقائنا. إنني أظل متشوقة لها، أتلهف عليها حتى إذا حان وقتها وجدتها مملة! إنهم يجتمعون ويشربون ويتحدثون عن أعمالهم وأرباحهم وخساراتهم... كلها أحاديث مملة. ثم أضافت:

- دعنا ننطلق! إن بيتنا قريب جداً من هنا. قالت وهي تدير مفتاح الماتور.

- إنكم تعيشون في منطقة جميلة جداً!

- شكراً! وأنا أعتقد كذلك! لقد كنا نعيش في مدينة "كفينا" عندما تزوجنا وبقيت أبحث لفترة حتى اهتديت إلى هذه البقعة، فبنى لي زوجي البيت الذي ستراه بعد قليل!

- إن لك ذوقاً فنياً رفيعاً لكي تختاري هذا المكان المتميز!

- ولكنني لم أنظم الشعر في صغري ولم أكتب القصة! قالت وهي تتضاحك!

سمع راكان ضحكتها تصل إلى أذنيه كأنغام الموسيقى فاجتاحته سعادة هائلة، إذ شعر بأن تموجات ضحكاتها كأنها أنامل رقيقة تدغدغ أعطافه؛ فابتسم.

- وهل مازلت مصمماً على أن لا تنظر إليّ ؟! لقد كنت طيلة الوقت الذي وقفناه وأنا أنظر إليك وأراقب خلجات وجهك، ولكنك لم تنظر إليّ ولا مرة واحدة، وهذا يضايقني بل ينرفزني، ؟! قالتها بنغمة شعر الشاب بحرارتها وصدقها وإن بها بعض الألم والإحباط!

- ماذا تعنين؟! لقد نظرت إليك كثيراً! قال راكان بحماس وحرارة وكأنما ينفي تهمة وجهت إليه زوراً !

- أرجوك يا راكان لا تخيب ظني بك بأن تكذب عليّ! إنني لم أحول عيني عن وجهك ، فلم أرك تنظر إليّ مرة واحدة!

- هل تريدين الصراحة؟! قال الفتى وهو مازال يتجنب النظر إليها، وقد أحسّ برغبة جامحة أن يتكلم لساعات!

- إنني أخاف الحقيقة ! إنني أعشق الخيال والأحلام! سمني خوّافاً! إن الحقيقة دائماً تحطم أجنحة أحلامي الوردية وخيالاتي الجميلة! إنني دائماً أهرب من الحقيقة! إنني سعيد وقانع بأن أراكِ في الخيال!

- إن الناس يحلمون ويتخيلون عندما لا يستطيعون نيل الهدف الذين يريدون، أما أنا فحقيقة أمامك تستطيع أن تراني وأن تلمسني إذا شئت !

لقد أوحت كلمة "تلمسني" إلى راكان بتخيلات كثيرة، ولكنه حاول أن يبعدها عن تفكيره، فتابع حديثه:

- إنني أخشى على نفسي من الصدمة ! إن أعصابي أضعف من أن تحتمل صدمة جديدة!

- وهل صدمت في حياتك؟!

- نعم ! كانت هناك قصة حب عنيف، انتهت بالفشل! إنها قصة طويلة فلا تسأليني عن تفاصيلها! لقد كتبتها في رواية طويلة !

- أرجوك! أعطني إياها لأقرأها! قالت بفرح صبياني وقد اهتز المقعد تحتها!

- إنها بالعربي، وحتى لو كانت بالإنجليزية، فإنك لا تصدقين وقائعها، نظراً للمفارقات الشاسعة والغريبة، بين العقليتين الشرقية والغربية!

- إنك رومانسي أكثر من اللزوم، وخيالي مغرق في الخيال! قالت بحماس ممزوج بالفرحة!

لقد عشت كل حياتي بالخيال، ولأول مرة التقيت بالحقيقة عندما قابلتك بعد ظهر هذا اليوم، فأخشى أن أصدم فيخيب ظني!

- ولكنني لن أخيب ظنك! صدّقني! قالت بجرأة وتحدٍ!

- إنني أخشى أن أخيب أنا ظنك! قالها بضعف ومذلة!

- إنك لن تخيب ظني، لأن ظني لا يخيب بسهولة، انظر إليّ أرجوك! قالت هذا ومدّت يدها اليمنى إلى ذقنه وجذبتها نحوها، وبقيت

ممسكة به لفترة، فتلاقت عيونهما، وكانت تبتسم، فشعر راكان بعد رؤيتها أنه قد تحول إلى كتلة مسعورة من الشهوة المحمومة، وأحسّ بأن كل خلجة في كيانه تهتز بقوة وعنف، وأن الوحوش النائمة في داخله قد انطلقت من عقالها، وبسرعة البرق اندفع نحوها كالعاصفة العاتية، فضرب جسمها بالباب، مما كاد يرميها بعيداً من خلف المقود؛ ولولا أن السيارة كانت قد خرجت قبل لحظات إلى الطريق الواسع، لتدحرج ثلاثتهم إلى بطن الوادي! ألصق جسمه بجسمها وأطبق على شفتيها وكأنما يريد أن يأكلهما!

- يا إلهي! إنك قوي وعنيف! قالت شبه غاضبة وهي تستعيد اتزانها خلف المقود، مما جعل الفتى يتراجع إلى مكانه مخذولاً حزيناً!

- أنا آسف جداً جداً! إنني لم أستطع ضبط عواطفي أمام جمالك الصارخ! إن لك جمالاً لا يقاوم! إنه يشعل الحرائق في دم الرجال! فسامحيني، أرجوكِ!

- لا بأس! لقد سامحتك، ولكن لا تفعلها مرة أخرى، لأنني عندها سأغضب جداً، ولن أسامحك! قالت وقد لاحظ أنها كانت تبتسم، كما أن لهجة غضبها قد تراجعت!

ولما لم يقل شيئاً، أضافت:

- لا تنس أنني امرأة متزوجة، وأنني أحب زوجي، ولا يمكن أن أخونه! قالتها بغير حماس، ثم رمت راكان بنظرة خاطفة رافقتها ابتسامة!

انحرفت السيارة ودخلت في أرض كبيرة محاطة بسياج شائك، وبعد أن قطعت ما يقارب المائة متر وقفت أمام باب مغلق، فنزلت وفتحته بمفتاح أخرجته من حقيبة يدها، فأدخلت السيارة، ثم توقفت حتى تمكنت من إغلاق الباب وتابعت سيرها! وبحجم نفس المسافة تقريباً وقفت السيارة أمام بيت كبير!

- هذا هو بيتنا! أرجو أن ينال إعجابك! قالت هذا بلهجة نشطة مرحة، تعلو شفتيها ابتسامة كبيرة ونزلت، وكأن شيئاً لم يحدث، غير آبهة برفيقها عابس الوجه مقطب الجبين ! وكان الشاب قد نزل هو الآخر، فاقترب منها، يقدّم رجلاً ويؤخر أخرى، وقال:

- مرة أخرى، أعتذر! يبدو أنني ضعيف أمام الجمال المتميز! إنني أكره نفسي وأحتقر...!

لم تدعه يكمل جملته، فقد وضعت أصابع يدها الأربعة فوق فمه وكأنما لتمنعه من مواصلة الكلام، فقالت وهي مازالت تبتسم:

- إنس ما حدث! لقد تبينت أنها كانت غلطتي!

وبسرعة البرق رفع يده اليمنى ووضعها فوق أصابعها الموضوعة على شفتيه وقبلها فأزكم عطر اليدين أنفه وأحسّ بنشوة هائلة!

لم تقل هي شيئاً، بل نظرت إلى الأرض متظاهرة بعدم رؤية ما حدث! فقالت وهي تشير بيدها إلى أعلى الجبل وبطن الوادي!

- إن حدودنا هو ذلك السياج المحيط بالبيت، ومساحة الأرض هكتاران!

أطلق راكان تصفيرة عفوية، وقال:

- إنها مساحة كبيرة لبيت واحد! إنها منطقة جميلة جداً! إنكم تشرفون على الوادي ولا أحد يستطيع أن يحجب عنكم الرؤية!

- إن المنطقة خالية من البيوت في الوقت الحاضر، ولاشك أنها ستمتلئ بعد بضع سنوات، ونريد أن تكون البيوت المجاورة لنا غير قريبة من بيتنا!

- يا إلهي! إن عندكم بركة سباحة! صاح الشاب فجأة بفرح طفولي!

- وهل تحب أن تسبح؟! الطقس مناسب جداً للسباحة!

رمى برأسه إلى الأرض ولم يقل شيئاً!

- وهل تخجل أن تسبح أمام النساء؟! سألت وهي تتضاحك.

- أتمنى ذلك! ولكنني لا أجيد السباحة! قالها بصوت مخذول ومنخفض، ثم أردف وقد استولى عليه حزن عميق، وكره ماحق لنفسه ولمجتمعه! ثم أضاف:

- إنك لا شك ستتهمينني بالجهل، ولكن صدقيني إنني طالما تمنيت تعلم السباحة وقيادة السيارات، ولكن الإمكانيات المتاحة في بلادنا لا تساعد على تحقيق هاتين الأمنيتين!

- يجب أن لا يسيطر عليك هذا الشعور! إن كثيراً من الأمريكان لا يجيدون السباحة ولا قيادة السيارات، والآن سأعطيك أول درس في السباحة. كل ما عليك عمله هو ألا تخاف الماء، فإنك تستطيع أن تبدأ من الجزء الجنوبي من البركة، فعمق الماء يبدأ بثلاثة أقدام، ثم يعمق تدريجياً!

- ولكنني لا أملك بذلة سباحة!

- لا يوجد مشكلة! سأعطيك إحدى بذلات جيري! قالت ذلك ثم أومأت له أن يتبعها، فسار خلفها حتى وصلت أحد الأبواب الجانبية وفتحته! وبدون إرادة صفّر صفرة كبيرة حتى أنه هو نفسه خجل بعد أن أطلقها، فقال:

- يا إلهي! إن قاعة بيتكم واسعة جداً وكأنها قاعة قصر ملك، وأثاثها جميل جداً جداً! قال ذلك وصار يسرح ناظريه بأطراف القاعة.

- شكراً! شكراً! إننا نقيم الحفلات هنا! قالت ذلك ولاحظ أنها تتأمله وكأنما تراه لأول مرة!

- إن الخادمة تأتي مرة في الأسبوع لتنظف البيت، وتأتي أيضاً في كل ليلة عندنا فيها حفلة أو وليمة لتساعدني! ولما لم يقل شيئاً أضافت:

- دعنا لا نضيع الوقت! تعال معي لأعطيك بذلة السباحة، وسأريك البيت بعد أن تغير ملابسك! قالت ذلك وأوسعت من خطاها وهو يسير خلفها، فدخلا غرفة كبيرة بحجم بيتهم في الوطن، بها كل معدات وأدوات الرياضة، مرتبة ترتيباً جيدًا، بعضها يعرفها وبعضها لم يرها من قبل، فشعر فجأة بحزن وإحباط شديدين لشبابه الضائع والذي قضاه بالأحلام والحرمان!

ناولته بذلة سباحة زرقاء وقالت:

- بدّل ملابسك هنا، وسأذهب أنا لأبدّل ملابسي أيضاً، وقابلني عند أول بركة السباحة! بعد أن ننتهي من السباحة سأريك البيت ونتناول بعض المرطبات قبل أن نعود إلى بيت والدي! قالت هذا وخرجت!

استبدل الشاب ملابسه ببذلة السباحة، وبدأت تدور برأسه كثير من الأفكار، وكلما استرسل في تفكيره، كلما شعر بتهيج في رغباته، وكأن ناراً ملتهبة بدأت تشتعل في شرايينه!

لم تغب السيدة جيري طويلاً، فقد أقبلت وهي ترتدي بذلة السباحة! كان "المايوه" قطعتين صغيرتين بلون أحمر، إحداهما قد غطت جزءا صغيراً جداً من النهدين، والقطعة الثانية قد غطت جزءا أصغر بين الفخذين! لا شك أن شجرة التوت التي كانت ترتديها أمنا حواء كانت أكبر منها كثيراً!

أقبلت بثبات وإقدام، ووجهها يطفح بشراً وتعلوه ابتسامة كبيرة وقد أحمّرت وجنتاها... أقبلت تتبختر بذلك الجسم اللدن والخصر الأهيف، وقد حشت رأسها في طاقية من البلاستيك الأزرق، وكانت تتمايل وهي تقبل عليه...! كانت شبه عارية، كالفاكهة المحرمة...!

ما كاد راكان يراها تقبل نحوه، حتى انطلقت كل الوحوش الجائعة في داخله، وكل الذئاب المسعورة في شرايينه، فتحول كل كيانه إلى بركان من قذائف وحمم تغلي كأنها نار جهنم، فاتسعت حدقتا عينيه وهو يحدق مبهوتاً ومبهوراً بجسم السيدة جيري!

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟! وهل أعجبك "المايوه" الذي أرتديه؟! إن في عينيك شبه نار! قالت بعد أن وقفت أمامه وهي تبتسم تارة وتتضاحك تارة أخرى؛ أما هو فقد بقي جامداً في مكانه لا يتحرك يحدق بجسمها مبهوراً!

- تعال، دعنا ننزل في الماء لأريك كيف تعوم! قالت هذا ومدّت يدها وبأصابعها داعبت خده، فأزكم عطرها أنفه، فصارت كل خلجة وكل ذرة في جسمه تثور وتصرخ، وقضت على البقية الباقية من عقله، وصاح صوتاً من أعماق وجدانه اهتز له المكان!

- ألا تعرفين لماذا؟! لقد طارت البقية الباقية من عقلي!! ودون أن ينتظر جواباً، انقض عليها كالصقر الجارح، وبيديه المحمومتين عانقها ورماها أرضاً ونام فوقها، وبأصابعه المتشنجة انقض عليها ومزق ما ترتديه من "مايوه" ورماه بعيداً؛ وصار يغرز أظافره بجسمها ويأكل بأسنانه شفتيها وخديها ووجهها وعنقها وصدرها وكأنما هو حيوان مفترس يريد أن يأكلها، وهي تصيح به فزعة!

- راكان! دعني أنهض! أرجوك! إن قساوة الأرض تؤلم ظهري! إنك تؤلمني! لن أمتنع عليك! صدقني! دعنا نذهب إلى غرفة النوم... على الكنبة... على السجادة...! إنني أتألم! أرجوك! لم أكن أعرف أنك قوي هكذا... ولا تحتمل رؤية امرأة بمايوه! راكان انهض عني! أرجوك!

كانت وهي ترجوه تحاول أن تبعده عنها ولكنها لم تستطع، فقد تأتت له في تلك الساعة قوة لم يألفها هو في نفسه من قبل! كان هو في تلك اللحظات يتمتع بطاقات هائلة لدرجة أنها لم تستطع أن تزحزحه عنها قيد أنملة!

لم يكن المهاجم يسمع رجاءها ولا توسلاتها، وإنما كان يسمع طنيناً وكلمات ليس لها معنى. وظل فوقها يغرز أظافره بجسمها تارة وأسنانه تارة أخرى وشفتيه تارات، ولم يتركها إلاّ بعد أن بدأ جسده يهتز فوق جسدها، وبعد أن نامت في داخله جميع الحيوانات المسعورة والمنفلتة؛ فعاد إليه وعيه وتنبه إلى حقيقته، فلاحظ أن السيدة جيري كانت تبكي... وأن بعض الرضوض والخدوش كانت تغطي جسمها! فنهض من فوقها واتجه إلى غرفة المعدات الرياضية واستبدل ملابسه!

وفجأة بدأ راكان يبكي في هستيريا محمومة... يبكي بحرقة... بألم ممزق... وصار يشد شعره ويضرب رأسه بيديه، وكأنما يريد أن ينتقم للسيدة جيري من نفسه! وبعد لحظات تذكر بأنه يجب أن يذهب ويرتدي ملابسه.

- إلحقني! دعنا نذهب! سمع راكان صوت السيدة جيري يأتيه من بعيد، فلحق بها وهو مازال ينهنه ويمسح دموعه بظهر يديه، وعندما أدرك السيارة كانت تتأهب للانطلاق!

لاحظ المسحوق بطرف عينه اليسرى وهو جالس ملاصق للباب، بأنها كانت ترتدي بنطلوناً طويلاً وتضع على عينيها نظارة سوداء! وظلت السيارة تسير بسرعة مجنونة ولم تتوقف حتى وصلت أمام بيت والديها دون أن تطفي الماتور! لم يفتح أحدهما فمه طيلة الرحلة.

بينما كان راكان يهم بفتح باب السيارة سمعها تقول:

-كان من الممكن أن نمضي وقتاً ممتعاً، بعد ظهر هذا اليوم، وقتاً لن تحلم بحياتك كلها أن تحصل على مثله؛ ولكنك بتصرفك الغبي أضعت كل شيء! اللعنة عليك وعلى بني قومك؛ إنكم أمة دونية! قالتها بمرارة وحقد لاهب، وهي تصرّ على مخارج الكلمات؛ ثم أتبعتها ببصقة وصل رذاذها إلى خده الأيسر، فشعر بلهيبها الذي خُيّل له وكأنما هو شواظ من نار جهنم!

فتح راكان باب السيارة وخرج، وحالما أغلق الباب خلفه، انطلقت السيارة عائدة من حيث أتت!

بقي المسكين لفترة طويلة جالساً خلف البيت يبكي بحرقة ويتمزق بلوعة، والندم والإحباط والقهر يفتت كبده، ويشعل النيران في داخله؛ ندماً على تصرفه المشين واللامسؤول!

كان الشاب طيلة الوقت يلوم الشرق الذي أتى منه، ويلعن العادات والتزمت الذي أرضعه له! إنه لو كان عاش في مجتمع منفتح يسمح

باختلاط الجنسين، ويبيح للرجل والمرأة أن يسبحا معاً، لما كان تصرف هذا التصرف المشين! إن كل ما تعلمه من مجتمعه المتأخر المتزمت هو... عيب... حرام... ممنوع... لا يجوز! كلها "تابوهات"! ولما كان قد تصرف هذا التصرف الوحشي عند رؤيته لامرأة في ملابس السباحة!

كان المخذول في حالة نفسية سيئة، سيئه جداً جداً ،فقد استولى على قلبه هم كبير وألم عظيم وغم لا يوصف! لقد كره نفسه واحتقر وجوده! كان يحسّ بتعاسة لا تتصور، وبألم أعظم من أن يحتمله، فقد كان يحس بأوجاع تفري قلبه وآلام تذيب كبده! كان وكأنما سكين قد انغرزت في قلبه وصارت تمزقه! كان يحس وكأن ناراً تشتعل في داخله وتحرق جوفه!

كان كلما تذكر ما حدث، وكيف تصرف هذا التصرف الوحشي، والذي يخجل رجل الغاب أن يتصرفه، يحس وكأنما سكين تغوص في أحشائه!

كان مشتت الفكر، مكلوم الفؤاد، مكسور الخاطر، حزين النفس، مقبوض القلب! كان يحس بأنه يكاد يختنق ويشعر بغربة طاحنة!

إن الذي أحزن الشاب وآذى شعوره الفني، وجرح شعوره الجمالي، ليست بصقتها عليه، ولا شتيمتها له ولأمته، ولكن الذي أوجع قلبه وأدمى عينيه، هو أن تكون هذه المرأة ذات الجمال المتميز، والشخصية النادرة، أن تخرج من فمها، مثل هذه الكلمات النابية!

يا للمفارقات! ويا للعجائب والغرائب! راكان الحكيم، القادم من بلاد الحرمان الجنسي والقحط العاطفي، يُقاد إلى المسلخ مرتين في يوم واحد، ليُقدَّم قرباناً إلى مذبح جانحات ومنفلتات أمريكا!

من حنفية الحديقة، غسل راكان وجهه، وفرد ابتسامة فوق شفتيه وقرع الباب! وعندما فتحت له السيدة هبيز سألته، إن كان قد أعجبه البيت وأحب المنطقة، وأنه يوافق على أن يسكن فيها! كانت كل أجوبته بالإيجاب، ويتبعها بهزة من رأسه!

- وأين سالي ؟!

- لقد عادت بعد أن أوصلتني، وطلبت إليّ أن أعلم والدتها بأن تعيدنا، أنت وأنا، بسيارة السيد جورج، فقد تذكرت أنها يجب أن تقوم بمهمة لا تقبل التأخير!

*****

الفصل السابع

انقضت الثلاثة أيام الأولى، والتي وعد السيد استيوارت السيدة هييز وراكان بأنها قبل أن تنقضي ستكون الوظيفة مؤمنة للفتى، هذا على أسوأ احتمال؛ ولكن ها هما أسبوعان كاملان قد مضيا ولم يسمعا من الرجل !وعندما أسرّ الفتى بشكوكه إلى السيدة هييز، لامته وعتبت عليه قائلة:

- آه يا راكان! وهل مازلت تشك به؟! لقد فكرت أنك غيّرت رأيك! إنه رجل مشغول دائماً، ثم إنه يريد أن يختار لك الوظيفة الأحسن والأنسب!

اقتنع مكفولها بقولها وسكت!

ولكن انقضى أسبوعان كاملان آخران ولم يسمعا من السيد استيوارت!

كانت السيدة هييز تهاتف مكتبه كل يوم، مرة على الأقل، وكان جواب السكرتيرة هو هو دائماً لا يتغير، إنه غير موجود، أو أنه في اجتماع مع موكله، وأنه سيهاتفها حالما ينتهي الاجتماع؛ أو أنه ما زال في المحكمة، ووعدت بأن تعلمه بأن السيدة هييز قد هاتفته، وأنه سيتكلم معها حالما يستطيع!

لقد شعر الشاب بالأيام الأخيرة بمرارة الغربة تمزق قلبه، وقساوة البعد عن الأهل والأصحاب وكأنها نار تحرق جوفه؛ فإن صورة والدته بوجهها الحبيب، وكلماتها الرقيقة الحانية، وجسمها النحيل، وعينيها الغائرتين، ودموعها المنحدرة على خديها بصمت؛ لم تفارق مخيلته! لقد أصبح دائم التفكير بها، والتحدث في مخيلته مع طيفها!

كان حزيناً دائماً، وعابساً في أكثر الأحايين، مما أزعج وأقلق كفيلته! لقد كانت دائماً متفائلة، وتقص عليه القصص التي تؤكد له؛ إن بعد العسر يسراً، وإن كل ضيق لا بد من أن يتلوه فرج! هكذا علمتها الحياة، وتستشهد بقصص ووقائع حدثت معها وخصوصاً بعد وفاة زوجها الذي ترك لها ثلاثة صغار ولم يترك لها، من ضروريات الحياة، شيئاً!

لقد استرجع أحاديث والدته قبل سفره بيوم، مرات ومرات!

- إنني أخشى عليك يا بني في بلاد الغربة، بأن لا تجد عملاً وأن تجوع وتعرى!

كانت تقول ذلك وهي تبكي وتنهنه كالطفل. أما هو، فقد كان يضحك من بساطتها وسذاجتها، فيقول لها!

- لقد نسيت يا والدتي أنني ذاهب إلى بلاد الغنى والوفرة والرزق الكثير! إن الأعمال هناك متيسرة وبكثرة.

- أخشى أن تكون مخدوعاً بأمريكا يا بني! لقد زينها لك البعض، وأعلموك أنها جنة الله على الأرض! أنا أعرف ذلك! لقد حاولت أن أثنيك عن عزمك يا بني، وما زلت قد صممت فاذهب، وعلى بركة الله، وليحرسك الخالق! وخنقتها عبراتها وأجهشت بالبكاء! وتجمعت أخواته حولهما يبكين لبكائها، وكأنما هو ذاهب إلى القبر، وليس إلى جنة الله على الأرض... أمريكا!

لقد تألم وقتها لسذاجتها وطيبة قلبها، كما تألم لدموعها وحزنها، وقد تألم أكثر لمعلوماتها الخاطئة عن أمريكا! ولكن ها هي مخاوف والدته تتحقق؛ وها هو في هذا البلد الغريب يقاسي آلام الغربة ومرارتها؛ وها هو لم يجد عملاً؛ والمحامي الذي وعد كفيلته بأن العمل ينتظره قد كان يكذب عليها!

بعد انقضاء اليوم الرابع عشر على زيارة السيد استيوارت لمنزل السيدة هييز صممت المرأة على أن تكلمه في منزله بعد العشاء، وسمع راكان كفيلته تقول:

- مساء الخير يا سيدة استيوارت. أنا ماري هييز! شكراً شكراً! السيد استيوارت أثنى عليّ كثيراً؟! ما أكرمه وألطفه! شكراً شكراً! وكيف صحة الأولاد؟ هذا يحدث عندما تبدأ أسنانهم تطلع! اسأليني! أنا أعرف ذلك! هذا صحيح! ماذا؟ أنا مسرورة جداً أنك أحببتهم! وهل طابقت حجمك؟ عظيم جداً وشكراً للسيد المسيح! إنني مسرورة جداً جداً أنك أحببتهم. طبعاً سنأتي! إن راكان مشتاق جداً لرؤيتك! إنه موجود إلى جانبي. هل تريدين أن تتكلمي معه؟ طبعاً! طبعاً! ستتكلمون طويلاً عندما نأتي لبيتكم للعشاء! نعم، سيحدثك عن بلاده، إنها ممتعة جداً! آسف إن أزعجتك بمهاتفتك، ولكن السيد استيورات وعدنا، عندما زارنا، بوظيفة لراكان خلال ثلاثة أيام على أكثر تقدير، وها قد مضى شهر كامل! نعم، إنني أعرف أنه مشغول جداً! هذا صحيح أعني أن تذكّريه فقط! بلغيه تحياتنا وذكريه أن يتصل بنا ليطمئننا! فقط لنعرف أنه لم ينسنا! مفهوم، مفهوم! تصبحين على خير، وآسف لإزعاجك. فليحرسكم المسيح!

بعد أن أغلقت السماعة التفتت إلى راكان وهي تبتسم:

- ألم أقل لك أنه إنسان دائماً مشغول، وأنه لم ينسنا؟!

- لقد وجد لك عدة وظائف، ولكنه محتار أيها الأنسب لك! إنه مازال يفكر قبل أن يصمم! لا شك أنه سيكلمنا غداً صباحاً! إنني واثقة من ذلك! أترك كل شيء لي!

لم يقل راكان شيئاً وترك كل شيء لها، وإن كان قلبه غير مطمئن لما قالت له! لقد داخله إحساس قوي بأن الرجل يتهرب منهما، وأن ليس في نيته أن يجد وظيفة له، ولا أن يقدم له أي نوع من المساعدة!

لم يتكلم أحد من طرف السيد استيوارت، وإن كانت السيدة هييز تتكلم مرة في الصباح ومرة في المساء، ولكن الجواب كان دائماً هو هو لا يتغير؛ في اجتماع مع موكل له، أو في المحكمة! لقد استولى إحباط ويأس شديدين على قلبي السيدة هييز ومكفولها!

في صباح اليوم الخامس والثلاثين على زيارة السيد استيوارت رن جرس الهاتف، وكانت المتكلمة سكرتيرته، وفهم الشاب من مجرى المحادثة بأن الرجل أخيراً وجد له عملاً، إذ سمع كفيلته تسأل، وابتسامة كبيرة تعلو شفتيها وفرح هائل يغطي وجهها:

- هل تعنين ميدان سبق "سانتا آنا" الموجود هنا في مدينتنا آركاديا؟ إن هذا رائع... مدهش... شكراً لله! إنني أعرف ذلك جيداً! هو لم ينسنا! لقد قلت لراكان ذلك مراراً وتكراراً بأن لا يقلق! إنه سيسر جداً! طبعاً! طبعاً! ما الذي جعلك تقولين هذا؟ لا، لا؛ إنه سيوافق قطعاً. صدقيني! لا حاجة لسؤاله! إنه سيطير فرحاً! ما دام السيد ستيوارت اختارها من بين عدة وظائف، فإن راكان سيسرّ بها! لا يكون لك فكر! قلت لك هو موافق. لا حاجة لسؤاله! ألم يقل متى يستلم الوظيفة؟ عندما نوافق؟ نحن موافقون منذ هذه اللحظة، وراكان مستعد لاستلام العمل هذا اليوم إذا طلب منه! غداً صباحاً إذا أراد السيد ستيوارت. إن المسافة بين بيتنا وميدان السبق حوالي ميل واحد! يستطيع راكان أن يسير على قدميه حتى يبتاع سيارة! قولي للسيد استيوارت أننا سنقيم حفلة كبيرة على شرفه وسيرسل راكان في طلب هدية له من بلده! فقط أخبريه أننا ننتظر إشارة منه لاستلام الوظيفة! أنا أعرف أن السيد ستيوارت رجل عظيم وشهم وأمين جداً! لقد عرفت ذلك منذ أول مرة تكلمت معه على الهاتف! على كل حال بلغيه شكرنا وتحياتنا وسأصلي للسيد المسيح أن يحفظه هو وزوجته وأولاده، وأنا واثقة بأن الله

سيكافئه نيابة عنا! مع السلامة وشكراً لك وليحفظك المسيح أنتِ أيضاً! قالت ذلك وأغلقت السماعة!

قفزت من على الكرسي وهجمت على مكفولها تعانقه وتقبله!

كان الفتى طيلة الوقت الذي تتحدث به السيدة هييز مع السكرتيرة يتقلى على أحرّ من الجمر! إنه يريد أن يعرف ما نوع الوظيفة التي وجدها له السيد استيورات، والتي هي في نفس المدينة التي يسكنها؟! ما أعظم ذلك الرجل! حقاً، إنه شهم وبعيد النظر!

شعر بندم شديد لاتهامه السيد استيوارت بأنه محتال ونصاب، وأنه خدعهما بوعوده الكاذبة، بعد أن حصل على كل تلك الهدايا العديدة والنفيسة!

- أعلميني ما نوع الوظيفة! قال وهو يحاول أن يتحلل من قبضتها ويبعدها عنه!

- ألم تسمعنا؟! "قروم" هل تعرف راتب القروم في السنة؟ !إنه عشرات الآلاف من الدولارات! إنك في عدة سنوات ستصبح واحداً من الأغنياء في مدينة آركاديا! إن "القروم" لا يقتنون إلاّ السيارات الفارهة، ولا يدخنون إلاّ السيجار الفاخر، ثم إن زوجاتهم لا يلبسن إلاّ الفراء النفيس، ويملكون البيوت التي بحجم القصور! أوه! كم أنا مسرورة لك! إنني أكاد أطير من الفرح والسعادة! لقد تحققت كل أمنياتك!

- أرجوكِ! قولي لي، ما هو "القروم"! سألها بعصبية وقد شعر بأنه حقاً بدأ يفقد صبره!

- أوه ! ألا تعرف معنى كلمة "قروم"؟ انتظر لحظة! قالت ذلك وتوجهت إلى القاموس الإنجليزي عربي الذي أحضره معه من الوطن ، والموضوع على طاولة الوسط في الزاوية، ولكنها في طريقها لمحت الصورة المعلقة على الحائط، فوقفت أمامها وتطلعت إليها بخشوع ورهبة، بعد أن عملت إشارة الصليب على صدرها وقالت:

- أبانا الذي في السموات والأرض! شكراً لك على أنك وجدت وظيفة ممتازة لراكان! وتابعت سيرها باتجاه القاموس:

- هذه هي الكلمة! لا شك أنك تعرفها! لقد أخذناها منكم، أنتم العرب! الخيول العربية الأصيلة! قالت، ثم قرّبت القاموس من عيني راكان وهي تنظر إليه وتبتسم ابتسامة كبيرة جذلى وأضافت:

- أنا واثقة من أنك تعرفها!

قرّب الفتى عينيه من القاموس وتراجع مذعوراً، ثم أعاد النظر إلى الكلمة ثانية ليتأكد من أنه لم يخطئ، وأنه ينظر إلى الكلمة الصحيحة، فصاح مصعوقاً وقد قفز من مكانه، وبدأت كل خلجة في جسمه ترتجف وتهتز من الغضب!

- أنا أشتغل سائساً للخيل؟! ماذا حدث لك؟! هل تعتقدين أنني ليس لي مركز اجتماعي؟! أنا متعلم! أنا مثقف! لقد كنت في الوطن رئيساً لديوان دائرة حكومية، وتحت أمرتي أكثر من عشرين موظفاً! إن هذه إهانة لا تغتفر!

نظرت إليه السيدة هييز نظرة استغراب واستهجان متسائلة ومستفسرة عما أصابه، ولم هذا الغضب والثوران، فقد لاحظ الشاب ذلك في نظراتها الحائرة!

- إنني لا أدري ما الذي أغضبك مع أنك يجب أن تفرح! قالت بحيرة!

- لا تدرين؟! ألا تعرفين ما هي وظيفة السائس؟! إنه ينظف الخيل ويطعمها ويكنس تحتها! إنه أحد الأعمال الحقيرة في بلادنا! إن الذي يزاولها لا يحتاج إلى ثقافة ولا حتى أن يعرف كيف يكتب اسمه! كانت الكلمات تخرج من فم الشاب كأنها شهب نار!

- ليس هنا في أمريكا! لا يا سيدي! إنه عمل محترم جداً ويدر على صاحبه نقوداً كثيرة؛ وخصوصاً الذي يشتغل مع خيول السبق!

- ولكنه عمل يقوم به أي إنسان، وصاحبه لا يحتاج إلى موهبة ولا ثقافة! قال وقد بدأت حدة غضبه تخف قليلاً!

- قد لا يحتاج صاحبه إلى موهبة ولا ثقافة، ولكنه عمل محترم ويكسب صاحبه نقوداً كثيرة، وخصوصاً إذا أصبح "جاكي" إذ إن كل وجهاء البلد وأغنياءها سيصبحون أصدقاء لك! إنك ستتعرف على الطبقة الراقية! صدقني إن البخشيش الذي يحصل عليه الجاكي، أضعاف أضعاف راتبه!

- إنني لا أفهم ماذا تعنين! سأل الفتى بحيرة!

- إن خيول السبق هنا تساوي مئات الآلاف من الدولارات؛ بل الملايين، والذي عنده حصان أو فرس ممتازة يراهن عليها الناس عند السبق ويربح هو الآلاف من الدولارات، وبما أنه يربح كثيراً منها فإنه يعطي الذي يعتني بها الكثير! أي أنه يعطيه راتباً ضخماً! هل فهمت؟

هزّ مكفولها رأسه علامة الموافقة، وصار يفكر بما قالته كفيلته، إذ إن كلامها معقول ومنطقي، إذ إن كل شيء في أمريكا يختلف عن بلاد العرب، فإذا كان عمل السائس هناك عملاً مهيناً، فإنه في أمريكا عمل محترم ويكسب صاحبه نقوداً كثيرة!

هزّ الفتى رأسه مرة أخرى ولكن بحيرة وقال:

- أوافق؛ إذا كنت تعتقدين ذلك! ثم بعد فترة صمت سأل:

- وهل أعلمتك السكرتيرة إن كان السيد استيوارت هو الذي اختار لي هذه الوظيفة من بين عدة وظائف؟!

- إنها لم تقل ذلك بالضبط! إن الذي قالته هو أن للسيد استيوارت صديقاً عنده عدة خيول في ميدان سبق "سانتا آنا" وهو يفكر بأنه ربما يقنعه باستخدامك!

- إذن هو لم يسأل صديقه بعد، وليس واثقاً إن كان بحاجة إلى سائس!

- لقد قالت بأن السيد استيوارت فكر أنك ستحب هذا العمل لأنك عربي ، والخيول عربية وتستطيع أن تسوسها!

- ولكنني لا أعرف عنها شيئاً!

- إنك ستتعلم! قالت وكأنما نفد صبرها واستغربت عناده وجهله!

خطرت على بال الشاب فكرة لم يتردد بالتصريح لها بها.

- من يدرينا أن السيد استيوارت زعم هذه الوظيفة لأنه يعرف أنني لا يمكن أن أقبل مثل هذا العمل!

- أوه راكان! أما زلت تشك في إخلاصه؟ فقط ثق به أرجوك! لقد قال مخلصنا من آمن بي فإنني سأنقذ روحه من جهنم يوم القيامة!

- إن الذي قال هذا هو السيد المسيح رضي الله عنه، وليس السيد استيوارت! قالها الشاب بنزق!

أما هي فنظرت إليه نظرة عتاب ونهضت.

*****

ومرة أخرى بدأت المكالمات الهاتفية والانتظار والترقب، فقد كانت السيدة هييز تتصل بالسكرتيرة مرتين في اليوم تطلب إليها أن تتكلم مع السيد استيوارت ،أو إن كانت هي تعرف أين وصلت قضية وظيفة السائس لراكان، وكان الجواب هو هو لا يتغيّر. السيد استيوارت غير موجود وأن لا جديد عن الوظيفة!

في اليوم الثامن حدثت المعجزة التي أراحت السيدة هييز وراكان من عذاب ومعاناة القلق والترقب، فقد أعلمت السكرتيرة السيدة هييز بأن السيد استيوارت قد تحدث إلى صديقه صاحب الخيول فأعلمه بأنه ليس بحاجة إلى سائس لخيوله ، وأن السيد استيوارت حاول جاهداً أن يجد وظيفة لمكفولها، ولكنه لم يوفق؛ وهو آسف جداً لذلك، وأنه يتمنى لراكان حظاً سعيدا وإقامة طيبة في أمريكا!

لقد أصيبت العجوز وكذلك الشاب بخيبة أمل لا توصف، وكان حزنهما أشد، إذ لم يكونا يعرفان ماذا سيفعلان! لقد شعرا أن السبل قد تقطعت بهما!

بينما كان الفتى ممدداً فوق الكنبة في غرفة الجلوس، يحملق بالسقف، بعد ظهر ذلك اليوم، ومستغرقاً في تفكير عميق، جاءت السيدة هييز من غرفتها مهرولة وأعلمته بأنها تكلمت مع جارتها السيدة دوول عن ما فعله معهما محاميها، فأعلمتها الأخيرة بأنها تستطيع أن تستخدم راكان ليعتني لها بالحديقة، ساعتين كل يوم، إذ إن عندها حديقة كبيرة!

لم يعلق الشاب على ما قالته، وإنما نظر إلى الجهة الثانية، إذ شعر بأنه يكاد يستفرغ من القرف والقهر معاً! أما هي فعادت إلى غرفتها مكسوفة خجلى!

مساء ذلك اليوم تحدثت السيدة هييز هاتفياً مع زوجة ابنها، ديانا، وقصت عليها ما فعله محاميها معها ومع راكان، فاستغربت الزوجة هذا التشبث بالمحامي، وتساءلت لماذا لا يتابعان إعلانات الوظائف في الجريدة المحلية، أو لماذا لا يذهبان إلى مكاتب العمل الحكومية والأهلية أيضاً، ويقدمان طلبات هناك!

- ما أغباني! كيف أنني لم أفكر بمثل هذا؟ قالت السيدة هييز وهي تهز رأسها يمنة ويسرة!

- وهل يوجد شيء من هذا النوع؟! سأل الشاب وقد فتح عينيه على وسعيهما!

- طبعاً! طبعاً! العديدة منها! إنها كلها في منروفيا، في المدينة المجاورة!

وفي صباح اليوم التالي، ركبت السيدة هييز وراكان الحافلة إلى تلك المدينة ، وقضيا النهار يملآن طلبات التوظيف في مكاتب العمل الحكومية والأهلية، وعادا في آخر النهار، وبقيا أسبوعاً كاملاً ينتظران

أن يتصل بهما أحدهم ليخبر الفتى أن وظيفة تنتظره، أو حتى يريد أن يقابله، كما كانا يتابعان إعلانات الجريدة، ولكن دون جدوى!

اقترحت السيدة هييز أن يذهبا إلى السوق التجاري المجاور والذي لا يبعد أكثر من خمس دقائق سيراً على الأقدام، ويسألانهم عن عمل، لعلّ الله يفرجها عليهما!

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة والنصف ببضع دقائق عندما غادرت هي ومكفولها البيت في طريقهما إلى السوق التجاري المجاور. لقد أعلمت السيدة هييز راكان بأن المحلات التجارية تفتح أبوابها للزبائن في التاسعة والنصف، وأنه من الأفضل لهما أن يبدأا في البحث بعد فتحها مباشرة.

كان الطقس في ذلك اليوم حاراً منذ بزوغ الشمس، ولكنهما لم يشعرا بحرارة الجو لأن جانبي الشارع كانا مكتظين بالأشجار وارفة الظلال، حتى ليحسبها الناظر بأنه يسير في غابة من الأشجار لكثافتها ولشدة اخضرار أوراقها!

- إن كل متجر هنا عنده أعداد ضخمة من البائعين وموظفي المكاتب! إن العدد طبعاً يعتمد على ضخامة المتجر؛ فبعضها به موظف واحد فقط، وبعضه به حوالي العشرة ! نحن طبعاً نريد لك وظيفة مكتبية!

توقفا بعد أن قطعا نصف المسافة حتى تلتقط السيدة هييز أنفاسها، ثم أضافت:

- سنسأل اليوم كل متجر، والمتاجر هنا في مدينتنا قليلة وصغيرة مقارنة بالمخازن التي في لوس أنجلوس مثلاً، فعدد العاملين هناك بالعشرات ! وإن لم تتوفق فسنذهب غداً إلى المتاجر في مدينة منروفيا، وإن لم نوفق، فسأطلب من ديانا أن تأخذك إلى مدينة باسدينا، فهي مدينة كبيرة والوظائف بها كثيرة وسأعتني أنا بابنتها، وأدفع لها ثمن البنزين!

شعر الفتى بفرحة مباغتة، إذ إنه سيقضي يوماً كاملاً بصحبة امرأة جميلة كديانا، ولكنه سرعان ما أحسّ بانقباض، إذ إنه سيخجل وسيرتبك، وقد لا يحسن التصرف أمامها، ثم إنه كذلك لنقص في رجولته أن تساعده امرأة على إيجاد عمل له، وهو الشاب المعتد برجولته! ولكنه سرعان ما سمع صوتاً يناديه من داخله ويقول: "إنك الآن في أمريكا، بلد الإخاء والحرية والمساواة؛ وكل شيء فيها يختلف

عن وطنك! انس سخافات شرقك وخرافاته، وعش وفكر وتصرف، كما يعيش ويتصرف ويفكر الأمريكان، وإلاّ فإنك ستظل قابعاً في متاهات الحياة وعفنها!"

دخلا أول متجر قابلاه، وما كادا يدلفان داخل الباب حتى شعر الفتى بنشوة لذيذة أنعشته، فقد جعل التكييف المكان مريحاً للأعصاب مفرحاً للقلب ومنعشاً للروح!

كان المتجر يعج بالناس من كلا الجنسين، بعضهم يعرض البضائع، وبعضهم يتفرج عليها! صار الشاب يحملق بالفتيات المنتشرات في كل مكان. كن مزينات يرتدين ملابس أنيقة، وكن كأنهن عرائس في ليلة جلوتهن! كان بعضهن ذهبيات الشعر ممشوقات القوام ذوات عيون عسلية، وكان البعض الآخر حمراوات الشعر، متوسطات الأحجام ولكنهن كن جميلات؛ وكن هؤلاء وأولئك لا تفارق الابتسامة شفاههن، ويضعن فوق صدورهن وروداً متعددة الأحجام والألوان!

لاحظ راكان أنه وحتى المتقدمات منهن في السن، فإن وجوههن تلمع، وحمرة محببة تعلو خدودهن، ومتزينات وكأنهن بنات الثامنة عشر أو العشرين؛ فتمنى لو أنه يستطيع أن يجد عملاً في هذا المكان ومع هؤلاء الحسناوات، إذ إنه قطعاً سيكون سعيداً ومحظوظاً أيضاً!

رأى الشاب فتاة بعمر الزهور ذات جمال باهر تقف خلف حاجز من الزجاج مكدس بقوارير مختلف العطور، وعندما رأت الشاب يحملق بها، ابتسمت ابتسامة مغرية، ورمته بنظرات ساحرة خفق قلبه على إثرها، واحمرت وجنتاه وشعر بخجل شديد، فألقى بنظره إلى الأرض مرتبكاً!

- راكان! أين أنت؟! تعال وأمسك بيدي! لقد أضعنا بعضنا في الزحام! قالت السيدة هييز هذا ومدّت يدها وأمسكت بيده، وابتعد عن فتاة العطور، وهو يختلس النظر إليها، وهي مازالت تنظر إليه وتبتسم!

كم تمنى لو أن السيدة هييز تتركه ليذهب إلى تلك الحسناء ويكلمها، إذ لا شك أن وسامته وحسن هندامه قد راقا لها، وإلاّ لما بقيت تنظر إليه وتبتسم! لعلها تريد منه أن يتقدم منها ويكلمها، ويدعوها إلى السينما أو إلى العشاء أو إلى أحد الأماكن العامة!

همّ راكان أن يسحب يده من يد السيدة هييز ويعود إلى تلك الفتاة، ويقول لها بأن ابتسامتها سلبت عقله، وأنه قد استلطفها أيضاً وينشد صداقتها، ولكن السيدة هييز، سامحها الله، سحبته من يده وجرته إلى

جانبها، ففكر بأنه هو نفسه سيأتي لوحده غداً، فيعلن لها إعجابه، ويبثها أشواقه؛ ولا شك أنها ستسعد بمعرفته! ولم لا؟! أليس هو من سلالة قيس بن الملوّح، وكثيّر عزّة، وأيضاً عمر بن أبي ربيعة؟! أوليس هو من سلالة امرئ القيس الذي يقول:

"إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشقٍّ، وشقي تحتها لم يحوّلِ؟!".

دار هذا بخاطره وهو مستسلم ليد السيدة هييز القابضة بإحكام على يده، تجره خلفها بين الحشد الضخم من الناس، ووجد نفسه وقد ضرب بكتفه صدر امرأة كانت تتطلع على رفّ مكدس بقمصان للأولاد الصغار !أحسّ بأن نهديها قد طجّا من عنف الضربة، فاعتقد بأن المرأة لابد وأن تؤنبه مدعية بأنه حاول عامداً لمس صدرها، إذ إنها كانت ترتدي ملابس تكشف عن مساحة واسعة من صدرها، وحتى ظهر النصف الأعلى من نهديها، وكذلك القسم الأعلى من فخذيها، وجزءا كبير من ذراعيها؛ ولكنها بدلاً من ذلك فردت ابتسامة كبيرة فوق شفتيها وقالت له: "أرجوك اعذرني!" فكر الشاب أن يتقدم منها ويطلب هو منها المعذرة لأنه هو الذي ضرب بصدرها، ولكن المرأة استأنفت البحث دون أن تعطيه فرصة للكلام!

لقد نسي راكان أنهما أتيا ليبحثا عن عمل، وتمنى لو أن كفيلته تتركه يقضي يومه متنقلاً بين أولئك النسوة الجميلات... المغناجات... المترفات... اللواتي بهره جمالهن!

كانت السيدة هييز لا تكف عن الحديث، وإن كان مكفولها لم يصغِ لحديثها ولم يسمع عن ماذا كانت تتحدث؛ وظلت تجره بين الجموع الحاشدة كأنما هو طفل صغير تجره أمه خلفها، أو كأنما هو كلب تقوده صاحبته بحبل من عنقه، وكان هو مستسلماً لها، يبحلق بكل من تقابله!

بعد جهد شاق وطويل، شقّا طريقهما بين الحشود، إلى أن وصلا إلى زاوية خالية من الناس، ودرج ينزل إلى الطابق الأرضي، فنزلت على مهل ونزل خلفها، وعندما وصلا لاحظ الشاب أن الطابق الأرضي مزدحم هو الآخر بالناس، ولكن يوجد به مكتب التوظيف!

وقفا أمام باب نصفه الأعلى مفتوح والنصف الأسفل مغلق، وكانت تجلس في الداخل عجوز شمطاء ملطخة الوجه بالمساحيق جالسة خلف آلة كاتبة، سألتهما عندما لاحظت وقوفهما أمام الباب إن كان باستطاعتها مساعدتهما!

- إننا نبحث عن عمل لهذا الشاب. لقد وصل قبل فترة قصيرة من الأرض المقدسة. إنني أنا كفيلته! إنه نشيط وأمين، ولا تستطيعين إلا أن تحبيه بعد أن تعرفيه، وتستطيعون أن تعتمدوا عليه في الشركة، وأن...

شعر راكان بخجل شديد، وتمنى لو أن كفيلته لا تخبر قصته لكل من يقابلها!

- آسف يا سيدتي؛ لا يوجد عندنا شواغر في الوقت الحاضر! قالت المرأة مقاطعة السيدة هييز وعادت تضرب على آلتها الكاتبة من جديد!

دخلت السيدة هييز ومكفولها المتجر المجاور، وحالما دخلاه قابلهما رجل أصلع بحدود الخمسين من عمره يرتدي بذلة بنية اللون وعلى صدره يافطة مكتوب عليها شيئاً لم يستطع راكان قراءته!

- أين مكتب التوظيف من فضلك؟! سألته السيدة هييز.

- تابعي سيرك حتى نهاية الممر، وسترين اليافطة مكتوبة على الباب إلى يمينك!

شكرت المرأة الرجل، وسار راكان إلى جانبها يحملق بكل امرأة يمران بها، فلاحظ أن النساء جميعهن معدومات الجمال في هذا المتجر، وأن معظمهن عجائز غير أنيقات! وفكر أن يسأل كفيلته عن السبب ولكنه خشي أن تتهمه بالوقاحة وقلة الأدب.

كان جواب المسؤولة في مكتب التوظيف أن لا شواغر عندهم في الوقت الحاضر!

أربعة محلات تجارية طرقا أبوابها اعتذروا لهم بأن لا شواغر عندهم، فقط المتجر الخامس ناولهم طلب توظيف وطلب إليهما تعبئته!

أمضت السيدة هييز وراكان حوالي الساعة يملآن طلب التوظيف! كانت المرأة تجلس إلى جانبه وقد وضعت نظارة القراءة فوق عينيها وصارت تفسّر له كل كلمة لا يعرف معناها، وتهجئ له كل كلمة لا يعرف تهجئتها! شعر الفتى بقرف شديد من الأسئلة التي كانوا يسألونها في طلب التوظيف، فهم يريدون أن يعرفوا عنه كل شيء! اسمه وعمره ودراسته ووضعه الاجتماعي، أعزب، متزوج! ثم هل يدخّن وهل يتناول الكحول، ثم الأعمال التي عملها طيلة حياته، وحتى

هواياته سألوه عنها! شيء واحد أغضب راكان وجعل الدم يغلي في عروقه هو سؤالهم عن اسم والدته! لو كان في الوطن وسأله أحدهم عن اسم أمه لما توانى لحظة واحدة في ضربه!

- لا يوجد عيب في ذلك! إن الإنسان يذكر اسم أمه كما يذكر اسم أبيه، لا فرق بينهما! قالت السيدة هييز بحزم، عندما رفض هو كتابة اسم والدته في طلب التوظيف !

- ولكن المرأة هي... أعني هي... عورة! قال مكفولها بإحباط وغضب !

- إن المرأة ليست عورة، وإن ذكر اسمها لا يعيبها ولا يحط من قدرها! قالت المرأة بإصرار وعناد!

كظم راكان غيظه وقال على مضض:

- اسمها أمينة!

مرّ المدير بنظره بسرعة على الطلب وابتسم، فظنت السيدة هييز وراكان أن ابتسامة الرجل هو بسبب كفاءته العملية، حيث قضى فترة لا بأس بها موظفاً في حكومة بلاده، فظنّا أنه سيطلب إلى الشاب أن يبدأ العمل صباح اليوم التالي، ولكن الرجل خيب ظنهما بأن اعتذر لعدم وجود شواغر في الوقت الحاضر، ولكنه أكدّ لهما بأنه سيرسل في طلب راكان إذا صادف وحدث شاغر! وشكرهما لأنهما أبديا رغبة أن يعمل راكان في المتجر الذي هو مدير التوظيف به!

- إذا كان لا يوجد عنده شاغر، فلماذا طلب إلينا أن نتعب أنفسنا ونملأ الطلب؟! سأل راكان السيدة هييز، ونفسه تطفح بالقرف والاشمئزاز، وتمنى لو أن باستطاعته أن يصفع ذلك الرجل! ولكن السيدة هييز هوّنت عليه الأمر، وأكدت له بأن الله لا بد وأن يوفقه بالحصول على وظيفة، فإن لم يكن اليوم، ولا في الأيام القليلة القادمة، فسيكون، قطعاً، في الأيام التي بعدها!

كان رأي الفتى هو أن لا يسألا مخازن أكثر مما فعلا، وأن يبحثا في شركات تقوم بأعمال غير بيع الملابس وحاجيات المنزل، ولكن السيدة هييز اقترحت أن يسألا المخزنين المتبقين في السوق التجاري، ثم يذهبان بعد ذلك إلى شركة للتأمين وأخرى شركة محاسبة، فلم ير بدّاً من الانصياع لاقتراحها!

فتح لها الباب ودخل هو بعدها، فلاحظ أن هذا المتجر لم يكن فخماً وكبيراً كسابقيه!

- هل لك أن تعلميني أين مكتب التوظيف؟ سألت السيدة هييز إحدى البائعات التي يقف أمامها صف طويل من المتسوقين الذين ينتظرون دفع أثمان ما يحملون!

- في الطابق الأرضي! أجابتها البائعة دون أن تنظر إليها!

- لقد نزلت وصعدت اليوم أدراجاً يعجز عن نزولها وصعودها الشباب، ولا أظن بأنني قادرة على النزول والصعود ثانية! قالت السيدة هييز مخاطبة مكفولها، ولكنها قبل أن تنهي جملتها رأيا رجلاً مرتديا بذلة وربطة عنق، وعلى صدره يافطة عليها اسم المتجر وتحتها اسمه، وهو يصعد الدرج!

- هل أنت المدير؟! سألته السيدة هييز.

لم يفهم راكان ما أجاب الرجل، إذ ظنه يتكلم لغة غير الإنجليزيةَ؛ ولكنه سمع السيدة هييز تسأله ثانية:

- هل عندك عمل لهذا الشاب؟ !وقبل أن يفتح فمه قالت له:

- إنه من الأرض المقدسة، نفس الأرض التي ولد عليها منقذنا ومخلصنا السيد المسيح!

شعر الشاب بخجل وحرج شديدين، وتمنى لو أنها تكف عن ترديد هذه الأسطوانة المشروخة ، والتي تعيد ترديدها في كل مكان يذهبان إليه! إنها لم تعطِ الفرصة للرجل الواقف أمامها ليقول شيئاً، والذي ظل واقفاً أمامها لم يفتح فمه، مستمعاً لما تقول؛ ولكنها سامحها الله، استرسلت تقول:

- لقد رأى بأم عينيه المذود الذي ولد به، ووقف على نفس الجبل الذي صُلب عليه ومات لأجل خطايانا وليخلص أرواحنا من عذاب جهنم! وسكتت لتلتقط أنفاسها وأضافت:

- لقد مشى على نفس الأرض التي مشى عليها الرب! لقد زار بيت لحم مرات ومرات، وأحضر لنا هدايا كثيرة من هناك، لي ولمحاميّ ولزوجات أولادي و...

وهنا قاطعها الرجل مخاطباً راكان ، إذ رطن كلاماً لم يفهمه، وإن كان راكان قد لاحظ نظرات الاشمئزاز والقرف على وجهه!

- أعذرني يا سيدي! إنني لا أفهم ما تقول! قال الفتى مخاطباً السائل بمنتهى الأدب والاحترام!

- إنه يسأل كم عمرك! قالت السيدة هييز!

- ولماذا لا تخبرينه أنتِ؟ ثم لماذا يصرّ على التكلم بغير اللغة الإنجليزية؟

- إنه يتكلم باللغة الإنجليزية، ويريد أن يعرف إذا كنت أنت تتكلمها أيضاً!

- عمري خمسة وعشرون عاماً يا سيدي!

وسأل الرجل راكان سؤالاً آخر، فاعتذر له راكان بأنه لا يستطيع فهمه!

- إنه يسألك كم مضى على وجودك بأمريكا! قالت السيدة هييز وهي تمنح الرجل ابتسامة مؤدبة وكأنما تعتذر له نيابة عن مكفولها!

- إن الطريقة التي يتكلم بها غريبة جداً، ويتكلم بطريقة سريعة جداً وهو يبتلع معظم الكلمة ولا ينطق إلاّ عشرها! أنا لم أتعود على سماع مثل هذا الكلام! قال راكان بغضب ممزوج بالإحباط!

إن راكان يكاد يقسم بأن اللغة التي يتكلمها الرجل ليست الإنجليزية، لأنه لم يستطع أن يفهم كلمة واحدة مع أن مفرداته الإنجليزية ليست قليلة! كان الرجل يتكلم وكأن عفريتاً يركبه أو سعداناً يطارده!

لعلّ الرجل استمتع بالحوار الجاري، وأسعده هذا الارتباك والبلبلة، فألقى على راكان بسؤال آخر اعتذر راكان له بعدم فهمه، فترجمته له السيدة هييز:

- إنه يسأل ما هو اسمك؟! فقال الفتى بسرعة أدهشته هو نفسه وكأنما يحاول أن يقلد الرجل!

- اسمي راكان عبد الله الأحمد العايش العوض الله من عمان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية ولكنني مولود في مدينة السلط حيث...

وهنا سمع راكان الرجل يقاطعه بغضب وعصبية معاً، استطاع الفتى أن يميز كلمة واحدة فقط: "نف نف" كفاية! كفاية! نطقها الرجل

مرتين! وهنا وجه الرجل سؤالاً إلى السيدة هييز لم يفهمه مكفولها وإنما فهم ما قالت كفيلته!

- لقد كان رئيساً للديوان في إحدى أقسام وزارة الدفاع في بلده، ولغته الإنجليزية لا بأس بها كما ترى، ولكنه ليس معتاداً على بعض اللكنات... إنه يفهمني جيداً، وإن عمل هنا فأنا واثقة بأنه سيتعود على كلامك فيفهمه!

سمع راكان الرجل يرطن شيئاً ويدير ظهره له ولكفيلته، وينزل من حيث صعد، ثم لحقت به السيدة هييز بعد أن أشارت إلى مكفولها أن يتبعها. لاحظ راكان أن الطابق الأرضي كان أصغر من الطابق العلوي، وأنه كان يحتوي على مكاتب للموظفين وأماكن لاستراحتهم، وكذلك مستودعات ودورات للمياه!

كان الرجل قد وصل إلى نهاية الدرج قبل أن تصل السيدة هييز وراكان إلى ربعه، وانتظر حتى لحقا به، ثم دفع باباً نصفه الأسفل مغلق، وبقي ممسكاً به حتى دخلا فدخل خلفهما، ثم ترك الباب الذي انغلق من تلقاء نفسه!

أشار الرجل إليهما أن يجلسا إلى حيث كانت هناك طاولة كبيرة موضوعة في وسط الغرفة، محاطة بعدة كراسي خشبية. فتح هو باباً ثم عاد بعد لحظات يحمل أربع أوراق إحداها بيضاء وضعها أمامها على الطاولة وقال جملة قصيرة ثم خرج!

- ماذا قال؟ ! سأل راكان وعيناه تحملقان بالأوراق الأربعة.

- قال بأن تعبئ طلب التوظيف هذا وتجيب على الأسئلة في هاتين الورقتين، وهذه الورقة البيضاء يبدو أنها للاستعمال كمسودة للإجابة! قالت وهي تشير إلى كل من الأوراق الأربعة!

- ما نوع هذا الامتحان؟! سأل راكان بعصبية، إذ إنه ومنذ صغره وهو يكره كلمة امتحان، حتى لو كان الامتحان هو كتابة اسمه!

بعد أن وضعت السيدة هييز نظارة القراءة فوق عينيها وتصفحت ورقتي الامتحان بوجوهها الأربعة، قالت وقد علت وجهها موجة ارتياح وسرور:

- إنها مسائل حسابية!

تأكد راكان الآن بأن لا أمل له أن يعمل في هذا المكان، لأنه كان ضعيفاً بالرياضيات وكان الدرس الوحيد الذي كان يكمل به في نهاية كل عام دراسي، هو درس الرياضيات، فقد كان يكرهه كرهاً لا يوصف، إذ كان يمضي ثلاثة أشهر الصيف، وهي العطلة المدرسية، يدرس حتى يؤدي إكمال الرياضيات وحتى لا يعيد السنة الدراسية ثانية!

خطف الورقة بعصبية ظاهرة من يد السيدة هييز ونظر إليها بعيون زائغة، وبعد أن قرأ المسألة الأولى والثانية والخامسة والعاشرة ابتسم بارتياح وقال:

- سأحل جميع هذه المسائل الحسابية بعشر دقائق؛ إنها كلها مسائل جمع وطرح وضرب وقسمة! قال راكان هذا إلى السيدة هييز التي علت وجهها فرحة كبيرة!

بدأ يجمع ويطرح ويضرب ويقسم مستعملاً الأرقام العربية على ورقة المسودة البيضاء، ثم يكتب الجواب بالأرقام الإنجليزية!

- يا إلهي! إنني لم أر في حياتي كلها من يحسب بهذه السرعة! أعتقد أنك يجب أن تشتغل محاسباً! قالت السيدة هييز وهي تحاول أن تلحق بنظراتها الأرقام التي يخطها راكان على الورق!

لم يقل الممتَحن شيئاً، وإن شعر بالفخر والحماس معاً، واستمر يحل المسائل بحماس منقطع النظير، وبعد أقل من نصف ساعة كان قد انتهى من حلها جميعاً!

كان راكان ماهراً جداً بمسائل الجمع والطرح والضرب والقسمة، إذ إنه أمضى العامين الأولين من حياته في الوظيفة وليس ما يعمله طيلة ساعات العمل إلاّ هذه المهمة!

لم يطل انتظار السيدة هييز ومكفولها حتى أقبل المدير يقفز في مشيته كالعنزة المذعورة، فتناول الأوراق منهما وتفحصها لحوالي دقيقة، ثم أشار إلى راكان أن يتبعه، بعد أن رطن كلمات قليلة!

- اذهب معه يريد أن يتحدث إليك، وسأنتظرك هنا حتى تعود! قالت السيدة هييز!

جلس المدير على مكتبه وطلب إلى راكان أن يجلس قبالته، ومن جديد صار يتفحص أوراق الامتحان وطلب التوظيف، وبعد أقل من

دقيقتين بدأ يتكلم، ولاحظ الشاب أنه كان يتبسط في حديثه ويلفظ الكلمات بأناة، محاولاً أن ينطقها كاملة ولا يبتلع جزءا منها كما فعل في المرة الماضية! ولقد اعتقد صاحبنا، وليس يدري كيف ولا لماذا، أنه فهم كل ما قاله المدير، وأنه كما أعلم السيدة هييز فيما بعد، قد فهم كل حرف نطقه، ولكن راكان علم في اليوم التالي، أنه لم يفهم ولا كلمة واحدة مما قاله المدير له أثناء المقابلة!

إن راكان يقسم أن الأسئلة التي وجهها المدير إليه كانت كما يلي، وأنه فهمها على الشكل التالي:

- هل أتيت كطالب أو كمهاجر؟ سأل المدير ببطء محاولاً أن يكون واضحاً ومفهوماً!

- لقد أتيت في الباخرة وليس بالطائرة، ولكنني أتيت من نيويورك إلى لوس أنجلوس في الحافلة. قال راكان وهو يبتسم بأدب.

- هل عندك فكرة كيف تدار المحال التجارية الضخمة؟

- إنني أعيش في بيت كفيلتي التي رأيتها معي! إنه قريب جداً من هنا!

- نحن محل تجاري، ولكنه شركة مساهمة لها فروع في كل مدينة في جنوب كاليفورنيا!

- إنها سيدة ذات قلب كبير، تحب الناس كثيراً، هي لطيفة ومتدينة جداً وتخاف الله. إنك عندما تعرفها لا تستطيع إلاّ أن تحبها!

- محلاتنا تبيع تقريباً كل ما تحتاجه الأسرة للبيت وللأفراد خارج نطاق الأكل والشرب!

- صحيح إنها تتكلم كثيراً، وهذا سببه أنها تعيش لوحدها!

لاحظ راكان أن ابتسامة خفيفة قد علت وجه المدير!

- هل لك أن تعطيني فكرة عن نوع العمل الذي كنت تعمله قبل مجيئك إلى أمريكا؟!

- كنت مسؤولاً عن حوالي عشرين موظفاً، وبعد أن أوزع الأعمال عليهم، أبدأ في قراءة الجرائد والمجلات والكتب وكذلك شرب الشاي والقهوة! وكذلك التحدث مع الأصدقاء الذين يأتون لقتل الوقت، صدقني يا سيدي إنني كنت أكتب جميع مراسلاتي بالمكتب، بل إنني

كنت كثيراً ما أذهب لقضاء حاجياتي أثناء الدوام الرسمي؛ حتى حلاقة شعري كنت أقوم بها أثناء ساعات العمل!

لاحظ راكان أن المدير يصغي إليه باهتمام مما أسعده فاسترسل:

- كان الزملاء وكذلك الأصدقاء يأتون إلى مكتبي فنقضي جزءا كبيراً من الوقت نتحدث في شتى المواضيع ونتناقش في كثير من المسائل وخصوصاً السياسية منها!

ومرة أخرى لاحظ راكان أن المدير يستمع إليه باهتمام وشغف فاستطرد:

- إنني بطبعي يا سيدي أكره الوظيفة وأعتبرها نوعاً من العبودية! إنها مملة وعلى نمط واحد! عفوك يا سيدي؛ إنني لا أعني الوظيفة في أمريكا. الحالة هنا تختلف كثيراً! إنني عازم على أن أشتغل هنا بجد واجتهاد، وأن أقضي كل ثانية بالعمل الجاد! أريد أن أبدأ هنا حياة جديدة كلها جد واجتهاد!

- نعم! ولكنني أريد فكرة عن نوع العمل الذي كنت تزاوله!

- آه أعذرني! لقد نسيت أن أقول لك بأن سيارة الوزارة كانت تأتي في الصباح، خصيصاً من أجلي لتأخذني إلى الوزارة، وتعيدني إلى بيتي في آخر النهار!

- هل لك خبرة في تكنيس الأرض وتلميعها، وكذلك تنظيف دورة المياه والأبواب والشبابيك؟!

لاحظ راكان أن المدير قد ضرب بيده الطاولة بعصبية، وعلت وجهه موجة من الغضب وقطّب ما بين حاجبيه، فقال:

- إنني أوافقك مائة بالمائة يا سيدي! فإن أنت غضبت لها الآن، فإن لي سنوات وسنوات حزين وأتعذب من أجلها! نعم، نحن نعاني من تخلف حضاري وصناعي، ولكننا سنلحق بأمريكا يوما! صحيح أننا نتقدم ببطء، ولكننا نعمل بجد ونشاط لنتخطى هذا الواقع، وإننا...!

وهنا ازداد غضب المدير، وضرب يده ثانية على الطاولة وقال:

- إنك تتكلم عن أشياء لا يهمني معرفتها، وليس عندي الوقت لسماعها! إننا بحاجة إلى عامل نظافة... كنّاس... وقتاً كاملاً ليعمل ثمانية وأربعين ساعة أسبوعيا... إن عندنا عامل نظافة... ولكنه لا يستطيع أن يقوم بالعمل لوحده... إنه بحاجة إلى مساعد!

لاحظ راكان أن المدير قد دفعه حماسه إلى الحديث عن مشاكل العالم العربية السياسية، لدرجة أنه بدأ يرتعد غضباً على أولئك الحكام والسياسيين الذين يحولون دون تقدم البلاد وإطلاق حرية الشعب، فتأكد للشاب من أن المدير هو من المتتبعين لقضايا العرب والمسلمين، وأنه من الذين يعطفون ويتعاطفون مع شعوبه، فشعر بسرور عظيم وهو يجد شخصاً كهذا المدير، فقال بحماس حاول أن يكون كحماس المدير نفسه!

- إن اليوم الذي سنتخلص به من أولئك الحكام الطغاة المستبدين قريب جداً، وإن شاء الله ستكون البلاد العربية كلها موحدة مثل أمريكا بالضبط! لا شك أنك في متابعتك لأحداث العالم العربي تعرف أن هذا هو رأي ملايين الناس، وليس رأيي...

- إن لغتك الإنجليزية لا بأس بها، فأنا أستطيع أن أفهم كل كلمة تقولها وتعبر عن نفسك جيداً، فلماذا لا تفهمني مع أنني أتكلم ببطء ووضوح؟ سأل المدير.

لاحظ راكان أن المدير قاطعه قبل أن ينتهي من كلامه، فظن أن حماسه قد ذهب به بعيداً، ففكر أن يحاول من تخفيف حدة غضبه وحماسه عندما يتحدث عن مشاكل العالم العربي فقال:

- طبعاً طبعاً! إن هذا يسعدني جداً جداً! حتى إذا لم توظفني في شركتكم! نستطيع أن نتحدث عن هذه القضايا بعد ساعات العمل... في بيتك أو بيت كفيلتي... المكان الذي تختاره أنت! وللمرة الثالثة قاطعه المدير وقد انتصب واقفاً!

- ستكون مساعداً لعامل النظافة، وتعمل ستة أيام في الأسبوع ونعطيك بداية الأجور، وعندما يلتحق هو بجامعته في منتصف الشهر القادم ستكون أنت قد تدربت فتقوم بالعمل لوحدك! فهل تقبل العرض؟

فكر راكان بالعرض الذي قدمه له المدير، وهو أن يكون مساعداً له حتى منتصف الشهر القادم، فإن وجدني نشيطاً وكفؤاً، ولا شك أنه سيجدني؛ لأنني مصمم على أن أفعل ذلك، وأن أبرهن له على مقدرتي وكفاءتي، فسيعينني مديراً مكانه، وسيذهب هو لإكمال دراسته الجامعية! ربما للماجستير أو الدكتوراه!

ابتسم الشاب ابتسامة غبطة ورضاً وقال:

- إنني موافق يا سيدي وبكل سرور، وسأبرهن لك أنني أستحق المنصب الذي أسندته إليّ!

- حظاً سعيداً! سأراك غداً في تمام الساعة الثامنة والنصف صباحاً!

جلس المدير في مقعده ولم يسر مع الموظف الجديد إلى الباب ليودعه، فظن أنه ربما يريد أن يزيل الكلفة والرسميات بينهما من الآن، ولكن راكان لم يرتح لهذا التعليل، فإنه دائماً يودع أصدقاءه إلى الباب مع أنهم أصدقاء لسنوات طويلة! إذن كيف نبرهن لأصدقائنا بأننا بحبهم ونحترمهم؟!

لاحظ راكان في خروجه أن الموظفات الأربعة تطلعن إليه وابتسمن، فرد ابتساماتهن بابتسامة أكثر حرارة وأصدق تعبيراً، فقال لنفسه وهو يفتح الباب ويخرج: "ستعرفن غداً أيتها النسوة كم هو لطيف ومؤدب مديركن الجديد ، وخصوصاً مع الصبايا الفرافير!"

وجد راكان أن كفيلته ما زالت تجلس على نفس المقعد، وأن عينها مسلطتان وترقبان بشوق وقلق الباب الذي دخل هو والمدير منه! قفزت المرأة من مقعدها وقابلته في منتصف الطريق، فلاحظت أن وجهه كان يطفح بالبشر والسرور، وأن ابتسامة كبيرة كانت تعلو شفتيه! وضع الفتى يديه حول كتفيها وضمها إلى صدره وقال وهو يرتجف من الفرح:

- أوه! ماري! ماري! لقد انتهت آلامنا وعذاباتنا، وسنبدأ منذ اليوم حياة كلها سعادة وهناء!

- قل لي، ماذا حدث؟! هل وافق على تعيينك في الشركة؟! سألت المرأة بشوق ممزوج بالقلق.

- نعم! نعم! وسحبها من يدها وبعد أن خرجا إلى الشارع أضاف:

- لقد تعينت مساعداً للمدير! هنئيني!

- تهاني! ولكن هل أنت واثق من أنه وظفّك كمساعد له، وليس عملاً آخر؟ قالتها السيدة هييز بغير حماس وقد فارقت الابتسامة وجهها!

- ألا تصدقينني؟ ! وهل اكتشفت أنني كذبت عليكِ منذ أن عرفتك؟! سألها مكفولها وقد شعر بالإهانة!

- لقد كنت دائماً معي صادقاً، ولكنني أخشى أن لا تكون قد فهمت ما قاله لك!

- اطمئني! لقد فهمت كل كلمة قالها! لقد تكلم ببطء شديد، وكان يلفظ الكلمة كلها، وليس كما فعل عندما كان يتكلم معك ومعي!

- إن الإنسان يحتاج إلى سنوات طويلة كموظف في الشركة قبل أن يصبح مساعداً للمدير، وخصوصاً في هذه المتاجر الفخمة والتي لها فرع أو أكثر في كل مدينة! قالت السيدة هييز!

- لقد نسيت أنني كنت رئيس ديوان في الوطن، وأنني كنت مسؤولاً عن عدد كبير من الموظفين؟!

- إنهم لا يعترفون هنا بالخدمات التي قمت بها في الوطن، وخصوصاً أن تلك الخدمات لم تكن في مجال التجارة! صدقني!

- لا يهمني إن كانوا يعترفون أو لا يعترفون! المهم هو أنه وافق على تعييني مساعداً له!

- دعني أذهب وأسأله! قالت السيدة هييز وهي تحاول أن تحرر يدها من قبضته وتعود إلى الوراء!

كانا قد خرجا من الباب الخارجي، وحالما وطأت أقدامهما رصيف الشارع، شعر راكان أن حرارة الجو تلهب الأجسام وتكتم الأنفاس على الرغم من وجودهما بالظل!

- لماذا تشكين فيما أقول؟ ! سأل الفتى محاولاً أن يكون منطقياً!

- إن ما تقوله من المستحيل أن يحدث! إنني أعرف أمريكا جيداً، وشركة مثل هذه لا تصبح بها مساعداً للمدير قبل أن يمضي عليك مستخدماً في نفس الشركة لا أقل من خمس سنوات! لا شك أنك أسأت فهمه!

- قلت لك لقد فهمت كل كلمة قالها؛ حتى أنه سألني عن بعض مشاكل عالمنا العربي! يظهر أن له اهتماما كبيرا واطلاعا واسعا على ما يجري هناك!

- إنني لا أدري إن كان له إلمام عميق أو قليل، ولكن الذي لا أشك به هو أنك أسأت فهمه! على كل حال ما زلت لا تريدني أن أعود الآن وأسأله، فسأهاتفه من المنزل! قالت ذلك وبدأت طريق العودة إلى البيت!

- أريد أن أقول لك شيئاً، وأرجو أن لا تغضبي، لأنه يؤلمني ويحزنني كثيراً جداً أن أكون سبباً في حزنك أو إيلامك! قال الشاب ذلك وهو يسير إلى جانبها ثم تابع حديثه!

- إنني سأشعر بالإهانة إن كنت هاتفته وسألته! فلماذا لا ننتظر إلى الغد ونرى!

- أوافق على طلبك ولكنني أريد منك وعداً، وهو أن لا تشعر باليأس والإحباط، ولا بخيبة الأمل ، إن كان ما اعتقدت أن ما قاله لك، هو عكس ذلك! وبعد أن التقطت أنفاسها ومسحت بظهر يدها جبينها المبلل بالعرق أضافت:

- ربما هو عيّنك في وظيفة عندهم بالشركة، ولكن ليس كمساعد له! ربما تكون أية وظيفة! أريدك أن لا تغضب حتى لو أنه قال لك أننا آسفون لا شواغر عندنا، كما قال لنا أصحاب الشركات المجاورة!

- أوافق على ذلك! قال راكان وقد شعر بالارتياح العظيم!

*****

أوى راكان إلى فراشه مبكراً، إذ ينتظره يوم طويل وشاق من العمل، ولكن الكرى لم يزر جفنه إلاّ بعد أن تجاوزت الساعة الثالثة صباحاً، فقد كان يفكر بالمستقبل الزاهر الذي ينتظره وبالسعادة الهانئة التي سيحصل عليها، وكذلك المسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتقه، كمساعد لمدير الشركة!

كان يفكر بالسيارة التي سيركبها وبالبيت الذي سيشتريه، والزوجة التي سيتزوجها، والأولاد الذين سينجبهم! كما كان يفكر أيضاً بالطريقة التي سيتعامل بها مع مستخدميه ليكسب محبتهم وليحظى باحترامهم، خصوصاً وجميعهم من النساء! فعلى الرغم من أنه لم ينم إلاّ ساعات قليلة، إلاّ أنه شعر بنشاط عجيب! كما شعر بسعادة لم يشعر بمثلها من قبل!

لقد لاحظ أن كل شيء كان جميلاً، كما كان لتغريد الطيور سحر أكثر مما اعتاد سماعه؛ وكان للصبح جمال وسحر لم يشعر به منذ أن وطأت قدماه أرض أمريكا! إنه حتى وهو يستحم، فلقد شعر بلذة سماوية والماء يسقط فوق جسده، إذ كان صوته وكأنه أنغام موسيقية تسري في أوصاله!

كان يترنم بأغنية عربية عاطفية تصف لقاء حبيبين بعد غياب طويل! لقد كانت كلمات الأغنية تنطبق على وضعه الحاضر تماماً، أليس ذاهبا الآن ليقابل أمانيه وأحلامه التي طالما انتظرها وحرّقه الشوق للقائها؟! أليس هو ذاهبا الآن ليقطف ثمار أول أمنية له تتحقق؟! لقد بدأت حياته الحقيقية هذا اليوم؛ نعم هذا اليوم!

لقد أمضى خمسة وعشرين عاماً يحلم ويتمنى، وها هي اليوم أحلامه وأمانيه تتحقق! لا انكسار ولا تشظي، لا قلق ولا حرمان، لا قهر ولا إحباط بعد اليوم !

- لا بد من أن تأكل ولو قليلاً من الطعام! كأسٌ من الحليب لا تكفيك حتى ساعة الغداء؛ ثم إنك أكلت قليلاً جداً يوم أمس والليلة الماضية! قالت السيدة هييز محاولة إقناع مكفولها بتناول بعض الطعام قبل مغادرته إلى وظيفته الجديدة!

- صدقيني أيتها الغالية إنني أشعر وكأنما أنا قد انتهيت للتو واللحظة من تناول وجبة كبيرة ودسمة! سآكل غداء كبيراً وعشاء أكبر! قال راكان لكفيلته وهو يربت على خدها، وهو في طريقه إلى غرفة نومه، وبدأ يرتدي ملابسه أمام المرآة!

وقفت السيدة هييز مشدوهة وهي تنظر إلى مكفولها غير مصدقة ،أن هذا الواقف أمامها هو راكان نفسه!

- يا للمسيح! إنك حقاً وسيم وساحر! أنا لم أر في حياتي إنساناً أجمل منك ولا أكثر أناقة! إنك تبدو وكأنك ممثل سينما في هوليود! قالت ذلك وهجمت عليه تعانقه وتضمه إلى صدرها! ثم جذبت رأسه إلى أسفل حتى أصبح موازياً لوجهها وأمطرته بقبلات متتالية فوق خديه وعنقه ورأسه وانخرطت تبكي، مما سبب له خجلاً وألماً عظيمين!

- أرجوكِ أن لا تبكي يا عزيزتي! إن دموعك تحرق دمي وتثير في نفسي شتى الأحزان!

- إنني أخشى عليك من الخيبة! قالت وهي تكفكف دموعها!

- لقد أصبت بخيبات أمل وإحباطات كثيرة، وقد انتهى الآن زمن الإحباطات وخيبات الأمل! قال وهو يربت على خدها كأنها ولد صغير تطيّب أمه خاطره!

- فليحرسك المسيح ويرعاك! إذهب على بركة الله! قالت وهي تمسح دموعها بظهر يدها!

- أشكرك يا ماري من أعماق قلبي! إنك امرأة عظيمة! فليباركك الرب ولتحرسك السماء! قال ذلك وقبلها على رأسها وفتح الباب وخرج!

كانت السيدة هييز على حق عندما أعلمت راكان بأنه كان جذاباً وأنيقاً أناقة متميزة! فلقد اعتنى بأناقته وهندامه في هذا اليوم كما لم يعتنِ بها من قبل، حيث أمضى وقتاً طويلاً أمام المرآة يتزين وكأن هذا اليوم هو يوم زفافه!

لقد حلق ذقنه ثلاث مرات وكأنما أراد أن يغير لون جلده، وصفف شعره الأسود الجعدي بعد أن أغرقه بكميات ضخمة من "البريل كريم" فبدأ جذاباً وممتعاً للنظر، وارتدى بذلته البنية الصيفية، وقميصا أبيض منشى الرقبة، كما اختار ربطة عنق من مجموعة ربطات العنق التي أحضرها معه، وأغرق نفسه بكميات ضخمة من الكالونيا الباريسية التي أحضرها معه من الوطن أيضاً، والتي قالت عنها السيدة جيري وهو جالس إلى جانبها، أنها تلهب غرائز الفتاة وتؤجج عواطفها وهي تعانق واضعها!

لقد خيل لراكان وهو ينظر إلى صورته أمام المرآة بأنه ليس هو، وإنما قد تقمص شخصية أسطورية، ذات رجولة خارقة وذات سحر وجاذبية متميزتين!

سار المحظوظ لفترة قصيرة مرفوع الرأس منتصب القامة منفوخ الصدر، تملأ إهابه العظمة والكبرياء، وتعج نفسه بالسعادة والرضا؛ وفجأة بدأ قلبه يدق دقات عالية متواصلة... ثم شعر بأنه متهيب وخائف...!

لا شك أنه متوتر الأعصاب بسبب منصبه الجديد، كمساعد لمدير الشركة... ولكنه كان مسؤولاً في الوطن، عن عدد من الموظفين لا يقل عن عدد هؤلاء الموظفين... لا شك أن السبب هو أنه في الوطن كان مسؤولاً عن رجال فقط، أما هنا، فكما فهم من السيدة هييز، إذ لا شك أنها سألت وهي تنتظره وهو يتحدث مع المدير، بأن عدد الرجال ثلاثة فقط، المدير ومسؤول المخزن وعامل التنظيفات، والثمانية عشر

الأخرون، هنّ نساء! إنه يرهب التحدث مع النساء، بل هو يخاف أن يتحدث إليهن! إنها تربيته الدينية الصارمة؛ تربية الحلال والحرام!

اللعنة! إنه ومنذ أن يتذكر كانوا دائماً يقولون له أن الحديث مع النساء عيب والنظر إليهن حرام، إلاّ محارمه! ثم عاوده بعض الهدوء، إذ إنه سيحاول أن يتجنب الاحتكاك بهن، وأن لا يطلب منهن القيام ببعض الأعمال، إلاّ بعد مضي عدة أيام، عندها يكون قد ألفهن وألفنه! ولقد عاوده بعض هدوئه عندما كان على بعد ياردات قليلة من باب الشركة ورأى شاباً، لعله في العشرين من عمره، يضع على الرصيف، بجانب المدخل، بعض أدوات لقطع الأعشاب وعربات صغيرة لنقل الرمل والأتربة!

اقترب راكان منه وبعد أن حيّاه تحية الصباح سأله إن كان المدخل من هذا الباب الصغير أم من ذلك الباب الكبير؛ فأجابه الشاب دون أن يرد تحيته، ودون أن يرفع رأسه عما كان يفعل:

- هذا الباب الكبير للزبائن، أما ذلك الباب الصغير فهو للموظفين؛ على كل حال يفتح المتجر الساعة التاسعة والنصف، ولا يمكنك الدخول قبل ذلك الوقت! قال الشاب وهو حتى هذه اللحظة لم ينظر إليه.

تقدم راكان من الباب الصغير ليفتحه، ولكن الشاب حال بينه وبين ذلك!

- قلت لك يا سيدي إن هذا الباب هو لدخول الموظفين فقط، وإذا أردت أن تدخل للتسوق فإن باب المتجر سيفتح بعد حوالي ساعة من الآن!

- نعم، إنني أعرف ذلك! أنا موظف هنا، لقد عُينت بالأمس! قال راكان وهو يبتسم والفخر يملأ إهابه!

وهنا توقف الشاب عما كان يعمل ونظر إلى محدثه نظرة تفحص وتمعن، من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، ثم مطّ شفتيه وهزّ رأسه وكتفيه؛ بعدها مد يده إلى راكان وقال:

- اسمي دونالد مويار! أنا مسؤول التنظيفات في هذه الشركة!

- وأنا راكان عبد الله، مساعد المدير الجديد! قال راكان وهو يصافحه!

- آه! إذن أنت عامل التنظيفات الجديد! أنت مساعدي!

نظر إليه راكان بعينين يتطاير منهما الشرر وقال بلهجة غاضبة!

- ماذا تقول؟! راقب ألفاظك!

- إنني لم أقل شيئاً يغضبك يا سيدي! سألتك إن كنت عامل التنظيفات الجديد!

- لا، أنا مساعد المدير الجديد! قال راكان بتحد وعصبية!

- ألست أنت من السعودية العربية؟! لقد أعلمني السيد روبرت بأنه عيّن لي مساعداً، وأنني سأعلمك كيف تقوم بتنظيف عمارة الشركة، حتى عندما أعود إلى جامعتي في منتصف الشهر القادم، تكون أنت قد تدربت لتقوم بالعمل لوحدك! قال الشاب بهدوء وتعقل!

لقد أذهلت المفاجأة راكان بل فقد أفقدته وعيه، وظل يحدق بالشاب بذهول وحيرة لفترة ليست بالقصيرة؛ وأخيراً سأله بخاطر مكسور، وقلب جريح!

- هل أنت متأكد من أنني تعينت هنا كمساعد لعامل التنظيفات وليس كمساعد للمدير؟ ! سأله راكان بصوت منخفض ذليل، وهو يكاد يبكي!

صار الشاب يضحك ويقهقه بصوتٍ عالٍ، وكأنما سمع نكتة أعجبته، وعندما استطاع أن يضبط نفسه، ويمسح بظهر يده سيل الدموع التي تجمعت في عينيه، قال:

- هل تعرف يا "جم"؟ إن لك روحا خفيفة وتجيد النكتة!

وهنا فُتح الباب الصغير وخرج منه رجلٌ تميزه راكان فعرف فيه الرجل الذي تكلم معه بالأمس، ولكنه قبل أن يفتح فمه سبقه الشاب وقال له:

- إنه يدعي بأنك عينته مساعداً لك وليس مساعداً لي! ثم نقر بإصبعه على رأسه عدة مرات وأضاف:

- أعتقد أنه مجنون!

لاحظ راكان أن المدير كان يحملق مشدوهاً بملابسه، ثم نطق شيئاً بسرعة وكأن إنساناً يطارده أو عفريتاً يركبه، لم يفهمه راكان وإنما سأله بصوت المقهور المحبط!

- ألم تعيِّنني أمسِ مساعداً لك؟!

ومرة ثانية قال الرجل شيئاً، سأل راكان الشاب عما قاله!

- إنه يقول بأنه استخدمك مساعداً لي... عامل تنظيفات! هل تفهم؟!

وهنا نظر راكان إلى المدير بذلة وانكسار، وقد شعر أن جميع أمانيه وأحلامه التي بناها قد انهارت أمام عينيه، في لحظة واحدة؛ رآها تنزل في جور امتصاصية، فقال:

- أنا آسف يا سيدي أن أرفض هذا العمل! إنه دون مستواي بكثير! أنا لم آتِ إلى أمريكا، بلد السمن والعسل وتكافؤ الفرص، لأشتغل عامل تنظيفات! ثم أدار ظهره لينصرف، ولكن لشدة عجبه وجد أن السيدة هيبز كانت تقف خلفه، فتقدمت منه ووضعت يدها على صدره لتحول بينه وبين الانصراف، وقالت مخاطبة المدير:

- عندما أعلمني بأنك عينته كمساعد لك، قلت لا بد وأنه أساء فهمك، ولهذا تبعته لأتأكد بنفسي! ثم التفتت إلى راكان وقالت بصوت منخفض ممزوج بالألم:

- ألم أقل لك إنك تحتاج إلى سنوات طويلة في شركة حتى تصبح مساعداً لمديرها؟!

وبعد أن نظر مكفولها إليها نظرة ملتهبة بالاحتقار والاشمئزاز والقرف أيضاً قال:

- ولمَ لمْ تعلميني هذا قبل أن آتي إلى أمريكا؟!

- أعتقد يا عزيزي أنه لا حاجة الآن للمجادلة والعتاب، إذ إنه غير مجدٍ ومضيعة للوقت! أرى أن تقبل هذا العمل لأنه ربما يقود إلى عمل أحسن منه في المستقبل!

وهنا أحس راكان بأن آدميته قد تمرغت بالوحل، وأن كرامته قد سقطت في مجاري المياه العادمة، فاستولى عليه حزن أحسّ أنه قبض على قلبه وظل يعصره حتى كاد يخنقه ! لقد شعر بمغص في معدته تمنى لو أن باستطاعته أن يستفرغ، فالتفت إلى المدير وقال له بغضب ماحق، وكأنما يتحداه ويتحدى السيدة هيبز وجميع سكان أمريكا، بل وكل سكان العالم! وقال له:

- سأقبل أن أكون كنّاساً في بلد الحرية والديمقراطية ، وبلد الإخاء والعدل والمساواة! قال ذلك وخلع جاكيته وربطة عنقه ورماهما إلى السيدة هيبز التي سمعها تقول إلى المدير:

- أرجوك يا سيدي أن تكون لطيفاً معه وتحسن معاملته، لأنه لم يقم بمثل هذا العمل في حياته! كان يعتقد أن الإنسان يستطيع أن يجد العمل الذي يريده وبسهولة!

سمع راكان المدير يقول شيئاً ولكنه لم يفهمه، غير أنه فهم ما ردت به عليه السيدة هيبز:

- إنني أتفق معك يا سيدي من أن الناس خارج أمريكا يظنون أن جميع سكان أمريكا يعيشون كلهم، كما يعيش أبطال الأفلام السينمائية، كل واحد عنده من النقود ما لا يدري ماذا يفعل بها، ولم يدروا بأن هناك الملايين لا يجدون ما يأكلون ويعيشون بالعراء، وأنهم...

قاطعها المدير بعد أن تمتم شيئاً لم يفهمه راكان، ثم التفتت إلى عامل التنظيفات وتمتم أيضاً بكلام لم يفهمه؛ ولكنه سمع عامل التنظيفات يجيبه!

- سأفعل ذلك يا سيدي! سأريه كيف ينظف دورات المياه ويلمع الأرض ويمسح الأبواب والشبابيك!

حاولت السيدة هيبز أن تعتذر لمكفولها عندما عاد ظهراً للغداء، وكانت تبكي بحرارة؛ ولكنه قال لها بحزم ممزوج بالقهر والحدة:

- أقسم لك بالله العظيم، إن عدت إلى ذكر هذا الموضوع، فإنني لن أبقى في بيتك لحظة واحدة ! لا أريدك أن تذكريه ولا حتى أن تشيري إليه من بعيد ولا من قريب! قال البطل المهزوم والأسد الجريح!

وبالفعل فإن السيدة هيبز لم تذكر عمله طيلة الفترة التي قضاها يشتغل عامل تنظيفات في تلك الشركة.

أمضى راكان طيلة ذلك اليوم، وطيلة تلك الليلة، وكذلك الأيام التالية، ودموعه لا تنقطع عن النزول، فكان وهو ينظف دورة المياه ويلمع بلاط الأرض وينظف أبواب وشبابيك الشركة؛ يبكي بصمت المقهور!

كان اليوم الأول لوجود راكان بالعمل هو أقسى يوم مرّ عليه في حياته كلها! إنه لم يشعر خلال السنوات الخمسة والعشرين التي عاشها، أنه أُذلّ وأهين، كما أذلّ وأهين ذلك اليوم! إنه ! كانت حتى مجرد حمل المكنسة وتكنيس الأرض تفقده وعيه وتذهب برشده!

إنه ما كاد يدخل مع عامل التنظيفات دونالد مويار إلى داخل الشركة ويهبطان الدرج، حتى دخلا غرفة صغيرة بها جميع أدوات التكنيس والمسح والتلميع! ناوله الشاب مكنسة طويلة العصا مصنوعة من الشعر ودلواً فارغاً، وحمل هو مثلهما وتسلقا الدرج، وفي أرض الطابق الثاني بسط الشاب المكنسة على الأرض عند بدء الحائط وبقي يدفعها حتى الحائط الثاني، ثم ترك ما جمعه من القاذورات قرب الحائط وانحرف بالمكنسة ودفعها أمامه محاذياً للخط الأول، وبقي سائراً ومساعده يسير خلفه حتى وصلا إلى الحائط الثاني، بعدها نظر إلى راكان وقال له:

- اعمل هكذا بين الفاترينات، وسأعمل مثله وابدأ من الجانب الآخر حتى نلتقي في منتصف أرض المخزن؛ نجمع بعدها القاذورات ونضعها في برميل القمامة! حاول أن تكون سريعاً، إذ يجب أن ننتهي من التنظيف قبل التاسعة والنصف، وقت فتح المخزن أبوابه للزبائن!

هزّ عامل التنظيفات الجديد رأسه علامة الموافقة، ووجد أول الأمر، أن العمل سهلاً، ولكن ما كادت تمضي الخمس دقائق الأولى حتى شعر بأن التعب بدأ يستحل جسمه، وأن عرقه قد بدأ ينزل بغزارة من ذقنه ويسقط على الأرض ، وقميصه الأبيض ذا القبة المنشاة، والمفصّل خصيصاً له عند الخياط، قد أصبح وكأنه غُطّس بالماء! وعندما تقابل مع رفيق دربه في منتصف أرض المخزن، شعر بأنه لا يستطيع أن يخطو خطوة أخرى، ولكنه تحامل على نفسه وجمع كل ما تراكم من القاذورات ووضعها في البرميل!

- خذ البرميلين والمكنستين وقابلني في الدور الأرضي! قال الشاب ذلك وانصرف مسرع الخطى!

نفذّ راكان ما طلبه دونالد منه، ولأول مرة لاحظ أنه كان في المخزن أناس غيرهما! لقد رأى كثيراً من النسوة منتشرات فوق كل أرض المخزن! إنه لم يدر إن كن صغيرات السن أو كبيرات، أو أنهن جميلات أو قبيحات؛ كان دائماً ينظر إلى الأرض ويحاول أن يخفي

وجهه حتى لا يرينه! لقد كن يرتبن البضائع ويضعنها على رفوف معدة لذلك، أو يعلقنها على علاقات مسنودة أمامهن!

ناول دونالد مساعده دلواً مملوءا بالماء والصابون وعصاة طويلة بطرفها خرقة الخيش، وحمل هو بعض قوارير وعلب المنظفات وسارا باتجاه دورة المياه للسيدات فقرع الباب، ولما لم يسمع جواباً دخل وتبعه راكان، وبسرعة البرق خطف من يد مساعده الممسحة وغطسها بالماء وفرك الأرض للحظات ثم طلب إلى راكان أن يعمل مثله حتى يقوم بفرك الأرض كاملة، وعمل راكان ما طلب منه ولكن ليس بالسرعة التي عمل بها دونالد، فطلب إليه الشاب أن يسرع وإلاّ فإنهما لن يستطيعا الانتهاء في الوقت المحدد!

حاول الكنّاس الجديد أن يكون سريعاً ولكنه لم يستطع، إذ شعر وكأنما هو على وشك السقوط، فقد صارت الممسحة تذهب ذات اليمين وذات الشمال، ووابل من عرق ساخن يتساقط من جديد! في هذا الوقت كان دونالد ينظف المغاسل ويلمّع المرآة الكبيرة الملصقة على الحائط!

- وهل بقي علينا شيء؟ أشعر أنني أكاد أسقط من الإرهاق! سأل راكان رفيقه بإحباط وقهر ممزوج بالمذلة والضعف!

- نعم؛ بقي الشيء الكثير! أجاب الشاب دون أن يحوّل بصره عن النظر إلى المرآة!

- أليس لنا فترة استراحة؟

- نعم، ولكنها بعد الظهر! عشرون دقيقة!

احتدمت عواطف راكان وأوشك أن ينفجر بالبكاء، ولكنه ضبط ثورته وخجل من رجولته وتابع فرك الأرض ليزيل ما عليها من البقع وقد امتزجت دموعه المنسكبة بصمت مع قاذورات الأرض!

- الآن استعمل هذا الورق الخشن مع هذا المسحوق الأبيض ونظّف حجارة المراحيض! قال الشاب بعد أن انتهى راكان من تنظيف أرض المراحيض!

انتقلا إلى دورة مياه الرجال وقاما بتنظيفها كما فعلا بدورة مياه السيدات!

لاحظ راكان أن دونالد قد غيّر أسلوب عمله، فبعد أن كان يعمل بسرعة وهمّة عاليتين، بدأ يتباطأ ويقوم بأسهل الأعمال، تاركاً لمساعده

أن يقوم بأصعبها، كما إنه قد صار آمراً أكثر مما هو عاملاً! إنه بعد أن يريه ما يجب أن يقوم بتنظيفه، فإنه يقف متفرجاً، طالباً من راكان أن ينظف هذه البقعة وأن يمسح ذلك الغبار دون أن يساعده، بل استمر في الطلب إليه أن يسرع فيما يعمله!

- بقي عليّ أن أريك كيف تكنس المكاتب وتمسح الغبار عن أثاثها!

- ولكن الموظفات الأربع في مكاتبهن الآن، فكيف نقوم بتكنيس الأرض ومسح الغبار عن الأثاث؟ ألا يزعجهن ذلك؟ سأل راكان محتجاً!

- اطمئن! إنني أفعل ذلك كل يوم، ولم تعارض أي منهن! يجب أن تقوم بالعملية بطريقة لطيفة وحذرة حتى لا تتسخ ملابسهن! قال وهو يهز رأسه، ثم أردف:

- أسرع! يجب أن ننهي المهمة قبل نزول السيد روبرت إلى مكتبه؛ ثم أضاف بعد أن نظر إلى ساعة يده:

- الساعة الآن التاسعة والنصف تماماً، فمن المفروض أنه الآن يفكّ أقفال الأبواب ويفتحها، ثم يرحب بالزبائن المنتظرين خلف الأبواب!

إن هذا أكثر مما تحتمله كرامة راكان وكبرياءه! يكنس الأرض أمام نساء؟! يا للعار! أين الشهامة والرجولة؟! فكر أن يرمي بالمكنسة ويعود إلى البيت حتى دون أن يعلمهم أنه ترك العمل، ولكنه استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، واتجه مع زميله إلى المكاتب يحمل المكنسة الطويلة ودلو الماء!

إن راكان يقسم بأنه لم ير أيّا من وجوه النسوة، طيلة وجوده في المكتب، وأن كل ما رآه هو سيقانهن وأرجلهن وهي تتنقل، فقد كان محدقاً بالأرض ، وكأنما عيناه كانتا مشدودتين إلى أسفل!

- الدور الآن لتنظيف غرفة استراحة الموظفين!

- هل ذلك نهاية عملنا اليوم؟ سأل راكان بشوق وقلق معاً!

- طبعاً لا. نكنس الدرج، ثم ننظف الغبار عن الدرابزين، نصعد إلى الطابق الثاني ونفرغ سلال المهملات المتواجدة في جميع الأقسام ونفرغها بالحاويات المتواجدة خلف البناء، ثم نذهب بعد ذلك إلى"

هيوارد "، مدير المخزن، ونأخذ ما يعطينا إياه من الكراتين ونوصله إلى البائعات، وقد يطلبن منا أن نساعدهن في إخراج البضائع من الكراتين وتكديسها على الرفوف، ليقمن هن بعرضها للزبائن، ثم نجمع الكراتين الفارغة ونأخذها إلى الحاويات خلف العمارة! نأخذ بعد ذلك من غرفة معدات التنظيف الممسحة ونمسح الأرض جيداً أمام قسم الحلويات ثم أمام نافورة المياه! أفعل ذلك كل ساعتين! لا تنس أنه مهم جداً!

- كيف كنت تقوم بهذا العمل كله لوحدك؟! سأل راكان!

- لقد قلت هذا إلى السيد روبرت مرات كثيرة، ولكن جوابه كان دائماً هو أنه لا ميزانية إلاّ لعامل تنظيفات واحد! ولولا أنني سأترك العمل بعد أسبوعين لما كان قد عيّنك!

- وهل تعتقد أنني بعد ذهابك أستطيع أن أقوم بالعمل لوحدي؟ !سأل راكان باهتمام وقلق!

- طبعاً! طبعاً! ولكن يجب أن تقضي الثماني ساعات بعمل متواصل وسريع، وأن لا تضيع دقيقة لا تعمل بها! فقط تعلم السرعة! السرعة مهمة جداً! السرعة هي نبض الحياة في أمريكا! قال وهو يمط شفتيه ويهز رأسه!

- كم صار لك بهذه الوظيفة؟!

- شهران ونصف... منذ بدء العطلة الدراسية! أنا أشتغل ثلاثة أشهر الصيف وأوفر كل رواتبي لأدفعها أقساطاً جامعية!

- وأنا سأفعل ذلك في المستقبل، إن شاء الله! قال راكان مخاطباً نفسه.

- سأكتفي اليوم بتعلمك هذا القدر، وسأريك غداً كيف ننظف الأبواب وفاترينات البضائع المعروضة!

- وهل تعني الزجاج الذي على الشارع؟! ننظفه أمام الناس؟! سأل راكان باندهاش وقلق.

- لا أفهم! ماذا تعني أمام الناس؟ وهل ذلك عار؟ ! قال رفيقه وقد تبدلت سحنته!

- لا... لا... أعني.. أعني... نوسخ ملابس المارين، فيغضبوا منا! قال راكان مرتبكاً.

- يجب أن تكون حريصاً جداً جداً، وإلاّ فإن السيد روبرت سيطردك وتخسر وظيفتك! على كل حال هناك مهمات كثيرة لم أخبرك عنها بعد؛ سأفعل ذلك غداً وبعد غد، وبعد ذلك ستكون لوحدك، لأنني في بداية الأسبوع القادم سأساعد هيوارد في المخزن حتى يوم تركي العمل!

عندما ذهب راكان لتناول طعام الغداء شعر كأن المسافة بين الشركة وبين منزل كفيلته خمسة أميال وليست خمس دقائق سيراً على الأ قدام! كانت كفتا رجليه متورمتين، وكانت ساقاه خائرتين لا تقويان على حمله! لقد كان كل عضو في جسمه يشكو جبروت القدر وظلم الحياة !

كان يسير كالسلحفاة ، وكأنما كان يزحف على بطنه وليس يمشي على قدميه!

"أين الشهامة وأين الرجولة؟! أين الكبرياء وأين الأنفة؟! أين التفاخر وأين الاعتداد بالنفس؟! راكان ابن الحسب والنسب؛ ابن الرجل الذي دفع مهر زوجته وزنها ذهباً؛ ابن شيخ قبيلته وأحد وجهاء مدينته المميزين، والذي حقوله ومزارعه وكرومه وبيته تعجّ بالعاملين والخدم؛ رجالاً ونساءً؛ ينظف حمامات ومراحيض شواذّ وساقطات أمريكا! يا لمهازل الحياة وسخريات القدر!"

أعلمت الجدة فلحاء حفيدها راكان بأن والده قد دفع مهر والدته وزنها ذهباً، وكان وقتها عمره ثماني سنوات، سأل الغلام أن كان والده قد وضع والدته في كفة الميزان ووضع الذهب في الكفة الأخرى حتى تعادلت الكفتان؛ ضحكت العجوز حتى كادت تستلقي على ظهرها وقالت:

- لا يا عزيزي! لقد دفع كميات كبيرة من ليرات الذهب، حتى لكثرة ما دفع انتشر الخبر في المدينة بأن عبد الله أبو جوهر قد دفع مهر زوجته وزنها ذهباً!

عندما فتحت له السيدة هييز الباب نظر إليها بعينين متقدتين تقدحان شرراً ويتطاير منهما لهيب كأنه شواظ من جهنم! عينان ترسلان محيطات من الحقد والكراهية والاحتقار لها ولأمريكا كلها، وللحرية والديمقراطية، وكذلك إلى الإخاء والمساواة، بل احتقاراً ومقتاً

للعالم كله! وعندما همت بفتح فمها سبقها وقال لها وهو يصرّ على أسنانه:

- إنني لا أريد أن أسمع كلمة واحدة! ثم قطّب وجهه وعقد ما بين حاجبيه وأضاف:

- هل تريدين أن تقولي لي بأنك آسفة؟ إنني أكره الشفقة وأحتقر أصحابها! ثم دخل وألقى بنفسه فوق المقعد الطويل.

تقدمت السيدة هييز لتساعده على خلع حذائه، ولكنه أبعد قدميه عنها وخلعهما هو، ثم نهض وسار متثاقلاً نحو الحمام، وترك الماء البارد يجري فوقهما لفترة ليست بالقصيرة، وعندما عاد وجد أن المرأة قد وضعت على الطاولة شطيرة من شرائح اللحم المبرد وصحناً من شوربة الدجاج بالشعيرية وكأساً من الحليب المثلوج، تناوله بصمت، ثم عاد إلى عمله.

لم ير راكان من وجوه زملائه في الشركة سوى وجوه الرجال الثلاثة، مدير الشركة، مدير المستودع وزميله دونالد! إنه لم ينظر إلى وجه واحدة من زميلاته في الشركة، ولا إلى وجه زبونة من الزبائن! كان دائماً ينظر إلى الأرض ولا تتحول عيناه عن الشيء الذي يحمله، المكنسة... الممسحة... دلو الماء... عربة المهملات أو العربة التي يوصل بها البضائع إلى الأقسام! كان يعتقد أن جميع الذين يرونه ينظرون إليه باحتقار ودونية بسبب وظيفته الوضيعة! وكان يخيل إليه أن جميع العيون ترقبه، فكان يتمنى، في كثير من الأحايين، لو أن الأرض تفتح تحت قدميه فتبتلعه!

عندما أعلمه زميله في الساعة الثالثة والنصف، أن موعد استراحته قد حان، ذهب إلى الحمام وأغلق بابه عليه وجلس، بملابسه فوق الحجر ووضع رأسه بين يديه، وبدأ يبكي! وبقي يبكي، بصمت حتى انقضت العشرون دقيقة، خرج بعدها وغسل وجهه وعاد لمزوالة عمله! كان يبكي أحلامه... يبكي طموحاته... يبكي شبابه... يبكي آماله الضائعة!

عندما غادر راكان الشركة بعد السادسة بدقائق، كان يحسّ بأنه يدبّ على عكازتين صنعتا من الخشب، وليس على قدمين خلقتا من دم ولحم! وعندما رأته كفيلته مقبلاً من بعيد، يسير ببطء شديد، وكانت تجلس أمام البيت، أسرعت لمقابلته وأمسكت بيده ترحب به!

لقد لاحظ أن علامات الحزن الشديد تغطي وجهها، وأن آثار الأسف العميق تبدو في عينيها! شعر في تلك اللحظة بحزن شديد وحب جارف لها، وأحسّ بندم مرير لكرهه لها واحتقاره إياها! لا شك أنها تتألم لألمه وتتوجع لخيبة آماله؛ ولكن ما باليد حيلة!

بعد أن أجلسته على الكرسي أمام البيت، دخلت هي إلى الداخل، ووصل إلى أذنيه صوت سقوط الماء في الحوض، وعندما عادت أعلمته بعد أن فكّت رباط حذائه، وقادته من يده إلى الداخل، بأن بعضاً من الوقت يمضيه مستلقياً في الماء الساخن كفيل بإزالة كل ما يشعر به من تعب وآلام في القدمين! ولما لم يمانع في انقياده لها، ولم يفتح فمه بكلمة قالت:

- إنني لا أدري ماذا أقول لك! إنني حزينة جداً جداً، لأن الحياة هنا قد خيّبت آمالك وأمانيك! أنا أعرف أنك عشت حياة رافهة في وطنك، وأنك لم تتعود على القيام بمثل هذا العمل! أرجوك أن لا تحزن وأن لا تكرهني! إنني أحببتك اليوم أضعاف ما كنت قد أحببتك سابقاً! إنني أحترمك وأقدّرك الآن أضعاف ما كنت أفعل سابقاً! لقد كبرت في عيني حتى وصلت قمة الشموخ! صدّقني! إنني واثقة من أن كل شيء سيتحسن، وأن المسيح لن يتخلى عنك وسيساعدك! قالت بذلة ظاهرة وانكسار شديدين!

- إذا سمحتِ! أنا لا أحب أن أتكلم في هذا الموضوع إطلاقاً، وليس في نيتي أن أذهب إلى العمل غداً! قال راكان بجزم قاطع!

- كما تشاء! سأقوم لأجهز العشاء!

تناول كلاهما طعامه دون أن ينبس ببنت شفة، وعندما انتهيا استأذن هو ودخل غرفة نومه، فقد كان بالكاد يفتح عينيه لشدة الإرهاق! وبعد أن أطفأ الأنوار ووضع نفسه في الفراش وصل إلى أذنيه صوت كفيلته يقول بصوت ضعيف ونبرة تقطر ألماً وحزناً:

- الأمر عائد لك؛ ولكنني أتمنى لو تستمر في العمل حتى نهاية الأسبوع!

*****

كان اليوم الثاني أقسى كثيراً من اليوم الأول على عامل التنظيفات الجديد جسمياً وعاطفياً، إذ إنه بعد أن انتهى من تنظيف داخل الشركة،

حمل دلواً به ماء ممزوج بسائل الصابون وبعض الخرق وتبع رئيسه إلى الخارج؛ والذي انصرف بعد أن أراه كيف يغسل وينظف الزجاج الذي على الشارع! لقد شعر بخزي وعار شديدين، حتى أنه تمنى لنفسه الموت العاجل!

لقد كان يقوم بعملية التنظيف في الداخل وعدد قليل من الناس يرونه، أما هنا فهو يعمل في الخارج وأمام جميع الناس، وكل من يمر على الرصيف أو يعبر الشارع يراه! فعلى الرغم من أنه لم يحول عينيه عن دلو الماء وخرق التنظيف، إلاّ أنه تصور بأن جميع المارين على هذا الرصيف والرصيف المقابل، وكذلك الذي يعبرون الشارع بسياراتهم، فإنهم جميعاً ينظرون إليه، إما مشفق عليه وإما ساخر منه! بدأ الغضب يغلي في داخله، فأحس أن دمه يكاد يحرق شرايينه!

"إنك غبي وأحمق! إن أحداً لم يرغمك على قبول هذا العمل! لقد قبلته طائعاً! أين كبرياؤك وأين كرامتك؟ إنهما تتمرغان بالوحل! هل أتيت إلى أمريكا لتزاول أحقر وأحط مهنة في بلدك؟ ماذا؟ عامل تنظيفات؟ تكنس الأرض وتمسح البلاط وتنظف المراحيض؟ يا للهول؟ لقد كان تحت أمرتك ثلاثة كناسين، يهرعون إليك مسرعين حالما يسمعون جرس مكتبك! لقد كانوا أحسن حالاً منك الآن، إذ إن ثلاثتهم مجتمعين لم يكونوا يقومون بربع ما تقوم بعمله أنت الآن!"

"لقد كانوا يقضون معظم ساعات الدوام يتسامرون ويشربون القهوة والشاي والمرطبات، أما أنت، المتعلم والمثقف وابن العائلة العريقة، فإنك تقضي طيلة ساعات العمل تمسح الأرض وتنظف المراحيض! لم لا تترك كل شيء في مكانه وتعود إلى بيت كفيلتك، ودون حتى أن تخبرهم في الشركة أنك تركت العمل؟! لم أنت متردد؟! وهل تخشى أن تعيّرك السيدة هييز وأقاربها وجيرانها بأنك لم تستطع أن تمكث في العمل يومين كاملين؟! وهل تخشى على كرامتك وكبريائك؟! ألا تعرف بأنه لم يعد لك لا كرامة ولا كبرياء بعد أن قبلت هذه الوظيفة الحقيرة؟!"

- ماذا تعمل؟!

ظن راكان أن الصوت الذي سمعه قد جاء من داخل نفسه، وإن شعر أن الصوت الذي سمعه يختلف عن الأصوات التي كان يحدث نفسه بها!

- قل لي ماذا تفعل؟!

تلفت إلى شماله فلم ير أحداً قريباً منه، ثم إلى يمينه فرآها واقفة إلى جانبه رأسها لم يصل إلى وسطه، تنقل طرفها بين الخرقة التي ينظف بها الزجاج وبين وجهه!

أحس وكأنما كان يحلم وأنه أفاق من حلمه، فتطلع إليها فاعتراه شيء من الرهبة الممزوجة بالصوفية! لقد اعتراه ما يعتري العابد عندما تلامس روحه نفحة من الجمال المطلق!

كانت في الرابعة أو الخامسة من عمرها، وكان شعرها الذهبي مرسلاً فوق كتفيها في إهمال مستحب، وكانت ترتدي فستاناً شفافاً من الستان الأبيض يصل إلى فوق ركبتيها، وفي قدميها صندل أحمر مشبّك! كانت تعلو شفتيها ابتسامة هي الطهارة والبراءة مجسمتين! تطلع الشاب في عينيها الزرقاوين الصافيتين وابتسم، ولم يقل شيئاً.

- ألا تريد أن تكلمني؟! قالتها شبه عاتبة وبنغمة حزينة مخذولة!

- نعم، إنني أريد أن أتكلم معك! قالها الشاب مدافعاً بحماس وكأنما يحاول أن ينفي تهمة باطلة ألصقت به!

- إذن، قل لي ماذا تفعل؟!

- أنظف زجاج الشبابيك!

- ولِم؟!

احتار ماذا يجيبها، وبعد أن فكر قليلاً قال:

- لأن دونالد طلب إليّ أن أفعل ذلك!

- ومن هو دونالد هذا؟

- هو عامل التنظيفات الآخر!

- ولم لا يفعلها هو؟

ارتبك الفتى واحتار بماذا يجيبها، وأخيراً قال:

- لأنه ترقى!

- ولم لا تترقى أنت؟!

- لأنني حديث في هذه الوظيفة!

- إذن، متى ستترقى؟!

- ربما بعد عام!قالها الفتى دون تفكير، وفجأة شعر بانقباض في قلبه وبحزن شديد يستولي على روحه لمجرد ذكره العام! وهل سيقضي عاماً كاملاً في هذا العمل، وهو يفكر أن يتركه هذا اليوم!

- ما هو اسمك؟!

أعاده سؤال الصغيرة من أحلامه فأجاب:

- راكان! اسمي راكان!

- اسم غريب! ولماذا تتكلم بطريقة غريبة؟!

- لأنني لست أمريكياً!

- ولم لا؟!

- لأن الذي يتحكم في مصائر الكون أراد هكذا! قالها بغضب لاهب!

- ومن هو؟!

- الذي يسمونه الله!

- ألا تعتقد بالله؟ قالها صوت أنثوي ناضج!

تطلع راكان إلى حيث مصدر الصوت فرأى امرأة تقف غير بعيدة عن الصغيرة، فاحمرت وجنتاه خجلاً وارتبك ولم يدر ما يقول، ورمى برأسه إلى الأرض وشعر وكأن ناراً تحرق أذنيه!

- ماما! ماما! إنه يتكلم كلاماً غريباً، ليس كما يتكلم والدي! قالت الصغيرة تخاطب أمها.

- لقد أخبرك بأنه لم يولد هنا. إنه غريب!

- ولم؟! سألت الصغيرة.

- لأن أهله ليسوا معه.

- ولم لا يحضرهم معه؟! ألا يشتاق لأمه؟

وهنا اجتاحت الغريب موجة من العواطف الجياشة، إذ شعر بشوق عارم وحنين جارف لوالدته ولأخواته وإخوانه وإلى الوطن وكل أهله، فتمنى لو أنه يستطيع أن يبكي!

- إنك تسألين كثيرا يا شيرين! من الأحسن أن تسكتي! قالت الأم لابنتها بلهجة تأنيب، إذ لعلها شعرت بالتبدل الذي طرأ على وجه الشاب!

- أرجوك لا تؤاخذها! إنها تحب أن تسأل عن كل شيء تراه! قالت الأم معتذرة.

- هكذا شأن جميع الصغار! قال الغريب بخجل.

- هل أنت من جنوب أمريكا؟! أم أنت من إيطاليا أو اليونان؟!

- لا، أنا عربي! من الشرق الأوسط!

فتحت المرأة فاها دهشة وجحظت عيناها استغراباً:

- أحقاً ما تقول؟!

هزّ راكان رأسه عدة مرات علامة الموافقة!

- إنه لشيء ممتع جداً! أنا لم أر في حياتي عربياً وجهاً لوجه!

- إنك ترين الآن! قال الشاب بغير حماس!

- لقد فكرت أن العرب سمرٌ ويرتدون عمائم! قالت ذلك وأشارت بيديها إلى رأسها وكأنما تعمل عمامة!

- آسف إن كنت قد خيبت ظنك! قال راكان بسخرية لاذعة.

- لا، أبداً! إنك لم تخيب ظني؛ ولكني فقط استغربت!

لم يقل الشاب شيئاً وإن كان يتكلم معها ورأسه مطرق إلى الأرض!

- هل لك مدة طويلة تشتغل هنا؟!

- لقد بدأت العمل يوم أمس، وهذا ثاني يوم لي.

- وهل تحب عملك؟!

لزم راكان الصمت، ولم يجب على سؤالها.

- اسمع! هل عندك مانع من أن تتعرف على زوجي؟ !إنه لا شك يحب أن يقابلك! إن عندنا محل لتجليد الكتب. سنأتي يوم السبت القادم ندعوك إلى بيتنا للعشاء، ونأخذك معنا إلى الكنيسة في المساء ، إن أحببت!

-لا مانع! إنني أحب ذلك!

فرح راكان لدعوة العشاء، وإن لم يهتم كثيراً بدعوته إلى الكنيسة.

- إنك ستشتغل يوم السبت القادم، أليس كذلك؟

هزّ الشاب رأسه وهو مازال يحدق بالأرض.

- هل قلت لشيرين أن اسمك جميد؟!- اسمي راكان... راكان! قالها وهو يبتسم متذكراً أكلة المنسف!

- اسمي مادلن! قالت ذلك ومدّت يدها لمصافحته.

- سآتي يوم الجمعة للتسوق، وسأسأل عنك ونحدد مكان لقائنا. ستأتي شيرين وأنا وقد يأتي زوجي معنا! إلى اللقاء! لطيف مقابلتك! قالت ذلك وانصرفت.

انتهت

وست وود فلج – كاليفورنيا

للمؤلف

1- في بلاد السمن والعسل — رواية
2- تيه البروفيسور دهشان — رواية
3- فبكت وبكيت — رواية
4- كريستينا ... الحب المُحرّم ! — رواية

باللغة الإنجليزية:

✓ Beads of Memory	Triology
✓ August Rain	Novel
✓ The Sucide of my Taboos (or) Elizabeth!	Novel
✓ Celeste… A Teardrop on the Cheek of Destiny!	Novel

*****

للتواصل مع المؤلف على البريد الإلكتروني:
majidabujohar@yahoo.com